جامعة الدول العربية

معهد الدراسات العربية العالية

الحركة الأدبية والفكرية

في

تونس

محاضرات

ألقاها

الشيخ

محمد الفاضل ابن عاشور

[على طلبة قسم الدراسات الأدبية واللغوية]

١٩٥٥

١٩٥٦

المحاضرة الأولى

صدمة الاحتلال

١٣٠٠ — ١٣١٤

في شهر جمادى الأولى سنة ١٢٩٨ ، الموافق شهر ماى سنة ١٨٨١ ، نزلت الجيوش الفرنسية بتراب المملكة التونسية ، وتقدمت من ثلاث نقط : بين الحدود البرية ، والثغور البحرية ، تكتسح البلاد حتى احتلتها ، وفرضت عليها وضعاً استعمارياً جديداً ، هو وضع « الحماية » ، وخلصتْ البلاد ، بعد حروب ومصارعات عنيفة ، لحكم أجنبي : ضاعت به سيادتها القومية ، وتغيرت مظاهر حياتها تغيراً جملياً . وأن بلاداً اكتسحتها القوات الأجنبية ، فنفرت وقاومت ، حتى غُلبت على أمرها ثم خضعت ، لحكم جديد ، غريب عنها ، بغيض لها . قد اصطبغ بشعور القهر المسلط على الدولة والمجتمع ، والداخل على نفوس الأفراد بإحساس الحقد والبغضاء ، لجديرة بأن تعتبر تلك النكبة التي أصابتها مبدأ لتاريخ جديد في حياتها .

وكذلك كان أثر الاحتلال الفرنسي لتونس ، في تكوين تاريخ القرن الرابع عشر . تناول نواحي من حياة البلاد فهدم معالمها ، وسد منابعها ، وتناول نواحي أخرى ، فغير أوجهها ، وحول مجاريها ، لا غير . ومن هذه النواحي التي اقتصر الأمر فيها على تغيير وتحويل ، كانت الناحية التي هي موضوع دراساتنا : ناحية الحياة الفكرية والأدبية ، فلم يكن الاحتلال الفرنسي ، فيها عاملا على تكوين تيار جديد ، بل نزل على تيار كان سيله مندفعاً من قبل . فأدخل عليه طوراً جديداً في حركته ومجراه .

وليس شأن الاحتلال الفرنسي لتونس ، شأن الاحتلال الفرنسي لمصر ، في أوائل القرن الثالث عشر ، إذ اعتبره المؤرخون مفاجأة ، فتحت في حياة

الشرق تيارات كانت عنها بمعزل ، بل وما كان شأن الاحتلال الفرنسى لتونس ، شأن الاحتلال الانكليزى ، لمصر ، الذى اقترن به اقترانا زمنياً ، إذ لم يكن شيء من مقدمات الاحتلال الانكليزى ، قد ظهر فى داخل البلاد المصرية ، ومس حياة الدولة ، وحياة الأمة ، وإنما تهيأت مقدماته ، وتكونت أسبابه ، فى مجال خارجى ، هو مجال الحياة الدولية العامة ، من المسألة الشرقية ، وسيادة البحار ، وحماية طريق الهند وشبهها .

وعلى العكس من هذين الاحتلالين ، الذين فاجآ الحياة المصرية مرتين ، فى أول القرن الثالث عشر وآخره ، كان الاحتلال الفرنسى لتونس ، على فداحته وبعد أثره ملموسة مقدماته فى صميم الحياة الداخلية للبلاد ، فلم ينزل بها نزول الطارئ المفاجئ ، بل نزل بها نزول الأمر المتوقع ، والكارثة المنتظرة ، فكان تأثر النفسية الشعبية به ، حاصلا قبل حدوثه وبعده ، إلا أن لون ذلك التأثر قد اختلف عن نفسه باختلاف الطورين إذ انتقل من الشعور بالأمر المتوقع إلى الشعور بالأمر الواقع . وعلى هذه النسبة ، كان تأثر ما هو تابع للحياة النفسية ، من الحياة الفكرية والأدبية التى يهمنا أمرها فاتصلت بها المقدمات السابقة للاحتلال الفرنسى حتى كانت باعثاً على تكوين حركة نهضة فكرية وأدبية ، على مثال النهضات التى تكونت فى البلاد الشرقية الإسلامية ، من توقع الكارثة والحرص على اتقائها ، ولا سيما ما كان من تلك البلاد داخلا ضمن السلطنة العثمانية .

وإذا نحن تجاوزنا الأطوار الأولى لمظاهر الاحتكاك بين الشرق والغرب وهى الأطوار المنحدرة من استفحال خطر الامتيازات القنصلية ، وتولد المسألة الشرقية ، وانتهينا إلى طور احتلال فرنسا للجزائر سنة ١٢٤٦ — ١٨٣٠ فى عهد أمير تونس ، حسين الثانى ، تبين لنا أن البلاد التونسية ، قد دخلت منذ احتلال الفرنسيين لجارتها وشقيقتها ، فى طور جديد من الاتصال بالحياة الغربية وخاصة منها الفرنسية ، كان مؤلما ، وثيقاً ، ثقيل المظهر . بعيد الأثر .

فإنه من المعلوم أن احتلال فرنسا للجزائر قد كان حدثا محوطا بإطار أسود محزن من الأحداث الناطقة بتضاؤل شأن الشرق الفاتر ، أمام صولة الغرب الناهض ، وأن ذلك الإطار الأسود ، قد كان واسع الامتداد ، فى أرجاء العالم الإسلامى ، مشيعاً فيه الشعور بأن الدولة العثمانية ، التى هى مناط أمل المسلمين قاطبة . قد دخلت فى دور « الرجل العليل » وكان سواد تلك الأحزان ، بالغاً من النفسية التونسية أشد مبلغ ، أظلم المصير أمام عينيها فالقوة العسكرية . التى دامت قرونا تمثل عزة الخلافة العثمانية ، وهى قوة الانكشاريه ، قد منيت بالخيبة والتقهقر ؛ حتى انهارت واضمحلت سنة ١٢٤٣ — ١٨٢٧ .

والأسطول العثمانى كان قد نكب ، نكبته الساحقة الماحقة ، فى وقعة ناورين ، سنة ١٢٤٣ — ١٨٢٧ ، ومعه الأسطول التونسى ؛ الذى شارك فى تلك المسحقة ، مع جملة أساطيل الممالك التابعة للسلطنة ؛ كما شارك الأسطول المصرى .

ونظام الحكم فى البلاد التونسية . الذى كان مؤسساً على النظام العسكرى الانكشارى . كان قد اضطرب وانحل .

والسلطة الإقليمية ، التى كانت مرتكزة على قوة الباب العالى ، قد ضعفت وخارت بسبب اضمحلال الأسطولين . العثمانى والتونسى . الذين كانا ضمان الاتصال ؛ فكان اضمحلالها ، مشعراً لسلطة الإيالة الفرعية ؛ بحالة الالغاء والاهمال . وانعدام السند ؛ وفقدان النصير .

ومنذ احتلت فرنسا الجزائر . قررت سياستها الاستعمارية ، وجوب السعى لاضافة المملكة التونسية إلى أختها . فسارت على اعتبارها « منطقة نفوذ » . تهيئة لما يراد من الاستيلاء عليها . وابتدأت تجد فى العمل . على قطع صلتها بالسلطنة العثمانية ، وتسلسلت المشاكل السياسية . والتهديدات

العسكرية البحرية ، لمنع تركيا من تعهد صلاتها بالايالة التونسية . التى تعتبرها جزءاً من سلطنتها (١) .

وظاهرت هذا العمل . من جهة أخرى ، بالسعى فى مزاحمة المظاهر المختلفة للنفوذ الغربى . الذى بدأ يتسرب إلى البلاد التونسية ، من الممالك الأوربية . المتطلعة إلى بسط سلطانها فى حوض البحر المتوسط . لاسيما النفوذ الايطالى والنفوذ الانكليزى .

وعلى رجة تلك الأحداث الهائلة ، التى سبقت احتلال فرنسا لتونس بخمسين عاما . نهض المجتمع التونسى مبهوتا ينظر حواليه . فرأى أن صور الحياة المألوفه قد انقرضت ، وبدلت الأرض غير الأرض .

فقد استبدل اللباس العربى باللباس الأوربى ، وأصبحت التشكيلات العسكرية ، والسلطات الملكية ، فى لباسها ونظامها ، وآلاتها ، ومصطلحاتها ، ذات مظهر غربى ، مخالف لمظهرها الشرقى القديم .

وطلعت المصنوعات الأوربية بعجيب الاختراع ، واتقان الصنع ، وجمال الذوق .

وتكاثرت الجاليات الأوربية وازدهرت مظاهر وجودها ، حتى نشأت فى مدينة تونس ، الحارة الخاصة بهم ، ينطق عمرانها ؛ وزهرتها ، وبهجتها ، بالبون الشاسع بين بؤس الحياة الأهلية ؛ ونعمة الحياة الأوربية التى لم يستطع الالتحاق بها إلا كبار المثرين وعظماء الحكام .

وظهر الأطباء ، والصيادلة ، والمهندسون الغربيون ، بمظاهر تفوقهم فى العلوم الطبيعية . وسبقهم فى ميدان الحياة العملية .

وفاضت على البلاد الثروات الأجنبية . بسعة معاملتها . وقوانينها الغربية المغرية .

---

(١) راجع صفوة الاعتبار ج ١ ص ١٥٠

وبدأ نظام الدولة فى الإدارة والقضاء . يتطور بالاقتباس من الأساليب الغربية . وترك ما كان سائدا : من الأحكام الشرعية ، والتقاليد القومية .

ومن خلال ذلك التفوق الذى أدركه المجتمع التونسى فى حياة الأغراب النازحين إليه عن أوروبا ، كان يلاحظ أن الفرنسيين ، قد امتازوا على بقية الجاليات بالقوة الشخصية ، والامتياز الذوقى ، والبراعة العلمية والعملية ، فكان شأنهم يرتفع يوما فيوما على سائر الأروبيين ، ونفودهم يزداد بسطة ، وسيادتهم تزداد ظهورا ، بقدر ماتتضاءل مظاهر نفوذ العناصر الأروبية الأخرى وتتقلص ، حتى أصبح التفوق المطلق ، فى شئون الحياة كافة ، إنما هو للفرنسيين ؛ فأصبحت سيرتهم مع أهل البلاد سيرة القاهر المتسلط : ساموهم الخسف ، وجعلوا حرمتهم ومصالحهم بمنزلة الدون ، واستولوا على أراضيهم بغير وجه . (١) واستبدوا بالمنازل ، التى يسكنونها . مع فرضهم على أهل البلاد تحسينها وحراستها وسلكوا معهم (٢) فى كل أمر مسلكا من التعسف ، بعد عن الانصاف ، واستخف بضمان الحقوق .

فتكون من ذلك عند أهل تونس إحساس شعبي بأن حياة البلاد قد أصبحت مهددة بمزاحمة طاغية عليها لا تقوى على مناهضتها . وإن تلك المزاحمة ترمى إلى غاية معلومة ، قد شاهد التونسيون مثلها ، فى سوء حالة المهاجرين الجزائريين ، الذين وفدوا عليهم ، وقد خلفوا عزتهم وثروتهم بعد أن عانوا ألوانا من الإرهاق وانتهاك الحرمات .

ظهر هذا الشعور فى الشعب التونسى ، سطحيا بسيطا ساذجا ، فتفرق أثره بين عنصرين من المجتمع .

١ — عنصر مستسلم ، وَطّنَ النفس على الاقتناع بتفوق هؤلاء الدخلاء

---

(١) انظر مثال ذلك فى صفوة الاعتبار ج ١ ص ٥٠

(٢) تاريخ ابن أبى ضياف ج ٣٥ ـــ خط

وأخضع حياته لسلطان حياتهم ، فتطلع إلى الأخذ بما هم عليه من ثروة وبهجة أو لذة ، على قدر ما تسمح له به وسائله .

٢ – عنصر نافر متبرم ، أستحكم فى نفسه السخط واليأس، فرأى فى هذا الطور الجديد مظهراً من مظاهر فناء الدين ، وانقراض الخير وغلبة الشر ، وقرب الساعة فأقبل يضم أذياله عن المساس بتلك الحياة ، ويجعل أعظم نجاحه فى السلامة من غوائلها .

ولو أن الأدب كان حيا ، ومصورا للحياة الفردية والحياة الإجتماعية ، فى هذا الطور، لوجدنا فيه آثار خلجات النفوس، المستسلمة الفاترة وتأوهات النفوس المتبرمة النافرة . ولكنه كان أدبا تقليديا ، ضعيف الروح ، بعيدا عن أن تظهر فيه مثل هذه النزعات فلا نستطيع أن نتوصل إلى لمس آثارها إلا فى قطع غير مدونة من الأدب الشعبى، المصوغ فى قالب الأزجال الملحونة أو فى فقر استطرادية جرت على أقلام المؤرخين ، مثل ماوقع فى كتاب «أتحاف ملوك الزمان بأخبار تونس وعهد الأمان» للوزير أحمد ابن أبى الضياف وفى كتاب « صفوة الأعتبار بمستودع الأمصار والأقطار» للشيخ محمد بيرم .

ولقد كان التفكك الاجتماعى ، وبعد أفراد الأمة عن مناطق التصرف والمسؤولية ، وخضوعها للحكم الفردى المطلق المرهق ، وانكماشها عن الامتزاج بتيار الحياة الجديدة الغالبة ، عوامل متعاونة على تحديد ذلك الشعور وقصره على الجهة الأنفعالية السلبية ، دون الاهتمام العملى بعلاجها ؛ وانقاذ البلاد من ويلاتها .

ولما كان حكم البلاد فى يد أميرها ، وهو الباي ، لا يشاركه بالتصرف والرأي إلا أفراد حاشيته المأتمرون بأمره ، من مماليكه ، المجلوبين من خارج البلاد ، العائشين حوله فى قصر باردو ومضروبا بينهم وبين الأمة الحجاب (١) كان من الطبيعى أن الشعور المستقصى لهاتيك الحالة من مختلف

---

(١) كان قصر باردو عبارة عن منازل متراصة ويحيط بها سور عليه خندق وأبراج وحرس لا يمكن أجتيازه لداخل أو خارج إلا بإذن .

مظاهرها ونواحيها ، الكفيل بإدراك ما تحمله من أخطار ، وما ينبغى لها من مبادرة بالعلاج ، لا يظهر إلا فى مقر الحكم من قصر باردو حيث يدرك المسيرون للإداة الحكمية ما أصبح عليه سيرها من التعطل والتعثر ، ويستفيقون لما بدأ ينال سلطانهم المطلق من تقاصر وهوان بسبب التداخل الأجنبى الذى فرض عليهم تملق الأروبيين والخضوع لأهوائهم ، وما طرأ على مالية الدولة من ضيق وارتباك بسبب بوار الصناعة وكساد التجارة وجائحة الفلاحة ، وما نزل تبعاً لذلك بحياتهم المترفة من الكدر والنكد . إذ تزعزعت هيبتهم التى كانوا يسخرون بها الأمة وما ملكت أيديها لإقامة مصالحهم الخاصة وخويت خزائن الدولة من الأموال التى كانت رصدا لتحقيق ما استولى على حياتهم من نزعة البذخ ، وطواعية الملذات .

بدأ التبرم بهذه الحالة يستولى على الأمير حسين باشا الذى نزلت كارثة احتلال الجزائر فى أيامه إلى أن توفى سنة ١٢٥١ — ١٨٣٦ ، فمضت ولاية أخيه مصطفى باشا سريعة إذ توفى بعد عام ونيف من ولايته ، وآلت الإمارة إلى إبنه الأمير الشاب ، القوى الطموح الشديد الذكاء المشير أحمد باشا الذى استمرت ولايته تسعة عشر عاما من سنة ١٢٥٢ — ١٨٣٧ وكانت تربيته وميوله عسكرية ، ونشأ فى طور الإصلاحات العسكرية النظامية التى أخذت بها الدولة التونسية تبعاً لتنظيمات السلطان محمود الثانى العثمانى ، فابتدأ أحمد باشا ملكه (١) بعزيمة ثابتة على الإصلاح ، وهمة متقدة فى الأخذ بوسائل التقدم كانا قد تأصلا فيه منذ نشأته بأثر المتولى لتربيته من المماليك وهو الوزير مصطفى صاحب الطابع .

كان هذا الوزير القرجى الأصل ، مثالا عديم النظير بين طبقة من عظماء المماليك فى رجاحة الفكر واستقامة السيرة والغيرة على المصالح العامة ، ولم

---

(١) يراجع ج ٣ من تاريخ ابن أبى الضياف (مخطوط) وصفوة الاعتبار ص ١٣٤ ج ١ وص ٦ ج ٢ ط الاعلامية

يكن ذا علم ولا ثقافة واسعة ولكنه كان قد شغف بابن خلدون ، وتعلق بآرائه ، فكان دستور تفكيره فى المقدمة التى ما انفك يتناول الأحوال الجارية بالفحص على أنوارها ، ويقيم ما يتناول إصلاحه منها على أساس قواعد المقدمة ونظرياتها(١) وكان قد عانى شؤون العلائق الفرنسية مع تونس من نشأتها عند احتلال الجزائر فى عهد حسين باشا واستمر مهتما بأصولها وفروعها فى عهد مصطفى باشا ، فلما ولى الملك الشاب المتأثر بتوجيهاته ، السائر على مناهجه أحمد باشا ، كان ذلك سامحا له بأن يبرز أفكاره ، فى غير تحديد ولا احتراز . فاصطبغ حكم تونس . منذ ولاية أحمد باشا بصبغة الفكرة الإصلاحية ، عسى أن ترفع عن البلاد أصرها والأغلال التى كانت عليها ، من جراء تطاول الفرنسيين والأوروبيين عموما ، وساد فى دوائر الحكم بباردو أن مرجع غلبة الحياة الدخيلة للحياة الأصيلة إنما هو القوة الصناعية التى امتازت بها حياة أوروبا ، وأن لا سبيل للحياة الأصلية إذا أرادت أن تصلح شأنها وتوقف تيار ذلك التغلب الجارف ، إلا أن تلقح حياة البلاد ، بما قامت به تلك الحياة الأوروبية الطاغية . فكان هذا شعورا مركزا عميقا ، إيجابيا ، موجها ا بخلاف للشعور الشعبى الساذج السلبى ، وتولدت عنه فكرة إصلاحية منهجية سيطرت على توجيه الأعمال والنظم فى مقر المسئولية ، الذى هو نطاق التصرف الملكى المطلق .

وأعان على توجيه هذه الفكرة ما كان عند المشير أحمد باشا ، من نزعة شخصية إلى تفخيم مملكته ، وتخليصها ، فى عدة نواح ، من التبعية العثمانية المباشرة ، وزاد فى الإعانة على تذليل ذلك الطريق داعى الأتباع لما شرعت فيه السلطنة العثمانية ، من تنظيم جيشها على الطرق الأوروبية العصرية ، والاقتداء بصفة خاصة بالنهضة التى ظهرت فى البلاد المصرية ، فكانت أبلغ فى التأثير على سير النهضة التونسية ، بالأخوة العربية ، وقرب المواصلات ، وما بدأ يفيض عنها من ثمرات المطابع .

---

(١) ذكر ذلك ابن أبى الضياف فى ترجمة مصطفى صاحب الطابع فى الجزء الرابع من تاريخه.

لذلك كله كان أول ما ابتدأ به أحمد باشا فى السنة الأولى من ولايته ، هو إنشاء مدرسة عسكرية ، لتخريج الضباط الفنيين ، والمهندسين ، والموظفين ، دعيت باسم « مكتب المهندسين » أو « مكتب العلوم الحربية » ؛ استدعى لإدارتها ضابطا إيطاليا من المستشرقين أجاد اللغة العربية وألف بها كتبا هو الأميرالاى كاليقاريس وجلب إليها أساتذة من الإيطاليين والإنجليز والفرنسين لتدريس الرياضيات، ورسم الأمثلة ، المدفعية ، والتعبئة الحربية والتحصينات ، والتاريخ ، والجغرافيا واللغة الفرنسية واللغة الإيطالية .

وجعل العلامة التونسى الشاعر الكبير الشيخ محمود قبادو ، أستاذ اللغة العربية والتربية الدينية وعهد إليه ، بالاشتراك مع المدير الإيطالى ، ونخبة من طلبة المدرسة فى تحرير خلاصة دروس الأساتذة الأجانب ، وترجمة كتب أروبوية فى الفنون الحربية.

وجعل الأشراف على هذه المؤسسة لشاب من نبغاء المماليك الجراكسة كان اشتراه من استانبول ، متعلما عارفا باللغة الفرنسية ثم علمه العربية بتونس فقربه واستنجبه ، وهو خير الدين (١) الذى كان له فى ما بعد شأن عظيم : وبهذا التأسيس انتقل العمل الإصلاحى الذى اضطلع به أحمد باشا من الميدان العملى إلى الميدان الثقافى انتقالا نبع به التيار الفكرى الجديد ، الذى دفع بالحياة الفكرية والأدبية إلى الأطوار التى اقترنت بعهد الاحتلال الفرنسى وتسلسلت بعده .

فان امتزاج أفراد من أساتذة الغرب ، بأستاذ عظيم من علماء جامع الزيتونة ، الذى هو مركز الحياة العلمية الإسلامية بتونس ، فى ظل القصر الملكى ، وبتأييد الملك وتشجيعه ، ورعاية وزيره وشيخ دولته ، ومباشرة نابغ من صفوة حاشيته ؛ لجدير بأن يحدث احتكاكا بين العقلية الغربية والعقلية الإسلامية ، تنقدح منه شعلة مذهب فكرى حقيق ، له نظرياته

(١) ترجمته فى الجزء اصفة الاعتبار ص ٤٩ إلى ٩٤ ومقال عنه فى مشاهير التونسيين فى القرن الرابع عشر ، مجلة الثريا ، السنة الأولى .

الأصلية ، وقواعده الأساسية ، واتجاهاته المجردة التي تصور الأشياء على ماعليه حقيقتها وذاتها .

وذلك لا محالة نظر حكمي ، ومذهب فكري فلسفي . يمتاز بما يمتاز به النظر الفلسفي من الخروج بموضوعه عن الصورة الجزئية العملية إلى الكلية النظرية المطلقة ، فيختلف بذلك عن السعي الذي كان يسعاه المشير أحمد باشا ووزيره صاحب الطابع إذا كان سعيا عمليا ذا غاية مقصورة على صورة خاصة في ظرف معين ، هي غاية تخليص البلاد من أوهان التداخل الأجنبي .

وإذا كان الشيخ قبادو ، هو الذي كون ذلك المذهب الفكري الجديد ، الذي ساد على الحياة العقلية وتطورت به الحياة الأدبية ، فجدير بنا أن نلقي على شخصية ذلك الشيخ ، وعوامل تكونها النفسي والعقلي ، نظرة ترينا كيف جمعت تلك الشخصية العجيبة المؤهلات اللازمة لمن ينشيء مذهبا عقلياً ، ومنهجا تفكيريا ، له دعوته وأتباعه ، وآثاره الظاهرية والباطنية .

كان عبقريا خارقا للعادة ، نشأ نشأة صوفية صرفة ، فتجرد عن الحياة العادية تجرداً تاما ، وتعلق بطريقة الرياضة والمجاهدة والسياحة والخلوة ، ووقف وجوده على النظر والمعرفة ؛ فشحذ همته ومواهبه وعزيمته . وأقبل على نواحي العلم يطلب الوقوف على جزئياتها استيعابا ، فاتسعت دائرة معلوماته اتساعا منقطع النظير ، تعاطى علوم الحكمة الإسلامية ، بين إشراقية ومنطقية ، فأحاط بالمذاهب والنظريات ، وتمرن على الطرائق ، وتوسع في فنون الحكمة عامة . من العقلي ، والرياضي ، والطبيعي ؛ إلى الفلكي ، والروحاني ، والإلهي ؛ فكان آية باهرة في علوم الحكمة انقطع العهد بمثلها طويلا ، وسلم له ذلك بين علماء جامع الزيتونة كافة .

وتعاطى اللغة العربية وأدبها ، ففاق جميع علماء عصره ، في الإحاطة بمادة اللغة ورواية الأدب ومعرفة التاريخ ، إلى ما يشترك فيه مما كان رائجا يومئذ في المعاهد الإسلامية ، من علوم العربية والبلاغة ، واكتسب من ثمرة

تربيةالنفسية ومعارفه ، موهبة شعرية كان بها المجلى فى المجال الأدبى ، إذ اعتبر فى عصره ، أكبر لغوى ، وأول أديب ، وأعظم شاعر ، امتاز شعره بصحة المبانى ، وسمو المعانى ، وعمق الفكر ، وطول النفس ، وبلاغة القول ، فكان غواصا على حقائق الوجود ، ملهما فى إبرازها .

هذه العبقرية العجيبة ، لما اتصلت بمكتب المهندسين ، وتوجهت إلى العمل الذى انتدبت هنالك له ، فتتبعت التعاليم التى هى سر النهضة الأوربية ، ظهر لها أن العلوم الحكمية والرياضية ، التى كان علماء الاسلام عنها بمعزل ، والتى عرفها هو وعانى فى تحصيلها ما استخف به الناس وربما سخروا منه بسببه ، إنما هى مدار التفوق الذى نالته أوربا على بلاد الإسلام ، فربط بين هذا وبين ما تشكوه بلاد الإسلام ، من هوان بعد العز ، ربطا ولد له فلسفة فى النهضة الإسلامية ترتكز أصولها على :

إن العالم الإسلامى فى حالة تأخر وتدهور ، مع أن الإسلام بذاته كفيل بأن يكون المجتمع القائم على أصوله فى حالة تخالف ما هو عليه الآن ، فينبغى أن يعزى السبب فى ذلك إلى أمر خارج عن جوهر الدين كان موجوداً عند المسلمين ففقد ، وأن المقارنة تظهر أن هذا الأمر إنما هو العلوم الحكمية ، فالمعرفة مطلوب دينى لذاته ، وهذه العلوم كانت مزدهرة متقدمة عند المسلمين ، وكان المسلمون لما كانت هذه العلوم رائجة فيهم سائرين متقدمين ، ثم أضيعت هذه العلوم وتأخرت ، فهان المسلمون وتأخروا تبعاً لذلك ، واقتبست أوربا هذه العلوم عن الإسلام ، وقد سادت أوربا على الإسلام بنسبة ما هجر هو هذه العلوم وأخذت هي ، فلا سبيل حينئذ إلى أخذ الإسلام بحظه من السعادة والنهضة إلا باستعادة نهضة هذه العلوم التى أضاعها ، ولا سبيل إلى ذلك إلا باقتباسها عن الأوربيين بالنقل والتعلم .

تلك هى نظرية قبادو ، التى أصلها ، وعللها ، وبحثها ، واطمأن إليها ، واتخذها منهجا له ولأتباعه .

وقد بسطها فى مقدمة عجيبة ، وضعها تمهيداً لكتاب ترجمه تلامذة مكتب المهندسين تحت إشرافه ، وتولى هو تنقيحه ، وتصحيح لغته ، والبحث عن المفردات الاصطلاحية التى تودى المعانى الرياضية التى تضمنها ، وهو كتاب الجنرال « جُمنى » الفرنسى فى التعبئة الحربية(١) ، مال فيها إلى الإكثار من غريب اللغة ، والتقلب فى التراكيب ، ما أخرجها ثقيلة مضنية لقارئها على ما فيها من سمو فكرى ومتانة أدبية ، تتنزل بهما منزلة أغرب الآثار القلمية فى ذلك العصر .

وقد وجدت هذه الدعوة نفوذها فى وسطين ، كان على كل منهما سيطرة لعلم قبادو وفكره . فتكون فيهما عصابتان متلافيتان فى اتباع ذلك المنهج النظرى الذى سنه شيخهم المحبب ، وهذان الوسطان : أولها وسط المدرسة الحربية ، وقد امتاز من بين أفراده نابغان هما حُسين(٢) ورستم اللذان آلا فيما بعد إلى مناصب الوزارة وكانا من أبرز أبطال معركة الإصلاح السياسى . وثانيهما وسط جامع الزيتونة ، الذى أثر بطريقته النقدية فى التعليم ، تكوين نخبة من شبابه ، ألقت آذاناً صاغية ، وفتحت صدوراً رحبة لدعوة الشيخ قبادو ، زيادة على ما له عندهم من المكانة العلمية ، وما يجدون له فى نفوسهم من النفوذ الأدبى فتكونت بذلك عصابة من الشباب الزيتونى ، تعلقت بقبادو وآمنت بمذهبه ، ودعت إليه ، وبرّز من تلك العصابة نابغان ، كان لهما ، فى مستقبل الأيام ، أعظم شأن فى خدمة ذلك المذهب ومناصرة المساعى الإصلاحية المتفرعة عنه ، وهذان النابغان ، هما الشيخ سالم بوحاجب والشيخ محمد بيرم اللذان يستمر ذكرهما معنا طويلا .

---

(١) ثبت نص هذه المقدمة فى الجزء الثانى من ديوان قاباد طبع تونس سنة ١٢٩٤ من ص ٣٢ إلى ص ٦٠

(٢) انظر ترجمة فى صفوة الاعتبار ٣ ص ٢٢ الاعلامة مصرية سنة ٣٠٣ مقالا عنه فى فى سلسة (مشاهير التونسيين فى القرن الرابع عشر) مجلة الثرياج ٢ مجلد ١ .

فكان من تلاقى العصابتين ، الحربية والزيتونية ، وتكتلهما . ما كون حزباً قائماً على أساس نظرى ، فى الإصلاح العلمى ، والإجتماعى ، والسياسى ، والإدارى ، بدأت مساعيه تبرز فى صميم الحياة الدولية ، وانتصب فى صدره الوزير خير الدين للزعامة المطلقة .

وكان أول وسط اتصل به صدى هذه الدعوة ، هو الوسط الحكومى ، وكان مؤلفاً من صنفين ، صنف أرباب القلم ، وهم كتاب الدولة وأهل ديوان الإنشا الذين تكونوا تكوناً علمياً وأدبياً بجامع الزيتونة ، وصنف أرباب السيوف ، وهم قواد الجند وخاصة الحاشية الملكية ، من المماليك الأروام أو الجراكسة الذين نشأوا على الأساليب التقليدية فى خدمة الملك ، ولم يكن لهم حظ فى المعرفة سوى مبادىء العلوم ونتائج الخبرة التجريبية من ممارسة الحكم والقيادة ، فاجتذبت الدعوة الإصلاحية إليها رجالا من هؤلاء وهؤلاء كان ما عند البعض من سمو المدارك العلمية ، وما عند الآخرين من سلامة الفطرة ، وقوة الحنكة ، دافعاً بهم إلى الإنضمام إلى تلك الحركة ، التى كان يرعاها الملك بعناية واهتمام ، يزيدان فى قوة الدوافع على الانضمام إليها ، فكان فى مَنْ شايع الدعوة الإصلاحية وأيدها من شيوخ الدولة مثل شيخ الكتاب المؤرخ الوزير أحمد بن أبى الضياف ، وشيخ الجندية ، القائد الوزير مصطفى آغة .

ولقد كان من أثر انتشار هذه الأفكار ، المبنية على الإعتراف بسبق المدنية الغربية ووجوب الإلتحاق بها ، إن شاع فى وسط الداعين إليها ومن حولهم ، حديث الإعجاب برقى الحياة ، وسلامة نظم الجماعات والدول فى أوربا ، وضرب الأمثال بما بين مظاهر التأخر فى الحياة التونسية ومظاهر التقدم فى حياة أوربا ، من بون شاسع ، فعم الشغف بتلقف الأحاديث عن أوربا وأخبارها من أفواه الذين كانت سمحت لهم الفرص النادرة بالسفر إليها من العلماء أو المحنكين ، كما شاع الاقبال على مطالعة ما ظهر من آثار كتب الشرقيين ، الذين سبقوا إلى التعرف إلى الحياة الغربية ، ودونوا وصفها ، وجهروا بالدعوة

إلى الاقتداء بمحاسنها ، فى الكتب التى وضعوها عن رحلاتهم وطبعت فى المطابع المصرية وأهمها رحلة الشيخ رفاعة المسماة « تخليص الابريز فى تلخيص باريز وقد طبعت سنة ١٢٥٠ .

فانبعث المستطيعون من دعاة الإصلاح بتونس يلتمسون الوسائل التى تمكنهم من ارواء غلتهم بالسفر إلى أوربا ، حتى تحرك بتلك العوامل الملك أحمد باشا ، فرحل بنفسه رحلة رسمية إلى فرنسا ، سنة ١٢٢٦ — ١٨٤٦ ، صحبه فيها كثير من وزرائه وقواده ورجال حاشيته ، وكان ذلك فى عهد الملك لويز فليب ونظام دولته الملكى الديمقراطى ، ففتحوا أعينهم على حياة باريس الباهرة ونظمها وحضارتها ورجعوا مبهوتين ، يفيضون من الأحاديث ما أصبح فى الحياة الشعبية مادة للنكت والأساطير ، وأصبح فى الحياة الفكرية توجيها لحركة الاصلاح وطابعاً لتطور الأدب الراقى . .

وقد اعتنى الشيخ أحمد بن أبى الضياف بتدوين تلك الرحلة وملاحظاته عليها ، وعلى عمران فرنسا ، ورقى الأخلاق فيها ، وازدهار الاقتصاد ، وتقرير الارتباط بين نهضتها العلميـــة والفكرية ، وبين حياتها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، وتحليل السياسة الفرنسية التى كان مدارها يومئذ على الفيلسوف ، السياسى والاجتماعى . الوزير قيزو ، حتى أصبح إسم هذا الوزير الفرنسى شائعاً عند التونسيين ، مقروناً بما جعله عند المفكرين منهم مثالا لاتصال ما بين العلم والسياسة ، يشجع نهضتهم الفكرية فى سبيل اتجاهها نحو طريق الاصلاح السياسى الذى كانت تتوثب عليه .

وتتابعت رحلات رجال الدولة إلى فرنسا فيما بعد ، فكان فى الراحلين أفراد من أمراء البيت المالك ورجال من الوزراء ، والقواد ، منهم زعيم العصابة الاصلاحية خير الدين وعضده حسين .

وتوفى المشير أحمد باشا سنة ١٢٧١هـ ٥٥ ، فخلفه ابن عمه وولى عهده المشير محمد باشا ، وصادفت ولايته استفحال الاختلال المالى ، وما نشأ عنه

من المشاكل والأزمات ، التى زاد بها تعدد الرحلات الرسمية واتسعت دائرتها.

كما نشأ حول الملك الجديد اتصال فرنسى ، من لون آخر ، بامتزاج قنصل فرنسا به ، وهو المستعرب الرحالة ليون روش الذى كان له ماض غريب فى البلاد الاسلامية لخصه فى كتابه « اثنتين وثلاثين سنة فى وسط الاسلام »

ساح فى البلاد الشرقية ، واتصل بالأمير عبد القادر فى الجزائر اتصالا وثيقاً ، وكان يتظاهر بالإسلام ، ويتكلم العربيـــة ، ويسمى « الحاج عمر » ويتذوق الألوان الشرقية الملائمة لميول المشير محمد باشا ومزاجه . وأحدث هذا الإمتزاج منافسة من طرف قنصل إنكلترا ، فأصبح الملك ، من جراء ذلك ، مضطراً إلى تعديل كفتى المزاحمة باعطاء كل من القنصلين ، من الامتيازات والترضيات ، ما يساوى ما للاخر ، ففتح بذلك عهد الامتيازات للشركات ، واستخدام رؤوس الاموال الأجنبية ، فساد الشعور بالاختلال والضعف ، وقويت الرغبة فى إصلاح جهاز الدولة ، إصلاحا يسد منافذ الامتيازات الأجنبية . بسد من النظم والكفاءات فى السياسة والإدارة ورجالها ، فزاد بذلك علو نجم الوزير خير الدين وعصابته فى نظر الخاصة الملكية وعامة الطبقات الشعبية إذ اعتبر رجل الساعة غير منازع .

ولكن المشير محمد باشا كان بعيدا جدا ، بطبعه ، عن مسايرة الحياة الغربية فى الشئون العامة ، وأن تأثر بها إلى أقصى مدى فى حياته الخاصة ، إذ كان ينتقد شديد الانتقاد على سلفه أحمد باشا تورطة فى طرق التأثر بالحياة الغربية ، ونبذ التقاليد الشرقية ، انتقادا كون بينهما تنافرا عظيما .

وكان يتعلق بالسلطنة العثمانية تعلقا متينا يتغذى من صدق ديانته وطهارة أخلاقه .

وبذلك أصبحت عصابة خير الدين الاصلاحية ، التى كانت ، فى نظر الملك المتولى ، هى حزب الملك الراحل ، تشعر بشىء عظيم من الخوف من جانب الملك الجديد ، خوفا تعدى ذوى المناصب الدولية منهم ، إلى مقومى

الفكرة ودعاتها من العلماء البعداء عن مناطق المسؤولية الدولية ، وعلى رأسهم أمامهم وزعيمهم الشيخ قبادو . وقد ظهر ذلك فى قصيدته التى تقدم بها إلى الملك الجديد ، مهنئا ومعتذرا ومستسمحا ومدافعا سوء الظن . فكانت تلك الرهبة النابغية التى ولدت عن شاعرية قباد وقصيدة عصماء فى أكثر من أربعمائة بيت نرهب من باب أولى رجال الدولة ، من مماليك المشير . العائشين تحت سقف قصره بباردو .

وبهذا العامل من الاشفاق على أنفسهم وعلى برنامجهم الإصلاحى ، اندفعوا مجدين فى تحقيق ما كانوا يصبون إليه من إقامة الحكم على أساس الضمانات ، التى كان يعتزم الملك السابق أحمد باشا تحديد الحكم المطلق بها ، فابتدأت هنالك معركة باردة حامية فى سبيل تحقيق الناحية التطبيقية من فلسفتهم الإصلاحية ، وهى الناحية الراجعة إلى : ضمان الحقوق ، وحسن تنظيم الإدارة وضبط المالية .

وطبعت هذه المعركة أيضا الأدب التونسى بطابع جديد ، هو طابع الاتجاه الى الحياة التواقة وناحية الحكم منها والتغنى بالنظريات المثالية فى العدل والحرية وحسن النظام . طابع أجاد صوغ الشعر عليه ، وتوجيهه به أمام التوجيه الفكرى والأدبى الشيخ قبادو .

وانتهت المعركة باقتناع المشير الثانى بلزوم إجراء نظم إصلاحية فى حياة البلاد وشكل الدولة ، امتثالا لما شرحت له به أحكام الدين من طرف ذوى الثقافة الزيتونية من أنصار الإصلاح ، وخضوعا لإلحاح قنصل فرنسا وقنصل انجلترا الرامى إلى مرام سياسة بعيدة ليس هذا محل شرحها ، واستسلاما لواجب مجاراة الخلافة العثمانية فى ماسنته من الإصلاحات التى جاء بها فرمان الكلخانة والتنظيمات الخيرية . (١)

فشرع فى سن نظم مالية وادارية وعمرانية ، تقرر بأثرها دخول البلاد فى حياة حكم دستورى . أعلنت أصوله سنة ١٢٧٤ — ١٨٥٧ بعنوان « عهد

---

(١) أنظر تاريخ الدولة العالية لمحمد فريد ص ٢٥٤ الطبعة الثانية .

الأمان ، (١) فكان ذلك انتصارا باهرا للدعوة الاصلاحية بمضى عشرين سنة على ظهورها ، وعاملا على انضمام البلاد كلها حكومة وشعبا إلى رجال تلك الدعوة

وتوفى الملك محمد باشا سنة ١٢٧٦ — ١٨٦٠ والعمل جار فى تفريع النظم والتأسيسات عن أصول عهد الأمان فتقدم للملك أخوه المشير الثالث محمد الصادق فدخل من أول أمره تحت النظام الدستورى ، خاضعاً للفكرة الاصلاحية وابتدأ عهد ولايته بالانجازات الهامة لعوامل التطور . مثل مد سلك البرق بين تونس وأوروبا على طريق الجزائر ، وتأسيس المطبعة الرسمية وجريدة الرائد التونسى، وانتصاب المجلس التشريعى ، والمجالس البلدية ، سنة ١٢٧٧ — ١٨٦١ ؛ فأصبح خير الدين الزعيم المطلق لهذا الطور من حياة البلاد، وظهرت من جهة أخرى قوة تأثير النفوذ الفرنسى على البلاد . والنفوذ الشخصى الذى أصبح للإمبراطور نابليون الثالث ، بما كان يبنى عليه سياسته من التظاهر برعاية التقدم ، وحماية الحرية ، والاعانة على استقلال الشعوب فى نطاق ذاتيها القومية ، (٢) حتى أن الملك محمد الصادق سافر بنفسه إلى الجزائر لملاقاة الامبراطور ، وإحاطته خبرا بما تم فى المملكة ، من الاصلاحات ، وتسليمه ، عن يد ، نص عهد الأمان .

وسرعان ما أصطدم هذا العهد الدستورى بأنواع من الصعوبات الداخلية والخارجية. قامت فى وجهه، فأشتعلت نار الثورة الكبرى سنة ١٢٨٠-١٨٦٤ وسقطت بسببها البلاد فى حالة من الخراب والدمار والفوضى ، قضت بتعطيل النظام الدستورى ، وتوقيف عمل المجالس، وأحاطت بالبلاد غوائل الحرب الأهلية ، والمجاعات ، والأوبئة ؛ ست سنين كاملة، انتهت بالانتقاص

---

(١) أنظر صفوة الاعتبار ج ٢ ص ١٠ ط الاعلامية ١٣٠٢ .

(٢) يراجع تفصيل ذلك فى مصادر تاريخ فرنسا وخاصة فى ما يرجع إلى سياسته فى حروب إيطاليا وحرب المكسيك.

من أستقلالها إذ دخلت ماليتها تحت حكم رقابة أجنبية تتولاها لجنة دولية[1] سنة ١٢٨٦ — ١٨٦٩ .

فأتخذ خصوم الدعوة الإصلاحية تلك الحالة المحزنة ، التى أصبحت عليها المملكة ، وسيلة للتنديد على دعاة الإصلاح والتشهير بهم وبسياستهم الدستورية ، وأصبحوا منظوراً إليهم بالنظر إلى المسؤولين عن الويلات التى أصابت البلاد ، فاضطر ذوو المناصب السياسية منهم ، مثل خير الدين وحسين ورستم ، إلى التخلى ؛ وذوو المناصب العلمية والمقامات الأدبية إلى الإنكماش والانزواء ، مثل بيرم وأبو حاجب .

ودخل الوزير خير الدين فى عزلة تفكير وأعتبار ، تفرغ فيها لضبط معلوماته عن الحضارة الغربية ، وتدقيق ملاحظاته ومقارناته . واستخلاص النتائج الاعتبارية ، والقضايا الحكمية ، من تلك المقارنات . وأقبل على رجال عصابته ، من أهل العلم وأهل السياسة الذين كانوا يترددون على قصره فى شيء من الإختفاء ، واندفعوا جميعاً يدرسون تلك النظريات ويحررونها غير منفكين عن الالتفات إلى العراقيل التى قضت بإحباط سعيهم وولدت عن حركتهم عكس المقصود منها ، حتى تمخضت تلك الدراسات والمداولات عن الكتاب العظيم ، الذى ألفه خير الدين باسم «كتاب أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك» ويعتبر من أنفس آثار القلم العربى فى القرن الماضى ، وفى السياسة والاجتماع ، فقد أشتمل على مادة علمية هامة جداً استوفت وصف النواحى عامة لكل دولة من الدول الأوربية العشرين التى فصل عليها الكتاب وجعل الدولة العثمانية من بينها كأنه يقصد بذلك التنبيه إلى المقارنة والمقايسة .

وأفتتح بمقدمة قيمة فى أسباب تأخر العالم الإسلامى ووسائل نهضته ، ون ذلك بالاقتباس من المعارف والنظم التى تحققت بها النهضة الأوروبية ، والاتحاد بين أهل العلم وأهل السياسة فى تحقيق ذلك ، وبيان ما كان لانتشار

---

(١) تطلب تفاصيلها فى صفوة الاعتبار ج ٢ ص ٤٠

المعارف فى أوربا وخاصة فى فرنسا من أثر فى سعادة الأمة ، وحقيقة الملك والحرية والشورى والمسئولية الوزارية وما يقوم فى وجه التناسق المطلوب بينها من المصاعب ، وانه إذا تكونت تلك المصاعب فقد تبيح الضرورة تفويض إدارة المملكة لشخص واحـــد مستبد فى ظروف معينة وعلى قوانين محصورة .

وجعل هذه النظرية فى الحكم الدكتاتورى ختام مقدمته وفذلكة حسابه فكانت مبدأ للطريق الجديد الذى قرر هو وعصابته سلوكه لتحقيق برامجهم الإصلاحية وهو طريق الاستيلاء على الحكم بتولى الوزارة مع بقاء الدستور معطلا والمجالس موقفة .

وبرز هذا الكتاب التوجيهى سنة ١٢٨٤ — ١٨٦٧ (١) . وابتدأت المساعى السياسية لاصلاح ما بين الملك محمد الصادق والوزير خير الدين ، حتى أنتهت باستدعائه إلى تولى إدارة المملكة بصفة نائب مفوض عن الوزير الأكبر دعى « الوزير المباشر » سنة ١٢٨٦ — ١٨٦٩ ثم بصفة وزير أكبر بالاصالة سنة ١٢٩٠ — ١٨٧٣ ، فاستمر إلى سنة ١٢٩٤ — ١٨٧٧ إذ أستقال من الوزارة الكبرى لتعكر العلاقات بينه وبين الملك ، وفارق البلاد التونسية نهائيا سنة ١٢٩٨ — ١٨٧٨ فانتصب بالآستانة ، وولى الصدارة العظمى ، للسلطنة العثمانية ، تلك السنة ، وبقى باستنبول إلى وفاته بسنة ١٣٠٧ - ١٨٩٠

وليس من قصدنا هنا ، أن نلم بآثار الاصلاحات السياسية ، والاجتماعية والاقتصادية ، التى فازت بها تونس فى الثمان السنين . التى قضاها خير الدين قائما بمسئولية الحكم ، بين وزير مباشر ووزير أكبر ، ولكننا نقتصر من تلك الآثار على الأركان الأربعة ، التى كان أثرها بعيدا فى التطور الفكرى والنهضة الأدبية ، وهى : ١ - إنشاء المدرسة الصادقية ٢ - تنظيم

---

(١) طبع كتاب أقوم المسالك بتونس سنة ١٢٨٤ وطبعت ترجمة فرنسية لمقدمته تحت إشراف مؤلفه فى باريز سنة ١٨٦٨ مطبعة ديبون سانت هونرى باريز

التعليم الزيتونى ٣ - إنشاء المكتبة العبدلية ٤ - تشجيع حياة الطباعة والصحافة والنشر .

فالمدرسة الصادقية أنشئت سنة ١٢٩١ — ١٨٧٤ ، بعد أن تشكلت لجنة لتحرير قانونها ، وسن مناهج التعليم فيها وبرامجه ، وكانت تلك اللجنة مؤلفة من علماء من جامع الزيتونة . تحت رئاسة الوزير الأكبر نفسه ، وسارت فى إنشاء نظام الصادقية على اعتبارها مدرسة قومية ، تعليمها عربى دينى ، وتربيتها دينية ، متينة ، صارمة ، وعلى توسيع دائرة التعليم العربى الدينى ، بتعليم اللغات ، التركية والفرنسية والايطالية ، على توزيع فصول الطلبة بينها وتعليم الرياضيات والطبيعيات والاجتماعيات ، لعموم الفصول . واعتبر التعليم فيها ذا درجتين أولية وثنوية ، مع تنسيقه مع التعليم الزيتونى ، بحيث يصح أن ينتقل الطالب ، فى رتبة معينة من الدراسة الثنوية ، لاكتمال دراسة العلوم الدينية بجامع الزيتونة ، أو يتمحض لاتمام التعليم العصرى إلى غايته .

أما التعليم الزيتونى ، فقد اشتغلت تلك اللجنة نفسها بتخطيط برامجه ، وضبط مناهجه ، وترتيبها على درجات ، تتحكم فى مبادئها ونهاياتها امتحانات النقل ، وامتحانات الشهادات ولم تكن موجودة من قبل ، مع جعل المناهج فى كل درجة ، مشتملة لزوما على مواد الرياضيات والطبيعيات ، بصفة مقتصد فيها لتوسيع المجال للعلوم الشرعية ووسائلها ، وتنظيم طريقة اختيار الأساتذة بواسطة المناظرات ، وضمن ذلك فى قانون ذى ٦٧ فصلا صدر به الأمر العلى سنة ١٢٩٢ — ١٨٧٦ .

وقد نجح خير الدين نجاحا عظيما ، فى تحقيق المراد من إنشاء الصادقية وإصلاح التعليم الزيتونى ، بحيث أصبحت الشبيبة التونسية ، على اختلاف منهجى تعليمها ، متأثرة بالمبادىء التى جاهد دعاة الاصلاح ، أربعين سنة فى سبيلها ، فكانت الشبيبة الصادقية متعلقة بشخصه تعلقا مباشرا ؛ تمتزج به ، وتستمد توجيهها الأدبى من لدنه ، فى حين صارت الشبيبة الزيتونية ، البعيدة عن الاتصال المباشر بشخصه ، متعلقة تعلقا قويا ، مطلقة فيه السيادة الأدبية

بالامامين الذين كانا حاملى رسالة النهضة ورسالته فى تلك الجامعة القومية العتيقة ، وهما الشيخ سالم بو حاجب ، الذى اعتبر من يومئذ أستاذ الأساتذة ومنار النبوغ فى العلم والأدب ، والشيخ عُمَر بن الشيخ (١) الذى كان مسلما له التفوق العلمى ، والكمال العقلى ، والذى اضطلع بتيسير دواليب التعليم وحراسة النظام وتطبيقها بصفة ، نائب الدولة ، فأصبح من هذا التلاقى بين اتجاه الصادقيين واتجاه الزيتونيين ، الوزير خَيْر الدين هو رائد الشبيبة وزعيمها ، وأصبحت المبادىء الإصلاحية التى بسطها فى كتابه هى المثل الأعلى الذى يفادى الشباب فى سبيله لتحقيق نهضة الوطن .

ولقد أعانت المؤسستان الأخريان وهما المكتبة والمطبعة . على تعميم هذا التوجيه خارج الوسط الدراسى ، ونشر أشعة الفكر الجديد بين ذوى الثقافة من الكهول والشيوخ . على اختلاف أصنافهم وتفاوت درجاتهم . فالمكتبة العامة التى أنشئت فى محل مكتبة قديمة من العهد الحفصى كانت قد اندثرت وخويت . فعادت زهرتها وتجدد شبابها (٢) وجاءت فى محلها وأدواتها ومرافقها على أحدث طراز أوربى . تغرى بالمطالعة وتقربها من ميل عموم المثقفين . وكانت فى ترتيب كتبها . ووضع فهارسها . وطريقة مناولتها . مبرزة لمحتوياتها . على خلاف ما كان عليه حال الكتب فى خزائن الأوقاف . التى كانت متفرقة فى المدارس والمساجد وجمعت فى المكتبة الجديدة ؛ وكان تلاقى المطالعين فى محل واحد معيناً على إبراز وحدة المثقفين . وتشجيعهم وتقوية شعورهم بسمو الوسط الثقافى . الذى ينتمون إليه . كما أن ما جمع فى المكتبة من المطبوعات الحديثة . الصادرة فى الشرق أو فى أوربا . والصحف ونصوص القوانين والتراتيب . المتعلقة بالبلاد التونسية أو غيرها من البلاد ، قد كان عاملا قوياً فى وصل مدارك المثقفين بتيار عصرهم . فشاعت بذلك كله

---

(١) انظر ترجمته فى مشاهير التونسيين فى القرن الرابع عشر مجلة الثريا المجلد الأول سنة ٤٤ ١٧٤٣

(٢) طبع لهذه المكتبة فهرس علمى منفصل برز منه ٤ـ أجزاء وله مقدمة مهمة بها تاريخ المكتبة ط تونس ١٣٢٦ .

المعارف وانتشرت الآداب . وتقوت محبة المعرفة والمطالعة . ووجد القراء مجالا لأفكارهم . ومادة لتوسيع معارفهم . فى ماكان يتعسر من قبل ذلك وقوع أيديهم عليه . وهذه هى الإحساسات التى نجد صورتها فى مانشر يومئذ بجريدة الرائد التونسى ، من قصائد وموشحات ، ومقالات لكبار الأساتذة أو صغار الطلبة .

أما ناحية الطباعة والصحافة والنشر التى هى أقوى هذه النواحى الأربع أثراً فى تطور الحياة الفكرية والأدبية ، فقد كانت نهضة الوزير خير الدين بها نهضة قوية حازمة .

فالمطبعة التونسية كانت عند ولاية خير الدين الوزارة الكبرى . قد مضى على تأسيسها خمسة عشر عاما . والجريدة الرسمية ، وهى جريدة الرائد كانت فى سنتها الرابعة عشرة . وكان صدور الجريدة غير منتظم ، وفى عمل المطبعة فتور ، فأظهر بها اعتناء بعث فيها النشاط . وأسند نظرها عامة إلى الشيخ محمد بيرم . وأسند إدارة الجريدة إلى فرنسى مستعرب . نشأ فى بيروت وتخرج من كلية اليسوعيين . هو منصور كرليتى . ووسع نطاق النشر فى المطبعة بالإكثار من نشر الكتب الأدبية والتاريخية . وجلب للقيام على الناحية العملية من المطبعة وتولى تصحيح الكتب وجريدة الرائد . العلامة المصرى الشيخ حمزة فتح الله الاسكندرانى . وبهذين الأستاذين كرليتى وحمزة فتح الله اتصلت جهود النشر فى تونس بمركزى النشر الهامين فى العالم العربى ، بيروت ، ومصر . فكثرت المراسلات والمبادلات ، واتسع باب جلب الكتب المطبوعة فى الشرق وترويجها بتونس .

وفى سنة ١٢٩١ — ١٨٧٤ ابتدأت المطبعة تصدر تقويماً سنوياً . ترقى واكتمل اتقانه واستمر صدوره نحوا من ثلاثين عاما بانتظام . إسمه « النزهة الخيرية » . كان يقوم بوضعه وتحريره كاتب من أبناء المهاجرين الجزائريين برع فى الأدب والحساب والفلك . هو الشيخ حسن لاظ أوغلى . ومن تلك

السنة أصبح صدور جريدة الرائد منتظماً أسبوعياً لا يتخلف ، وفتح فيه باب المقال .

فقد كانت الجريدة إلى ربيع الأول من تلك السنة تشتمل على قسم رسمى تدرج فيه الأوامر والقوانين والتسميات . وقسم غير رسمى ، تنشر فيه الأخبار الداخلية . بطريقة فيها مزج الأخبار بالتعليق ، دعاية للوزير وسياسته وتنويها بثمرات عهده ، وتنشر فيه الأخبار الخارجية ، عن ممالك الإسلام ، وممالك أروبة ، على طريقة مع المزج بين الخبر والتعليق كذلك . لغاية توجيهية دعائية . وأخبار متعلقة بتقدمات العلوم والاكتشافات ، ومقالات مترجمة عن الصحف الأوربية تشتمل على تقريرات علمية فى التاريخ والجغرافيا والاجتماع . منها المقالات المطولة التى كانت تنشر تباعا فى أعداد متوالية .

أما المقال المحرر ابتداء بالعربية . فقد كانت جريدة الرائد ، إلى ذلك التاريخ ، خلوا منه ففتح فيها باب المقال بنقل مقال عن جريدة الجوائب (١) مهد إليه بأن غاية الجرائد ليست مقصورة على الأخبار . وإنما هى منابر للخطابة والاستدلال على ذلك بما ورد فى كتاب أقوم المسالك ، عند الكلام على الجرائد فى أوربا .

ومن يومئذ ابتدأت جريدة الرائد تنشر ، بين حين وآخر ، مقالات ترتبط بالحالة الراهنة مثل مقال « التربية » عند تأسيس المدرسة الصادقية . ومقال « المدار على الرجال » عندما شاعت راجات ، كذبت ببلاغ رسمى ، عن سحب الملك ثقته بالوزير .

وقد أشار الشيخ محمد بيرم إلى أن تلك المقالات كانت تصدر عن أفكار الوزير . وربما كان منها ما هو بتحريره أو بمشاركته .

---

(١) انظر التعريف بها وبصاحبها فى مشاهير الشرق فى القرن التاسع عشر لزيدان ط٣ ص٧٨-٣

وفى سنة ٩٣ قدم لتحرير الرائد شاب تونسى . من نبغاء الزيتونيين المتخرجين على الشيخ قبادو وتلميذيه بو حاجب وبيرم ، وهو الشيخ محمد السنوسي ، فصار من الغالب أن تشتمل الجريدة على مقال توجيهى . ذى صبغة عامة ، من نوع المقال الأدبى ، الذى كان معروفا فى النثر العربى قبل الصحافة ، يشتمل على ضبط الموضوع بطريقة التعريف اللغوى ، وإيراد الأدلة من آيات القرآن ونصوص الأحاديث وكلام الحكماء والبلغاء . شعرا ونثرا ، ثم بسط الدعوة إليه بطريقة خطابية مفصلة ، فى أسلوب ترسلى سهل متين ، عليه طابع التحرير العلمى ، ممزوجاً بذوق التحرير الأدبى على نحو من طريقة كتاب أدب الدين والدنيا للماوردى ، أو كتاب إحياء علوم الدين للغزالى ، فكانت عناوين تلك المقالات مثلا : الاتحاد ، السعى ، أصول التسديد ، الرأى . الوفاء . إجارة الجار ؛ وربما توسلت إلى بيان حقائق تتعلق بالسياسة الإسلامية الحاضرة . مثل مقال عنوانه : « النظر فى العواقب » وقع التذرع به إلى بسط سياسة الروسيا ، وأنبنائها على وصيه بطرس الأكبر .

تلك هى المؤسسات الأربع ، التى كانت قد وجهت التفكير والأدب توجيهاً جديداً ، ونالت تأييد الرأى العام التونسى وثقته ، وفازت بتكتيل نخبة قوية ، من المثقفين وأصحاب الغيرة .

فلما نزلت على الرأى العام صاعقة تخلى خير الدين عن الوزارة . اهتز وتبلبل وخارت فيه روح الأمل ، فدفع به ذلك إلى الاشفاق على تلك المؤسسات إشفاقا أيقن فيه بانحراف سيرها ، وسوء مصيرها ، والشفيق مغرى بسوء الظن . فكان ما أحاط بتلك المؤسسات من الاشفاق وتوقع الشر ، قد ألهب نفوس القائمين عليها بلهب من الحماس الشديد ، لما هو مألوف من اتقاد الحماس على نسبة قرب الخطر ، وللأنفة من أن ينظر الناس إليهم نظرتهم إلى الأتباع والأعوان ، حتى يقال أن وجودهم بعد خروج خير الدين ، كالعدم .

لاسيما وأن كثيراً منهم كانوا منتقدين مبالغته فى الانفراد بالتصرف(١) فدفع بهم ذلك إلى إظهار شخصياتهم ، وأقبلوا على تلك المؤسسات ، يعض كل واحد على ما بين يديه منها بالنواجذ ، ويحيطون جميعاً بها يحرسونها ويذبون عنها ويحركون ثقة الرأى العام بها .

وكان ذلك يحمل أهل الحكم على أن يتظاهروا بالمسالمة أحياناً ، وبالتأييد تارات أخرى ، لتلك المؤسسات . بعد أن شفوا غليل نفوسهم بالتخلص من خير الدين ، ووجدوا فى التظاهر بتأييد تلك المؤسسات ما يكسبهم ما كانوا حريصين عليه من السمعة والثقة ، فلم يغيروا ما أسست عليه من التراتيب والقوانين ، ولم يخلوا بما وصولها من الاعتمادات المالية .

فاستمرت المدرسة الصادقية يتدرج طلبتها فى الدرجات الثنوية إلى نهايتها وأصبح توزيع الجوائز على طلبتها عيداً شعبياً مشهودا ، حتى أن الملك محمد الصادق حضره بنفسه سنة ٩٧ ، وسافرت إرسالية أولى من طلبة الصادقية على نفقة المدرسة ، لإتمام الدراسة فى المدارس الثنوية وديار المعلمين الابتدائية بفرنسا سنة ٩٧ ، ثم إلتحقت بها إرسالية ثانية سنة ٩٨ ، واستمر جامع الزيتونة سائرا على ترتيبه الجديد ، يرعاه المسؤولون عن تأسيسه وتوجيهه ، والمطبعة على نشاطها ، وجريدة الرائد منظمة محافظة على منهجها ، والنزهة الخيرية دائبة مترقية ، والمكتبة الصادقية قائمة معمورة ، وكلها بيد الرجال الذين كانوا اختيروا لتسييرها من شيعة خير الدين ، والرأى المستنير يؤيدهم ويساندهم . فلما بلغ الاضطراب السياسى والمالى غايتهما . ونزلت بالبلاد الكارثة العظمى : كارثة الاحتلال الفرنسى سنة ١٢٩٨ — ١٨٨١ ، كانت الأمة التونسية ترى فى تلك المؤسسات الثقافية ، أقوى حام لكيانها وأنقى مادة لتغذية روح الثبات فيها ، لتصمد فى وجه ما يهددها من عوامل الفناء القومى وكان الاستعمار الفرنسى يرى فى تلك المؤسسات ، أعظم حائل

---

(١) صفوة الاعتبار ص٨٦ ح٢ وقد بسط ذلك بصورة أوضح الشيخ السنوسى فى الرحلة الحجازية (مخطوط الخلدونية) .

بدنه وبين ما يريد من تخدير الأمة ليبتلع سيادتها القومية ثم يبتلعها هى بذاتها فإن يد العدوان الاستعمارى قد امتدت فى سرعة إلى تلك المؤسسات فدخلت الحرب الاستعمارية من أول يوم فى صميمها ، إذ لم يمض على إمضاء معاهدة الحماية شهران ، حتى فصلت السلطة الفرنسية الشيخ محمد السنوسى عن تحرير جريدة الرائد ، وقصرت الجريدة على الناحية الرسمية لاغير ، وبذلك عدمت البلاد صحافتها العربية بعد أن كانت مزدهرة نامية . وفى شهر جمادى الثانية سنة ١٣٠٠ الموافق شهر ماى سنة ١٨٨٣ أسست إدارة العلوم والمعارف ووضع على رأسها فرنسى مستعرب ، من الناشئين فى الجزائر ، هو لويز ماشويل فاستولى بتلك الصفة على جميع الأجهزة الثقافية والتعليمية ، حتى تعليم جامع الزيتونية .

وكان أول عمله أن أنشأ دار معلمين ، لتكوين معلمين ابتدائيين للغة الفرنسية ، من التونسيين ، سماها « المدرسة العلوية » وجعل المدرسة الصادقية معهدا يتهيأ فيه التلاميذ للالتحاق بدار المعلمين « العلوية » ويكون تهيؤهم بتعليم اللغة الفرنسية ، على النهج الذى ابتكره لذلك ، وهو منهج التعليم الفرنسى العربى (Franco – Arabe) الذى لم يزل إلى اليوم يفتك بناشئة العرب فى المملكة التونسية . وإذا كان هذا المنهج قد أبقى للمدرسة الصادقية مادة تعليم عربى ضئيل ، فانه قد قطع مادة الثقافة العربية بتاتاً ، إذ جعل اللغة الفرنسية أداة المعرفة العامة ، وأبقى اللغة العربية مادة تعليم لا تقصد إلا لذاتها على خلل فادح فى طرائق تعليمها . فانقطع بذلك حاضر الأمة عن ماضيها ، إذ صبحت ثقافة أبنائها مكيفة بكيفية لا تستمد من عناصر ذاتيتها القومية . ثم قصد التعليم الزيتونى فقطع ما كان بينه وبين التعليم الصادقى ، من صلة . وأخلاه من مادة العلوم الكونية ، وأنشأ إلى جنبه معهداً لتخريج معلمى القرآن ومبادىء العربية قصر فيه اللسان العربى على تعليم اللغة العربية والدين ، وجعل تعليم التاريخ والجغرافيا والرياضيات والطبيعيات باللغة الفرنسية ، فأصبحت اللغة الفرنسية الأداة الوحيدة للتعليم التونسى ، وسدت

الوسائل ، على من لا يتعلمها ، دون الوصول إلى تكوين ثقافة حية ، وبذلك انهار الكيان الثقافى للبلاد انهياراً تاماً ، زاد عليه ما طغى على النفوس من روح الهزيمة ، والشعور بالنقص . وتلاشى المثل القومية ، وخلو الميدان من قادة النهضة الفكرية ، إذ كان الشيخ محمد بيرم قد فارق البلاد نهائيا ، ونقل أهله ، واستقر بمصر ، والشيخ محمد السنوسى قد انقطع عن أعماله كلها ، وخرج إلى البلاد الأوربية والشرقية ، مترددا فى الهجرة نهائيا . . . والوزير حسين الذى أقام فى إيطاليا إلى وفاته ، والوزير رستم ، الذى بقى متنقلا بين تركيا ومصر ، حتى توفى بالاسكندرية . ومدير الصادقية محمد العربى زروق ، الذى التحق بالاستانة ، ثم انتقل إلى المدينة المنورة وتوفى بها .

فلم يبق من عصابة دعاة الإصلاح الأولين ، مقيما فى البلاد ، إلا الشيخ سالم بوحاجب متمتعاً بنفوذه الأدبى العظيم على الشبيبة المثقفة ، وإن فصل بينه هو وأتباعه ، وبين الحياة العامة ، فأصبح مظهر الحياة الفكرية والأدبية محصوراً فى طائفة معينة تلتف حول ذلك الأستاذ العظيم ، منصرفة جهودها الفكرية والأدبية إلى ما يتلاءم مع عزلتها ، من نتاج ذى صبغة فردية لم تنقطع صلته بالأفكار والإحساسات التى اصطبغ بها أدب النهضة من عهد قبادو .

وإذا تتبعنا النتاج الأدبى لهذه الفترة لنفحص ما اشتمل عليه من المميزات المتأثرة بالاحداث ، التى أحاطت بحركة النهضة فى هذا الطور ، لزم أن نقسم ذلك النتاج ابتداء إلى فنى الأدب الأصليين والنثر والشعر .

١ — النثر :

بعد أن كان النثر ، فى القرن الثالث عشر ، مقصوراً على الرسالة والمقامة ، وهما غرضان فرديان يتجهان إلى الناحية الفنية المحضة ، تخطى النثر حدود الفردية ، إلى الميدان الاجتماعى ، وتجاوز دائرة الفن البلاغى إلى دائرة

البيان العلمي ، فتكونت له أغراض جديدة ظهرت تقاسيمها مفصلة جلية أول القرن الرابع عشر وهي :

١ – التحرير الوصفي ٢) التحرير العلمي ٣) المقال السياسي

١) فالتحرير الوصفي يندرج تحته فرعان – ا – الوصف المادي – ب – العرض القصصي ، وقد ازدهر كل من هذين الفرعين وتفتق بسبب ما تكون عند الكتاب ، من التعلق بأوصاف البلدان ، والطرق ، والمباني ، والمباهج ، والاختراعات ، التي اشتملت عليها البلاد الأوربية ، وقامت بها حضارتها ، وذلك بسبب تقوى داعية الرحلة إلى أوربا ، التي ابتدأت كما أسلفنا من أواسط القرن الثالث عشر ، كما كان لانفصال الأقلام عن الحياة الصحفية أثر في انصرافها عن مناهج النثر العادي ، اللائق بقراء الصحف ، إلى هذا الضرب من النثر الموجه إلى الخاصة ، من أفراد الكتب ، المبني على تدقيق الوصف ، واطالته ، واستيفاء نواحيه ، وبذلك مال هذا الوصف المادي إلى التأثر بروح التحرير العلمي بما تشرب من مواضيع الجغرافيا والتاريخ والعلم الطبيعي.

وكما أثرت الرحلات في ازدهار الفرع الأول من فرعي التحرير الوصفي ، وهو فرع الوصف المادي ، فقد أثرت كذلك في الفرع الثاني . وهو فرع العرض القصصي ، بما اقتضته من وصف السير ، والتنقلات ، وحركات المجامع البشرية ، وتاريخ الممالك والبلدان .

واختص هذا الفرع الثاني بسبب آخر ، تولد عنه فن خاص من فنون النثر ، هو فن التراجم .

فان الشعور بالشخصية الوطنية الخاصة ، وهي التونسية ، إلى جنب الشخصية القومية الواسعة ، وهي الإسلامية ، قد ركز هذا التعلق في خصوص التاريخ التونسي ، إبرازا لعظمته ، وتحريكا للهمم إلى بعث مستقبله ، على نحو ما تقتضي عظمة ماضيه .

فتوجهت الأقلام إلى التاريخ التونسي ، وتراجم التونسيين ، وكتب

الشيخ محمد السنوسى كتاب « مسامرات الظريف بحسن التعريف » (١) الذى جعله بعثا لمجد المناصب الدينية العليا ، التى لم تزل حية ماثلة ، فأدرج فيه تراجم ثلاث سلاسل من سلاسل المناصب التونسية من أول التاريخ الإسلامى هى سلسلة المفاتى ، وسلسلة ايمة جامع الزيتونة ، وسلسلة قضاة الجماعة .

التحرير العلمى :

تولد عن اعتزال الأقلام للحياة العامة والميدان الصحفى ، وتوجهها إلى الحياة الفكرية ، والميدان العلمى ، إن انصرفت إلى المباحث العلمية ، تحققها وتبسطها ، وما نريد هنا أن نبحث عن التآليف العلمية من كتب أو رسائل فى فنون العلوم الدينية الاسلامية ، ولكننا نريد أن نقتصر على ما يتصل بالأدب من التحرير العلمى الذى يدخل فى دائرة النثر التعليمى La prose didactique . وذلك منحصر فى ما شاع فى هذا الدور ، من بحث فى المؤسسات الغربية . والنظم وما بسط من النظريات الإجتماعية ، ويتعلق به الكاتبون من استخلاص العبر ، واستنتاج الفوائد ، وتقرير القواعد العامة لشؤون المجتمع الإنسانى .

المقال السياسى

لسنا نعنى بالمقال السياسى ، المقال الصحفى المحدود . الذى يتناول جزئية معينة من كليات المسائل السياسية بحكم المناسبات والظروف ، وإنما نعنى به المقال الكامل الذى هو وسط بين التحرير العلمى والاقناع الخطابى .

فيقصد من جهة إلى بيان القضية بتقرير أصلها التاريخى ، ووضعها القانونى . اعتماداً على الأدلة والقواعد والنقول ، ويقصد من جهة أخرى إلى الاقناع بما فى ذلك من صواب أو خطأ . بالطرق البرهانية والخطابية والجدلية.

---

(١) طبع بتونس سنة ١٢٩٨

وهو فن يرتبط رواجه عند كل أمة ، بالحيوية الاجتماعية التى تصل بين الحياة العقلية والأدبية وبين الحياة العامة . وقد كانت النهضة السابقة مؤثرة فى تكوين هذا الصنف ، وفى كتاب أقوم المسالك مثل كثيرة منه .

فلما أصابت البلاد نكبة الاحتلال الفرنسى ، وكونت ما كونت فى النفوس من حنق ، وكشفت عن الألاعيب والأباطيل التى أريد بها ترويج ذلك العدوان . وخلع صبغة الحق عليه ، كان ذلك دافعاً إلى تكوين الارتباط بين قابلية القراء وتطلعهم . وبين أنظار الكتاب وتحريرهم ، لتتناول تلك القضية السياسية العظمى . فكان الشيخ محمد بيرم فارس ذلك الميدان ، بما أودعه كتاب صفوة الاعتبار ، من البحث المستفيض فى القضية التونسية . ببيان ارتباط تونس بالسلطنة العثمانية ، وفداحة العدوان الفرنسى عليها ، وفصل ذلك البحث إلى شقين الحق أحدهما بالكلام على تاريخ تونس ، فى الجزء الثانى . والحق الآخر بالكلام على تاريخ فرنسا ، فى الجزء الثالث .

فجاء ذلك البحث مثالا فريداً ، فى هذه الفترة من تاريخ الأدب التونسى لفن الرسائل السياسية . وكان له نفوذ عظيم على وضع أصول الاحتجاجات للنضال السياسى . الذى طفح به تاريخ هذا القرن .

وإذا كانت كتب الرحلات مستودع غرضى النثر السابقين ، فقد ألحق بهما فيها أيضاً التحرير السياسى ، لما كان متوفراً من الدواعى على الاعتناء بتلك الناحية وتقديمها على كل شىء ، وتبدو هذه الطريقة فى أثرين هامين صدرا فى هذا الطور .

١ — صفوة الاعتبار للشيخ محمد بيرم وقد طبعت الأجزاء الأربعة الأولى منها فى المطبعة الأعلامية بمصر سنة ١٣٠٢ وطبع الجزء الخامس بمطبعة المقتطف سنة ١٣١١ .

٢ — الرحلة الحجازية للشيخ محمد السنوسى .

وكلاهما عظيم القيمة من جهة ماتضمنه ، من المعلومات والأفكار وطرائق

البحث ، وإن كانت المنزلة الإنشائية لأولها وهو صفوة الاعتبار ، قاصرة عن منزلة الرحلة الحجازية بما وقع فى تحرير صفوة الاعتبار شائعاً من أسقام فى التركيب والابتذال فى التعبير ، وإذا كان هذان الأثران متكافئين ، فى ما وراء ذلك ولا سيما من ناحيتى التحرير العلمى والتحرير الوصفى ، فإن صفوة الاعتبار يمتاز من ناحية التحرير السياسى امتيازاً واضحاً .

على أن الرحلة الحجازية ، للشيخ محمد السنوسى ، أرقى منزلة فى الأدب ، وأمتن أساسا فى الثقافة ؛ تجلت فيها متانة التحرير ، مع السهولة والوضوح ، وبراعة الوصف ، ووفرة النكت الأدبية ، بحيث يجد مطالعها المتعة الأدبية والروحية والفكرية . التى يجدها مطالع رحلة لأحد الممتازين من أعلام الأدب المعاصر .

جعلها فى ثلاثة أجزاء : أفرد جزءاً منها بالكلام على ايطاليا ، فكان فيه أقدر على إدراك صميم الحياة الغربية ، وتذوق ألوانها من أستاذه الشيخ بيرم .

وتكلم فى الجزء الثانى عن تركيا والحجاز وسوريا ومالطة ، وخصص الجزء الثالث بتراجم الرجال المشاهير الذين اتصل بهم فى رحلته وأورد ذكرهم فيها بما دل على سموه الثقافى ودقة ملاحظته وقوة شخصيته .

وإنه ليحز أسفاً فى نفس كل غيور على التراث العربى إن بقيت هذه الرحلة لم تنشر ، ولا يوجد منها إلا نسخة خطية فريدة ، محفوظة بمكتبة الخلدونية تحت عدد ٣٣٤٦ .

الروح العامة للنشر :

يتبين من تتبع الأغراض التى مضى تفصيلها ، ومما كان بينها من التقارب والتفاعل ، وما جمع بينهما من اتحاد الموضوع والمحل والمنشأ والمرجع ، أن النثر لم يكن إلا اجتماعيا سياسياً فى روحه وغاياته ، إن الرجال الذين ظهر هذا الطور الجديد من أقلامهم ، لم يكونوا إلا من رجال السياسة .

وقد دفع ذلك بالأدب التونسى إلى أن يكون فى روحه واقعياً . مصوراً للحياة التى تحوطه . وينبع منها . ولا سيما فى الناحية الاجتماعية ، وأن يكون فى أسلوبه كذلك مجدداً متحرراً .

فقد هجر الأدب النثرى ما كان ملتزماً فيه من السجع وفنون البديع . وسلك منهجاً بسيطاً ، فيه الفصاحة وقوة البيان المعنوى . مع شدة الوضوح وقلة الغلو . والميل إلى استعمال المفردات والتراكيب فى حقائقها . دون المجازات والاستعارات والكنايات .

وقد كان المحور الذى يدور عليه هذا التطور بتونس . بين الشيخ محمد بيرم والشيخ محمد السنوسى .

وكان الشيخ بيرم أشد عنتا . وأعظم مشقة فى التخلص من الأوقار . التى كانت تضنى الأدب . فظهر ذلك فى ما ساد على نثره من ثقل ، وتفكك وصعوبة وجدها هو فى محاولة الخروج من المناهج المألوفة ، فوجدها قارئه فى مطالعة تلك الجمل التى لقيت عنتا ففاضت به .

وتهذب ذلك فى نثر خريجه الشيخ محمد السنوسى . الذى لم يجابه ارتجاجات التحرر الأولى . فمال إلى روح التجديد هادئة دانية مطمئنة واستطاع أن يدخل عليها القصد الفنى الذى تكون به أسلوب أدبى على غير المنهج القديم المألوف . فظهرت فى نثره روح صافية . فيها الوضوح والانسجام والاطراد وفيها السمو الأدبى بصفة لم تتحقق فى نثر أستاذه ، فيصح لنا أن نعتبر الشيخ محمد السنوسى ثمرة المدرسة النثرية فى هذا العصر . والمثال الكامل لتطور التحرير فى مجموع نواحيه .

الخطابة :

إنما نفصل الخطابة عن النثر مراعاة للخصائص الجوهرية التى تفصل بين الفنين بصفة أصلية، وإلا فإن الخطابة فى العصر الذى نؤرخه ، كشأنها فى عصور أخرى كثيرة من تاريخ الأدب العربى ، لا تعتبر إلا فناً من فنون النثر ، لأن المميزات الأولية للخطابة ، وهى التوجه إلى الجماعة بكلام وليد

ساعة ، واستمداد المعانى وطرائق الاقناع بها من حال المخاطبين ومقامهم ، أمور مفقودة بتاتا فى هذا الطور ، إذ لا تتحقق إلا فى الخطابة الارتجالية ، والخطابة فى هذا الطور لما كانت مهيأة ، فهى عبارة عن مقالات تكتب ، لتقرأ على جمع المستمعين ، يلتزم فيها كل ما يلتزم فى النثر من جهة الأسلوب البلاغى .

وقد بقيت الخطابة مقصورة على الخطابة الدينية ، واستمرت على نهج بعد بها عن التأثر بشئون الحياة العامة . إذ كانت تتوجه إلى الشعور الدينى الفردى قصد إصلاح التخلق أو إصلاح العمل .

فلما تأثرت الروح الدينية بالفكرة الاصلاحية ، وسيطر ذلك على طائفة من علماء الدين ، ظهر أثره وإن كان ضئيلا ، لتطور الخطابة الدينية بالتوجه إلى نواح لم تكن تتوجه لها من قبل من الأحوال الاجتماعية والعلمية . ببيان الأفكار الراجعة إلى ما يصلح شئون الدنيا من أصول الدين .

وقد ظهر هذا التطور الضئيل فى الخطب الجمعية فى هذا القرن على يد ربيب النهضة فى القرن الماضى وهو الشيخ سالم بوحاجب .

فقد ولى الخطابة بجامع من جوامع مدينة تونس إسمه جامع سبحان الله سنة ١٣٠٦ وهو فى أول شيخوخته الطويلة . فاندفع بطبع تكونه العلمى والفكرى . يعالج الخروج بالخطابة من طرائقها المألوفة إلى طرائق مبتكرة وأدخل فيها أغراضاً ومعانى ، مؤتلفة مع روح النهضة مثـــل « التربية » و « الفلاحة » و « الاحتراف » و « ذم البطالة » إلى غير ذلك مما يعتبر يومئذ خطوة جريئة جداً خطتها الخطب المنبرية الدينية .

نعم أن الأسلوب البلاغى فى التحرير وطرق العرض ، ووسائل البيان والاقناع لم ينلها تطور إلا بما هو وليد الطبع الخاص لذلك الخطيب من أغراب ثقلت به أسجاعه . وجنوح إلى الاقناع بالأقيسة الشعرية ، واستعمال الأسلوب العلمى واضحاً فى التقسيم وتحليل المعانى .

الشعر :

كان الشعر فى أغراضه ، وروحه ، وأسلوبه ، على ما كان عليه قبل عصر النهضة فى الشرق ، أى قبل البارودى ، بين قصائد مديح ، ومدح ، ورثاء ، ومقطعات ، فى الغزل ، والوصف ، والمساجلة ، والألغاز ، والتاريخ ، والتشطير ، والتخميس ، مما يقصد فيه إلى ذات الفن والتسلية ، وقد استولى عليه البديع المصطنع فضعفت معانيه ، وتضاءلت فصاحته ، وتهلهل نسجه ، وشاع فيه العبث والمجون .

ولم يكن صدر القرن الرابع عشر مكوناً لنهضة فى الشعر ، بل ولا مخلفاً لأعلامه الذين طواهم القرن الماضى ، مثل قبادو والمسعودى (١) ولكنه أبقى من أدب هؤلاء صبابة ، يتنادم عليها طائفة من الأدباء الذين تعاطوا الشعر فأجادوا وجودوا ، وإن لم يبلغوا شأن الفحول ، كانوا جميعاً من العلماء الزيتونيين وكان شعرهم متين الأسلوب ، سليم الذوق البيانى ، وإن كانت روح قصائدهم ومقطعاتهم إلى السذاجة أقرب .

وحول هذه الطائفة التى تعتبر عماد الشعر نشأت طائفتان سارتا على منهجين منفردين .

١ — طائفة من الأدباء المطبوعين ، قوية روحهم الشعرية ، هزيلة مادتهم ضعيفة صناعتهم . ظهرت عندهم خفة فى نسج القصيد ، وسلاسة فى انطباع التراكيب على معانيها ، وانطباع المعانى على فطر أصحابها ، وإن كانت من الناحية اللغوية والتركيبية والبلاغية ضعيفة كثيرة الأسقام .

٢ — طائفة من الأدباء المفكرين من رباشب النهضة الفكرية وأنصار الإصلاح فاضت على شعرهم نزعتهم الفكرية وثبتهم الإصلاحية فتعاطوه بدافع العمل لإقامة النهضة ، التى كانت مهتف ضمائرهم ومتعلق أفكارهم

---

(١) محمد الباجى المسعودى شاعر كاتب أنظر ترجمته فى عنوان الأريب ج٢ ص ١٣٤ ط تونس ١٣٥١

وإحساساتهم وان لم يكونوا أقوياء الانفعال بالروح الشعرية الفنية . فجاء شعرهم كما يقال قديماً فى شعر الفقهاء والعلماء ، ضعيف الفن ثقيل الطبع ، قليل المسلغ . وإن كانوا قد فتحوا به غرضاً جديداً يعتبر مميزاً لهذا الدور ، وهو غرض الشعر الاجتماعى .

تزعم هذه الطريقة الشعرية ، زعيم النهضة الثقافية يومئذ الشيخ سالم بو حاجب . وعضده فيها تلميذه الشيخ محمد السنوسى فابتكرا فى الشعر أغراضا لا عهد له بها من قبل ، من الشؤون العامة ، وروجا المبادىء الاصلاحية بالمعانى الشعرية .

كما يقول أستاذ هـــذه الطريقة أبو حاجب فى الحث على الفلاحة وخدمة الأرض .

علينا عباد الله خدمة أرضنا ... فما هى إلا فى الحقيقــــة أمنا
فمنها تكونا وفيهـا معاشـــنا ... وإن عافنا الأهلون فهى تضمنا

ولما كانت غرائب الإختراعات الغربيـة ، هى متجه أنظارهم ، ومحرك نهضتهم ، فقد وجهوا الشعر إلى هذا الغرض الذى لم يخطر عليه الشعر العربى من قبل ، وكان فاتح هذا الباب الشيخ محمد السنوسى ، وقد كان يتطاول إعجاباً بأنه فاتحه ، ويحق له أن يتطاول بأنه فتح للشعر العربى غرضاً ، صار به مصور حضارة جديدة ، كما صور الحضارات القديمة ، وكان فيه إماما للرصافى ، فى وصف القطار ، وشوقى ، فى وصف الطايرة ، بقصـــيدته : «الفريدة فى المخترعات الجديدة» .

وهى قصيدة أثبتهـا فى الجزء الأول من الرحلة الحجازية (١) تبلغ نحو مائة وعشرين بيتاً طالعها :

« أرأيت كيف تقارب البلدان ... بالمزجيات جرت على القضبان

---

(١) يوجد نص هذه القصيدة كاملا فى كتاب عنوان الأريب ج ٢ ص ١٤٧ ط تونس ١٣٥١

وذكر إنه أنشأها إجابة لاقتراح أديب المدينة وعالمها الشيخ عبد الجليل برادة حيث قال له : « إن على أدباء العصر الحاضر دينا للكهرباء لم يف به واحد منهم فكيف يحسن بهم أن يقفوا عند حد تشبيه الغصن بالقد ، والورد بالخد ، وبين أيديهم من عجائب الاختراعات مالم يره من سبقهم » واقترح عليه خوض هذا الغرض . فأنشأ قصيدته هذه فى طريق عودته من المدينة إلى الشام . وقد نالت شهرة واسعة فى عصره إذ كانت فتحا جديدا فى أغراض الشعر العربى ، وبرهانا على اتساع اللغة العربية لمختلف الأذواق والاحساسات ، وبهـذه الصفة أثنت عليها الصحف العربية التى نشرتها يومئذ بتونس وسوريا ومصر ، والصحف الفرنسية التى نشرتها مترجمة نثرا على حل المؤلف اياها بقلمه .

وإذا كانت هذه القصيدة قد سلك فيها مسلك ، جعلها أقرب إلى المنظومات العلمية منها إلى الآثار الأدبية ، فإن لها على كل حال فضلا عظيما فى توجيه الشعر ، إلى هـذا الغرض الذى بلغ قمة الاجارة الفنيـة فيه من تلاحق عليه من الشعراء بعد .

* * *

المحاضرة الثانية

الخلدونية

١٣١٤ — ١٣٢٩

« خفيت مذاهب الطامعين ، أزماناً ، ثم ظهرت ، بدأت على طرق ، ربما لا تنكرها الأنفس ، ثم التوت ، أو غل الأقوياء فى سيرهم بالضعفاء ، من الأمم ، حتى تجاوزوا بيداء الفكر ، وسحروا ألبابهم ، حتى أذهلوهم عن أنفسهم وخرجوا بهم عن محيط النظام ، وبلغوا بهم من الضيم ، حداً لا تحتمله النفوس البشرية .

«إن الأمم الكبيرة إذا عراها ضعف ، ثم صالت عليها قوة أجنبيـــة ، أزعجتها ، ونبهتها بعض التنبيه ، فإذا توالت عليها وخزات الحوادث ، وأقلقتها آلامها ، فزعت إلى استبقاء الموجود ورد المفقود ، ولم تجد بداً من طلب النجاة من أى سبيل » .

بهذه الكلمات ، استهل الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده أول عدد صدرت به جريدة العروة الوثقى ، وكذلك كان الأمر بتونس ، صورة صادقة لهذا الوصف البليغ ، وصدى حاكياً لتلك الصرخة المدوية .

استقر الاستعمار ، وتوطد أمره ، واستولى المستعمرون على أجهزة الحكم والادارة كافة ، فلم يبق لأبناء البلاد ، أميرهم وحقيرهم ، من الأمر شيء ؛ واشتد ساعد الجالية الفرنسية وتضخم عددها ، ونفذ أمرها ، وعلت كلمتها ، فاعتبرت البلاد التونسية وطناً لها ، ووضعت أبناءها الأصليين

ومصالحهم بمدرجة الإهمال ، وصارت النظم كلها ، مبنية على التقاليد الغربية مستخفة بالديانة الإسلامية ، والعوائد التونسية ، وأصبح جميع المتصرفين الإداريين ، من الفرنسيين ، لا يشاركهم إلا من لم يسهل صرفه من الموظفين القدماء ، فبقى على كرسيه جسدا ، وصار ابن البلاد مهيناً ساقط الاعتبار وأصبحت لغته مهجورة ، والحكم حكم غيره ، والبلاد لأمة غير أمته.

واستفاق الناس إلى أن صبغة الاحتلال ، التى ظنوها ، بادىء ذى بدء أخف الضررين ، قد استحالت إلى الضر الماحق ، والشر المستطير ، فأيقنوا أن هذا التيار ، لو بقى على انصبابه لجرف كل ما للبلاد ، من سيادة ودين ، وتقاليد ، فزال عنه الاسلام ودولته ، كما زالا قبل عن الأندلس .

هنالك انتبهت مدينة تونس الحاضرة ، إلى الندامة على ما فرطت ، فى مقاومة الاستيلاء الأجنبى !

وما الظن بمدينة تونس ، التى كان يرعى لها من الكرامة والاعتبار ، فى أساليب الحكم ، وتقاليد الإدارة ، ما ترك أهلها يتوارثون على مر القرون شعوراً يسوى بين طبقات أفرادهم ، بشرف الإنتساب إليها ، حتى كأنهم غير محكومين ، فلا المجابى ، ولا واجب الخدمة العسكرية ولا قوانين السخرة ، كانت تنال أحدا داخل أسوار الحاضرة . ما الظن بأبناء هذه المدينة وقد دخلت مدينتهم العساكر الفرنسية ، وحكمهم الحكام الفرنسيون فذاقوا الظلم والهوان ، وأحسوا بأن حاضرتهم الكريمة ، خرجت من أيديهم إلى أيدى أغراب ، داسوا كرامتها وأهانوا حرمتها .

رفعت الحاضرة التونسية رأسها ، بتوالى الوخز من نعاسها ، وما رأسها إلا النخبة المفكرة من بقايا العصابة الإصلاحية التى تعرفنا بها فى المحاضرة الماضية . وقلبت نظرها فى الآفاق ، فاذا حالها كما يصفه عين تلك العصابة الشيخ محمد السنوسى ، فى رسالة إلى الشيخ محمد عبده : « أمة فؤادها عليل ، قد منيت أطوارها بالتبديل ، وتلاشت منها القوى ، وعظم بها الوجى ،

فأصبحت رهينة آلام ، أوهت منها قوة الاعتصام ، تطرف حدقاتها إلى نيل العز القديم ، مستكفة نحو شاحط ما شخص من ذلك الأديم ، لا تستطيع إليه نهوضا ، وقد رأت حبل اعتصامها به منقوضا . فعز دآواؤها ، وأحاط بها أعداؤها » .

وتطلعت تونس إلى عاصمة الخلافة العثمانية ، ترقب منها طلائع الانقاذ وهواتف البشرى ، وكلما طال بها الانتظار ، وعظمت الحيرة ، وألح اليأس فإذا هاتف من وراء البحار ، يهتف لها بنداء « العروة الوثقى لا انفصام لها » كان السيد جمال الدين الأفغانى ، قد كون خلال إقامته بالهند ، فى مدينة كلكوته سنة ١٢٩٩ — ١٨٨٢ ، جمعية سرية عالمية ، تدعى جمعية العروة الوثقى ، غايتها العمل لتوحيد الممالك الإسلامية ، وتحريرها ، وقد كان من أعضاء هذه الجمعية ، الشيخ محمد بيرم والأمير عبد القادر الجزائرى ، ولما سافر الشيخ محمد السنوسى إلى الشرق سنة ١٢٩٩—١٨٨٢ ، اتصل بواسطة هذين بالجمعية ، وصار من أعضائها ، ورجع إلى تونس سنة ١٣٠٠ ، عاملا على مبادئها ، ومروجاً لدعوتها ، فانخرط فيها بواسطته رجال من أعيان العلماء والأدباء . وصدرت جريدة العروة الوثقى فى باريس سنة ١٣٠١ — ١٨٨٤ ، يحررها الشيخ محمد عبده ، فراجت بتونس بين أنصار العصابة الإصلاحية ، وكتب الشيخ محمد السنوسى فى تقريظها ، الرسالة التى أوردنا فقرآمنها ، والتى يقول فى أثنائها شعراً :

لئن دجت الأحلاك بالغيهب الأبق وضلت حلوم بعد أن طرقت طرقا
فقد وضح الصبح الذى بان عندما أنيط جمال الدين بالعروة الوثقى

وتعطلت جريدة العروة الوثقى أواخر سنة ١٣٠١ ، فسافر الشيخ محمد عبده من باريس إلى تونس ، فدخلها فى صفر سنة ١٣٠٢ ، نوفمبر ١٨٨٤[1] ، وأقام فيها نحواً من أربعين يوما ، تعرف فيها بالملك وولى العهد وأمراء البيت المالك وأعيان العلماء ، وحضر الدروس بجامع الزيتونية الأعظم ، وأقام فى

قصور العظماء واجتمع فى نواديهم ، وامتزج برجال العصابة الإصلاحية ، وخلا فى مجالس متواصلة بأعضاء العروة الوثقى ، فى بيت الشيخ محمد السنوسى وتطلع حول الشكاوى والآلام من سوء حالة البلاد الإسلامية ، وتناولت أحاديثهم ما بدأ يفيض على مدينة تونس ، فيثير سخطها ونفورها ، من النظم البلدية ، المجافية للدين ، العابثة بالتقاليد ، وقد بدأ القلق يظهر على البلديين ، من جرائها ، ولم تمض على سفر الشيخ محمد عبده شهور عديدة حتى ظهرت فى مدينة تونس حركة احتجاجية هائلة ، خرجت فيها مظاهرة كبرى من مدينة تونس إلى ضاحية المرسى ، حيث القصر الملكى ، وقابل وفدها الملك ، وقدم له عريضة مطالب واحتجاجات ، أرغمت الحكومة على الرجوع فى مقرراتها ، وعلى تنقيح نظم البلدية ومجالسها . بما يتمشى مع تطلع الوطنيين ، فهدأت الأحداث . ثم انصرفت الإدارة الفرنسية إلى رؤوس الحركة ، فصبت عليهم وابل الغضب والانتقام نفياً وعزلا عن الوظائف ، وكان أوفر الناس حظا من تلك المصائب ، الشيخ محمد السنوسى وأفراد من أعضاء جمعية العروة الوثقى ، واستمرت المكاتيب دائرة بينهم وبين الشيخ محمد عبده . وهو ببيروت فكان يتألم لما أصاب أصحابه من نكبة ، ويرثى للذى قضى منهم نحبه عقب ذلك (١) ولكن الأسلوب الذى تناولت به الإدارة الفرنسية تلك الحركة ، قد كان جد ماكر ، إذ لانت فى أول الأمر واستجابت حتى أمنت الأفكار ، وانحلت العصب . ثم كرت على رؤوس الحركة تنكل بهم ، وترهقهم على تفرق شيعهم . وتخاذل أنصارهم ، وذلك ما وقف بالحركة عند الخطوة الأولى التى لم تكن فى خطة أصحابها إلا مبدأ له ما بعده ، فآلت الحركة إلى الإخفاق فى جوهرها ، وإن نجحت فى ظاهرها .

ولا جرم أن الاتصال قد استمر وثيقاً بين عقد العروة الوثقى بتونس

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام للسيد رشيد رضا ، الجزء الثانى ، الباب الخامس . الكتب عدد ١١ و١٢ و١٤ . ص ٥٦٠ طبعة ثانية . المنار بمصر ١٣٤٤

وبين الشيخ محمد عبده ، بعد انحلال الجمعية ، وعدول الأستاذ الامام إلى سياسة الاصلاح الدينى والاجتماعى ، تمهيداً لتحقيق ما كان أخفق فيه أستاذه السيد من الإصلاح السياسى العاجل ، وقد كان الأستاذ الإمام ، عند إقامته بتونس . على أبواب انتهاج ذلك المنهج ، لما تحققت بوادر الخيبة بتعطيل الجريدة ، وقد فارق تونس متوجهاً إلى بيروت .

وبهذا يظهر أن الذين أداروا مظاهرة البلدية ، فأخفقوا فيها . قد كانوا ونصب أعينهم عند إدارة تلك الحركة منهجان : منهج ارتجال هو منهج المقاومة بالعنف التى كانوا عليها ، ومنهج رويه ، هو منهج الإصلاح الدينى والاجتماعى الكفيل بالخروج بهم من الحالة التى يشكونها خروجاً وأن يكن بطيئاً ، لكنه محقق ، فلما أخفقوا فى أول المنهجين عدلوا إلى ثانيهما ، كما عدل أمامهم ، ولقد كان حولهم ما يؤكد رجحان ذلك المسلك الثانى ، فعلاوة على أن ذوى الشعور بواجبات النهضة . قد كانوا كلهم من أبناء الحاضرة . الذين تثقلهم حضريتهم وتكاليفهم عن خوض غمار الكفاح العنيف . فإن جميع هؤلاء كانوا من موظفى الدولة . إذ لا مرتزق يومئذ للمتعلمين إلا فى الوظائف القضائية والتدريسية والإدارية . وقد تكون عنصر جـــديد ناشىء من المتعلمين لم يعهدوجوده من قبل . هو عنصر المتخرجين من الصادقية المزدوجة ثقافتهم بين اسلامية وعربية . فقد كان المتعلمون صنفاً واحدا هو الزيتونى فلما أنشئت المدرسة الصادقية جاء إنشاؤها قاضياً بتكوين صنف من المتعلمين يختلف لون تعليمه عن لون التعليم السابق ، وتم تخرج الطبقة الأولى من الصادقية سنة ١٢٩٧ — ١٨٨٢ . واستمرت كل عام تخرج طبقة جديدة . أوفر عدداً من التى قبلها . وكان أكثر هؤلاء المتخرجين فى السنين الأولى . يسافر إلى فرنسا لإتمام دراسته . فتكونت فى فرنسا بعثة من الشبان التونسيين ذات عدد تأثرت فى معارفها وتربيتها بالمدارس الفرنسية والحياة الفرنسية . وبقى عدد من متخرجى الصادقية بتونس كان أثره فى الحياة العامة ضئيلا بسبب قلة عددهم وتفرقهم وخمول المناصب التى كانوا يتولونها . فلما جاء الاحتلال . وانتصبت

الإدارة الفرنسية . رأت نفسها مضطرة إلى استخدام موظفين يحسنون اللسان الفرنسي مع اللسان العربي . ولما كان هذا الصنف معدوماً بين أبناء البلاد فقد استعانوا في أول الأمر بطائفة من اللبنانيين . تفرقت بين الإدارات التونسية من آل الخوري ، والشدياق ، وغانم ، وحميد . وهناك اتجهت فكرة الوزير الأكبر للدولة التونسية إلى أن الإبقاء على رمق الذاتية القومية للادارة ، يقتضي تدعيم صف موظفيها بموظفين من خريجي الصادقية الذين يحسنون الاضطلاع بما يراد من الموظف التونسي في ذلك الطور . وقد لقيت هذه الفكرة قبولا لدى الفرنسيين ، لمقاصد سياسية يرمون إليها من وراء ذلك ، وأن لم تتحقق لهم ، وكان نظام البعثة الصادقية في فرنسا ، يجعل عليها رئيساً منها لتنظيمها وتوجيهها وإدارة شئونها ، وتولى الانفاق عليها ، وكان هذا الرئيس شاباً نابغاً ، من طلبة القسم الأول في ليسى سان لويس بباريس ، هو محمد البشير صفر ، وقد مكن له حسن سلوكه . وعلو همته وقوة إرادته ، وصدق لهجته ، منزلة فائقة من المحبة والإكبار بين رفاقه . جعلته فيهم الزعيم المطاع ، وثارت ثائرته أول الأمر وقابل ذلك القرار بمعارضة حادة . ثم رجع إلى الاقتناع بصواب رأي الوزير ، بعد مكتوب خاص ، ورد إليه منه يتضمن إشارات دقيقة إلى المغازي السياسية التي ينطوي ذلك القرار عليها ، وتوزع خريجو الصادقية ولم يكن عددهم يبلغ الثلاثين ، بين مدارس التعليم الأولى التي أنشئت في الحاضرة وعدد من المدن الكبرى ، وبين المناصب الادارية ، فصاروا كلهم موظفين يثقلهم ما يثقل الموظفين ، من مصالح وواجبات .

فإذا عطفنا هذا على أن جميع المتخرجين من جامع الزيتونة ، كانوا موظفين . تبين لنا أن المتعلمين التونسيين ، بصفة عامة ، على اختلاف ثقافتيهم قد انحصروا في طبقة الموظفين ؛ فكان ذلك معيناً على توجيه محاولتهم الإصلاحية إلى منهج المساعي السلمية الهادئة .

وقد بقيت بين أبناء الصادقية ، على تفرقهم ، رابطة متينة ، يتواصلون بها ويتعاونون ، وبقى كبيرهم فى عهد الدراسة، البشير صفر ، كبيرا لهم. ورأساً لعائلتهم الأدبية ، وهم رجال من الأساتذة والموظفين .

وما البشير صفر إلا رجل الحماس المتناهى ، والثورة المتقدة على الوضع السيء الذى كانت عليه البلاد ؛ كان منذ عهد طفولته بالصادقية ، متين التعلق بالوزير خير الدين ، متناهى الإعجاب بمواقفه ، بليغ الاعتناء بتوجيهاته قوى التعصب لمبادئه ، ثم كان عظيم الحسرة على انفصاله ، وتوقف سير إصلاحاته شديد الانفعال بما قضت به الظروف من انفصاله هو نفسه واخوانه ، عن غايتهم السامية فى انهاء التعليم العالى ، فكان كل ذلك يقربه من الطائفة القائمة على بقية مما ترك الوزير خير الدين ، من المبادىء والمناهج ، وهى طائفة الزيتونيين الإصلاحيين ، الملتفين حول أستاذهم الكبير سالم بوحاجب ، كما كان مالمع به البشير صفر ، من الذكاء والفصاحة ، وما أثر عنه من صدق اللهجة ، واستقامة السيرة ، أموراً ملفتة لنظر تلك النخبة إليه .

وبهذا التجاذب ، المتلاقى الطرفين ، التحم الشقان بلحمة التعصب للوزير خير الدين ومناهجه ، وتقاسما على العمل للنهضة بالبلاد من كبوتها ؛ وأصبح الشق الصادقى أبرز الشقين فى هذه الكتلة ، بما يمتاز به من نشاط الشباب ، ومتانة الارتباط بين أفراده ، وانسجام مبادئهم الإصلاحية مع أصول تكونهم العلمى .

وبممارسة هؤلاء الرجال . للادارة وأهلها ، انكشف لهم من نوايا الاستعمار ما كان خفيا عن خاصة أهل الإدراك ، فضلا عن عامة البسطاء ؛ وذلك أن عموم الناس كانوا يحسبون البعد بالمؤسسات القومية عن التطور وعزلها عن تأثير التيار العصرى ، هو الكفيل بالابقاء عليها ، وسد الطريق فى وجه المستعمرين ، دون النيل منها ، وكانوا يرون أن من لطف الله بالوطن ماينادى به المستعمرون، من المحافظة على التقاليد، وعدم المساس بالمؤسسات

الدينية التى أهمها تعليم جامع الزيتونة الأعظم ؛ فلما دخلت الشبيبة الصادقية دواوين الإدارة واتصلت بالفرنسيين المشرفين عليها ؛ أطمأن الفرنسيون بعض الاطمئنان ، إلى مايختص به هؤلاء الشبان . من الثقافة الفرنسية ؛ فبدأوا يرفعون دونهم حواجز الكلفة، ويلوحون إلى أنهم إلى الفرنسيين أقرب منهم إلى العرب المتأخرين ويبدو فى مزالق حديثهم وفلتات لسانهم، مايصرح بأن المستقبل للغرب وثقافته . وأن القومية العربية التونسية إلى زوال وأن بقاء مؤسساتها على حالها ، مع تقدم الزمان . وهو الكفيل بأن يلقيها فى هاوية الاضمحلال . فمن نجا بنفسه وتفرنس روحا وفكراً التحق بالأمة المتمدنة . ومن عكف على عصبيته القوميه . أندرج فى البائدين .

وربما كان أكثر الذين يستمعون إلى هذه الأحاديث من الشبان الصادقين يجدون فيها مايروج عليهم فيغررهم ، لولا أن زعيمهم البشير صفر ، كان لهم من ذلك بالمرصاد . فكان يحذرهم ، ويدفع بهم إلى التعلق بقوميتهم والنظر إلى ما يجرى فى دمائهم من مجد العروبة والإســلام ، لا إلى مايجرى على ألسنتهم ، ومن لغة الفرنسيين وأفكارهم ، وكان يعين على ذلك وجود حزب المعمرين الفرنسيين وصحفه . التى أنشئت حربا عوانا على الجنس العربى تدعو إلى محقه وتصب عليه الشتائم . فلا تستثنى . وتقاوم من يقتصد فى ذلك المسلك ، من الفرنسيين، ولو كان مقيمهم العام. فكان لتلك اللهجة الاستعماريه أثرها العظيم فى نفوس التونسيين الذين يقرؤون الصحف الفرنسية . قضت على آخر ذرة فى نفوسهم . من الميل إلى التقرب من الفرنسيين والاعتزاز بثقافتهم ، فعادوا إلى دائرة عزتهم القومية حول زعيمهم الذى لا ينازع البشير صفر .

حصل هذا الالتئام ؛ بين جميع الصادقيين ، فى حال أن الزيتونيين ، الذين هم معظم المتعلمين ، لم يكونوا على التآم مثله ، إذا كان المؤيدون للحركة الإصلاحيه منهم ، نفراً قليلا ، ضعفت عصبيتهم بتفرق رؤوسها ، فبقوا

فى وسط مجاف لحركتهم ، بين منكر ومحترز وغير مكترث ، فلما تألفت كتلة رجال النهضة ، بانضمام العنصر الصادقى إلى النخبة الزيتونيه الإصلاحيه أحست تلك الكتلة بأنها فى حاله عزلة ، لا تسمح لصوتها بالامتداد ، إذا هى صدعت بدعوتها ، فعاودت بالذكرى ، فترة عملها المنصرمة قبل الاحتلال أيام كانت جريدة الرائد التونسى بيدها ، تشيع أفكارها ، وتجمع فى حضيرتها أهل الغيرة والمدارك ، من حيث تجهل مكامنهم ، وصحت العزم على أن لا طريق لاستعادة العمل المنقطع ، إلا بتأسيس صحيفة ، تتجدد بها الدعوة وتتحد مسالك العمل وأقاموا منهجهم على أساس فلسفة الأستاذ قبادوا ، وسياسة الوزير خير الدين ، وهو نشر المعارف ، وجبر نقصها ، باقتباس العلوم الكونية عن الغربيين

فتأسست جريدة عربية أسبوعية ، سميت (الحاضرة) صدر عددها الأول فى ٢٤ ذى القعدة ١٣٠٥-٢أوت ١٨٨٨وهى أول جريدة عربية ، غير رسمية بتونس ، وكان مديرها الأستاذ على بوشوشه ، وهو من نبغاء خريجى الصادقية ، وكان موظفاً فاعتزل الوظيف لأجل ذلك ، ويساعده فى توجيه الجريدة وتحريرها طائفة من رجال النهضه ، أشدها أتصالا بالعمل صديقه البشير صفر ؛ ومن حوله الشيخ سالم أبو حاجب والشيخ محمد السنوسى ، وقد عرفناهما والأميرالاى محمد القروى ، (١) وهو من المتخرجين من المدرسة العسكريه فى باردو ، تعلم اللغه الفرنسيه قبل الاحتلال ، وأتصل أتصالا خاصا بالوزير خير الدين ، وكان معدوداً من كبار الموظفين ومن ذوى المعارف الواسعة فى الطبيعيات والرياضيات ، ولرجال الإدارة الفرنسية اعتماد عليه .

وأن الذى يطالع الأعداد الأولى من جريدة الحاضرة ، ويقارنها بالأعداد الصادرة من الرائد سنة ٩٨ – ٨١ ، قبيل الاحتلال يوقن بأن جريدة الحاضرة لم تكن إلا معاودة لذلك العمل المقطوع ، فكان الشيخ محمد السنوسى يكتب

(١) أنظر ترجمته بقلم الاستاذ محمد بن الخوجة . المجلة الزيتونية . المجلد

مقالاتها الإفتتاحية على الطريقة التي كان يكتب بها مقالات الرائد ، إلا أنه في الحاضرة لم يكن يمضي باسمه لظروف خاصة تتبين من مطالعة ترجمته (١) والمدير علي بو شوشه يكتب مقالات عن الأحوال السياسية الجارية يعتمد فيها على استعراض أقوال الصحف الأوربية الكبرى ، من فرنسية وانجليزية وإيطالية ، ويحكم ويستنتج ، ويبسط ويقرب في تحرير متين سهل واضح مطبوع قد خلا من الكلفة التي تشوب تحرير الشيخ محمد السنوسي ، وإن كان يشيع فيه من خطأ التركيب والتسامح في استعمالات اللغة ، ما كان رائجا في الصحافة الشرقية في ذلك التاريخ . والبشير صفر كان يكتب مقالات هي إلى الدروس التعليمية أقرب منها إلى المقالات الصحفية ، فكان يهتم في مقالاته بدراسة النظم الإجتماعية والسياسية في أوربا . وبدراسة الأطوار التاريخية والأوضاع الجغرافية لكل مملكة من ممالكها . قصدا إلى تكميل ثقافة قارىء الصحيفة ، حين يربط الأحداث التي يلخصها علي بو شوشه بالظروف التي تفصلها تلك المقالات . ومع أن هذا الضرب من المقالات بعيد عن فن النثر الصحفي فإنها من حيث التحرير ، قد كانت متفوقة بمتانة التعبير ، وقوة البيان وبلاغة الأسلوب بحيث أنها كانت مؤثرة تأثيراً قوياً جداً في توجيه الطريقة الأنشائية ، وفكها عن قيود القرن الماضي . علاوة على ما كان لها من الأثر في إشاعة أساليب جديدة لعرض التاريخ ومقارناته واستنتاجاته . وفي إشاعة مناهج التفكير المقتبسة من المصادر الحديثة للتاريخ الأوربي ، معروضة تحت جناح الشخصية القوية لكاتب المقال .

فهؤلاء هم الذين كانت تقوم عليهم جريدة الحاضرة ، إذا أستثينا مقالات معدودة تنشر نادراً ، لبعض من يراسل الجريدة في شأن فكري أو أدبي أو إصلاحي ، أو المقالات الوصفية والتاريخية التي بدأ ينشرها الأستاذ محمد بن الخوجه منذ التحق بالقافلة والتحم بركبها .

---

(١) ترجمته في المجلة الزيتونية بقلم محمد الفاضل ابن عاشور . المجلد التاسع

محمد السنوسي

ولقيت جريدة الحاضر رواجا عظيما عند قراء العربية المنبثين فى داخل المملكة وأطرافها ، وكلهم من خريجى جامع الزيتونه الأعظم وكان أنتسابها إلى الشيخ سالم أبو حاجب ، وتأييده لها ، أعظم عوامل ترويجها بين هؤلاء ومع أن الشيخ سالما كان محترزا من الظهور علنا فى الميدان ، فان تأكد الحاجة إلى إظهار تأييده للجريدة للربط بينها وبين قرائها ؛ قد دعى إلى سلوك طريقة مقنعه واضحة لمن يعرف مجارى الأمور فى ذلك الزمن وهى نشر تقرير الجريدة ، وتأييد لأصحابها وثناء عليهم ، نسبته الجريدة إلى « أستاذ العربية بالديار التونسية » وهو عنوان كان يعرف به الشيخ سالم ، بل ان كلمة « الأستاذ » التى لم تكن رائجة الاستعمال . كانت مخصصة به تماما ، فى ذلك الجيل ، فلم تكن تطلق على غيره بحال .

ولما كانت خطة جريدة الحاضره ، الدعوة إلى الأخذ بوسائل التمدن الأوربى وكان مسلكها السياسى معتدلا . يتجنب إثارة سخط الإدارة ، فإن كثيرا من كبار رجال الإدارة الفرنسية ، قد كان ينشطها ويؤيدها ، مثل رينيو الكاتب العام ، ومما شويل ، مدير المعارف ، فكان ذلك يعين على رواجها فى أوساط الذين يخشون سطوة الحكومة ، وإن كان شق آخر من كبار الموظفين ، ينظر إليها شزرا ، فيبعدها ذلك عن المبالغين فى الخوف والاحتراس .

وإذا كان اعتدال الحاضرة ، يمكن لها رواجا عند الذين يميلون إلى الاعتدال ، فإن هناك طبقة أخرى من ذوى الغيرة الوطنية ، المتحررين من قيود الوظائف ، قد كانوا ينكرون على الحاضرة إغراقها فى مسالمة الإدارة وربما سموا ذلك تملقا ، فكانوا يمقتونها ، وينفرونها ، وينفرون الناس منها . وطالما كانت هذه الطبقة ، من « المتحمسين » تحاول أن تلتفت حول صحف ينشرها بعض الأفاقين ، فكان سوء سمعة أولئك الناشرين ، وسقوط منزلتهم لا يسمح لعملهم بالاستمرار ، حتى وجدت ضالتها المنشودة فى شخص شاب

تونسى من أصل طيب ، نشأ فى مصر ، وتخرج على الشيخ محمد بيرم ، واشتغل تحت نظره فى جريدة الأعلام وفى مطبعتها ، وهو الأستاذ عبد الرحمان الصنادلى ، فأصدر سنة ١٣٠٧ — ١٨٨٦ جريدة «الزهرة» التى لم تزل موجودة إلى اليوم يديرها ابنه ، وابتدأ صدورها مرتين فى الأسبوع ، وظهر عليها من أول الأمر ، قلة الاكتراث بالإدارة ورجالها ، وقلة الثقة فى منشآتهم وتصرفاتهم ، وبذلك ازدهر فيها فن التحرير الصحفى الحقيق ، الذى مبناه الانتقاد والمطالبة والاحتجاج ، وشب فيها المقال النقدى ، فكان له من قلم صاحب الجريدة ، المشذب بمخالطة الأقلام القوية فى الشرق ، خير ما سما بذلك الفن وهذبه وأبدعه ، فأقبل عليه القراء اقبالهم على المشاريع التقدمية الناهضة ، وسرعان ما أصبحت جريدة الحاضرة لسان المعتدلين الخانعين ، فانحطت فى قيمة الفن الصحفى ، وأبردت جريدة الزهرة غليل النفوس الوطنية فشرقت بها الإدارة وغصت ، حتى كان ظهورها يعتبر فى تاريخ الصحافة بتونس ، اعتبار ظهور جريدة المؤيد فى تاريخ الصحافة بمصر . (١)

واغتنمت الحكومة أول فرصة ، دخلت فيها جريدة «الزهرة» ، بمهاجماتها للإدارة ورجالها ، تحت طائلة القانون ، فعطلتها سنة ١٣١٤ — ١٨٩٦ وقلدتها بذلك شرفا عظيما فى نظر الوطنين التونسيين ، زاد فى أشاعة سمعتها وسمعة صاحبها كما زاد فى مجافاة الناس لجريدة الحاضرة ، إذ أعتبروها جريدة شبيهة بالرسمية

ومع ذلك فان جريدة الزهرة ، قد أعانت المسيرين لجريدة الحاضرة ، أعانة قوية ، على تهيئة الفكر العام ، لتلقى برنامجهم الإصلاحى ، إذ كانت الزهرة فاضحة للمقاصد الاستعمارية التى لم تستطع الحاضرة أن تفضحها ، مع أن اطلاع مسيريها على تلك المقاصد ، هو الذى دفع إلى تكوين جريدتهم ، وتخطيط الطريق التى قرروا انتهاجها لنهضتهم ، فإذا كانت الحاضرة تدعو إلى التعليم ، ولا تصرح بأن التعليم الذى تقدمه إدارة المعارف غير صالح

---

(١) الصحافة والأدب فى مصر للدكتور عبد اللطيف حمزه ، معهد الدراسات العربية العالية

فان جريدة الزهرة قد أوضحت هذه الناحية ، بحيث أصبح واضحا للناس من الجمع بين دعوتى الجريدتين ، أن للعصر مقتضيات جديدة ، وأن للحضارة مبلغا غير مبلغها القديم ، من أن مايعطى لنا من طرف الحاكمين ، ليس من شأنه أن يمكننا من مقتضيات العصر ، ولاأن يبلغ بنا مبلغ الحضارة ، فأنتج ذلك نتيجته الطبيعية ، وهى أنه يلزمنا أن لا نبقى واقفين حيث نحن ، وأن نعتمد على أنفسنا فى تكوين الوسائل التى تحقق لنا بلوغ مانصبو إليه .

فلما شاعت هذه الدعوة ، وتطلع الناس إلى الطريق الأقوم لتحقيقها ، أدرك دعاة النهضة الإيجابية ، وهم رجال جريدة الحاضرة ، أن قد آن الأوان لابتداء العمل على تطبيق البرنامج الذى كانوا بيتوا العزم على تطبيقه ، وهو برنامج الوزير خير الدين . واتجهت أنظارهم إلى المبدأ الذى قامت عليه أسس الدعوة الإصلاحية ، من عهد قباد وهو إدخال لقاح العلوم الكونية على الثقافة الإسلامية ، رأوا أن ماساد على أهل جامع الزيتونة والمتخرجين منه ، من الشعور بحطة أنفسهم ، إذ أصبحوا لا يحسنون ما يحسنه الصبيان المتخرجون من المكاتب ، من الحساب والمعارف الطبيعية والجغرافية ، قد كون عاملا أول من عوامل القبول . وأن ماوقع فى مصر ، من إدخال تلك العلوم فى مناهج تعليم الأزهر الشريف ، بسعى الشيخ محمد عبده ، كان مثالا جديرا بالاقتداء وكوّن عاملا ثانيا من عوامل القبول ، وأن فى المشرف الأعلى على سياسة البلاد ، وهو المقيم العام ، رينى ميلى ، الذى قدم إلى تونس سنة ١٣١٢ – ١٨٩٤ ، استعدادا طيبا تنم عنه سياسة البلاد الحرة ، فى التقرب من العرب ، وإكبار ماضيهم وحاضرهم ، والنفور من المعمرين وأساليبهم فى اضطهاد الجنس العربى ، نفورا كوّن بينه وبين حزب المعمرين وصحفهم بتونس حربا عوانا ، وذلك ما كوّن عاملا ثالثا من عوامل القبول .

فاعتدادا بهذه العوامل كلها ، قرروا الدخول فى طريق الأعمال الإنشائية لمعاودة البرنامج المهجور ، ورأوا أن سبيل ذلك إنما هو تكوين «الجمعيات» ،

ولم يكن للبلاد عهد بها من قبل . فدعوا إلى تكوين جمعية ، سموها « الجمعية الخلدونية » ، للعمل على بث العلوم العصرية ، باللغة العربية ، سدا للثغرة التى فى تعليم جامع الزيتونة ، وأجروا نظامها على الطريقة المألوفة فى الجمعيات . تتكون من أعضاء مشتركين تنتخب جمعيتهم العمومية رئيساً وأعضاء ثم ينتخب الأعضاء من بينهم الوكلاء والأمناء ، فكان ذلك أول عهد البلاد بنظام الانتخابات والمداولات والمناقشات السليمة فى الشؤون العامة، وصدر قانونها الأساسى بقرار وزيرى فى ١٨ رجب سنة ١٣١٤ — ١٨٩٦ وانتخب أول رئيس للخلدونية الأميرألاى محمد القروى ، وحوله مجلس فيه البشير صفر وأصحابه من خريجى الصادقية ، وأفراد من الزيتونيين ، من أنصار النهضة وتلامذة الشيخ سالم بو حاجب .

واحتفل بافتتاح معهد الجمعية احتفالا رسمياً عظيما ، حضره الوزير الأكبر وشيخ الإسلام ، وحضره المقيم العام رينى ميلى ، وألقى فيه خطاباً نوه فيه بالثقافة الإسلامية وماضى تونس فى نشرها وفضل العرب على أوروبا فى نهضتها ، وأمل أن تشع أنوار الثقافة العصرية من ذلك المعهد حتى تعم بلاد المغرب الإسلامى قاطبة .

ثم ألقى الشيخ سالم بو حاجب المحاضرة الافتتاحية ، فكانت درسا علمياً فى تفسير قوله تعالى « وعلم آدم الأسماء كلها » بين فيه أن الله جعل العلم سبباً لاستخلاف آدم وبنيه فى الأرض، وانه قد جعله برهانا على استحقاق الخلافة فأقنع الملائكة ، حين رأوا آدم يعلم مالا علم لهم به ، بأنه أولى منهم للخلافة فلا عجب أن تبقى الخلافة متنقلة فى نسل آدم على حسب علمهم ، تنزع ممن يجهل لتعطى لمن يعلم ، وتكلم على أنواع العلوم ، وبين منزلة العلوم الكونية ومقامها فى نظر الدين بتوقف فهم كثير من معانى القرآن وأوجه إعجازه على معرفة تلك العلوم والوقوف على أطوار الاكتشافات فيها ، وأن الدين الإسلامى إنما تقهقر بنسبة تأخر المسلمين فى العلوم الكونية .

وأستمر الأميرألاى القروى ، عاما واحداً ، فى رئاسة الخلدونية ، لاعتبارات سياسية ، ثم خلفه فى الرئاسة البشير صفر ، فكان يتداولها ، سنين طويلة ، مع قرينه وصديقه محمد الأصرم .

ونظمت الخلدونية دروسا، باللغة العربية، فى التاريخ والجغرافيا والعلوم الطبيعية والرياضية ورسم الأراضى والاقتصاد واللغة الفرنسية ، فأقبل عليها الشبان من طلبة جامع الزيتونة إقبالا عظيما ، وظهرت نتائجها فيهم من عامها الأول ، وقام البشير صفر بدروس التاريخ والجغرافيا فرفع قيمتها بفصاحته وقوة بيانه وإقدامه على شرح الحقائق الاستعمارية وكشف الحجب عن الأخطار المحدقة بالعالم الإسلامى ، حتى صارت دروسه معهدا تتلقى فيه التوجيهات القومية قبل التوجيهات العلمية ، فصارت زعامة البشير صفر على شبان ذاك الجيل مطلقة لا تزاحم ، ومنزلته منه منزلة خير الدين من الجيل الماضى . هو رجل الساعة، وحامى الحمى ، و« زعيم النهضة » كما تلقبه الصحف إذ ذاك ، أو « أبو النهضة الثانى » أى بالنسبة إلى خير الدين .

فعظمت بذلك سمعة الخلدونية ، وطار صيتها ، وتسابق الناس إلى دروسها ، حتى اشتاق الرحلة إليها المتطلعون إلى ترقية معارفهم ، من طلبة الجزائر والمغرب الأقصى (١) .

وسرت فى جامع الزيتونة حركة عظيمة ، بتأثير هذه النهضة الجديدة ، فشاع فى الطلبة والأساتذة الانتقاد على خلو مناهج التعليم الزيتونى عن تلك العلوم ، والتشنيع بالقصور البين فى معارف طلبته ومداركهم ، وامتلأت أعمدة الصحف بهذه الدعوة ، وصدع بها البشير صفر فى دروسه فى منطق خطابى بعيد التأثير ، وكانت دروس الشيخ سالم بو حاجب ، ميدانا للأخذ

---

(١) ذكر ذلك العلامة الأستاذ محمد الحجوى فى افتتاح محاضرة له بالخلدونية سنة ١٣٥٠ — ١٩٣١ فقال مخاطبا رئيس الخلدونية : انى فى زمن شبيبتى ونعومة أظفارى كنت رفعت طلبا لسلفكم السيد البشير صفر رحمه الله أن يقبلنى تلميذا فى هذه المدرسة عند تأسيسها . نشرة الجمعية الخلدونية سنة ١٩٣٤ .

والرد فى هذا الموضوع ، وكان من بياناته ، أحيانا ، وتنكيتاته تارات أخرى ما أيد الفكرة الانتقادية تأييدا عظيما .

فكانت هذه الحركة دافعة بمدير المعارف ، مشويل ، إلى أن يغتنمها فرصة لمد أحابيل سياسته التعليمية إلى داخل ذلك المعقل الحصين ، فاقترح على الوزارة الكبرى تشكيل لجنة لدرس هذه المشكلة ، وأعد هو اقتراحات لتعرض على اللجنة ، ترجع إلى ترتيب درجات التعليم ، وتخصص المدرسين وإدخال الأساليب التطبيقية ، وجعل محلا منفصلا عن الجامع لتدريس بعض المواد .

واجتمعت اللجنة ، التى هى أول لجنة لإصلاح التعليم الزيتونى فى ١٩ ذى الحجة سنة ١٣١٥ — ماى ١٨٩٨ ، تحت رئاسة الوزير الأكبر الشيخ محمد العزيز بوتور ، وكان أعضاؤها شيخى الاسلام ونظار التعليم بالجامع الأعظم وسبعة من مدرسيه ، على رأسهم الشيخ سالم بوحاجب ، والكاتب العام ومدير المعارف ، وهما فرنسيان ، والأستاذ البشير صفر ؛ وانتهى الأمر بأن دارت الدائرة على مدير المعارف ، إذ تقرر فصل جامع الزيتونة عن نظره ، وجعله مرتبطا رأسا بالوزارة الكبرى ، وسن نظم جديدة للامتحانات اعتبرت فيها مواد الحساب والهندسة والتاريخ والجغرافيا لزومية ؛ واعتبار الخلدونية مدرسة حرة ، لنظر جمعيتها ، يعهد إليها بتهيئة الطلبة الزيتونيين للامتحان فى المواد الجديدة فصار إتصال الطلبة الزيتونيين بالخلدونية ، وتلقى توجيهاتها ، أمرا عاما ، وأصبحت سيطرة الفكرة الاصلاحية ، على الشبيبة الزيتونية ، سيطرة مطلقة غير مجزأة ولا محدودة .

وبدأ الشيوخ المحترزون من إنتشار الفكرة الاصلاحية ، يشعرون بأن سيلها قد عم ، وأن قيادة الأفكار قد انتقلت إلى الخلدونية ، فجاهروا بالإنكار عليها وعلى رجالها .

وكان موقف الشيخ سالم بوحاجب ، بعلو مقامه فى العلم وتقدمه فى السن

ومشيخته لجميع مدرسى الجامع وشيوخهم ، شجى فى حلوق هؤلاء المنكرين على حركة التطور الفكرى ؛ وزاد فى إلهاب الحركة الرجعية ماكان معروفا عن الشيخ سالم من مقالات فى انتقاد أفكار وأفهام على بعض العلماء الماضين الذين كان الناس يرفعونهم إلى مقام التقديس ؛ وماكان يبديه من اعتدال فى غلو كثير من الناس فى التصديق بخوارق العادات ، والاعتقاد بصلاح أفراد كان يعرض بالتهكم بهم وبمعتقديهم ؛ وكانوا يظنون أن ذلك أمر لايعدو ميدان الأقوال ، فلما أصبح صاحب تلك المقالات هو المؤيد للناشئة التى تسير على خلاف هواهم ، والمنزل منها منزلة الإكبار ، أحسوا بأن الأمر انتقل من القول إلى العمل وسيصبح مذهبا له دعوة وأتباع .

ثم زاد اللهب وقودا أن صدرت بمصر مجلة المنار ، للسيد محمد رشيد رضا سنة ١٣١٥ — ١٨٩٨ ، تدعو — بتوجيه الشيخ محمد عبده — إلى تأييد حركة الاصلاح التعليمى ، وتقرنها بدعوة الاصلاح الدينى ، إذ تخوض فى مسألة الأولياء والكرامات وزيارة القبور ، وتثير مسائل كلامية تذهب فيها خلاف مذهب الأشعرى ، ومسائل فقهية ترجع فيها خلاف مشهور المذاهب الأربعة ، فأيقنوا بأن لحركة الإصلاح التعليمى قرينا ، هو حركة الإصلاح الدينى ، وأيدوا يقينهم بما لاحظوا على طلبة الخلدونية وأساتذتهم من استحسان لمجلة المنار وإقبال عليها .

وبلغ السيل الزبى سنة ١٣٢٠ — ١٩٠١ ، لمّا ظهر بمدينة تونس شاب كان من طلبة جامع الزيتونة والخلدونية المنقطعين للشيخ سالم بوحاجب والأستاذ البشير صفر ، أصدر جريدة سماها « سبيل الرشاد » لم يلبث أن عطلها وسافر إلى الأستانة ومصر ، وعاد منهما ، غريب الشكل والنزعة والمنطق والقلم ، يتكلم بأفكار جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ، ويعجب بالكواكبى وحسن حسنى الطورانى وعلى يوسف ، ويدعو إلى التطور والحرية وفهم أسرار الدين وأسرار الوجود . ويغرب بمقالات الحكماء والطبيعيين ، ذلك هو الشيخ عبد العزيز الثعالبى ، الذى لم يكد يرجع من

مصر حتى أحاطت به هالة من أهل العلم والأدب ، أصبحت ألزم له من ظله ، فكان يتنقل بهم فى مجامع العاصمة ، ناديا سيارا ، مأخوذين بحلاوة تعبيره وفصاحة منطقه وقوة عارضته ومقدرته على تحليل المواضيع استرسالا بلاملل ولافتور ، وبدأ الناس يلتقطون من كلامه سقطات فى مسائل الخلاف بين الصحابة ، والأولياء ، والكرامات ، ويشيعونها على وجهها أو على غير وجهها ، حتى بلغت أسماع كبار الشيوخ الناقمين على التطور فأثارتهم ثورة أدمجت الخلدونية والمنار والثعالبي ، وتقدمت دعوة إلى النيابة العمومية ، وجرت المرافعات ، والرعاع يترصدون للثعالبي فى ذهابه إلى المحكمة ورجوعه، يهاجمونه بالسب والأذى ، ثم حكم عليه بالسجن فكان أول مظهر لتميز الحركة الفكرية الجديدة وإقامة الفوارق بينها وبين مناهج التفكير السابقة ، وكان ذلك عاملا على تكوين عطف الكثيرين عليه ، وتقوى الحركة الاصلاحية به وبنكبته .

وزادت روح النهضة الفكرية إتقادا ، ودعوتها إنتشارا ، بتكاثر الصحف الأسبوعية ، منذ سنة ١٣١٩ — ١٩٠١ ، لما صدر قانون جديد للصحافة ، خفف من قيودها ورفع وجوب الضمان المالى المرهق ، الذى كان كل طالب لامتياز صحيفة مطالبا بإيداعه ، فأصبحت الصحف على كثرتها ، وجميع أصحابها من متخرجى الخلدونية ، تخوض فى المباحث الدينية وتناصر الفكرة الإصلاحية ، وتنوه بمجلة المنار وبالشيخ محمد عبده ، وصار عنوان الحركة الفكرية بتونس هو الإصلاح الدينى ، واستمدادها من المنار وتوجيهات الشيخ محمد عبده ودروسه وكتبه ، فعظم الإقبال على رسالة التوحيد، وكتاب الاسلام والنصرانية « مع العلم والمدنية » وعمت شهرتهما .

وبلغ صدى هذه الضجة الهائلة ، من التمجيد والثناء على الشيخ محمد عبده وأفكاره وآثاره ، إلى البلاد المصرية ، ولمس الشيخ محمد عبده نفسه ، فى الصحف التونسية ، إجماعا على تأييد دعوته وإتباع فكرته ، لم يتحقق له

فى الصحافة المصرية ، التى كان أكثرها عليه لا له ، ولا فى غير الصحافة المصرية من صحف البلاد الاسلامية الأخرى . فأيقن بأن أخصب أرض لبذور دعوته . هى البلاد التونسية ، ورأى المثل العليا التى كان يصبو إلى تحقيقها فى مصر قد تحقق شىء كثير منها بتونس ، فى تأسيس الخلدونية ، وما انبعث عنها من الأنوار .

فشوّقه ذلك إلى الرحلة بنفسه إلى تونس والجزائر وحمل المنار على أن تسلك سياسة المجاملة مع الدولة الفرنسية ، حتى لا تحجر دخول المنار إلى البلاد التونسية والجزائرية ، ولا تمنع الأستاذ الامام من زيارتهما (١) .

وزار الأستاذ الامام تونس ، زورته الثانية ، فى رجب ١٣٢١ ـ أوت ١٩٠٣ ، واهتزت لمقدمه أندية العلم والأدب والإصلاح ، وأقبل على الترحيب به واستضافته عظماء البلاد وعلماؤها ، وجرت الأحاديث والأبحاث ، والتقى به المنتقدون عليه ، واشتد الجدال بينه وبينهم فى مسائل كثيرة فلم يخرج ذلك بهم عن تعظيمه ورعاية مقامه ، فكانت زيارته موسم نَفاق العلم والأدب والمباحث الاصلاحية والفكرية .

وكان أكثر الناس التفافا حوله ، والتحاما به ، مدة مقامه بتونس ، هم رجال الخلدونية وجريدة الحاضرة ، والشيخ سالم بوحاجب ، وكانت معرفته به قديمة ورسائله معه غير منقطعة ، والشيخ محمد الطاهر بن عاشور وهو يومئذ شاب فى الرابعة والعشرين يعد أبرز مدرسى الجامع شبابا وذكاء وعلما وأدبا ، وأسبقهم إلى إتباع أستاذيه ، الشيخ سالم بوحاجب والشيخ محمد النخلى ، فى تأييد الفكرة الإصلاحية ، فكان من أنصار الخلدونية ومن أعضاء مجلس إدارتها ، وكانت محبة الطلبة الزيتونيين فيه بالغة مبلغا عظيما . أما الشيخ محمد النخلى قد كان تغيبه عن العاصمة ، بالقيروان بلده ، حائلا بينه وبين ملاقاة الأستاذ الإمام .

---

(١) المنار ج ١٢ وج ١٣ وج ١٥ المجلد ٦

وأقامت الخلدونية مجمعا عاما ، ألقى فيه الأستاذ الإمام محاضرته القيمة ، التى جعل عنوانها « العلم وطرق التعليم » فكانت تأييدا وتقوية لحركة الإصلاحيين ، وأصبحت أساس العمل لحركة الإصلاح الزيتونى ، وقد نشرتها جريدة الحاضرة تباعا ، ونقلتها عنها المؤيد والمنار وثمرات الفنون ، وطبعت طبعتين مستقلتين إحداهما بتونس والأخرى بمصر .

واشتعلت حمية الانتصار للإصلاح الدينى والتعليمى فى الشباب الزيتونى وأصبح إسم الشيخ الطاهر بن عاشور مهتف دعوة المجددين وهدف أفكار الرجعيين ، إذا اعتبروه ، كما اعتبره الأستاذ الامام نفسه ، سفير الدعوة فى الجامعة الزيتونية .

وأعقب رجوع الأستاذ الامام من تونس قيام ضجة هائلة حول مسألة الفتوى الترنسفالية أواخر سنة ١٣٢١ – ١٩٠٣ ، وهى التى تتعلق «بلبس المسلم القبعة ، وأكله ذبائح النصارى التى لا تتوفر فيها شروط الذكاة الإسلامية» وكثر اللغط فى شأن هاتين المسألتين ، وانتصبت جرائد كبرى بمصر ، مثل المؤيد واللواء ، لمهاجمة المفتى ، بله جرائد أخرى كانت مخصصة لذلك ، مثل النهج القويم والظاهر والحمارة ، وقابلتها فى الدفاع ، واجهة صحفية على رأسها المنار والأهرام والمقطم ، وبلغت أصداء تلك المعركة إلى البلاد التونسية ، فاغتنمها خصوم الإصلاح فرصة للتشهير بمفتى الديار المصرية وتضليله ، واتخذها أنصار الإصلاح ذريعة للتشهير بمقاومة العلم بتحريف الكلم عن مواضعه ، وعمل الأغراض الشخصية والسياسية فى تهديم القيم العلمية والدينية . وهو ما سماه السيد رشيد رضا (عبث السياسة بالدين) .

واشتدت حماسة كل من الطائفتين بتونس ، لمنهجها ، وبلغ الخصام والغمز واللمز منتهاها ، واندفع الشيخ الطاهر بن عاشور يكتب رسالة فقهية ، مدعمة بالأدلة على المذهب المالكى ، لتأييد مفتى الديار المصرية ،

نشرت يومئذ (١) منسوبة إلى «عالم تونسى»، ثم صرح صاحب المنار ، فى تاريخ الأستاذ الامام ، (٢) بأنها للشيخ ابن عاشور ، وقد شاع ذلك عند أهل العلم بتونس من تاريخ النشر فزاد به الشيخ ابن عاشور استهدافا لمقاومة المحافظين ومناصرة الإصلاحيين ، وكان حوله ، من شيوخ الزيتونة ، ركنان من أساتذته ، هما الشيخ سالم بوحاجب ، إلا أن تقدم سنه بدأ يرجع به إلى الضعف والعزلة ، والشيخ محمد النخلى ، لولا أن مافى طبعه من الخمول كان يبعد به عن غمار الحياة العامة فكان ذلك واضعا لاسم ابن عاشور بالمقام الأول فى نظر طلبه الإصلاح، يعنونون به عن مبدئهم، ويساندون بمنهجه العلمى دعوتهم . وقويت بذلك حركة الشبان الإصلاحية وازدهرت ، إذ أصبحت ولها الصحف التونسية الخادمة لمبادئها ، ولها المجلة العلمية العالمية ، وهى المنار ، الموجهة لحركتها ، ولها حماتها من أساطين العلم بجامع الزيتونة شيبا وشبانا ، ولها ، فوق ذلك كله إكليل من شخصية إمامها مفتى الديار المصرية وما أدراك ماهو .

هناك أحست حركة المعارضة باحتياج شديد إلى قوتين ضروريتين لتتعادل مع الحركة الإصلاحية ، هما قوة عالم كبير القيمة شهير الاسم ، تلتف حوله عناصر حركتهم كما التفت عناصر الإصلاحيين حول اسم الشيخ سالم بوحاجب، وقوة لسان نشر ، لأن الصحافة كانت كلها تقريبا فى جانب المجددين ، ووجدوا للوفاء بالحاجة الأولى شخصية الشيخ محمد النجار المفتى المالكى ، وكان عالما كبيرا واسع الاطلاع ، مشهورا بعلمه وصلاحه ،وكان من تلامذة الشيخ سالم بوحاجب الذين يعترفون بعلمه ويعتزون بوده ، إلا أنه يختلف عنه فى منهجه الفكرى ، فكان ، كلما ثارت المباحثات فى مسألة من المسائل الدينية التى تتناولها مجلة المنار ، انتصب لبحثها وتحقيقها وإيراد الحجج الشاهدة بأن مسلك المنار فى تلك المسألة مخالف لمذهب أهل السنة ، يقوم بذلك فى دروسه اليومية ومجالسه وفى درسين حوليين يلقيهما فى شهر رمضان

---

(١) مجلة المنار ج ٢٤ مجلد ٦

(٢) ج ١ ص ٧١٦ ط المنار ١٣٥٠

بمناسبة ختم مجلس الحديث الشريف ، يشهدهما الأمير وجميع العلماء وجمهور عظيم من الخاصة والعامة .

وبقى معارضوا الدعوة الإصلاحية متطلعين إلى الوفاء بالحاجة الثانية ، وهى تكوين نشرة تناقش فى المباحث الدينية على قاعدة التزام المذهب الذى عليه جمهور العلماء فى مسائل أصول الدين الاعتقادية وفروع الفقه العملية ، وكان الحرص على محاكاة مصر فى وسائل نهضتها ، يحسن لأهل العلم إيجاد مجلة علمية بتونس ، إذا كان النشر مقصورا يومئذ على الصحف ، حتى انتدب لسد ذلك العوز نابغ من شباب شيوخ الزيتونة ، هو الشيخ محمد الخضر حسين ، وكان فى شبابه بتونس على ماعرف منه الشرق فى كهولته وشيخوخته. إعتدالا ، وهدوء طبع ، وخلوص نية، وسعة علم، وبراعة قلم، فأصدر فى شهر المحرم سنة ١٣٢٢ - ١٩٠٤ مجلة علمية سماها (السعادة العظمى) ابتهجت لصدورها جميع الأوساط العلمية والفكرية ، ثقة بعلم صاحبها وتحقيقه ، وصلابة عوده فى أمور الدين ، مع ما اشتهر من تأييده لحركة المصلحين . فكان ظهور (السعادة) فى معمعة تلك الخلافات كطلوع الحكم العادل ، تنزهت به المجادلات عن الفحش ، وتطهرت من الهمز واللمز ، وتسامت عن التشهير والأذى الشخصى ، فاقتبلها المجددون واثقين من أن التحيز والمبالغة والعناد ستزيف كلها على معيار هذه المجلة العلمية الراقية وتلقفها خصوم التجديد حجة على أن شباب العلماء المتنورين ، ليسوا على مذهب صاحب المنار وأتباعه ، وقنع هؤلاء المحافظون بأن يعتضدوا بالشيخ النجار ومجلة (السعادة العظمى) ، مكتفين بذلك فى باب الجدال العلمى والنقاش النزيه ، وإن بقيت لهم وسائلهم الأخرى فى باب التشهير والسعاية والنكاية ، فقد عارضت هيأة النظارة العلمية بالجامع الأعظم فى صدورها ، وطالبت الحكومة بتعطيلها ، وكان ذلك أصل الاضطهادات التى نالت صاحبها من طرف شيوخ النظارة ، ومع ذلك فقد أحاط بمجلة السعادة العظمى القبول الحسن فقرظتها الجرائد وانثالت عليها الرسائل والقصائد ، فى الثناء والتأييد

من العلماء والأدباء وذوى الأفكار، وكانت نزعات التقارب تختلف باختلاف ما ينتمى إليه المقرظون من الشقين المتقابلين الواثقين بمجلة السعادة على السواء .

فكانت هذه المجلة مركزا للحركة الفكرية ، وقوة توجيه متصلة بجميع أهل الثقافة العربية ، يجتمع تحتها شقان متباعدان ، فى صعيد الاحترام وحسن الأدب والتجرد ، ولم تدم إلا عاما ناقصا ، فصدر منها واحد وعشرون عددا ، أثيرت فيها مباحث مهمة حول المسائل الدينية التى كانت يومئذ شغل أفكار العلماء ، ولم يخل عدد من أعدادها من موقف مخالفة مع مجلة المنار .

وكانت (المنار) منتشرة بالمملكة التونسية ، عاصمتها وآفاقها ، إنتشاراً واسعاً ، كانت تفتخر به ، حتى ذكرت فى الجزء ٢٢ من المجلد الخامس بأن الجزء الواحد من المنار كان يدار على عشرات الناس بتونس ، وارتبطت بالنهضة الفكرية التونسية إرتباطاً وثيقاً ، فكانت تكثر من نشر الأخبار عن تونس ، ولا سيما ما يتعلق منها بالتعليم والإصلاح الدينى ، وكان ما ينال دعاة الإصلاح الأولين من تنكيل واضطهاد ، يجد صداه فى مجلة (المنار) بأكثر مما يجده فى الصحافة التونسية ! فمدرس بصفاقس عزل لأنه أنكر البدع التى فى زيارة قبور الأولياء ، إهتمت المنار به ودافعت عنه ، ووالت المقالات المطولة فى شأنه ، وجريدة (الحاضرة) ، و(الجمعية الخلدونية) ، كانتا مظهر إعتناء غير منقطع من المنار ، وشئون التعليم وما جرى فيها من المناقشات بين الصحافة الفرنسية والصحافة التونسية كانت مجلة (المنار) تهتم بالحديث عنها ونقلها(١) ، ومحنة الشيخ عبد العزيز الثعالبى ، ومرير شكواه من الحياة الفكرية بتونس قد نشرتها مجلة المنار فى رسالة وردت منه ، وإن لم تسمه ولم تسم القطر الإسلامى المقصود بالشكوى (٢) ، وفتوى الشيخ محمد عبده

---

(١) المجلد ٥
(٢) المجلد ٦

الترنسفالية ، لما أنكرها الناس ، نشرت المنار رسالة فى تأييدها لعالم تونسى ومسألة أقصى أمد الحمل ، التى اشتهرت فيها فتوى السيد رشيد رضا ، كان مثارها مناقشة بين رجال المجلس العدلى بقفصة من البلاد التونسية والسائل هو رئيس المجلس (١) .

وبهذا يظهر ما كان لمجلة المنار من التأثير القوى فى توجيه الحركة الفكرية بتونس ، وما كان لها من قوة فى مناصرتها ، وقد عظم هذا التأثير واشتدت به الحركة الفكرية فى الفترة التى أصبحت النهضة الفكرية فيها معلقة على التعادل بين مجلتى المنار والسعادة ، ثم لما إنقطعت (السعادة) بقيت (المنار) هى مناط الانبعاث الفكرى ، بعد أن استنار واعتدل بسنة الجدل العلمى السامى ، التى مضت بين المنار والسعادة .

وجاء موت الشيخ محمد عبده قريباً من زيارته لتونس ، فقد توفى فى جمادى الأولى سنة ١٣٢٣ — جويلية ١٩٠٥ ، ولم تمض سنتان على رجوعه من تونس ، فكانت وفاته مناسبة لبروز تعلق أتباعه التونسيين ، وصعود ذلك التعلق إلى المقام الروحى الأسمى ، فبرز كثير من أنصاره الذين كانوا مستترين ، وبجحت نفوس متبعيه بذلك ، كما بجحت بشهادة أضداده ، عندما كتبت على موته الصحف التى كان ديدنها الاستخفاف به وتسفيه موقفه وآرائه ، مثل جريدة (اللواء) و (الظاهر) . فكان ذلك إنتصاراً خالداً لعظمته ، واصطبغت محبة المصلحين للشيخ محمد عبده بصبغة الحزن ، وطلعت عليهم الصحف المصرية بالمراثى الشعرية ، وأهمها قصيدة حافظ ابراهيم التى أصبحت نشيدا للمجد الإصلاحى لا ينقطع فم طالب زيتونى عن ترديده .

وإن من يطالع الجزء الثالث من « تاريخ الأستاذ الإمام » للسيد محمد رشيد رضا ، ويقف على المراثى والرسائل والمقالات التونسية التى أنشئت فى تلك المناسبة ، يدرك أنها تمثل عنصراً هاماً من مميزات الأدب التونسى ، فى

---

(١) المجلد ١٢

هذه الحقبة من التاريخ ، كما يتضح ذلك من دراسة الحياة الأدبية التى نحن شارعون فيها .

عوامل التطور الأدبى :

لانستطيع أن نمر من الكلام على الحياة الفكرية ، إلى الكلام على الحياة الأدبية ، بدون أن نقف أولا عند ناحية ، وإن كانت مستقلة عنهما فقد كان لها إتصال قوى بكل منهما ، إذ تشربت من روح النهضة الفكرية ما رشحت به على الحياة الأدبية ، وتلك هى :

الحياة العلمية :

كانت الفترة التى درسناها فى المحاضرة الماضية ، خالية عن أى مظهر تطورى للحياة العلمية ، فمظاهر الحياة الأدبية فيها كانت مرتكزة على التطورات النفسية والفكرية فحسب . أما الفترة التى ندرسها فى محاضرتنا هذه ، فقد توفرت فيها عوامل تطور للحياة العلمية قضت فيها بآثارها ، فكانت نتائج تلك الآثار عنصراً متظاهراً مع عنصر التطور الفكرى والنفسى فى تكوين الخصائص الأدبية التى امتازت بها هذه الفترة .

كان محور النهضة الفكرية ، فى هذه الحقبة ، هو (الخلدونية)، وما هى إلا مؤسسة علمية بالأصالة ، بقطع النظر عما يرتبط بها من المؤثرات والآثار فى النواحى الفكرية والنفسية . وقد أوجدت (الخلدونية) تعليما ، وبعثت فنوناً ، وأشاعت طرائق أدخلت كلها على الحياة العلمية عوامل تطور جديدة ، فتحركت الهمم والقرائح العلمية ، بما دخل عليها أو لمسها ، من المعارف والمناهج ، وتطلعت إلى طرق جديدة فى الانتاج .

ثم كانت المجادلات العلمية ، التى اتصلت بحركة النهضة الفكرية ، مثيرة لمواضيع من المسائل الدينية العالية على نحو إقتضى دراسة تلك المسائل بأصولها من مصادرها الأمهات . فرفعت بذلك عن طرائق التعليم غشاوة

كانت عليها من القصور والتقليد ، وفتحت فى وجوه الباحثين أبواب النظر والبحث والبرهان ، فى مسائل كان أكثر الناس عنها بمعزل ، وإذا تناولتها طائفة منهم، فإنما تتناولها تناولا سطحيا ، مجرداً عن الاهتمام بالغايات النظرية والعملية التى تنتهى إليها . فلما خرجت إلى ميدان البحث ، واتصلت بمجرى الحياة العملية ، انبعثت صورها الراكدة فى الأذهان ، وتطلعت بذاتها إلى الاتصال بأدلتها النظرية ، من جهة ، وغاياتها العملية ، من جهة أخرى .

وأمر ثالث ، إنضم إلى هذين فلم يكن أقل أثراً فى النهضة العلمية منهما ، هو مظهر القوة البيانية ، التى ظهرت فى أقلام الشرقيين من الكتاب والمؤلفين، وفى أقلام الذين شاركوهم ، من التونسيين فى خوض غمار الصحف والمجلات ، فتولد من ذلك التفات إلى أهمية الثقافة الأدبية ، فى التكون العلمى العام ، وإلى نقص الذين حرموا تلك المقدرة . فكانوا ، فى العلم ، بمنزلة الأميين فى الحياة العادية .

ومن أثر هذه العوامل الثلاثة هبت على طلبة الزيتونة ريح تطالع إلى توسيع مجال البحث ، وترفيع طرائق النظر . وتحركت فى نفوس الأساتذة همة لملاقاة ذلك التيار بما يستحق ، وخرجت من زاوية الهجران ، فنون وكتب ، من العلم والأدب ، وأقدمت الأفكار على النظر المستقل ، والألسن على البيان الحر ، حتى فتحت باب الترجيح وتحككت بباب الاجتهاد ، فامتازت بين أساتذة الجامع ، طبقة صارت لدروسها نغمات يتذوق منها الطلبة ما لا يجدون له مذاقا فى دروس غيرهم ، وإن طفحت بالعلم والتحقيق ، هذا فى ما تشترك فيه تلك الطبقة الممتازة ، ذات الروح الأدبية . مع عموم الأساتذة ، من المواد والكتب ، فضلا عما ينفردون به ، مما اختصوا بتدريسه . كما اختص الشيخ محمد النخلى بتدريس كتاب المزهر للسيوطى ، والشيخ محمد الخضر بتدريس المثل السائر لابن الأثير . والشيخ الطاهر ابن عاشور بتدريس ديوان الحماسة ومقدمة ابن خلدون .

وانتعشت بهذه الطريقة الجديدة عزيمة التأليف والتحرير ، التى عاودت نفوس علماء الزيتونة على بعد عهد ، وبرزت بصفة واضحة فى الشيخ ابن عاشور الذى ما درس مادة إلا وضع فيها كتاباً .

وتوجهت الهمم إلى توسيع مصادر المطالعة بتناول نفائس الكتب النادرة ، المكنونة فى مكتبتى الجامع الأعظم الأحمدية والصادقية ، فنما بذلك ذوق معرفة الكتب وفن الخطاطة والوراقة ، وسرى الإنتباه إلى قيمة تلك الكتب وأحقيتها بالتعريف وللتنويه ، إقتــــداء بما صنعت دار الكتب الخديوية بمصر فى فهرستها العلمية التحليلية التى وضعها الشيخ محمد حسنين فى سبعة أجزاء طبع الأول منها سنة ١٣٠١ - ١٨٨٤ ، وتأثرا بما صار يظهر ، من الاهتمام بتلك الخزائن ومحتوياتها ، من طرف المستشرقين الفرنسيين ، لا سيما المستشرق « روا » الذى كان وزيرا مفوضاً لفرنسا وكاتبا عاما للحكومة التونسية ، ومن طرف خريجى المدارس الفرنسية من التونسيين ، الذين يجدون فى البحوث التاريخية والأثرية التى تنشر باللغة الفرنسية ، مايلفت أنظارهم إلى أسماء كتب ورجال وحقائق تاريخية ؛ فيتوجهون فى سبيل التعرف بها إلى اللامعين من علماء الزيتونة ، وبذلك يشعر هؤلاء بأهمية تلك المباحث التى كانوا يحسبون أن الزمان قد جر عليها ذيل العفاء . فتكونت لجنة علمية برآسة القاضى الحنفى الشيخ اسماعيل الصفايحى(١) تضم رجالا من العلماء الأدباء من أهل جامع الزيتونة ، منهم الثلاثة الذين جعلناهم وجه الطبقة البارزة ، وفيها ، من الصادقيين ، الأستاذ محمد بن الخوجة ، أحد العمد فى جريدة الحاضرة والخلدونية وصاحب الآثار القيمة فى خدمة التاريخ التونسى ، وابتدأت تلك اللجنة تواصل أعمالها للتعريف التفصيلى بكل كتاب من كتب الخزانتين عن طريقة علمية متينة(٢) ، وكانت تلك الاجتماعات أول

(١) أنظر ترجمته فى مجلة البدر التونسية المجلد الثانى الجزء الأول

(٢) استوفت هذه اللجنة عملها فى التعريف بالمكتبتين لكن لم يطبع من الفهارس التى أنجزتها الا ٤ أجزاء طبع الأول بتونس ١٣٢٦

عهد البلاد بالمداولات العلمية الخالصة المنتجة التى تدخل فى نطاق أعمال المجامع العلمية .

وكانت هذه الدراسات التاريخية ، إلى جنب دروس التاريخ بالخلدونية تحرك العناية بمباحث التاريخ ، والحرص على إحياء الآثار التونسية ، والتنويه بالماضين من عظماء التاريخ ورجال العلم والأدب ، ففتحت الصحف أعمدتها لنشر المقالات عن المعالم الأثرية الإسلامية وأعلام التاريخ الإسلامى . وكانت المجلات المصرية الراقية هى التى ترسم مثل البحث التى يحتذيها العاملون على خدمة التاريخ وإحياء الآداب .

فمجلة المنار ، ومجلة المقتطف ، ومجلة الهلال ، ومجلة الضياء كانت هى المثيرة فى نفوس العلماء والكتاب، لصور المواضيع التى يطرقونها، والواضعة للمثل التى تنسج مقالاتهم على منوالها .

كما كانت التآليف التى تبتكر صور البحث العلمى الطريف ، مثل كتب جرجى زيدان ومحمد فريد وجدى ورفيق العظم ، أو التى تنقل صور البحث العلمى والفلسفى عن مفكرى الغرب. ومثل مترجمات أحمد فتحى زغلول ، أو تفتح مناهج المقارنة بين الأدب العربى والآداب الغربية ، قديما وحديثاً مثل كتب روحى الخالدى وسليمان البستانى ، أو التى تعرب روائع من الآداب الغربية ، بأقلام عربية بليغة مثلما صنع حافظ ابراهيم والشيخ نجيب الحداد ، كانت هذه الأصناف من الكتب الشرقية وتفتح أبصار العلماء والكتاب بتونس إلى طراز من البحث والتحرير جديد ، وتمـــدهم بأفكار وصور عملت عملها الكبير فى تدعيم أركان النهضة العلمية فى هذا الطور ، لما راجت وأقبل الشبان على مطالعتها بإنشاء الخلدونية للمكتبة وقاعة المطالعات سنة ١٣٢٢ — ١٢٠٤ ، وتكاثر دور التجارة فى المطبوعات الشرقية .

وبهذا تضاعف تأثير هذه الكتب فى الحياة الأدبية، إذ أثرت فيها تأثيرا غير مباشر ، من طريق الحركة العلمية كما أثرت فيها ، من جهـــة أخرى تأثيراً مباشراً .

أما العوامل التي أثرت في تطور الأدب تأثيراً أصلياً ، مباشراً قريباً ، فقد كانت راجعة إلى صنفين :

١) العوامل الشرقية ٢) العوامل المحلية

العوامل الشرقية :

وتتجلى في الآثار الأدبية التي كانت تطلع بها الكتب والمجلات والصحف من الشرق ، فتنفعل النفوس بتونس بروعتها ، وتتذوق متعتها . وتعكف على سحرها وجمالها ، ثم تشعر بأن تحلل تلك الروائع الأدبية ، من القيود التي كان يرسف فيها الأدب القديم ويجعلها أصلح أداة للتعبير عن مشاعر النفوس اليقظة ، ومدارك الأفكار الناهضة . فتأخذ في الاقتداء بها والتخرج عليها ، وهذه الآثار ترجع إلى ثلاثة أصناف :

(ا) الأدب النثري الجديد . وهو الذي ظهرت به طريقة تحرير المقالات الأدبية والفكرية التي كانت تنشر في الصحف والمجلات فتمتاز بوصف يجلو المناظر والأحداث المادية ، في تصوير دقيق ، ويغوص على الانفعالات النفسية ، ثم يسمو إلى الخواطر الفكرية ، فيجلوها في تحليل محكم ، وعرض واضح ، كل ذلك في بيان متين السبك ، فصيح التعبير ، مشرق التركيب ، متسلسل الأفكار ، متناسق الأوصال ، حاز اعتبارات البلاغة ، وتجنب كافة التعقيد ، وظلمة البديع المصطنع . وقد شاعت هذه الطريقة ، متفاوتة مظاهر الحسن في المنشآت الصحفية ، واستقرت على الطرف الأعلى عند شيخ المدرسة النثرية ، وإمام الإنشاء « العصري » محمد المويلحي ، في عامة منشآته بصحيفة « مصباح الشرق » . وخاصة كتابه الذائع الصيت « حديث عيسى ابن هشام » .

(ب) الأدب الشعري الجديد وقد طفحت به أيضا الصحف والمجلات ، فكانت لا تنفك تنقل للناس من بدائعه قصائد ولدتها الشاعرية الحية ، تتجاوب فيها انفعالات الناس ، من الأحداث الهامة التي كانت تملأ تاريخ تلك الحقبة ،

وأفكارهم فى الحياة العامة وطرق إصلاحها ، وقد اعتمدت هذه الطريقة على محور النهضة الشعرية بالشرق ، الذى يمسك بطرفيه شاعرا مصر : حافظ وشوقى . وربما كان حافظ أقواهما أثراً بسبب ما امتاز به شعره من شدة البعد عن الطرائق الشعرية القديمة ، وشدة القرب من حركة الإصلاح الفكرى والدينى . وهى صاحبة السلطان الأعظم على نهضة الفكر بتونس ، ولعل أقوى الآثار الشعرية فى هذه الحقبة ، أثراً فى توجيه الشعر بتونس وجهة جديدة ، بعد قصائد حافظ فى الشيخ محمد عبده ، إنما هى قصائده : « غادة اليابان » و « العمرية » و « لسان حال اللغة العربية » و « استقبال رأس السنة الهجرية » .

(ج) بعث الأدب القديم : ثم إن وفرة المطابع وقوتها ، وشيوع الذوق الأدبى بين الناس ، بمطالعة الصحف والمجلات ، قد شجع حركة النشر ، فتناولت أهم آثار الأدب العربى القديم ، والتى جفاها المتأدبون حيناً بانحراف الأذواق ، عن مناهجها ، وقد أصبحت أتم تلاقيا مع روح النهضة الحديثة وذوق الأدب الجديد ، فأشاعت المطابع الشرقية بين الناس شعر أبى تمام ، والبحترى والمعرى ، والشريف الرضى ، كما أشاعت نثر الجاحظ ، وابن العميد ، وبديع الزمان . فكان ذلك عاملا على صرف الناس عن صور الأدب التى كانت مسيطرة على عصر الركود بأساليبها المتشابهة . إلى أدب فيه القوة . والانسجام ، والجزالة ، وافتراع المعنى ، والتفنن فى الأسلوب . فأقبلوا عليه ورووه وتدارسوه وانعكست على منشآتهم الأدبية آثار منه وتبينت فى تهجمهم على أساليب ومناهج مجافية لمألوف الأدب القديم . ومتمشية مع ما تولد عن روح النهضة من طبع وفكر .

٢ — العوامل المحلية :

كما امتازت هذه الحقبة فى الشرق بوفرة الصحف ، فقد امتازت أيضاً بوفرتها فى تونس ، إذ بلغ عدد الدوريات العربية ، بين مجلة وصحيفة ، ما بين

سنة ١٣٥٥ — ١٨٨٨ ، وهى سنة بروز الحاضرة . وسنة ١٣٢٧ — ١٩٠٩ . خمساً وأربعين نشره(١) وتسببت كثرتها فى تعدد المطابع . فأنشئت مطابع عربية زيادة على المطبعة الرسمية . ابتدأت أولا ملحقة بالمطابع الفرنسية ، ثم أنشأ الوطنيون التونسيون مطابع خاصة بهم .

وقد كون تكاثر المطابع دواعى التحرير والمنشطات على النشر . وأشاعت كثرة الصحف الأفكار والأخبار ، وروجت الطرائق الكتابية المتأثرة بنهضة الأدب فى الشرق . وبثت الدعوة إلى التحرر والابتكار . وكانت مجلة السعادة العظمى علمية راقية . لا تمس أفكار متوسطى القراء . فتعززت بمجلة سائغة للعموم تبحث فى الأدب والعلم والاجتماع . وتنشر الصور وهى مجلة « خير الدين » التى أسسها الاستاذ محمد الجعايبى صاحب جريدة الصواب فى المحرم ١٣٢٤ — فبراير ١٩٠٦ .

واتجهت المطابع إلى نشر كتب التاريخ التونسى والمغربى والأندلسى ، فسدت ثغرة فى هيكل الثقافة العربية الذى شيدته المطابع الشرقية .

وكانت الحياة الفرنسية الغربية ، المحاكّة للحياة العربية ، بثقافتها ونظمها وحضارتها ، ماثلة لأعين العرب التونسيين ، إلا أنها غير متوغلة فى أفكارهم بسبب فارق اللغة .

فلما اشتغل الكتاب التونسيون ، الذين درسوا اللغة الفرنسية ، بالتحرير فى الصحف والمجلات ، ظهرت فى أقلامهم معان وصور وأفكار وتعابير متأثرة بتلك الحضارة الأجنبية ، فقربتها من إدراك الذين لم يتصلوا بها مباشرة واهتم الكتاب ببسط تلك الحضارة ، والتعريف بآدابها ونظمها وتفكيرها فربطوا ذلك بالماثل المحسوس ، فكان ارتباط فكرى بين تيار الحضارتين المتزاحمتين فى البلاد ، عاد على الفكر العربى بصور جديدة ، ومثل طريقة ، وأفكار مبتكرة ، وأساليب مستجدة .

---

(١) احصائية نشرتها الرزنامة التونسية سنة ١٣٢٨

مظاهر التطور الأدبي :

إذا نحن تتبعنا ما أمكن أن تصل إليه أيدينا من مطبوعات هذه الحقبة كتبا ومجلات وصحفا ودوريات أخرى ، استطعنا أن نجمع الأغراض والفنون ، التي تناولتها الأقلام ، في الأنواع الكلية الأربعة الآتية وهي :

النثر السياسي – النثر الفني – النثر العلمي – الشعر

النثر السياسي :

عرفنا أن المقال السياسي الصحفي ، بمعناه الحقيقي ، لم يشب إلا في جريدة الزهرة . وأن أستاذ هذه الطريقة ، قد كان صاحب الزهرة عبد الرحمان الصنادلي ، فهو الذي كان بمقالاته يعالج المشاكل اليومية، الناشئة بين المتصرفين في الإدارة . وبين أصحاب الحقوق المغصوبة ، والمصالح المعتدى عليها ، ويبسط الشكوى والتذمر . ويتجه دائما إلى المقارنة بين ماينبغي أن يكون عليه التصرف من مراعاة المصلحة القومية ، وما هو عليه في نفس الأمر والواقع من إيثار المقاصد الاستعمارية ، فيهاجم بالانتقاد، ويتهكم ، ويتحدى . ولما تعطلت جريدته انقطع بتعطلها مثال المقال السياسي النقدي، حتى أنشئت جريدة « الصواب » سنة ١٣٢٤ — ١٩٠٦ ، فاهتزت لها الأوساط الأدبية والوطنية اهتزازا جديداً، وكان صاحبها محمد الجعائبي، متخرجا من الخلدونية فكانت بذلك أصول توجيهه أكمل رسوخا ، وقد أوتي مقدرة بيانية زاحم بها عبد الرحمان الصنادلي أوفاقه ، في صوغ الجملة ، وحبك المقال ، ووضوح الفكرة ، وتناسب المعاني ، والتدرج المنطقي للانتهاء إلى المقصد الأصلي من موضوع المقال . وكان في سياسته عنيفا على نظام الحكم وتصرف الإدارة قوي الاعتداد بالحق القومي عظيم السخط على سوء حال الوطن وأهله متشائما من عواقب التصرفات الادارية، موقنا بأن لاغاية لها إلا محق القومية الإسلامية . بانيا منهجه السياسي على فكرة الجامعة الإسلامية التي هي أصل

سياسة أستاذه ، البشير صفر ، كما كانت أصل سياسة الحزب الوطنى فى مصر وزعيمه مصطفى كامل .

وكانت جريدة الصواب فى منهجها الاجتماعى إصلاحية بنائية ، تدعو إلى تأسيس الجمعيات الخيرية والشركات الاقتصادية ، وتعمل على ترويج دعوة الإصلاح الدينى والاجتماعى ، فتشيد بالشيخ محمد عبده ، والكواكبى وقاسم أمين .

وبذلك أعتبرت « الصواب » لسان النهضة الوطنيـــة ، وعلم الكفاح السياسى ، وانتشرت سمعة صاحبها فعد أكبر كتاب السياسة . واستقرت الثقة به وبجريدته فى الشباب الزيتونى . بما كان يؤيده من رعاية العلماء المصلحين مثل الشيخ محمد النخلى والشيخ الطاهر بن عاشور .

النثر الفنى :

يقابل هذه الطريقة الصحفية السياسية الخالصة ، طريقة نثرية أخرى فنية ، تعتمد على ما كان يعتمد عليه النثر قبل الصحافة ، من القصد إلى إبراز الحقيقة الكلية ، بصورة غير متأثرة بالظرف العابر ، بل معتمد فيها على الملاحظات الذهنية ، واستخراج المعانى والعبر ، وإبرازها فى القوالب الأدبية المعينة على نفوذها وخلودها ؛ وقد تتناول هذه الطريقة المسائل السياسية على وضع يتناسب مع أصولها الروحية فلا تخرج بذلك عن منهجها الفنى

ويمكن أن نضم تحت هذا النوع أغراضا مختلفة من الإنشاء متباعدة فى جوهرها لكنها متلاقية فى المقصد الفنى الذى تقوم عليه .

١ ـــ فهناك وصف الخواطر ، وتمثيل المجردات ، وإبراز الأحاديث النفسية فى قالب المحاورات ، وهذا يعتمد التفنن الخيالى واختيار أروع طرائق العرض وأبلغ قوالب التعبير ؛ وإن أوضح مثال لكتاب هذه الطريقة كاتب تكون بمواهبه الفطرية ومطالعاته الأدبية وميله الذوقى وحياته التى قضاها بين العزلة ومجامع الأنس الأدبى والفنى ، هو محمد بن الأمين

الخلصى وله فى هذا الباب أثر خالد ، اشتهر به ؛ هو « حديث مع الراية » وهو مقال نشر تباعا فى جريدة الصواب سنة ١٣٢٣ – ١٩٠٥ بناه على وصف خواطره السياسية ، عند نظره إلى العلم الفرنسى مرفرفا على مدينة تونس مشرفا منها على البحر ، فأثار ذكريات التاريخ الفرنسى ؛ والانتشار الاستعمارى وبث ذلك العلم ثقته فى مبادئه الأصلية مع مطارحته الشكوى مما يجرى فى ظله من انحراف عن تلك المبادىء ؛ وسمع منه التوجيهات والاعتذارات فى حوار هادىء مقنع فيه تهكم يستعرض ما ملأ نفوس التونسيين من آلام لتصرف الإدارة الاستعمارية فى حظوظهم بالصور البغيضة ؛ فهذا ضرب من ضروب النثر الفنى .

٢ – وهناك فن الرواية ، ولم يتولد فى الأدب التونسى إلا فى هذه الحقبة . وأول رواية ظهرت هى رواية « الهيفاء وسراج الليل » كتبها شاعر القيروان ، وداعية الاصلاح الدينى ، صالح سويسى ، أقامها على هيكل القصة البسيطة ، ضعيفة روح العقدة الروائية ، وأسسها على الدعوة إلى العلم والتخلق بالخلق الاسلامى الصحيح ، وتشنيع الأوهام الباطلة الملصقة بالدين ، والتنويه بالدعوة الإصلاحية وعظمة رجالها ، مشيداً بذكر الشيخ محمد عبده فى مصر والشيخ محمد النخلى ، فى القيروان ، وجعل محورها حياة شاب ، نشأ على الفطرة السليمة . بعيداً عن العلم والحضارة ، ثم ارتحل فى طلب العلم ، فكانت فطرته السليمة تنفره مما عليه المسلمون من البدع ، فى أعمال رجال الطرق الصوفية والعوائد القبيحة فى معظم شؤونهم العامة والخاصة ، فكان يتعجب من تقصير أهل العلم فى معالجة ذلك الفساد ، ويرى أن أحق الناس بوصف العلم وأرجاهم للنفع العام ، هم الذين جمعوا إلى علمهم غيرة وهمة إصلاحية مثل محمد عبده ومحمد النخلى .

وابتدأ نشر هذه الرواية ، تباعا فى مجلة « خير الدين » سنة ١٣٢٤-١٩٠٦ ونوهت المجلة بأنها أول رواية ألفت فى المملكة التونسية :

ويعتبر مؤلفها ، صالح سويسى ، أول كاتب تفانى فى سبيل الإصلاح

الاجتماعي ، ووقف عليه نثره وشعره ولم يكن قد زاول تعليما منظما ، ولكنه سما إلى هذه المنزلة بفطرته الطيبة ومواهبه الأدبية العجيبة ، وتأثره بنوادي أنصار الإصلاح بمدينة القيروان واتصاله بالشيخ محمد النخلي . وقد حضر بعض دروسه العامة التي كان يلقيها مدة العطلة الدراسية بالقيروان (١) .

٣ — وهناك فن ثالث يلتحق بباب النثر الفني وهو التحرير الوصفي ، المتعلق بالسير والبلدان والمعالم والمجامع والعوائد ومحاورات المجالس ، ويمكن تفريعه إلى فرعين (أ) الرحلات (ب) الأخبار الدولية .

(أ) أما فن « الرحلات » فقد استمر حيا ناميا في هذه الفترة ، يستمد من زهرته في الحقبة السابقة ، وقد امتاز فيه ثلاثة كتاب هم : محمد بن الخوجة ومحمد الخضر حسين ، وعلي الورداني .

كان أولهم ، محمد بن الخوجه ، من كتاب جريدة الحاضرة . وكان ذا معارف تاريخية واسعة ، ومطالعات في الكتب العربية والفرنسية ، واعتناء خاص بالتاريخ التونسي .

وقد رحل ، أول مرة إلى باريس سنة ١٣١٨ — ١٩٠٠ ، بمناسبة معرضها الدولي ، فحرر خمس رسائل طريفة كاتب بها جريدة الحاضرة ، استوعب فيها وصف باريس ومعرضها وماشاهد فيها من المجامع والمعالم والمواكب ، متعلقا في جميع أوصافه ، ببيان الأصول التاريخية النظامية ولما يتناوله حديثة ، وهي طريقة امتاز بها ، فكان بسببها عاملا قويا من عوامل إمداد الثقافة العربية بالتاريخ الفرنسي ونظم الدولة وأوضاع الحضارة في فرنسا ، وقد طبعت رسائله هذه كتابا مستقلا باسم « سلوك الابريز في مسالك

---

(١) أنظر ترجمته في كتاب الادب التونسي في القرن الرابع عشر ، لزين العابدين السنوسي ج ٢ ص ٣٢١ ، مطبعة العرب بتونس ، ١٣٤٦ — ١٩٢٨

بازيز ، نشر فى نفس السنة بالمطبعة الرسمية بتونس ؛ وهو فى طريقته الكتابية ميال إلى احتذاء طرائق النثر القديم على المنهج الأندلسى، الذى كان مسيطراً على الأدب التونسى فى القرن الماضى ، يجنح إلى إيراد الفقر المأثورة ، والقوالب المشهورة ، وتنزيل أبيات الأمثال والمعانى ، فكان لتحريره قبول عند أصحاب الثقافة القديمة وانصار الأدب التقليدى .

وكان الثانى . محمد الخضر ، كاتبا بليغاً ، ذا طبع خاص ، وأسلوب قوى الروح الأدبية . فصيح العبارة ، بليغ التركيب ، ينزع إلى طرائق كتاب الترسل الأولين . من أهل العصر العباسى وقد بلغ قمة الإجادة الفنية فى نثره ، رحل إلى الجزائر . سنة ١٣٢٤ — ١٩٠٦ ، فكتب تلخيص رحلته بوصف وجيز للمسالك والمعالم ، واهتمام بذكر العلماء والأدباء وما كان له معهم من المحاورات ، وما عن له من الملاحظات والأفكار ، نشرت تباعا فى مجلة السعادة العظمى ، ثم رحل فى سنة ١٣٣٠ — ١٩١٢ ، إلى مصر وسوريا وتركيا ، فكتب رحلة بديعة ، نشرت تباعا فى جريدة الزهرة ، طافحة باعتباراته وأفكاره ومقابساته ومساجلاته ومقاطيع من شعره .

وكان الثالث . على الوردانى وهو من خريجى الصادقية الأولين ؛ قد رحل إلى الآستانة وأقام فى رعاية الوزير خير الدين وانتدب سنة ١٣٠٥ — ١٨٨٨ فى بعثة علمية إلى أسبانيا ، برفقة العلامة الشهير ، الشيخ محمد محمود التركزى الشنقيطى ، فكتب رحلة نشرت تباعا بجريدة الحاضرة ، كانت أول ما طلع على قراء العربية ، من وصف عيان للآثار الاسلامية فى أسبانيا بعد طول العهد . وإن كان تحرير هـــذه الرحلة لم يبلغ مبلغ الجودة الفنية . وملاحظاته التاريخية لم تعتمد على معرفة واسعة لأطوار التاريخ الأندلسى .

(ب) وإذا كان محمد بن الخوجه قد اشترك مع هؤلاء الكتاب الرحالين فى الفرع الأول من فرعى التحرير الوصفى ، فإنه قد امتاز دونهم بالاختصاص بالفرع الثانى ، وهو فرع الأخبار الدولية .

فقد كان موظفا عاليا ، مقربا من رؤساء الحكومة ، فعنى فيما يكتبه فى جريدة الحاضرة ، بنشر المقالات المتعلقة بوصف الحفلات الرسمية والمواكب الملكية ، أو التعريف بالنظم والمؤسسات الدولية ، أو الترجمة لرجال العصر ، بطريقة تعتمد على ثقافته التاريخية ، وتجنح إلى تقريب ما يجرى فى الحكومة ؛ من قبول العموم ؛ واهتم بمعانات التراكيب الفخمة التى تضفى على المعانى البسيطة والحقائق الفارغة ستورا من التعبير الأدبى ، الجميل السائغ ، والتزم طرائق فى التسمية والوصف ، كان بها واضعا لغة التعبير الرسمى أو الانشاء الدعائى ، صارت لغة تقليدية يسير عليها الكاتبون فى المواضيع الرسمية بعده ، فكان إنشاؤه بمنزلة الإنشاء الديوانى فى مصر وسوريا مدة الأيوبيين والمماليك ، قوالب براقة ، تستر مالا يشرف ذكره من الحقائق المؤلمة ، أو تعظم ماليس عظيما بذاته من المعانى التافهة .

وفى سنة ١٣١٩ — ١٩٠١ صار مديرا للمطبعة الرسمية ، وأنشأ تقويماً سنوياً ، سماه « الرزنامة التونسية » عوضا عن « النزهة الخيرية » فتفنن فى بسط النظم الدولية ، والتعريف بالدواوين الحكومية وتواريخها ووظائفها . وأفرد أقساما أدبية وتاريخية ملأها فوائد ومعارف واعتنى فيها بدراسة النواحى الدقيقة من التاريخ التونسى ؛ وفى سنة ١٣٢٣ — ١٩٠٥ ، أدرج فيها تفصيل رحلتين رسميتين ، رحلة رئيس الجمهورية الفرنسية لتونس ورحلة ملك تونس لفرنسا ، فحقق فيهما أسلوبه المبنى على المزج بين الفوائد التاريخية ، والأوصاف المقصود رواجها بالطريقة التى ألفها من التعبير المنمق ، فصار بالنسبة لهذا العصر شيخ الكتابة الديوانية ، والمرجع فى توصيف بيئته الحكمية بعامة أوضاعها وتقاليدها ، كما كان القلقشندى لمصر وسوريا ، وابن الخطيب للأندلس والمغرب الأقصى .

النثر العلمى :

كان من أثر اتساع المعارف وارتقاء مناهج التعليم ، ووفرة الكتب

والمجلات ، أن ازدهر النثر العلمى . وخاصة مايرجع منه إلى بسط التاريخ وإحياء المجد الغابر . كما كان لإجادة كثير من الكتاب اللغات الأجنبية ومطالعاتهم فيها ، ووقوف آخرين على آثار الأقلام الغربية بطريق التعريب والتلخيص والاقتباس ، أثر قوى فى فتح أبواب المعرفة ، وتفتيق أساليب التحرير .

وإنما كان ينشر فى الحاضرة ، من المقالات السياسية والاجتماعية والتاريخية لمثال واضح لازدهار فن النثر العلمى الذى عرف به محرراها الأولان ، على بوشوشة والبشير صفر ، وكانت براعة البشير صفر فى هذا المضمار معينة على توليد مظهر آخر من مظاهر النهضة الأدبية هو مظهر الخطابة العلمية . كان البشير صفر فارسها الأوحد فى دروسه ذات الصدى القوى والرجع البعيد ، وأثرت حركة الإصلاح الدينى تأثيراً بالغا من جهة أخرى ، فى توجيه علماء الإسلام المصلحين إلى تناول المواضيع العقلية والاجتماعية والتاريخية ، بنظر دينى ، وتحليل حكمى ، وتحرير أدبى ظهرت فيه المقالات السامية القيمة التى نشرت بمجلة السعادة العظمى ومجلة خير الدين من أقلام الأساتذة . النخلى والخضر وابن عاشور ، بحيث كان ذلك مظهرا للون أقرب إلى التحرير الأدبى منه إلى التحرير العلمى الصرف بما يعتمد عليه من النظر والاستنتاج والبحث والقصد إلى سمو البيان وبلاغة التعبير .

الشعر العصرى :

ابتدأت الصحافة الشرقية تطلق هذا اللقب على الشعر الاجتماعى والحكمى لاسيما الذى يقصد إلى التذكير بالمجد ، والتوجيه إلى مسالك النهضة والتحرر والتجدد .

وبدأ الأدباء والمفكرون بتونس يمنحون ذلك النحو من الأدب عنايتهم وإعجابهم ، ويتطلعون إلى مجاراة شعراء الشرق فى ذلك السبيل .

حتى كان الشيخ محمد النخلى هو الذى فتحه لهم بسمو همته وطول باعه ، بقصيدة تجاوزت ثمانين بيتا ، نشرتها جريدة الحاضرة سنة ١٣١٩ - ١٩٠١ .

ثم كان الشيخ الخضر ، أول من سار بعده على ذلك المنهج ، فنشر فى مجلة السعادة العظمى قصيدة بعنوان « الشعر العصرى » وتلقف تلك الطريقة شاعر القيروان صالح سويسي ، وكانت منسجمة مع سخطه على المجتمع ، وثورته فى سبيل الإصلاح ، واعتزازه بالمجد الاسلامى . فبدأ يتغنى بالقصائد المتوالية فى التنديد بسوء حال الأمة الإسلامية ، والفرق الواضح بين عظمة ماضيها وحقارة حاضرها . فكانت أنغامه كلها تحرقا وعويلا يظهران من عناوين قصائده « السلف والخلف أو صيامهم وصيامنا » « دمعة على اللغة » « معاول الخلف فى صروح الأجداد » . وقد طبع مجموع شعره بتونس سنة ١٣٢٩ — ١٩١١ ، باسم « زفرات الضمير » .

ويعتبر صالح سويسى فى هذه الفترة لسان الإحساس القومى ، والنهضة الفكرية على مايعترى شعره من سقطات صناعية ، أحيانا ، بسبب ضعف تكونه الأدبى .

وإذا كان غيره من الشعراء ، قد شاركه فى هذا المنهج ، فقد تقدمهم بأن جعله منهجه الملتزم ، وبأن كان أقوى اندفاعا فيه إلى درجة استنزال الفناء على الأرض ، فكان بذلك حامل راية الشعر الاصلاحى .

وإلى جنب هذه الطريقة الجامحة الثائرة ، طريقة أخرى تقصد إلى إثارة الهمم الإصلاحية ، وتنعى على الأمة سوء حالها ، بأسلوب غير مقتحم للغرض مباشرة ، هو أسلوب التنويه بحضارة أوروبا ، وتحريك النظر إلى المقارنة بينها وبين مجد الإسلام ، مع الحسرة على ما آل إليه من تأخر وضعة

وقد امتاز فى هذا المنهج شاعر من أبناء تونس ، نشأ فى ظلال زيتونتها المزدهرة فى وزارة خير الدين واتصل بدعاة الإصلاح ، فامتزج بهم وأصبح لسان دعوتهم ، وهو الشيخ محمد الحشائشى ، الذى أنشأ فى معرض باريس سنة ١٣١٨ — ١٩٠٠ ، قصيدة فى التنويه بحضارة الغرب ، ومقارنتها بعظمة

التاريخ الإسلامى ثم العود بالندبة على حاضره وقد سماها « العقد النضيد فى التنظير بين الحضارة الإسلامية وتمدن العصر الجديد » وتقع فى قرابة مائة بيت طبعت فى ذيل كتاب سلوك الأبريز ؛ وله كثير من القصائد فى مثل هذا الغرض . إلا أنه ينحط فى الصناعة إلى دون ماينزل إليه صالح سويسى .

وبهذا يظهر أن نشأة الطريقة الشعرية المصورة لنزعة النهضة الفكرية والقومية ، إنما ظهرت فى سبك متين ، ومنطق رصين على يد الشيخ محمد النخلي . ثم سمت وأشرقت على يد الشيخ الخضر ، إلا أنهما لم يلتزماها . ثم آل أمرها إلى الذين اندفعوا فيها فأجادوا فى المعانى وقصروا فى المبانى مثل سويسى والحشائشى .

المحاضرة الثالثة

قدماء الصادقية

١٣٢٩ — ١٣٣٨

مضى الطور الذى درسناه فى المحاضرة الماضية ، وقيادة الأفكار بيد رجال تكونت ثقافتهم على المنهج القومى ، ثم التفتت أنظارهم إلى الحضارة الغربية ، ليقتبسوا عوامل القوة التى طالت بها ، فاندفعوا يكيفون لغتهم بكيفية تسمح لها بالتمشى مع وسائل تلك القوة ، ويبرزون من دينهم مايعين على ذلك التمشى ، فأنشأوا الجمعيات والصحف على أساس ترقية اللغة العربية ، وتجريد الدين عن البدع ، وتقويم المجتمع الإسلامى ، حتى تكتسب شخصيتهم ، العربية الإسلامية ، ماتستطيع أن ترد به صولة المستعمرين .

وتحت غبار هذه المعركة ، نشأ جيل جديد ، فتح عينيه على أرض الوطن ، وهى فى قبضة المستعمر ، فكان اسم المستعمر ، ومظاهر غلبته ، وعوامل قوته ، ومبالغ عظمته ، مقومات للبيئة الأدبية لنشأتهم ، وكانت لغة المستعمر ومناهج تعليمه ، وتقاليد حضارته ، مقومات لتكونهم الثقافى ، حتى انعقدت فى نفوسهم عقدة الشعور بالنقص ، وأضلتهم الوسائل عن المقاصد فتوجهوا يطلبون عزتهم ، ويدفعون عن أنفسهم شعورها بالنقص ، فى التعلق بلغة المستعمر وثقافته وآدابه ومثل حضارته ، محاولين أن ينتقلوا بأنفسهم إلى عوامل القوة ، حيث هى ، إذ أعجزهم أن ينقلوها إليهم ، حيث هم ، فبعدوا عن مظاهر قوميتهم ، ونفروا مميزاتها .

وكان المستعمرون ، من جهتهم ، يعملون على معاكسة المنهج الذى تسير

عليه النهضة القومية . ففرضوا لغتهم فى التعليم ، وفرضوا تقاليدهم فى حياة الأسرة والمجتمع . حتى استطاعوا أن يجعلوا تكون الجيل الناشىء تحت سيطرتهم على صورة تختلف عن صورة تكون الجيل الناهض فى وجوههم .

وقد عرفنا ، من المحاضرة الماضية ، صور المناهج التعليمية التى سنتها إدارة المعارف ، أول عهد الاحتلال ، وقد بنيت على قصد إخراج الشبيبة الإسلامية بتونس عن محيط ثقافتها القومية ، وامتدت تلك المناهج تتسع وتنتشر على نسبة انتشار المدارس الفرنسية العربية وتكاثر روادها ، حتى كان عدد المدارس التى من ذلك الصنف ، بعموم المملكة التونسية ، أكثر من مائتين ، فى سنة ١٣٢٧ — ١٩٠٩ . وبلغت جملة تلامذتها من خصوص التونسيين . أكثر من خمسة آلاف (١) ، وبذلك برز عنصر الناشئين على الثقافة الفرنسية ، وساد بكثرته العددية ، ثم تأكدت سيادته بحسن الحالة المادية التى يتمتع بها أفراده . المستخدمون فى المصالح العامة عند نهاية تعلمهم الابتدائى . أو المتقدمون إلى التعليم الثانوى فى مرحلته الأولى ، بالصادقية والعلوية ، أو مرحلته الثانية بليسه كارنو ، فأصبح المتعلمون من أبناء البلاد صنفين متباعدين ، وكان من الضرورى أن الصنف الذى يتخرج من الجامع الأعظم والخلدونية ، لا يستطيع أن يبلغ من الكثرة أو ينال من الاعتبار ، ما يبلغ وينال الصنف الآخر الذى تؤيده قوة الحكومة ، لتقاوم به الناشئين على المناهج المجافية لمقاصدها السياسية .

وقد كان من شباب الطور الماضى فئة قليلة اتصلت بالتعليم العصرى . على غير طريق التعليم القومى الصادقى فزاولت تعلما فرنسياً صرفا بالمدارس الحرة ، التى أنشأتها الإرساليات المسيحية ، من قبل الاحتلال ، فلم يندمجوا فى حركات الشبيبة الأولى . مع البشير صفر وأصحابه ، واستمروا منكمشين فى محيط خاص ، واستمر أفراد منهم مثابرين على إنهاء تعلمهم العالى بفرنسا ،

---

(١) احصائية رسمية نشرتها الرزنامة التونسية سنة ١٣٢٨

وأكثر هؤلاء من أبناء الأسر الكبرى ، التى تعتزى إلى الخاصة الملكية وتترفع عن الطبقات الشعبية . فزادهم بعدهم عن الوسط القومى ، وانقطاعهم فى الأرض الفرنسية ، لتعليم فرنسى ، وحياة فرنسية ، قرباً من تيار الحياة الأجنبية واندماجا فيه .

ومن حوالى سنة ١٣١٥ — أواخر القرن المسيحى الماضى . بدأت البلاد التونسية تتلق العائدين من فرنسا بعد إتمام دراستهم العليا من أطباء ومحامين ومهندسين ، فلما دخلوا بلادهم اصطدموا أولا بما بين الحياة المدنية التى خلفوها والتى قدموا عليها من بون شاسع ، ثم ، بما وجدوا الممسكين بقيادة النهضة يسعون إلى تحقيقه ، من مثل عليا ، تختلف اختلافا بيناً عن المثل العليا التى ارتسمت فى أذهانهم قبل أن يعودوا إلى الوطن .

وحاول البشير صفر ، جهده ، أن يضم هؤلاء إلى حظيرة عمله ، وأن يفتح نفوسهم لتلقى المثل العليا التى كان يجهد فى تحقيقها ، فكان يشجعهم على ترقية معارفهم العربية ، ويقربهم من الشعور بعظمة الماضى العربى التى كانوا عنها بمعزل ، وبذلك أمكن لكثير من هؤلاء الشبان ، أن يلتئموا مع حركة النهضة الإسلامية ، التى تزعمها البشير صفر ، وإن كان تكونهم ، عقلياً ونفسياً ، غير سامح بذلك الإلتئام ، ومن هؤلاء الدكتور البشير دنقزلى الذى لم يمض زمن على رجوعه ، حتى كان عضواً بمجلس إدارة الخلدونية وأستاذا بمدرستها .

وأتيحت لرجال النهضة التونسية مناسبات ناشئة من الحركات الفكرية أو السياسية بفرنسا ، مكنتهم من رفع أصواتهم بتمجيد الإسلام وماضيه ، وإبلاغ أوروبا نتيجة الحركة الإصلاحية التى قد تعين على دفع سوء ظنها بالإسلام ، ورفع ما تعتقده من عدم قابليته التمشى مع مقتضيات الحضارة العصرية .

ففى سنة ١٣٢٣ — ١٩٠٤ انعقد بتونس مؤتمر الجمعية الجغرافية ، وشارك

فيه الأستاذ البشير صفر بمحادثة علمية قيمة عن تاريخ الجغرافيا عند العرب، ألقاها باللغة الفرنسية ، فنالت استحساناً عظيما ، وعلقت عليها جريدة « الطان » الباريسية بأنها قامت برهانا على أن ليس هناك فرق أصلى ، فى التكوين بين الجنس العربى والجنس الفرنسى ، واتخذت ذلك مناسبة لدعوة الحكومة إلى سلوك سياسة إسلامية ، تسمح لشباب الإسلام بالاندماج فى العقلية الغربية .

وفى سنة ١٣٢٤ – ١٩٠٥ أنشئت بتونس صحف سياسة ذات مبدأ اشتراكى ، صدعت بالدعوة إلى الحرية والعدل ، فأقبل على المساهمة فى تحريرها شبان من الجيل المثقف الجديد ، مثل جريدة « اللبرال » ـ الحر ـ التى أنشأها رونى بوياك ، واشترك فى تحريرها عبد الجليل الزواش وحسن قلاتى ، يدافعان عن حقوق الوطنيين التونسيين ، ويستجلبان عطف الفرنسيين الأحرار نحوهم .

وأصدرت بعض تلك الصحف نشرات بالعربية كان يحررها وطنيون تونسيون ، مثل جريدة « البروفرى » ـ الترقى ـ التى كان يحرر نشرتها العربية الأستاذ صالح بن محمود .

وفتحت فى مجلس الأمة الفرنسى مناقشات حول القضايا الاستعمارية ، وقف فيها رجال من الاشتراكيين مواقف دفاع عن سياسة اللين والعدل فى البلاد التونسية ، فحركت إعجاباً فى نفوس الشبيبة التونسية ، كان له أثر على وجهتهم السياسية ، حتى أن مناقشة بشأن المغرب الأقصى ، اشترك فيها الخطيب الاشتراكى جوريس ، فدعا إلى أن تسلك فرنسا سياسة الدخول للمغرب الأقصى باللين ، قد دفعت بالشيخ عبد العزيز الثعالبى إلى أن يحرر بالاشتراك مع الأستاذ الهادى السبعى – من خريجى الصادقية الذين يحسنون الفرنسية – والمحامى الاسرائيلى سيزار بن عطار ، كتاباً باسم « الروح الحرة للقرآن » طبع بالفرنسية سنة ١٣٢٤ – ١٩٠٥(١) .

---

(١) كتبت عليه جريدة الأهرام وترجمت مقدمته فى ٥ ١ كتوبر ١٩٠٤

لكن الإرهاق السياسى ، والصلف الاستعمارى ، وبذاءة الصحف الفرنسية فى شتم الجنس العربى ، كان لها أثر عظيم فى تكوين التلاقى بين عنصرى الشبيبة وتمتينه ، لا سيما والموقف ، إلى حد ذلك اليوم ، موقف سلبى ليس من شأنه أن يحرك من اختلافات الأنظار ، وتباين المثل العليا ، ما تحركه المواقف الإيجابية الإنشائية .

واستشعر قادة النهضة أن النخبة المفكرة ، التى كانت تسمى يومئذ « الشبيبة » قد تفخم أمرها ، بتكاثر العدد ، وقوى صفها ، بالممتازين من ذوى الثقافة الغربية العليا ، فرأوا أن الفرصة سانحة للدخول فى طور الاحتجاج والمطالبة ، والانتهاء بالنهضة الفكرية والاجتماعية إلى غايتهما السياسية ، برفع الستار بينهم وبين الفرنسيين المسؤولين على تسيير السياسة التونسية .

ففى يوم ٥ صفر سنة ١٣٢٤ الموافق ٢٤ مارس — ١٩٠٦ ، تقدم البشير صفر ، بصفته رئيس الأوقاف ، فى حفل رسمى عظيم ، أقيم لافتتاح تكية الأوقاف لإيواء العجز ، بخطابه التاريخى ، الذى كان أول صرخة فى المطالبة بالحقوق الوطنية والتذمر من الاستعمار ، إذ يقول فيه مخاطبا المقيم العام ستيفان بيشون : « إن جمعية الأوقاف قد بذلت جهدها فى تشييد هذا الملجأ على ضيق مواردها ، ولكنها مع ما توفر لها من العزم الصادق ، لا تستطيع أن تسدد الحاجات الكثيرة التى تتولد كل يوم ، إلى مثل هذه الملاجىء ، فإن كساد الصناعات والتجارات الأهلية ، وقلة تنشيط اليد العاملة المحلية ، فى الأشغال العامة والخاصة وانتزاع الأراضى ، وغير ذلك من الأسباب ، يلقى على استمرار بقسم عظيم من أبناء وطننا ، فى حالة الفقر المدقع والبؤس » .

وكان لهذا الخطاب هزة استحسان وتأييد بالغة « فى الفكر العام التونسى كما كان له هزة إنكار واحتجاج أبلغ عند الجالية الفرنسية بتونس ، وفى صحفها ، فاندفعوا يهاجمون البشير صفر ، والشبيبة التونسية ، بل والأمة التونسية قاطبة ، ونظرت السياسة الفرنسية العليا إلى هـــذا الحدث بعين الاعتبار ، فقرأت له حساباً جديداً ، واندفعت صحف باريسية كبرى تنتقد

موقف الصحف الفرنسية الصادرة بتونس ، وتقدمت جريدة « الطان » تستلفت نظر الحكومة الفرنسية إلى درس المطالب التونسية ، وتستنزل عطفها على الشبيبة ، التى تعلمت اللغة الفرنسية ، وتغذت بآدابها وآمنت بمبادىء الحرية والعدل ، التى هى أساس الحضارة الفرنسية ، ثم كانت معاملتها على خلاف تلك المبادىء وانتشرت تلك الدعوة ، وتقلدتها الصحف الراديكالية والاشتراكية بفرنسا ، وخطب بها خطباء هذين الحزبين فى المجامع السياسية ، وحتى فى البرلمان فاتجهت فكرة قسم عظيم من الفرنسيين ، إلى وجوب إدخال النخبة التونسية ذات الثقافة الفرنسية ، فى المجامع والمؤتمرات ، حتى تعرف ميولها وتتضح مطامحها .

وتأثر أفراد من «الشبيبة» بهذه الدعوة ، ومالوا إلى تعاطى هذه التجربة واطمأن كثير منهم إلى حسن نية الداعين إليها ، حتى وثقوا بأن فى السياسة الفرنسية والصحافة الفرنسية ، والفكر العام الفرنسى ، عناصر طيبة يمكن الاعتماد عليها ، ويحسن التقرب منها ، والتعاون معها .

ولاقى البشير صفر وأنصاره الأولون هذه الفكرة بالإعراض والانقباض والتسفيه ، معلنين سياستهم الإسلامية المنسجمة مع سياسة الحركات الوطنية فى الشرق ، وخاصة بمصر وتركيا ، وكان أكثر المائلين إلى تقبل المساعى الفرنسية صغار الشبان المثقفين ثقافة غربية عليا ، ويساندهم أفراد من قرناء البشير صفر ، فيهم رئيس الخلدونية محمد الأصرم .

وجرت الاتصالات بينهم وبين دعاة التقارب الفرنسى التونسى ، ومنهم السفير رونى ميلى ، المقيم العام السابق الذى بقى فى باريس بعد خروجه من منصبه فى تونس ، وفكر كبار الاستعماريين ، أصحاب المؤسسات الاقتصادية المسيطرة على شمالى إفريقيا وغيره ، تنفيذ فكرة التقارب بعقد مؤتمر للبحث فى التكييف الجديد الذى ينبغى أن يدخل على السياسة الاستعمارية ، بعد ما بدر من بوادر النهضة ، فقرروا ، بمناسبة المعرض الاستعمارى الدولى

فى مرسيليا سنة ١٩٠٦ ، عقد مؤتمر استعمارى ، دعت إليه جمعية « الاتحاد الاستعمارى الفرنسى » ، ومضوا فى تجربتهم فى « جذب الشبيبة التونسية » فاستدعوا المشاركة فى المؤتمر الأستاذين محمد الأصرم ، رئيس الخلدونية ومدير مصلحة الغابة بتونس، وحسونه العياشى المحامى بمدينة سوسه المتخرج من الكليات الفرنسية بليسانس الحقوق .

وشارك هذان فى المؤتمر بموافقة الشبان المتقبلين لسياسة المفاهمة . وعلى كره من البشير صفر وعمد الحركة الوطنية الأولين . وقدّم محمد الأصرم التقارير الضافية . وأفاض فى المناقشات ، ثم جمع كل مابحث فيه من المسائل وقدمه من المطالب ، فى كتاب طبع بالفرنسية فى باريس سنة ١٩٠٧ بمقدمة من قلم السفير رونى ميلى،وهى اقتراحات ترمى إلى تعميم تعليم اللغة الفرنسية حتى لأبناء الكتاتيب القرآنية ، ومزج أبناء العرب بأبناء الفرنسيين فى المدارس، منذ الطفولة الأولى ، وإشاعة روح التفاهم والتعاون بين العنصرين فى عديد الميادين ، واستعمال النخبة ذات الثقافة الغربية أداة لهذا الوصل . وبهذه البيانات اتضحت الوجهة الجديدة لمطالب الشبيبة المتطرفة فى سبيل الامتزاج الغربى ، وتبين افتراقها عن الأصول التى قامت عليها حركة النهضة أولا من المحافظة على الذاتية الإسلامية العربية للبلاد . وحمايتها من أن تقضى عليها نفسية الغرب وعوائده .

وكان دعاة الفكرتين ممتزجين . يعملون فى ميدان واحد، فلما بدأ يتبين لهم يوماً فيوما،أن لا توافق بين العنصرين فى وسائل العمل ، أحس العنصر الجديد بالحاجة إلى تكوين منظمة مستقلة تجمعهم على قاعدة الأخذ بالوسائل التى ارتضوها ، وكان أول ماتبادر لهم أن العنصر القديم تسود عليه روح ثقافية منبعثة من الجامعة الزيتونية ، وساريه فى الخلدونية ، وأن الطبع الثقافى لذلك العنصر لايسمح بمسايرتهم فى فكرة التطور ، التى بنوا عليها منهاج عملهم .

فقرروا تكوين جمعية جديدة ، تكون روحها الثقافية غربية ، وغايتها

وطنية ، تعمل على بث فكرة التطور فى الوسط الشعبي ، وتدخل إصلاحا جوهريا على الفكر والمجتمع ، والمؤسسات العامة .

وكان أكثر أفراد هذه الكتلة من الذين لم يرتبطوا بالوظايف ، بل اشتغلوا بالمهن الحرة ، مثل عبد الجليل الزاوش وأحمد الغطاس وحسن القلاتي وعلي باش حانبه ، من المحامين ، وحسين بوحاجب وأحمد الشريف من الأطباء ، وخير الله بن مصطفى ، المترجم العدلى ، وكانت ثقافتهم الفرنسية العليا . وانتسابهم إلى الجامعة الفرنسية يجلب لهم إكبار الكتاب والمفكرين ، من الفرنسيين ، كما كان تجردهم عن الوظائف يدفع عنهم سوء الظن ، الذى يسرع إلى الموظفين عندما يمتزجون امتزاجا قويا بالعنصر المستعمر .

تكونت من هؤلاء جمعية قدماء « الصادقية » آخر سنة ١٣٢٣ — ١٩٠٥ وابتدأت عملها أوائل سنة ١٣٢٤ — ١٩٠٦ على أساس تقرير حرره الزعيم السياسى الشهير ، علي باش حانبه ، وأسندت رئاستها إلى الأستاذ خير الله ابن مصطفى ، وكان للمنهج السياسى ، الذى يعمل عليه رجال قدماء الصادقية تأثير كبير على تكييف النشاط الأدبى لجمعيتهم ، فاتجهوا إلى عظماء من الكتاب والنقاد ورجال الفكر والفن الفرنسيين ، ودعوهم لإلقاء محاضرات باللغة الفرنسية ، فى نادى قدماء الصادقية ، فكان ذلك إبرازاً للشخصية الثقافية الغربية للعنصر الصادقى ، وعاملا على ثقة المفكرين الفرنسيين بتلك الشخصية ، وميلهم إلى أصحابها ميل العطف والتقدير .

وبدت جمعية قدماء الصادقية ، فى أول أمرها ، ذات صبغة ثقافية غربية حتى ازور عنها أهل الثقافة العربية من خريجى الجامعة الزيتونية والخلدونية وطلبتهما ؛ لكن رئيس جمعية قدماء الصادقية ، الأستاذ خير الله ، قد كان متقدما فى السن على بقية رفاقه ، ومتغذيا بتربية وثقافة وتوجيه تنزع به إلى الاعتدال فى الخطة التى كان رفاقه متطرفين فيها ، وهى خطة الاعتداد بالثقافة الفرنسية والإعراض عن كل ماعداها ، وكان معروفا بذلك عندهم

كما صرحوا به فى بعض حملاتهم الصحفية (١) ، وهو من جهة أخرى ، رجل واسع الفكر ، حاد الذكاء ، قوى ملكة الابتكار ، فبدأ يسعى لحمل رفاقه على فتح باب المحاضرات باللغة العربية فى ناديهم ، ولم تكن المحاضرات ، غير الدروس ، معروفة أصلا بتونس يومئذ ، فكان يستمد من المثل المنهجية لمحاضرات الفرنسيين التى ألقيت بنادى قدماء الصادقية ، ويفكر فى مواضيع يمكن أن يحاضر فيها أساتذة اللغة العربية ، وعمد التفكير الإسلامى العربى ، من شيوخ الزيتونة ، وذاكر أفراداً من الشيوخ بفكرته ، فرحبوا بها ، وأقنع أعضاء قدماء الصادقية بأنهم سيجدون من الشيوخ من يقوم بمحاضرات عميقة الفكرة ، محكمة الأسلوب ، راقية التعبير ، ترفع شأن اللغة العربية ، وتفتح للأدب والتفكير العربيين سبيلا للتطور والارتقاء ، فاطمأنوا إلى ذلك ، وفتح فى نادى قدماء الصادقية باب المحاضرات بالعربية ، وكانت تسمى فى اصطلاحهم يومئذ « المسامرات » ، وقام الشيخ الطاهر ابن عاشور فى ربيع الأول ١٣٢٤ — ماى ١٩٠٦ ، بأول محاضرة عربية فى قدماء الصادقية ، هى أول محاضرة عربية بتونس على الإطلاق ، كان موضوعها « أصول التقدم والمدنية فى الإسلام » ، نشرت تباعا فى جريدة « حبيب الأمة » ، والشيخ أحمد النيفر بمحاضرة فى آية « إن الله يأمر بالعدل والاحسان » ، الشيخ محمد النخلى بمحاضرة تاريخية موضوعها « دولة المأمون » ، والشيخ محمد الخضر حسين بمحاضرة موضوعها « الحرية فى الاسلام » ، طبعت بتونس سنة ١٣٢٧ — ١٩٠٩ .

وشاركت الخلدونية شقيقتها الصغرى ، ففتحت هى أيضا باب المحاضرات ، وكان من محاضريها الشيخ محمد الخضر بمحاضرته « حياة اللغة العربية » وقد طبعت بتونس أيضا سنة ١٣٢٧ — ١٩٠٩ .

---

(١) على باش حانبه فى النشرة الفرنسية لجريدة التونسى عند الحملة على مشروع المدارس القرآنية ١٩٠٨

كان من أثر هذه المحاضرات ، أن فتحت بابا جديداً للإنتاج الأدبي ، ورفعت شأن البيان والفكر العربيين ، وأدخلت الزيتونيين إلى نادى قدماء الصادقية ، فرجع العنصران إلى الامتزاج ، بعد أن سارا برهة فى طريق الافتراق ، وأيقظت دعاة التطور المتطرفين إلى أن غايتهم يمكن تحقيقها بطريق اللغة العربية ، وفى ظل ثقافتها ، وأن وحدة الأمة فى سبيل تلك الغاية لاتتحقق إلا تحت لواء العروبة ، الذى هو لواء ذاتيتها القومية ، فتقوّمت حركة مؤسسى قدماء الصادقية واعتدلت ، وكما كانت ظروف الحركة الوطنية عاملة على توجيه أفكارهم إلى الثقافة الفرنسية لمّا اعتمدوا على مد الأيدى إلى العنصر الحر من الفرنسيين ، فقد تكونت فى الحركة الوطنية ظروف جديدة ، أثرت فى تعديل منهجهم ذلك ، لمّا أحسوا بأنهم معزولون عن مساندة أمتهم ، وهم يخدمون قضيتها ، وأدركوا الحرج الذى هم فيه ، وقد وقفوا وجها لوجه ، مع الصف الفرنسى يشد بعضه بعضا ، تنصب عليهم من لدن عناصره الاستعمارية التهم والشتائم ، يقذفون مرة بأنهم قلة متطلعة إلى تحقيق ماتصبو إليه كبرياؤها ، ويعيرون أخرى بأنهم ليسوا بخالصى الروح الفرنسية ، وأن عملهم تعصي رجعي ، يستمد من الحركات الوطنية فى تركيا ومصر ، فكان هذا الصلف الاستعمارى ، عاملا مرة أخرى على رد الشبيبة المدرسية التونسية إلى حظيرتها القومية .

خرجت الحركة الوطنية من طور « التفاهم » الذى لم يكن إلا تجربة فاشلة ، إلى طور المطالبة والاحتجاج ، وأقصى البشير صفر عن مركز الحركة بفصله عن إدارة الأوقاف وتسميته عاملا على سوسه سنة ١٣٢٥ - ١٩٠٧ فتقدم على باش حانبه إلى قيادة الحركة السياسية ، بجأشه القوى ، وروحه التى تشبعت تعلقا بقوميته ، واعتزازاً بماضى أمته ، ويقينا بأن مطالبة التونسى بحقوقه المغتصبة ليس طريقة صحف الفرنسيين ، وإن تسموا أحراراً ، ولا منطقه منطق التقرب منهم والانتماء إلى حضارتهم ، وإن كان إسماع الصرخة التونسية ، جادة حادة مزعجة للفرنسيين ، بلغتهم أمراً لامناص

منه ، فأنشأ جريدة وطنية ، باللغة الفرنسية ، هى جريدة « التونسى » وأعلن فى مقالها الأول برنامجه فى المطالبة بحقوق التونسيين . السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، والتفت الشبيبة الوطنية حول جريدة التونسى . ووقف الشعب كله يؤيدها ويصدع بدعوتها فزاد ذلك فى الالتحام القومى ، الذى قتل نزعات التمايز بين العناصر الثقافية ، واستشعر على باش حانبه وأسرة جريدة التونسى ، مافرضت عليهم الثقة الاجتماعية ، التى حبتهم بها الأمة ، من وجوب التسامى عن فكرة العناصر والطبقات ، والذوبان فى الجامعة القومية ، والاعتزاز بمقوماتها ، فنبذت طرائقها السياسية الأولى ، وأقبلت على منهج قومى واضح ، إذ نفضت أيديهـــا من « التفاهم » فعلقتها بالمطالبة والاحتجاج والكفاح .

ولاحظ الذين كانوا سعوا لعقد المؤتمر الاستعمارى بمرسيليا ، أن حركة الشبيبة التونسية تجاوزت الحدود التى خططت بالتعاون مع محمد الأصرم فى ذلك المؤتمر ، وأحسوا بالخيبة التى لقيتها إذاعة أعماله عند الشبيبة التونسية إبتداء من كونه مؤتمرا استعماريا ، بهذا الاسم الجارح ، إلى كون مقرراته ترمى إلى إدماج التونسيين فى الفرنسيين على خلاف ماتتوجه إليه الحركة الشعبية ، فحاولوا تجديد الكرّة ، بعقد مؤتمر ، يكون جوه أتمّ صحوا من المؤتمر الماضى ، فصدرت دعوتهم إلى عقـده باسم جديد : « مؤتمر شمالى إفريقيا » ، دعى إليه عدد كثير من رجال الحركة الفكرية والسياسية ، من المتعلمين بالفرنسية ، فشارك فيه البشير صفر ومحمد الأصرم وعبد الجليل الزاوش وخير الله بن مصطفى ومحمد بن الخوجه والصادق الزمرلى والطاهر الأسود . وفتحت جلساته فى باريس ، أكتوبر ١٩٠٨ ، تحت رآسة الوالى العام للجزائر جونار ، وكان من دعاة سياسة التقارب ، وخطب فى افتتاحه السفير رونى ميلى خطابا مسهبا سامى التحرير عميق التفكير ، موضوعه : « هل الإسلام غير قابل للانسجام مع المدنية العصرية » نوّه فيه بأن معرفة الدين الإسلامى أصل ضرورى لدراسة جميع المسائل المتعلقه بشمالى أفريقيا

وأن الاتصالات التى بين العنصرين الأروبى والإسلامى ، فى تلك الممالك ، تفرض على الأروبيين تفهم الإسلام وإلا فانهم لايستطيعون أن يحققوا مصالحهم هنالك ، وندد على الغربيين حكمهم الطائش على جميع الحضارات ، غير حضارتهم ، بالجمود ، مبرهنا على ذلك بمشاهدة التطور الحالى للشرق ومراجعة تاريخ انتشار الاسلام ، ليشهّر بما تركه عهد الحروب الصليبية فى فرنسا ، من عداء مستحكم للإسلام ، حتى عند غير المتدينين ، مع أن دين الإسلام قد كان سمحا فى تقبل التقدمات العلمية ، كما يستنتج ذلك من نصوص الدين الأصلية ، ومن تتبع شواهد التاريخ ، فقد تكونت جامعة هذا الدين من أمم مختلفة ، وتغذت بالحضارة الفارسية فى الشرق ، والحضارة اللاتينية فى المغرب والأندلس ، وانسجمت مع الفلسفة المشجعة على تقدم العلوم الطبيعية وهى فلسفة أرسطو ، وازدهرت فى ظلها الحضارة عندما خبت أنوارها فى أوروبا ، وتتضح براهين ذلك فى تاريخ اسبانيا ، التى كانت مستعمرة لمسلمى شمالى إفريقيا أنفسهم ، حيث تفاعلت المدنيتان الاسلامية والمسيحية ، وتوثقت علائق الملتين ، لولا أن حدثين هامين ، كدّرا صفو تلك العلائق فى القرن الخامس عشر ، هما احتلال الأتراك للقسطنطينية واحتلال الأسبان لغرناطة ، فكان ذلك شؤما على الملّتين معا ، ولم يكن نصيب أوروبا من تلك المصيبة يقل عن نصيب العالم الإسلامى ، إذ فقدت رقة الحس ، وانغمست فى دماء الحروب الوحشية ، فى سبيل فتح أمريكا والانتشار الاستعمارى . فاستعبدت البشر ، واستعمرت الأرض بصورة لاتتفق مع مصلحة الإنسان ، ولا مع مصلحة الأرض نفسها ، ولم تستفق إلا مؤخرا لواجب تفهم العقليات والنفسيات المخالفة لها ، فاعتمدت على ظواهر حكمت بمقتضاها بأن التفاهم مع الإسلام مستحيل ، بما عند المسلمين من عقيدة القدر ، وما فى نظمهم الأساسية من البساطة ، والحال أن عقيدة القدر عامة فى جميع الأديان ، وأنها لم تصطبغ عند المسلمين بصبغتها الخاصة إلا من أثر الظروف التاريخية الأليمة ، التى أحاطت بهم ، وأن ماكان سائداً

على نظامهم من سذاجة ، قد أخذوا يهذبونه باقتباس الأساليب العصرية ، والامتزاج بها ، وأفاض فى ضرب المثل لذلك بالنهضة الفكرية بتونس وتأسيس الخلدونية ، وألح فى دفع مخاوف الفرنسيين من أن يكون تطور الإسلام خطراً عليهم ، بأنهم ليسوا بمستطيعين قلب حقائق الأشياء ، وأن نهضة الروح الدينية ، ستقترن بتفكيك بين العقائد وأصول الحكم ، يستطيع به الإسلام أن يبقى ناهضا فى ذاته ، ومتقبلا لصورة الحكم المشترك فى بلاد شمالى إفريقيا إذا بنيت على احترام الحقوق ومراعاة الظروف السياسية » .

ويدرك المتأمل من هذا الخطاب الذى هو روح المؤتمر ، أنه على ما فيه من سمو فى المعنى والسبك يرمى إلى ربط مصالح المسلمين بمصالح المستعمرين بشمالى إفريقيا ، بناء على أن المسلمين ليس لهم تطلع سياسى يختلف عن مناهج السياسة الاستعمارية بإبراز قوميتهم منفصلة عن محيط الاندماج . وقد كان هذا الحكم صحيحا بالنسبة إلى ما كان عليه الأمر منذ عامين فى مؤتمر مرسيليا ، لكن الأحداث تجاوزته ، وأصبحت تطلعات التونسيين . نخبة وشعبا ، واضحة نحو هدف الانفصال ، فلم يكن لهذا الخطاب أكثر من صدى الاستحسان الأدبى ، وتقدمت تقارير التونسيين ترمى عن قوس واحدة إلى مقاومة الاندماج ، وتدعيم الكيان القومى ، فمحمد بن الخوجه يطالب بإصلاح القضاء فى نطاق المحافظة على أحكام الإسلام والمحاكم الشرعية وتقويتها، والصادق الزمرلى يطالب بأن يكون تعليم البنت التونسية ، باللغة العربية ، على مناهج تعليم البنات فى تركيا ومصر . ومحمد الأصرم يطالب بإنشاء جامعة تونسية عصرية تتولد عن الخلدونية وتقتسم أعباء التعليم العالى مع الجامعة الزيتونية ، إذ تبقى هذه للعلوم الدينية وتلك للمعارف الزمنية ؛ وخير الله بن مصطفى يطالب بإحداث تعليم أولى للناشئة التونسية يكون هو تعليم الكتاب القرآنى ، بتنظيمه وترقية أساليبه على مثال المناهج المصرية والسورية ؛ والبشير صفر ، بعد أن يفاخر بعظمة الحضارة الإسلامية ويظهر اعتزازه بالعلم العثمانى ويتحدى الأوروبيين بأن الإسلام ليس لقمة سائغة ،

يحتج فى لهجة عنيفة على عبث الحكومة بالأوقاف إذ جعلتها عش الاستعمار، ويطالب باحترام استقلالها وقصر حق الانتفاع باستثمار أراضيها وإحيائها على أربابها وهم المسلمون التونسيون ، وعبد الجليل الزاوش فى تقاريره الاقتصادية والاجتماعية التى هى أبعد عن المساس بمبدأ الانفصال ، يطالب بتكوين الملكية العقارية لصغار الفلاحين ، واحترام حقوق الشغالين وسن قانون للشغل ، وتنظيم التمثيل النيابى للتجار والصناع والفلاحين ، ولا يخفى أن ذلك كله طعن فى صميم الاستعمار .

ومن هناك سجل المؤتمر خيبته الأدبية فى دورة انعقاده ، فلم يعد المستعمرون إلى التفكير فى مثله . بيد أن هذه البحوث قد كان لها صدى قوى الأثر فى الحياة العامة بتونس ، إذ أصبحت تقارير المؤتمر توجيهات جديدة لسير النهضة القومية فى مختلف نواحى الإصلاح ، وكان أقوى هذه التقارير تحريكا للمناقشة والجدال تقريرى البشير صفر وخير الله بن مصطفى فقد ثارت ثائرة المستعمرين الفرنسيين لتقرير البشير صفر ، وفتح به باب مناقشة صحفية هامة بين المستعمرين والوطنيين ، هى أدخل فى الميدان السياسى ، أما تقرير الأستاذ خير الله عن التعليم القرآنى ، فقد أثار ضجة عملت عملا كبيراً فى تكوين التاريخ الفكرى ، إذ كان لمحاولته إصلاح الكتاتيب القرآنية ليقيم عليها التعليم الأولى ، صدمة عنيفة فى نفوس أنصار الثقافة الغربية ، أحدثت انشقاقا هائلا فى صف المفكرين ؛ نشأت عنه حرب صحفية عوان انتصب فيها على باش حانبه ، فى جريدة التونسى يهاجم خيرالله ويهدم برنامجه بحجة أن اللغة العربية لا تستطيع أن تكون أداة لتعليم عصرى ، ودخل خير الله بن مصطفى ببرنامجه ميدان التطبيق ، فأسس مدرسة حرة ، سميت « المدرسة القرآنية العصرية » كانت أول معهد ابتدائى حر لتعليم اللغة العربية ، واعتمدت فى تعليمها على كتب التعليم الأولى المطبوعة بمصر ، وكتب ألفت وطبعت بتونس ، وظهرت نتائج هذه المدرسة فى مقدرة أبنائها ، وأقيمت فيها احتفالات لإجراء امتحانات ومباريات بين تلاميذها كان لها أثر ابتهاج

وإعجاب عظيمين بين أهل البلاد ، لا سيما عند سماع الأناشيد المدرسية التى أصبحت باباً جديداً من أبواب الشعر ، وتواتر إنشاء المعاهد الحرة على مثال هذه المدرسة ؛ فأنشأت الجمعية الخيرية مدرستها « العرفانية » ثم أنشئت مدرسة بسوسه ؛ وبرزت بهذه المدارس مواهب معلمين ومؤلفين لم يجدوا قبلها ميداناً لإظهار مقدرتهم ، مثل الأساتذة محمد صفر . ومحمد مناشو وسالم بن حميده . وتخرج منها طلبة دخلوا الجامعة الزيتونية فكان منهم أدباء وشعراء وكتاب تميزت بهم مظاهر التطور الأدبى والفكرى فى هذه الحقبة .

وجاء هذا الانتصار للثقافة العربية عاملا جديداً فى تقريب قادة الحركة السياسية فى الروح القومية ، حتى أن الزعيم على باش حانبه كتب فى جريدة التونسى يثنى على هذا المثال الطيب للتعليم العصرى بالعربية ، ويصرح بأن صورته ليست صورة الكتاب المهذب التى كان ينتقدها ، وتأكد مظهر انسجام الحركة الوطنية مع الروح القومية بإصدار جريدة التونسى نشرة باللسان العربى فى شوال ١٣٢٧ — أكتوبر ١٩٠٩ اشترك فى تحريرها الشيخ عبدالعزيز الثعالبى والأستاذ الصادق الزمرلى ، فكان أولهما ينشىء المقالات بالعربية إبتداء وكان ثانيهما ، مع ما يكتب من المقالات بالعربية ، يعرب مقالات باش حانبه والزاوش وقلاتى عن النشرة الفرنسية ؛ وينقل عن الصحف الأجنبية الأفكار والأخبار ، فأصبحت جريدة التونسى مقر القيادة الوطنية فى الميدان الصحفى .

ونشأت فى الحياة السياسية مشكلة مست صميم الكيان القومى وهى محاولة فصل اليهود التونسيين عن نظر المحاكم التونسية لإلحاقهم بنظر المحاكم الفرنسية ، فكانت سبباً فى عقد أول مؤتمر شعبى وأول مجمع سياسى للخطابة العامة . هو الاجتماع السياسى الكبير المعروف بمؤتمر البلماريوم . المنعقد يوم ١٧ صفر ١٣٢٧ — ١٠ ديسمبر ١٩٠٩ بدعوة لجنة من الوطنيين ذوى النزعة القومية الإسلامية تحت رئاسة الأستاذ أحمد الصافى المحامى . بلغ عدد حاضريه

عشرة آلاف ، وأشاد الخطباء فيه بتعلق التونسيين بقوميتهم ، واعتزازهم بالمحافظة على شريعتهم . وتفانيهم فى الدفاع عن احترام جنسيتهم ، وشارك على باش حانبه بمقالاته ، وعبد الجليل الزاوش بخطبه فى الجمعية الشورية ، فى هذا الموقف ، ولكنهما قرنا بالاحتجاج ضد تجنيس اليهود ، الاعتراف بوجوب إصلاح القضاء التونسى ، فاختلفا بذلك اختلافا جزئياً عن منهج المؤتمر ، تكونت به معركة صحفية بين التونسى وجرائد عربية وطنية منها جريدة « مرشد الأمة » .

ومن يومئذ بدأ سير الحركة الوطنية يتوالى على المراحل التى تقرب كل يوم بين عناصر المثقفين الوطنيين وتدخل الحركة السياسية تحت نفوذ القومية العربية وروح الاتحاد الإسلامى .

وبلغت فكرة إحياء الثقافة العربية وتمكينها من وسائل الانتشار والسيادة مبلغها الأكمل فى شباب الجامعة الزيتونية، ورسخت فى نفوسهم دعوة الإصلاح، فدفعت بهم إلى حركة إيجابية قوية، ووحدت بينهم وبين زعماء الحركة الوطنية، فبعد أن شغلت قضية إصلاح التعليم الزيتونى جميع الصحف الوطنية ، سنين طويلة ، وأثارت مجادلات صحفية متوالية منذ سنة ١٣١٩ — ١٩٠١ ، خرجت من طور النظر إلى طور العمل بدعوة جريدة الصواب فى المحرم ١٣٢٥ — فيفرى ١٩٠٧ الزيتونيين إلى تشكيل جمعية توثّق بينهم حبل التعارف ، وتمنحهم صوتاً مسموعاً لدى أولياء الأمور ، فى إصلاح ما عليه تعليم جامع الزيتونة من التأخر ، وكان ذلك عقب فتور وقع بين الزيتونيين وجمعية قدماء الصادقية ، بسبب حادث فى إحدى المحاضرات بقدماء الصادقية ، قيل أن مسيرى الجمعية أظهروا ضيق ذرعهم بكثرة تردد الزيتونيين على ناديهم؛ فاستجاب لدعوة جريدة الصواب ثلة من الطلبة الزيتونيين المنتمين إلى الخلدونية بزعامة الأستاذ عبد الرحمن الكعاك ، ودعوا طائفة من الأساتذة إلى تأسيس جمعية تسمى « جمعية تلامذة جامع الزيتونة » عقدوا لها اجتماعا تأسيسياً بقاعة الخلدونية فى ذى الحجة ١٣٢٤ — جانفى ١٩٠٧ ثم نشأت

اختلافات بين اتجاه الطلبة ، وكانوا يجنحون إلى الأساليب الديموقراطية الحديثة ، واتجاه الشيوخ وكانوا يحافظون على النواميس والتقاليد ، وحاول الطلبة أن يكوّنوا جمعية خاصة بهم ، والشيوخ جمعية خاصة بهم ، فأخفق السعيان بمعارضة الحكومة فى الأمرين ، وكانت حملة الصحافة ، وخاصة جريدة الصواب . معينة على توجيه الطلبة إلى الاعتماد على أنفسهم ، ونفض الأيدى من الشيوخ . واستمر غليان الأفكار يشتد ، والحوادث الجزئية تزيد فى شدته ، من سوء معاملة موظف لتلميذ ، أو تعاظم شيخ من لجنة الامتحان على تلميذ آخر ، أو مشادة حول شأن من شؤون التقاليد . التى أصبح الطلبة يسخرون بها ، وفى كل ذلك يجد الطلبة التأييد والمناصرة من رجال السياسة والصحافة ، وتعمل على توجيهم مثل الأساليب الاحتجاجية التى تسير عليها الحركات القومية فى تونس وفى غيرها من البلاد الإسلامية ، حتى طلعت عليهم الأخبار بنبأ حدوث إضراب من طلبة الجامع الأزهر بمصر فى ذى القعدة ١٣٢٧ — نوفمبر ١٩٠٩ فتلقوا ذلك باهتزاز بالغ ، وتخاطفوا الصحف الشرقية والتونسية المشتملة على ذلك الخبر ، وتأكد عزمهم على سلوك الاضراب طريقا للفوز بتحقيق أمانيهم فى إصلاح تعليمهم .

ففى ٢٩ صفر ١٣٢٨ الموافق ١١ مارس ١٩١٠ عقد اجتماع عام فى جامع الزيتونة الأعظم ، شهده جميع الطلبة ، وكانوا يومئذ نحو سبعمائة ، وتكلم فيه خطباؤهم فقرروا مطالبهم ، وأهمها عقد لجنة تنظر فى تنقيح برنامج التعليم ومناهجه ، وتقدم بتلك المطالب وفد منهم ، فقابل الكاتب العام للإدارة التونسية ، وبادرت الحكومة إلى إعلان عقد لجنة لإصلاح التعليم فى ربيع الأول — ١٥ مارس ، وعد ذلك انتصاراً باهراً للحركة ، وبدأت الصحف تتنازع فخر هذا الانتصار ، فينسبه بعضها إلى نهضة الطلبة ، وينسبه الآخر إلى توجيه جريدة التونسى ، وقادة الحركة الوطنية ، وصرح موقف جريدة التونسى فى مؤازرة القضية والانضمام إلى صف الطلبة ، وتوثقت الصلة إلى درجة أن أعلن الطلبة أن جريدة التونسى هى جريدتهم التى تنطق بلسانهم .

واجتمعت اللجنة فعلا ، يوم ٢ ربيع الأول — ٦ أفريل وكلفت أحد أعضائها ، الشيخ الطاهر ابن عاشور ، بتقديم تقرير فى أوجه الخلل وطرائق الإصلاح ، وكان هو نائب الدولة لدى النظارة العلمية ، وكان موقفه مع النظارة غير منسجم لما عرف من أفكاره الإصلاحية ، وأعلنت جريدة التونسى تأييدها الصريح لهذا الاختيار وثقتها فى المقرر ، فكان ذلك ، مع أسباب أخرى ، محرجا لموقفه ومورطاً له فى نظر الحكومة ، حتى فصل عن وظيفة نيابة الدولة بعد ذلك بقليل .

ولما مضى شهر على اجتماع اللجنة ، ولم تظهر نتائج لعملها ، عقد الطلبة فى ربيع الثانى — ١٥ أفريل ، إجتماعا عاما ، وقرروا الإضراب عن الدروس ابتداء من يوم السبت ١٦ أفريل ، وابتدأ الإضراب ورابط الطلبة بالجامع ، لمنع من يحاول الاقراء من الشيوخ ، وتجمهروا أمام دار الحكومة ، وألقى القبض على اثنين منهم ، فتظاهروا أمام مشيخة المدينة حتى أطلق سراحهما ، وصدر أمر الحكومة بإغلاق الجامع ، وتعطيل التعليم ، فقاوم الطلبة ذلك الأمر ، وصمدوا حتى رجعت الحكومة فى قرارها ، وعقد بالجامع مجمع خطابى عام ، خطب فيه بعد خطباء الطلبة ، على باش حانبه ، فمجد الطلبة وحركتهم ، وفاخر بأنه يعتبر نفسه زيتونيا مثلهم ، إذ كان قد تردد على دروس الجامع مدة عامين ، وأعلن فتح أعمدة جريدته لنشر كل مايهم قضيتهم ، فكانت له ضجة بالهتاف والتأييد ، وتأكدت بذلك الروابط بين جريدة التونسى والزيتونيين ، وتنازلت الحكومة ، تنازلا جديداً ، بإعلان العفو عن الطلبة المعاقبين ، حتى الذين رفعت بهم قضايا عدلية ، واقتبل وزير القلم ، رئيس لجنة الإصلاح ، وفد الطلبة فانتهى الإضراب ، يوم ١٨ ربيع الثانى .. ٢٨ أفريل . وفكر الطلبة فى الاحتفال بانتصارهم ، وشاع أن حفلهم سيقام بنادى الصادقية ، فكتبت جريدة الزهرة — وكانت مقاومة لجريدة التونسى مؤيدة لسياسة الحكومة تحذرهم من ذلك فلم يجد تحذيرها أذنا صاغية ، وانعقد الاجتماع فى باحة نادى قدماء الصادقية ، وخطب فيه زعماء الطلبة ، ثم قادة

الحركة الوطنية ، عبد الجليل الزاوش وعبد الرزاق الغطاس صاحب جريدة حبيب الأمة ، والصادق الزمرلى ، وعبد العزيز الثعالبى ، باسم جريدة التونسى ، إذ كان مديرها على باش حانبه غائبا بسوسه .

كان هـــذا الاجتماع إعلانا فى الشعب عن اتحاد الشبيبتين ، الزيتونية والمدرسية ، واتجاه الحركة الوطنية وجهة قومية إسلامية خالصة . وكانت أحداث السياسة ، فى البلاد الإسلامية الشرقية ، تزيد إلحاحا فى حمل جريدة التونسى وأسرتها على هذا السبيل ، فسياسة السلطان عبد الحميد فى إشاعة سلطة الخلافة الروحية على البلاد الإسلامية ، وما كان لها من قبول لا سيما بعد الانتصار العثمانى على اليونان سنة ١٣١٥ — ١٨٩٧ . ثم سياسة الجناح اليمينى ، من جناحى حزب الاتحاد والترقى . بزعامة المشير أنور(١) فى سبيل الاتحاد الاسلامى ، وسياسة الحزب الوطنى فى مصر . وما كان لرجال السياسة التونسية من اتصال شخصى بزعيميه العظيمين ، مصطفى كامل ومحمد فريد وتكون حزب الرابطة الاسلامية فى الهند(٢) سنة ١٣٢٥ — ١٩٠٧ . كل هذه كانت بواعث قوية أبرزت روح القومية الإسلامية فى سياسة الوطنيين التونسيين ، وصبغت جريدة التونسى بصبغة لم يبتدىء عليها عملها من أول الأمر . فقد كتب على باش حانبه مقالا افتتاحيا فى النشرة الفرنسية لجريدة التونسى ، بمناسبة دخولها فى السنة الرابعة ، أعلن فيه بصورة واضحة قاطعة ، تصميمه على الاتجاه القومى الإسلامى . ورفع عقيرته بذلك فى وجه الجرائد الاستعمارية الفرنسية مبيناً أنه ليس من قصد الشبيبة التونسية بتاتا قطع صلتها بماضيها ، ولا بجمهور مواطنيها ، ولا أن تتخذ لسياستها روحا تختلف عن روح الفكرة القومية ، التى تتعاون على خدمتها مع الصحافة الوطنيـــة العربية . وفى شوال سنة ١٣٢٨ — سبتمبر ١٩١٠ لما احتفل فى الآستانة بإنزال بارجتين عثمانيتين ، كان ممن شهد ذلك الاحتفال التاريخى ثلة من التونسيين

(١) أنظر حاضر العالم الإسلامى للامير شكيب أرسلان ج٤ ص ١١٦ الطبعة الثانية .
(٢) أنظر حياة الشرق لمحمد لطفى جمعة ص ٢٠٣ ط دار إحياء الكتب العربية مصر .

على رأسهم الدكتور أحمد الشريف . وخطب بحضرهم أحد طلبة المدرسة الحربية فذكر أن التونسيين والجزائريين سيبقون ، كما كانوا ، عثمانيين ، هجم دكرنيار فى جريدته « المعمر الفرنسى » على جريدة التونسى وأسرتها ، وأراد أن يشهر بسياستهم الإسلامية ، فكتب على باش حانبه فى الرد عليه يقول :

« إن كل مسلم هو من أنصار فكرة الاتحاد الإسلامى ، وإن التونسيين قاطبة أنصار لهذه السياسة ومتعلقون بالرابطة العثمانية ، التى هى نتيجة تلك الفكرة ومظهرها الباهر ، وإذا كانت ثقافتنا العصرية قد أكسبتنا عقلية جديدة ، فإننا بصفة كوننا مسلمين ، قد احتفظنا بولائنا الخالص المتين لإخواننا فى جميع الأقطار ، فالأتراك والمصريون يوحون إلينا بهذا الإحساس كما يوحى به إلينا جيراننا الأدنون فى الجزائر أو الشعوب الأسيوية القصوى » فكانت هذه المقالة آية الانسجام ، بين الحركة السياسية وفكرة الاتحاد الإسلامى ، ونتيجة استقرار للاضطراب الذى طغى على الأفكار نحواً من خمسة عشر عاما . ونشبت الحرب العثمانية الإيطالية بطرابلس ، فمست أحداثها البلاد التونسية مباشرة ، وتسابق الناس إلى التطوع فى الجيش العثمانى ، وفى صفوف المجاهدين الطرابلسيين ، وتفانوا فى الاكتتاب لتموين المجاهدين وتسليحهم وإسعافهم ، ودخلت بعثات الهلال الأحمر — آتية من تركيا فى طريقها إلى طرابلس — فأقيمت لاقتبالها المهارج العظيمة ، ومرّ كبار قواد الأتراك سراً وعلانية ، ملتحقين بالحدود الطرابلسية ، وفيهم أنور ونورى ومصطفى كمال ، فاحتفل الناس بهم وخطبوا بحضرتهم ونفذوا خطتهم حتى أوصلوهم الحدود آمنين ، وحدثت مشكلة دبلوماسية بين فرنسا وإيطاليا ، بسبب سفينة فرنسية حاول الإيطاليون تفتيشها بتهمة أنها تحمل السلاح ، فقامت المظاهرات الهائلة لحمل الحكومة الفرنسية على قطع علائقها مع إيطاليا والانضمام إلى الشق الإسلامى ، ولما لم يستجب هذا النداء ، أخذت الجرائد تندد بتمسك فرنسا بعصبيتها اللاتينية المسيحية ، وتعلقها بمودة أختها إيطاليا ولو آذتها . ولتحرير سياسته نحو الجامعة الإسلامية أصدر على باش حانبه

جريدة زيادة على النشرة العربية لجريدة التونسى ، سماها «الاتحاد الإسلامى» كان هو مديرها ، ورئيس تحريرها الشيخ الثعالبى ، أصبحت جريدة الساعة ولسان الإحساس الشعبى .

واشتد حقد التونسيين على الجالية الإيطالية ، التى هى ضخمة العدد فى العاصمة ، وعظمت نقمتهم على الاستعمار ومظاهره ، فلما حدثت المشكلة القضائية ، بين لمدية العاصمة وبين جمهور الأهالى، حول صبغة المقبرة الإسلامية الكبرى « مقبرة الزلاج » هل هى ملك بلدى أو وقف إسلامى ، وقامت المظاهرة الكبرى أمام المقبرة ، كان من آثار الغليان الشعبى أن حدث اصطدام بين أفراد من المتظاهرين وآخرين من الإيطاليين قتل أثناءه وجرح عدد من الطرفين ومن رجال الأمن والجند ، وبدأت الإدارة فى استعمال وسائل القمع واستمر الوطنيون على سبيل التحدى والتمرد إلى ٣١ من صفر ١٣٣٠ — ٩ فبراير ١٩١٢ فأعلنوا مقاطعة ترام العاصمة ، وكان أكثر المستخدمين فى شركته من الإيطاليين ، واهتزت الهيئات الحكومية والاستعمارية لتلك المقاطعة واستطيرت غيظا لنجاحها ولامتناع قادة الحركة ورجال الصحافة من الدعوة إلى حلها — وكانت النهضة الفكرية والوعى القومى قد بلغا مبلغا لم يبق للاستعمار قبل باحتماله ، فأعلنت حالة الحصار والأحكام العرفية العسكرية بكامل تراب المملكة فى مارس وعطلت جميع الصحف العربية ، ما عدا جريدة الزهرة التى بقيت نشرة أخبارية ضئيلة تحرر تحت المراقبة ، ومنعت الاجتماعات ، وتوقفت الجمعيات والنوادى ، وأغلقت المطابع ونزل الإرهاق ، سجناً ونفياً وعقوبات إدارية على رجال الحركة الوطنية ، وأبعد أربعة من كبار الزعماء خارج المملكة ، وهم على باش حانبه وعبد العزيز الثعالبى ومحمد نعمان وحسن قلاتى ، وخرج كثيرون من رجال القلم والسياسة ملتحقين بطرابلس أو تركيا أو أوروبا . فيهم الشيخ الخضر حسين ومحمد باش حانبه ومحمد الجعايبى صاحب الصواب ، فخمدت الحركة الفكرية وساد عليها الركود ، وانقبع الناس كل فى محيطه الخاص فلم يبق للأفكار انتشار ،

ولا للنتاج الأدبي رواج، واتصلت هذه الظلمة بحلك الحرب العظمى ، فزاد الحكم العسكرى حدة ، والضغط الإدارى كلبا ، وأدرك الفرنسيون حقيقة نوايا المسلمين نحوهم بعد دخول تركيا فى الحرب ، فبدأوا يأخذون بالتهمة ويعاقبون بأخبار الجواسيس ، وامتلأت السجون بمن دخلوها بقرارات إدارية ، وكان فيهم نخبة الشبان المعروفين بحماسهم القومى ، ونشاطهم الفكرى والقلمى ، مثل أحمد توفيق المدنى وحسين الجزيرى ، فلم يبق للحياة الفكرية من مظهر إلا انكباب أهل المعارف على كتبهم وأوراقهم فى زوايا المنازل ، ولم يبق للإنتاج الأدبى من أثر ، إلا لمحات من فيوض العواطف وأصداء الآمال الجائشة بالصدور يتناقلها الناس سراً ، لما فى إشاعتها من التبعات السياسية الثقيلة المضنية ، وصور من الهواجس والخواطر تحمل آلام النفوس المقهورة ، وسخرية الهمم من تحدى الجور والطغيان ، أو صور من الانفعالات للأحداث السياسية والحربية ، التى كان منوطاً بها مصير العالم الإسلامى .

عوامل التطور الادبى :

امتاز هذا الدور ، من تاريخ القرن الحاضر فى تونس ، بحرارة الحياة الاجتماعية ، وانتشار الأفكار وتحاكها ، وشعور الكتل بمميزاتها واختلاف مباديها ومناهجها ، وتوثق الارتباط بين النخب المثقفة والجمهور ، بواسطة المجامع العامة ، والمحاضرات ، والتمثيل ، زيادة على وسائل الارتباط الموجودة من قبل وهى الصحف والجمعيات .

ومن نتيجة هذه الحرارة الاجتماعية أن يشعر المثقفون بمنزلتهم الممتازة بين الجماهير ، فيطالعوها بأفكارهم على خلاف ما كان عليه الأمر حين كان المثقفون يعيشون فى وسط قريب مستواه الفكرى من مستوى الجمهور ، فيتكلمون أو يكتبون ، وهم شاعرون بأن من توجه إليه خطبهم وتحاريرهم طبقة محصورة ليس لها انتشار .

كما أن من نتيجة احتكاك الأفكار . وتصادم التيارات ، أن يشعر المثقفون بقوة المعارضة وحدة النقد . وقيام الأفكار المخالفة تجادل وتناظر وتحاجج ، بحيث لاينتصب ذو فكر للكتابة فى موضوع أو التكلم فيه إلا وفى ذهنه صورة المناظر ، مستعداً ليأخذ بمواضع الضعف منه . فيتحاماها ويتجنبها ، ويتولى تقويم كلامه بالنقد والتحليل قبل أن يتولى منه ذلك خصومه ومخالفوه ، فأثر هذا فى ارتقاء المنهج الفكرى للآثار الأدبية . وارتفاع الشعراء والخطباء والكتاب فوق المستوى المبتذل ، وبذلك أصبح التدرج فى سلم النجاح الأدبى منوطاً بالقوة النقدية والتحليلية وهى من لوازم السمو الثقافى ، فأصبحت قيادة الأفكار بيد أصحاب الثقافة العالية وصارت عوامل التطور الأدبى راجعة إلى ما فتحت الظروف فى هذا الدور من فنون الانتاج الأدبى التى كانت أبوابها مغلقة ، وذلك فى باب الخطابة بفنيها العلمى والاجتماعى ، وما كونت من فنون النتاج الأدبى الأخرى من كيفيات وألوان لم تكن تعهدها من قبل ، فكانت لهذه العوامل آثارها الملاحظة فى المظاهر الجديدة والفنون المحدثة التى دخلت على الأغراض الأدبية .

النثر السياسى :

اختص النثر السياسى بالصحافة فازدهر بازدهار الحياة الصحفية ، وتأثر بما تولد فيها من ظروف اختلفت عن الظروف التى عاش فيها النثر السياسى فى الدور الماضى .

وأول هذه الظروف هو ما تكون فى الصحف الوطنية ، من الاتصال بين التحرير بالعربية والتحرير باللغة الفرنسية ، فقد بدأت المطالب الوطنية تبرز بأقلام الزعماء الوطنيين فى قوالب فرنسية استودعوها مطامح الشعب ومرامى مفكرية ، وأدرجوها مقالات فى الصحف الفرنسية الصرفة . ثم فى الصحيفة الوطنية المنهج الفرنسية الملهج ، صحيفة التونسى ، وانعكست تلك القوالب على العربية وقرائها بحكم ما بينها وبين الروح الوطنية من صلة ،

فكانت الصحف العربية تكثر من التحدث بها ، ونقلها إجمالا وتفصيلا ، ثم نشأت الصحف المخصصة بذلك ، وهى النشرات العربية للصحف الفرنسية فسادت حركة النقل والتعريب ، وشاعت فى اللغة العربية مناهج تفكير غربى فى تحليل الموضوع وضبطه . وأساليب تعبير فرنسى فى تركيب الجمل ونظمها وخصائص تعبيرها وما تتضمنه من الإشارات والأمثال ، وراجت تلك المناهج والأساليب رواجا واسعا ، وانسجمت مع الروح القومية باعتبار كونها معبرة عن أفكار الوطنيين ، ومترجمة عن إحساساتهم فكأنهم أوتوا بها وسائل الإفصاح عما يدور فى عقولهم ويختلج فى نفوسهم .

وكان التبرز فى إجادة هذا الانعكاس للكاتبين ، صالح بن محمود والصادق الزمرلى ، بما وهبا من حسن تذوق التعبير الفرنسى والانفعال بدقائقه البلاغية ، ثم مارزقا من المقدرة على أدائه بقلم عربى ، يغترف من فصاحة العربية وبلاغتها ما يسيغ تلك النقول للذوق العربى ، ويكسبها من الروعة البيانية ما ينقل إليها عوامل التأثير التى كانت للأصل فى صيغته الفرنسية الأولى ، ولايخفى مالعمل النقل عن لغة إلى لغة من اعتماد على انتقاء الألفاظ وتعقبها فى صوغ الجمل على صورة تتناسب مع الفكرة والقالب المتحكمين فى الناقل . وكان هذا العمل من الانتقاء والتفنن ، أوضح فى تحرير النشرة العربية لجريدة التونسى . إذ كانت مقالاتها الكبرى تنقل بعمل مشترك بين ثلاثة ، كاتب المقال بالفرنسية وناقله ورئيس تحرير الجريدة ، فيجتمع محرر المقال فى الأصل الفرنسى على باش حانبه أو عبد الجليل الزاوش أو حسن قلاتى ، بمتولى النقل الصادق الزمرلى ومحرر الصحيفة العربية الشيخ عبد العزيز الثعالبى ، ويتولى الناقل الأستاذ الصادق الزمرلى عوض تعريبه المقال ، فيدخل عليه من تنقيحات الكاتب الأصلى واختياراته مايجده أحسن أداء لفكرته وأتم تلاقيا مع المقاصد الأدبية التى نزع إليها ، ثم يدخل عليه من ملاحظات رئيس التحرير مايضفى عليه الذوق العربى السليم ، والنكتة البيانية المتحررة عن

التأثر بالأصل غير العربى ، إذ كان الشيخ الثعالبى لايحسن غير اللغة العربية . فيجمع المعرب بين هذه الملاحظات وتلك ويبرز تعريبه معتمداً على ثلاثة أصول . الوفاء بحق النقل على مايقتضيه تقابل الأساليب التعبيرية بين اللغتين . والوفاء بحق فكرة الكاتب وروحه حتى لاتعبر اللغة العربية عن قصده تعبيراً ينبو عنه ذوقه . والوفاء بحق اللغة المؤدى إليها حتى لاتفقد بسلطان النقل ما هو ضرورى للمنشآت الأدبية فيها من دواعى الحسن والقبول . وبهذا العمل دخل على التحرير السياسى من النقد الأدبى والاعتناء بقوالب الصياغة مالم يكن مراعاً فيه من قبل . وكان لهذا العمل أثره فى الناحية التحريرية بصفة عامة حتى على كتاب العربية فى صحفها الأصلية .

كما كان لاتساع المواضيع التى عالجتها المقالات المنقولة ، واستيعابها ، والتعمق فيها ، وتحليل عناصرها ، وعرض مايتصل بها من الآراء ، ومقارنتها ، والاستخلاص منها ، أثر فى بعث الدراسة السياسية على منهج أدخل فى النظر العلمى الموضوعى ، والتفكير العميق ؛ فمقالات على باش حانبه ، فى تجنيس اليهود سنة ١٣٢٧ – ١٩٠٩ ، وحسن قلاتى فى إصلاح العدلية التونسية ، وعبد الجليل الزاوش فى إصلاح النظام الجبائى ، وإصلاح الجمعية الشورية ، وقد نشرت كلها تباعا فى جريدة التونسى سنة ١٣٢٨ – ١٩١٠ ، تعتبر مثلا للدراسة السياسية العالية التى جددت ما انقطع من عهد الشيخ محمد بيرم ، وزادت عمقا فى الدراسة وبسطا فى البحث .

ويدخل تحت النثر السياسى لون آخر من الانشاء الصحفى امتاز به هذا الدور ، هو لون الجدل بين الصحف على طريقة المناقشة والمناقضة ، فقد كانت وفرة الصحف وتنافسها وانتماؤها إلى المناهج السياسية والثقافية المختلفة مولدا لمشاحنات بينها ، ظهرت فى انتقاد بعضها لبعض ، وتعريض البعض بتقصير الآخر أو غلطه أو خيانته ، وفى التنازع على زعامة المواقف ، والتنازع على ابتكار التوجيهات ، وادعاء كل شرف التأثير فى الموقف لنفسه .

وكثر هذا فى المناقشات التى بين أنصار الاستقلال الثقافى ، وبين أنصار الامتزاج بالثقافة الفرنسية ، خصوصا فى مسألة المدارس القرآنية ، ومسألة إضراب الطلبة فكان هدف مهاجمات الصحافة العربية غالبا فى الأمرين بجريدة التونسى . وكان أبرز الصحف فى التهجم عليها ، جريدة الزهرة وجريدة مرشد الأمة . وقد اصطبغ تحرير هذه المناقشات بما يناسبها من التهكم والتورى والنبز ، ووصف الكتاب والصحف بصفات من شأنها أن تثير ذكر مواقف ينكرها الناس ، أو تصريحات تختلف مع المناهج الوطنية التى عليها الجمهور ، وتتبع المقال الموضوع للمناقشة تفصيلا بتتبع أفكاره والتعليق على فقره . وقد اشتهر فى هذا الباب كاتب زيتونى بارع القلم ، حرر فى صحف كثيرة أخصها مرشد الأمة ، وولع بابراز حدة النقد والأخذ بالمخانق ، هو الشيخ محمد مناشو ، حتى كان من ولوعه بذلك أن أصبحت الجرائد المتطاحنة تتزاحم عليه فتجد كلها عنده ، ماترغب فيه من نقد بالغ وتهكم لاذع ، حتى كان يكتب المقال فى جريدة والرد عليه فى الأخرى ، وهلم جرا ،اعتدادا بقوته فى إبراز نقط الضعف ومواضع النقد ، واختيالا بمقدرته فى تصريف مسالك القول وتقليب وجوه المعنى ، على غرار مقامة الحريرى الدينارية .

وهناك باب ثالث من أبواب النثر السياسى لم يزل مفتوحا منذ أول عهد الصحافة التونسية ، هو باب التعليق على الأخبار والحوادث بما يستخلص عبرها ويستمد منها التوجيهات الملائمة لمبدأ الجريدة ومسلكها ،وقد ازدهرت الكتابة فى هذا الباب وتفتقت ، بسبب كثرة الأحداث واختلافها، ووضوح المناهج السياسية وتباينها ، حتى اتخذه كثير من الكتاب طريقة ملتزمة فى تحاريرهم الصحفية ، فلا يبتدئون الكتابة إلا بالتعرض لحدث يجعلونه أساسا لموضوعهم ، ثم يتدرجون فى تحليله والتعليق عليه حتى ينتهوا إلى تحصيل الفكرة التى يريدون ، وذلك مايعرف فى الاصطلاح الصحفى باسم « السانحة » ، وقد كان كثير منهم يعنون بهذا العنوان ، وامتاز فيه ، إلى جانب

بطليه القديمين الصنادلي والجعايبي ، الشيخ عبد العزيز الثعالبي ، في جريدة التونسي ، لولا أنه كان يطيل في تعاليقه حتى يخرج بها عن الحد المألوف للسانحة عند الصحفيين ، وإن كان يزينها بما عنده من جمال التعبير ووضوحه وحسن اختيار الألفاظ ، والمزج بين الوصف والتعليق ، حتى ينتهي إلى غرضه بانتهاء سرد أطوار الحادث الذي يعلق عليه .

النثر الفني :

بقدر ما لاحظنا من تقدم وسمو في أبواب النثر السياسي ، نلاحظ تأخرا وقصورا في النثر الفني ، وليس منتظرا من الدور الذي ندرسه الآن أن يعين على تقدم النثر الفني وازدهاره ، فقد كان دورا قوامه السياسة والنضال ، ومظهر حياته الصحافة ، وملء تاريخه المجامع والمظاهرات ، وذلك قد يعين على ازدهار أبواب كثيرة من الأدب ، ماعدا النثر الفني الذي هو وليد الشعور والخيال ، فأغراض النثر الفني القديمة تعطلت كلها ، وأوصدت أبوابها ، بسبب انصراف النفوس إلى الحياة العامة ، وخضوعها لشواغل الحس والعقل .

ومع ذلك فإن أقلاما تسرى فيها روح الشعور الفني ، ونفوسا يملؤها ذوق الجمال الأدبي ، قد استطاعت ، وهي تخوض غمرات الحياة العامة ، أن تستمع إلى صوت العاطفة المتأثرة ، المنبعث من أعماق ضميرها الفني . يبلغ وحي الخيال ، ويهيب بها نحو المناهج الفنية ، والمحاسن اللفظية ، والصور المثالية ، فتبقى متصيدة للفرص ، حتى إذا وجدت فجوة من سبل الاحداث ، وهدأة في مصارعات السياسة ، استخرجت موضوعا نظريا من صميم نفسها ، أو تعلقت بموضوع ذي جهة عاطفية من الأحداث العامة ، فأروت غليلها بمعالجته على منهج النثر الفني . ولعل المفرد بين أصحاب الأقلام الصحفية الذي لم تنقطع لفتته إلى ناحية النثر الفني ، هو ذلك الكاتب الذي عرفنا أن هوايته الكتابية كانت بالفن للفن ، وهو الشيخ محمد مناشو ، فكان ينشر

أحيانا قطعا من النثر الفنى القائم على تخيل القصص والمحاورات ، وينشر أحيانا مقالات فى الأحداث السياسية الكبرى يجنح فى تحريرها إلى الطريقة الفنية البلاغية ، وقد ولع بالمحسنات البديعية ، ونما فيه هذا الولع حتى أقام آثاره الكتابية على تزيين الفن القولى بزخرف التراتيم ، فكانت له اليد الطولى فى فن السجع المزدوج ، الذى بلغ فيه أوج الإجادة ، وخفف من ثقل وطأته على قلمه ، ما كان له من معرفة واسعة باللغة ، ومقدرة على حسن التصرف فى مفرداتها ، وممارسة متينة لفنون البلاغة والأدب ، زيادة على حسه المرهف فى النقد بملكة الذوق المجرد .

أما فن الرحلات ، الذى كنا اعتبرناه ملحقا بالنثر الفنى ، فقد استمر فيه مضطلعا بتحرير الرحلات الرسمية ، محمد بن الخوجه ، على طريقته التى عرفناه بها قبلا ، طريقة الإنشاء الديوانى ، وزاد فيها توغلا وإطنابا ، فكتب الرحلة الفليارية مجلدا مستقلا سنة ١٣٢٩ — ١٩١١ والرحلة الناصرية كذلك سنة ١٣٣١ — ١٩١٣ ولم يظهر غيره فى هذا الميدان سوى الشيخ محمد المقداد الورتتانى ، الذى نشر فى سنة ١٣٣١ — ١٩١٣ كتابه « البرنس فى باريس » فكان مظهراً جليلا لسمو فن التحرير فى تسجيل الرحلات الفردية الخاصة فى أوربا ويعتبر كتاب البرنس فى باريس ، أكمل صورة قلمية لنظر العربى الناهض إلى أوربا ، بوصف المسالك والمشاهد والتأثرات النفسية والمناظر الطبيعية والحياة الاجتماعية ، مع اثارة المقارنات التفصيلية بين الماضى الإسلامى والحاضر الأوروبى فى كل ناحية من نواحى الحضارة ، فكان المطالع يسير مع الكاتب فى تأملاته ، ثم ينتقل بدعوته إلى ما يريد من الملاحظات والعبر والمقارنات التاريخية ، فيتلقى المعلومات عن التاريخ الإسلامى ، فى ما يرجع إلى فنون الحضارة وأوضاع الحياة المدنية بالقيروان فى عصر مجدها ، وقد كان المؤلف عند رحلته مقيما بها ، ومن العاملين على إحياء تاريخها وإبراز آثارها . وإن هذه الرحلة لتعتبر من حيث التعمق فى معرفة الحياة الأوروبية ودقة وصفها وبراعة عرض تاريخها وحسن

فهم حضارتها ، وتذوق آدابها وفنونها ، أعلى مبلغ لأمثالها فى هذا الباب ، كما تعتبر من حيث متانة التحرير ، ودقة السبك ، وجمال النكت . مظهراً فائقاً للنثر الفنى ، وفى ما اشتملت عليه من المعارف والمباحث مظهراً فائقاً للنثر العلمى ؛ ولولا ماشحنت به من الاستطرادات البعيدة لذكر أمور من شؤون الحياة العادية بتونس لكان مثالا كاملا لفن الرحلة ، على أن هذا لم ينزل بهذا الكتاب عن كونه أرقى مثال وأمثل صورة فى كل ما كتب من الرحلات التونسية فى هذا القرن .

ولكن عاملا جديداً نشأ فحرك النثر الفنى ووجهه نحو غرض جديد هو عامل النهضة التمثيلية ؛ فقد عرفت تونس التمثيل فى أول القرن الرابع عشر . فنا أجنبياً ، تقوم به المسارح الأروبية فتقدم تمثيليات بالفرنسية أو الإيطالية وكان بعض أهل البلاد ، ولو ممن لا يحسن هاتين اللغتين ، يغش المسارح ويعجب بمناظرها ، حتى أن الصحف العربية كانت تعلن أحيانا عن تلك الحفلات (١) . ولكن النظر إليها لم يكن إلا نظراتشوبه روح العبث والتلهى

وفى سنة ١٣٢٥ — ١٩٠٧ قدم على تونس ، من مصر ، جوق الكوميديا المصرية فمثل بالعربيه رواية « العاشق المتهم »

فهنالك أدرك الناس معنى من الذوق الأدبى فى التمثيل . فاهتم به الأدباء وعلقت الصحف على الرواية وتمثيلها فتكون بذلك فن النقد المسرحى ، وكان أول كاتب فى هذا الغرض ، الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب بمقال فى نقد رواية العاشق المتهم ، نشر بجريدة التقدم ؛ وتحرك بهذا الاهتمام بعض من ولع بالفن التمثيلى فأسسوا أول جمعية تمثيلية تونسية . باسم جمعية « النجمة التمثيلية » سنة ١٣٢٦ — ١٩٠٨ ولم تفز بمركز معتبر فى نظر الطبقة العالية من المثقفين حتى قدمت فى سنة ١٣٢٧ — ١٩٠٩ فرقة سليمان قرداحى ، ومثلت

(١) الحاضرة سنة ١٣٠٥

رواية « صلاح الدين الأيوبى » ، من تأليف الشيخ نجيب الحداد ، فوجد الناس من موضوع الرواية ، وسمو تحريرها الأدبى ، وبراعة الممثلين ، ما علق اهتمام الصحف والأفكار بفن التمثيل ، وأجبر أهل الثقافة على اعتباره فنا من فنون الأدب ، وبابا من أبواب التربية الشعبية ، فتأسست جمعية تمثيلية ، بعناية الشيخ عبد العزيز الثعالبى سنة ١٣٢٨ — ١٩١٠ سميت جمعية الآداب ، ثم أسست جمعية أخرى « جمعية الشهامة العربية » وفى سنة ١٣٢٩ — ١٩١١ ظهرت أول مسرحية لكاتب تونسى ، هى رواية « السلطان بين جدران يلدز » من قلم محمد الجعايبى مثلتها فرقة إبراهيم حجازى ومثلت جمعية الشهامة رواية للشيخ محمد مناشو عنوانها « الانتقام » .

وفى سنة ١٣٣٢ — ١٩١٤ قدمت فرقة الشيخ سلامة حجازى ، فهام الناس بتمثيله روايات « صلاح الدين » ، و « شهداء الغرام » ، و « مجنون ليلى » و « هملت » وفتنوا بتغنيه بالقصائد السيارة .

سلام على حسن يد الموت لم تكن لتمحوه أو تمحو هواه من القلب

إن كنت فى الجيش أدعى صاحب العلم فاننى فى غرامى صاحب الألم

وفاجأت الناس فى هيامهم صعقة الحرب العظمى ، فرجع الشيخ سلامه وانتهى بذلك هذا الدور الذى خلف للأدب عاملا جديدا من توجه الكتاب نحو الرواية التمثيلية ، وإقبال الجمهور على تذوق هذا اللون الجديد من ألوان الروعة الأدبية .

النثر العلمى :

قضت الحياة السياسية على النثر العلمى بما قضت به على النثر الفنى ، فاختفت المجلات فى عجاج المعركة الصحفية ، وانقطع صوتها فى ذلك الضجيج ، وأقفرت الصحف من المقالات العلمية ، حتى الحاضرة ، بعد انقطاع البشير صفر عنها وعن الخلدونية ، بانتقاله إلى سوسه . بيد أن أصداء الحركة العلمية الناشطة لم تزل

متجاوبة فى الدروس والمحاضرات ، ومثل الانتاج العلمى فى الشرق والغرب لم تزل تحرك الهمم نحو البحوث التاريخية والأثرية التى تجلو عظمة الماضى الإسلامى فى تفاصيله .

وقد ظهر فى هذا الدور شاب مولع بالدراسات التاريخية والمباحث الأثرية هو الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب الذى خلف البشير صفر فى تدريس التاريخ بالخلدونية . فأدخل عليه من خصائص منهجه ما كون له وجهة جديدة .

نشأ حسن حسنى عبد الوهاب فى خدمة التاريخ التونسى ، على تتبع دراسات المستشرقين والأثريين والأوربيين التى تطبع كتبا جامعة أو تنشر مقالات فى المجلات العلمية ، فنما فيه ذوق البحث التفصيلى ، والتنقيب الأثرى والعناية بتحقيق المصادر وإحيائها ، وغلب نفسه عن الانقطاع للدراسة والبحث ، والعكوف على المطالعة والتحرير ، فخالط المكاتب القديمة ، وتعرف إلى المخطوطات العربية ، وتنقل بين الآثار ، جامعا وباحثا ودارسا وموضحا وكبرت نفسه اعتزازاً بأمجاد التاريخ التونسى ، وعظمت همته حرصا على التعريف بها ، ولما أسند إليه تدريس التاريخ بالخلدونية كان عاملا على بث تلك الروح فى طلبته ، وعلى الدأب على توسيع دائرة بحثه وإنتاجه ، فاتصل بمراكز البحث التاريخى والنشر العلمى ، فى الشرق والغرب ، وشارك فى التحرير بالعربية ، فى مجلات علمية محترمة بالشرق مثل مجلة « المقتبس » وبالفرنسية ، فى كثير من المجـــلات والنشرات التى تقوم عليها معاهد الاستشراق ومجامع الآثار ، فى أروبا ، زيادة على ما كان ينشر من البحوث التاريخية فى الصحف التونسية ، وخاصة بجريدة الزهرة ، وتوفر أولا للقيروان وآثارها ، فأصدر فى سنة ١٣٣٠ — ١٩١٢ أول تأليف له طبع مستقلا ، وهو كتاب « بساط العقيق فى حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق » ، وضعه بمناسبة تأسيس ناد أدبى بالقيروان سمى ، « نادى ابن رشيق » ، واهتم فيه

بدراسة بن رشيق وأدبه ، ولكنه اهتم فوق ذلك ، بوصف لمعالم القيروان وخططها وحضارتها على أسلوب وصفي يعتمد على إبراز نتائج المعارف التاريخية والبحوث الأثرية ، في قالب حي ، يصور مدينة القيروان على ما كانت عليه حياتها العمرانية والعلمية والأدبية في عصرها الزاهر ، على أسلوب يمكن المطالع من الوقوف على تلك المعارف الواسعة في مطالعة وجيزة ممتعة ليس فيها كلفة البحث ، ولا عناء الدرس . ثم تفرغ لتلخيص التاريخ التونسي عامة ، على منهج علمي دراسي متين ، فسبب كتابه « خلاصة تاريخ تونس » المطبوع سنة ١٣٣٢ – ١٩١٤ فقسم التاريخ إلى أدوار ، وأوجز في كل دور الكلام على دوله وأحداثه السياسية وحالة الحضارة وأعلام الرجال ، مع التنبيه على أهم الآثار الباقية من كل دولة وكل دور ، فكان أول كتاب سد حاجة المتطلعين إلى معرفة تاريخ تونس في أسلوب سهل محكم ، وعلى منهج يتفق مع الأساليب العصرية والأذواق الحديثة . وأصدر بعده كتاب « المنتخبات المدرسية » الذي قرب فيه للطلبة ما كان صعبا جمعه على العلماء ، من نصوص الشعر والنثر ، الصادرة عن الأدباء التونسيين في عصور التاريخ العربي ، مع تراجم وجيزة تبصر الناشئة بماضيها وتمكن فيها ذوق البحث التاريخي ، إلى جانب الذوق الأدبي ، والملكة العربية السليمة .

الخطابة :

أثرت ظروف الحياة الاجتماعية ، في هذا الدور ، على تطور الخطابة وارتقائها تأثيراً كبيراً .

فنشاط الحياة السياسية ، واختلاف النظريات والمناهج ، وانتشار روح الحماس الوطني ، واشتراك الجماهير الشعبية في العمل السياسي ، وقيام الاجتماعات والمظاهرات ، من جهة ونضوج فكرة الإصلاح الديني من جهة أخرى ، وتحرك الشباب الجامعي في السبل الإصلاحية ، من جهة ثالثة ؛ وفتح باب المحاضرات العلمية ، من جهة رابعة ؛ قد كانت كلها عوامل متلاقية على النهضة بالخطابة ، في أبوابها المختلفة ، وترقية ملكتها ، عند الزعماء السياسيين ، والوعاظ الدينيين ، والشبان ، والأساتذة .

فقد كان مؤتمر البالماريوم ، أول مناسبة لظهور ملكة الخطابة السياسية ، وكان النجاح الذى لاقاه خطباؤه ، فى الخطابة بمعناها الحقيقى ، وهى الخطابة الارتجالية ، التى تستمد معانيها ، وتعابيرها ، ووسائل تأثيرها ، من مقام الخطبة ، وروح المستمعين ؛ وتعتمد على طرق الإقناع ، بما يصحبها من عوامل التأثير ، من ذات الخطيب ونبراته فكان لهب الحماس الذى اشتعل فى الجمهور من خطبة الدكتور أحمد الشريف وخطبة الشيخ سالم بن حميده برهاناً على ارتقاء ملكة الخطابة الارتجالية باللغة العربية الفصحى وبلوغ هذين الخطيبين فيها مبلغاً عالياً .

ثم كان إضراب الطلبة الزيتونيين . مناسبة حملت رجال الحركة السياسية على معاناة الخطابة بالعربية ، إذ لم يكن فى وسعهم أن يتقدموا إلى طلاب العربية وأهل البلاغة والفصاحة بما يحط قيمتهم فى أنظارهم ، وكان ما ظهر به على باش حانبه من قوة خطابية ـ مع أنه لم يكن مكيناً من اللغة العربية ـ دليلا واضحا على سمو الموهبة الخطابية المودعة فيه ، وسمو الهمة التى سمحت له بأن يبرز من نفسه خطيباً عربياً مرموقاً بعين الاعتبار ، وكان فى تلك المجامع للصادق الزمولى من ميعة شبابه وشدة حماسه وحسن نبراته وفصاحة منطقه وجمال عبارته ، ما ترك الناس يشبهونه بخطيب مصر العظيم ، مصطفى كامل ، كما كان للخطباء اللذين ظهروا من بين الزيتونيين ، فى شبابهم الباكر ، مثل إبراهيم بن شعبان ومحمد شويشه ومحمد العبيدى . مكانة فى الخطابة ألفتت اليهم الأنظار وبإعجاب وثناء أجمعت عليهما الصحف فى تلك المناسبة .

ولكن الذى بزالكل فى الخطابة . بما اجتمع فيه من بلاغة القول ، وحسن المنطق ، وبداعة البداهة ، والمقدرة على التردد فى خطابه بين الصعود والنزول ، حتى يخرج بإعجاب الخاصة وانفعال العامة ، مع حسن تؤدته ، وتمسكه بأهداب العربية الفصحى ، ونكت آدبها ، وطول نفسه فى الخطابة حتى يخطب الساعات المتوالية ، فلا يضجر ولا يتململ ولا يحتد ولا يفتر ، إنما هو الشيخ عبد العزيز الثعالبى الذى أجمع العالم على تقدير قيمته الخطابية

وشهد له شاعر العراق الأكبر معروف الرصافى بأنه أعظم خطيب عربى عرفه هذا القرن .(١)

أما الخطابة العلمية ، فقد كان ميدانها من قبل محصوراً فى الدروس ، وكان بطلها البشير صفر . فلما فتحت جمعية قدماء الصادقية باب المحاضرة العلمية ، ظهرت مواهب بهرت المستمعين بالفصاحة وقوة الإيضاح وجمال التنسيق وبلاغة العبارة واستيعاب موضوع البحث وتحليله وجمعه ، وقد أجمعت شهادة الصحف ، على اختلاف مشاربها ، على أن زعامة الخطابة العلمية ، على الجملة ، قد انحصرت فى الشيخ الطاهر ابن عاشور والشيخ الخضر حسين .

وأما الخطابة الوعظية الدينية فقد تركناها فى المحاضرة الأولى ، تحاول الخروج من ركودها على يد الشيخ سالم بو حاجب ، فظهر فى هذا الدور رجال من تلامذته . انتهجوا منهجه فى طرق المواضيع الاجتماعية الحية ، أبرزهم الشيخ أحمد بيرم ، الذى استمع إلى خطبته الزعيم المصرى محمد فريد(٢) وأثنى على حسن اختياره للمواضيع الحية . وكانت مجلة السعادة العظمى ثم الصحف من بعدها دائبة على الدعوة إلى تطور الخطابة الجمعية والتنويه بصنيع الشيخ أحمد بيرم . فتتابع الخطباء على انتهاج سبيله ، وكان أتمهم نجاحا فى ذلك الشيخ الصادق النيفر ، فهو الذى صبغ الخطابة الجمعية بصبغة الخطابة الحقيقية ، فكانت خطبه ارتجالية تتناول المواضيع ذات المساس بالحياة السياسية وكانت له سمعة أكبر خطيب دينى .

الشعر :

كانت نهضة الشعر عظيمة ، شملت أغراضه وقوالبه ، وظهر بها فى ميدان الإنتاج الأدبى شعراء كثيرون برهنوا على عبقريات فائقة ؛ وحقيق بالشعر أن يكون دور الحركات الاجتماعية والحماس السياسى ، دور نهضته وازدهاره

---

(١) نفح الطيب فى الخطابة والخطيب لمعروف الرصافى .

(٢) من مصر إلى مصر لمحمد فريد فى الموسوعات ١٩٠٢ .

فهو الذى لم يزل من عهـــد الجاهلية ، وتر العصبيات ، ونغمة الانفعالات الجماعية ، فإذا لاحظنا أن عوامل النهضة الأدبية ، من نشر روائع الأدب القديم ، ورواج روائع الأدب الجديد ، وشيوع التحرير والخطابة والنقد ، قد عملت فى رفع مستواه الفنى. وصقل ديباجته . فإن عوامل النهضة السياسية والاجتماعية قد وفرت له الأغراض . وفتحت فى وجهه أبواب النفوذ فى الناس ، والتجاوب مع انفعالاتهم النفسية .

وإذا كان الدور الماضى قد دفع بالشعراء الى التغنى بإحياء المجد الإسلامى ، والتطلع إلى عظمة مستقبله ، فإن روح الانبعاث الإسلامى ، والغيرة على عزة الإسلام ، وعزة راية الخلافة ، قد حركا القرائح بالشعر الحماسى ، المتولد عن الأحداث الحية ، والمتأثر بما تحركه تلك الأحداث من الشعور القومى السامى ، فتطورت روح الغيرة القومية إلى شكلها الإيجابى العملى ، الذى يشيد بالروح الكفاحية ويدعو إلى الجهاد ويمجد المجاهدين ، وكان أقرب الأحداث مساساً بإحساس الشـــعراء التونسيين هو حدث حرب طرابلس ، فاندفع صالح سويسى وسالم بن حميده والصادق الفقى ، يصرفون حماسهم فى وصف المعارك ، ومواقف الأبطال ، ويتطاولون على الغارة الإيطالية بالتهكم والتحقير والتحدى ، فأخرجوا ضرباً من الشعر صورت فيـــه الحرب الطرابلسية ، بمقابلاتها الدامية ، وبما وراء المقابلات من عواطف وانفعالات على طريقة شعر الملاحم ، وظهر فى هذا الباب شاعر لم يشتهر من قبل ، وبلغ قمة المجد الشعرى من بعد وهو محمد الشاذلى خزنه دار .

وجاءت حركة الاكتتاب للهلال الأحمر العثمانى وما أقيم فى سبيله ، وتكريم مبعوثيه من احتفالات ، فكانت مناسبات لصوغ العاطفة الحماسية فى قوالب من الشعر الوجدانى ، أدمت القلوب وأبكت العيون .

وكان للانفعال بحركة الكفاح السياسى التونسى ، وما فيها من مصادمات دامية ، ومظاهرات إيجابية وسلبية ، مظهر آخر فيه الاعتزاز والحماس والتذمر

وندبة الحق والحرية والدعوة إلى الثأر والتنويه بالضحايا والتحدى بالثبات والصمود .

وحركت حياة التعليم القومى الحر قرائح الشعراء للشعر المدرسى والأدب الصبيانى ، بنظم الأناشيد المناسبة لتغنى الطلبة الصغار فى الأغراض القومية والأوصاف الطبيعية ونظم القصص الصغيرة والأمثال المضروبة على ألسنة الحيوان واختص بذلك رجال التعليم مثل الشيخ محمد مناشو ، وله القدح المعلى والشيخ سالم بن حميده .

وانتشر هذا الضرب من الأناشيد ، فنظمت فيه قطع لتنشد فى ختام الحفلات التمثيلية . لانسجامه مع روح المجامع ومناسبته للتلحين الغنائى ، فكانت هذه الأناشيد غالباً ، من الموشحات ذات المذهب والدور .

ثم إن حياة الضغط والإرهاق ، زمن الحكم العرفى وسنى الحرب العظمى قد أثرت فى تكوين شعر وصفى يتطاوح فيه الشاعر ، مع نفسه ، الآلام والآمال ، ويناجيها بما يشفى غليله فى القاهر المستطير ، فكان فى الذين أودعوا السجون من رجال الأقلام ، مثل حسين الجزيرى ، من يصف حياة السجن ، شعر ساخر وروح تهكمية نقدية ، وفى اللذين غربوا واغتربوا ، من يشكوا الغربة ويحن إلى الوطن ، مثل الشيخ الخضر حسين ، وفى الذين ضاقت نفوسهم بويلات الحرب من يناجى الأيام بانتظار انفراج الأزمة وتجلى الغمرة وعودة حياة السلام ، أو يبثها الآلام من مظاهر الإرهاق التى اتخذت علة الحرب لها سبيلا . أو يتحرق شوقا إلى يوم الهزيمة الماحقة التى تريه فى فرنسا المستعمرة ما يتمنى لها من شر ودمار ، وفى راية الإسلام ما يصبو إليه من غلبة وانتصار .

المحاضرة الرابعة

الصحافـــــة

١٣٣٨ - ١٣٤٦

مضت ثمان سنين منذ إعلان الحكم العرفى سنة ١٣٣٠/١٩١٢ إلى إعلان رفع حالة الحصار فى جمادى الثانية ١٣٣٨ مارس ١٩٢٠ ، لم يتحرك فيها للفكر والأدب ساكن ، وتوسطت هذه الفترة من الزمن أربع سنين ،كانت أبلغ فى قتل عوامل النهضة الفكرية والإنتاج الأدبى، هى مدة الحرب العظمى.

ثم انتهت بصدمة نفسية ، تسببت عن انتصار فرنسا والحلفاء، وانسحاب تركيا بهدنة مدروس الشنيعة سنة ١٣٣٦ — ١٩١٨ ،وما حاق بالعالم الإسلامى كله من إحاطة الاحتلال الاستعمارى . ولم يكن يغذى النفوس ، طيلة سنى الحرب إلا الأمل فى ارتفاع الكابوس الاستعمارى ، بانكسار فرنسا وحلفائها ، وتجدد القوة الإسلامية بانتصار تركيا ،دولة الخلافة ، وقد تسبب انقطاع الصحف والكتب من الشرق وتعطل المواصلات بصفة عامة ، فى وضع تونس والمغرب كله ، بمعزل عن الحركة العربية التى ظهرت فى الشرق منذ سنة ١٣٣٤ — ١٩١٦ ، فلم تكن أنباؤها ودعوتها يصلان إلا من طرق استعمارية غير جديرة بالثقة .

فلما وضعت الحرب أوزارها ، وارتفعت الحواجز ، وجد الناس أنفسهم فى جو جديد قامت فيه آمال الشعوب الإسلامية على غير الأسس التى كانت مرتكزة عليها من قبل : فالبلاد العربية ، وتركيا نفسها قد سلكت للكفاح

طريقاً جديداً ، بعـــد ضياع الأمل فى الخلافة ، هو طريق الاعتماد على الكفاح الشعبي الحر .

والعالم كله قد تطلع إلى تجديد أوضاعه على قاعدة السلم وحرية الشعوب ، اللذين نادى بهما الرئيس ويلسن وانعقد عليهما مؤتمر فرساى سنة ١٣٣٧ — ١٩١٩ ، يتمخض عن حلم الشعوب الضعيفة ، ومهتف الضمير الإنسانى : عصبة الأمم .

وكانت حياة الأمل قد هيأت الناس للإقبال على التفكير والخلوة لتلقى وحى المشاعر والضمائر . وكان تعاقب الانفعالات المتعاكسة محدثا يقظة سريعة فى النفوس وهزة بعثت النشاط الفكرى ، وأنهت حالة الجمود الذى كان مخيما على أهل الثقافة وأوساط الشباب .

واتصل الشعور الاجتماعى بالحياة العقلية ، اتصالا وثيقاً ، إذ أصبح ميدان الملاحظات عالمياً واسعاً ، وأصبحت بواعث الاهتمام مدركات عقلية لا مشاهدات حسية ، إذ صار أبسط مبادىء النظر فى كفاح الأمة لاسترجاع حقها فى الحرية يدور على إدراج قضيتها تحت قواعد ويلسن ، وعلى تطبيق الدعوات المبدئية المحركة لأوروبا ، من الثورة الاشتراكية فى ألمانيا وإيطاليا ، والثورة البلشيفية فى روسيا ، والحركة الاشتراكية فى فرنسا . والتنظير بالحركات التحريرية فى تركيا ومصر والبلاد العربية .

فلم يكن من المنتظر أن يجد هذا التطلع مستقراً ، إلا فى وسط الشباب المثقف ، وأن لا يطلب لنفسه وجهة إلا نحو ذوى السمو العقلى والإحساس القومى الواسع ، ممن اكتسبوا الثقة فى مواقف القيادة السياسية .

وكان الشيخ عبدالعزيز الثعالبى ، بماله من ماض ، فى السياسة ، والإصلاح الدينى والاجتماعى ، والأدب ، أحق الشخصيات بحسن الانسجام مع هـذا التطلع الشاب . فسرعان ما أحاطت به العناصر الباقيـــة من رجال الحركة الوطنية السابقة ، ورجال الصحف العربيـة المعطلة ، وجددوا السعى فى بعث

معالم النهضة التونسية ، وتجديد العمل السياسى ، فى سبيل التحرير ، وأصبح الثعالبى زعيم النهضة التونسية المطلق . وكان الاستعداد للعمل فى الحياة العامة ، قوياً فى الطلبة الزيتونيين ، والفكرة الإصلاحية مختمرة فيهم بما كانت تجد من التغذية والتعهد طيلة فترة الركود ، من كبار الأساتذة الممتازين بسمو أفكارهم وحسن انسجامهم ، مع تطلع الشباب ، وطرائقهم التجديدية فى التفكير والتدريس ، وهم الشيخ محمد الصادق النيفر ، والشيخ عثمان ابن الخوجه ، والشيخ محمد مناشو . فاندفع الطلبة صفاً واحداً وراء هؤلاء الأساتذة ، يعملون فى السياسة والاجتماع ، عمل الجد والتفانى . وانتشرت من جوهم توجيهات النهضة الجديدة فى الرأى العام ، وتكون من الشباب الزيتونى فى هذه البيئة كتاب عالجوا ، تحت قيادة أساتذتهم الخطابة والكتابة فى شؤون السياسة القومية والإصلاح الدينى والفكرى والاجتماعى ، برز منهم بصفة مرموقة ، أحمد توفيق المدنى ـ ومحيى الدين القليبى ـ وزين العابدين السنوسى ـ ومحمد المهدى بن الناصر ـ ومحمد المنصب المنستيرى ـ والطاهر الحداد ـ ومحمد الحبيب .

وتركزت مظاهر الحياة الفكرية والأدبية كلها حول الحركة السياسية وزعيمها عبد العزيز الثعالبى وجعلت أول هدف لها تحرير الصحافة برفع التعطيل الذى كان مفروضا عليها بالأحكام العرفية .

وسافر الشيخ الثعالبى فى شوال ١٣٣٧ جوان ١٩١٩ إلى باريس لفتح طرق العمل بالاتصال بمحيط مؤتمر الصلح فى فرساى ، وزعماء الحركات التحريرية فى العالم ، الذين كانوا حول ذلك المؤتمر ، وتجديد اتصالاته برجال السياسة والصحافة ، من الفرنسيين الذين كانوا على اتصال به من قبل ، فى عهد العمل الماضى مع الزعيم على باش حانبه .

وكان من أول نتائج هذا السعى أن رفعت حالة الحصار ، وألغى قرار تعطيل الصحف فى رجب ١٣٣٨ مارس ١٩٢٠ فعادت الصحف المحتجبة

وصدرت صحف كثيرة جديدة كانت كلها متلاقية فى المنهج ، تدعو إلى التكتل الاجتماعى ، والإقدام على المطالبة بالحقوق وإنشاء المشاريع ؛ وتنوه كلها لساناً واحداً ، بالشيخ الثعالبى وتؤازره وتستمد التوجيه من لدنه . وبدأ السعى فتحركت همة العمل الجماعى فى نفوس الناس، وأصبح تكتل الجماعات فى سبيل الأعمال العامة أشرف المقاصد الوطنية . وانطلقت الصحف تكون الارتباط بين الشعب وبين مركز العمل السياسى فى باريس ، وتشرح أصول البرنامج السياسى الذى يكون الارتباط عليه ، وهو برنامج يقوم على أن حكم البلاد ينبغى أن يكون شعبياً دستوريا نيابياً ، وأن أجهزتها القضائية والإدارية ينبغى إصلاحها على أساس قومى عصرى يوجه التصرف الحكومى ، نحو المصلحة الشعبية على مبدأ ضبط المسئوليات وتفريق السلط .

وأفاضت الصحف فى شرح النقط التفصيلية لذلك الإصلاح، استمداداً لمن الكتاب الذين نشره الشيخ الثعالبى ، باللغة الفرنسية ، فى باريس ، باسم « تونس الشهيدة » فضلا عن النسبة إلى مؤلف ، وتوجهت إلى مهاجمة الإدارة، وانتقاد تصرفاتها فى جميع نواحى الحياة العامة بمقياس ابتعادها عن تلك الأصول، وإذ أصبحت دعوة الصحف ، على كثرتها ، دعوة إجماعية ، فإن الرأى العام قد تأثر بالبرنامج الذى تدعو إليه تأثراً سريعاً ، وسرى فى البلاد عزم إجماعى قوامه عقيدة وطنية ، مبنية على أن غاية العمل الشريف الذى ينال به الفرد منزلة الإنسانية الكاملة هو العمل فى سبيل المصلحة العامة .

وأن وسيلة ذلك العمل هى الخلاص فى سبيل تحرير سياسة البلاد من قيود الوضع الاستعمارى ، الذى يمنعها من التقدم ، وإنشاء المؤسسات الصالحة .

وأن آية هذا الإخلاص ، الاتحاد والتكتل وتنظيم العمل الجماعى فى كل ناحية من نواحى الحياة ، ليقيم المنشآت الحرة ، منسقة مع الكفاح السياسى ومبنية على روح التضحية .

وتقدم رجال الحركة السياسية لتحديد خطة المطالبة فحرروها فى ثمان نقط تتناسب مع مايشكو منه التونسى ، يومئذ ، من سياسة الجور والتمييز العنصرى الاستعمارى .

ونشطت كتل الشباب للعمل الإيجابى فنظم الطلبة الزيتونيون فى رجب ١٣٣٨ مارس ١٩٢٠ مظاهرة هائلة أمام دار السفارة الفرنسية احتجاجا على احتلال جيوش الحلفاء لعاصمة الخلافة : استامبول ، ثم فى شوال وفى جوان، سافر الوفد الدستورى إلى باريس لتقديم المطالب إلى الحكومة الفرنسية بصفة رسمية . وتقدم وفد آخر إلى الملك ، فلقى منه ومن أنجاله من التأييد والتضامن ، ما أكسب الحركة الدستورية قوة ورسوخا .

ودخلت الإدارة الاستعمارية فى أعمال القمع والانتقام ، فأوقفت عن وظائفهم الموظفين الذين شاركوا فى الوفد المتقدم بين يدى الملك ، وكان من بينهم الأستاذان محمد الصادق النيفر وعثمان ابن الخوجة . ولما انتهت مدة الإيقاف وعاد الشيخان إلى العمل فى الجامعة ، أقيم لهما مهرجان اقتبال عظيم خطب فيه الطلبة وأنشد شعراؤهم ، فكان ذلك تقدماً جريئاً فى طريق الثبات على الكفاح .

وألقى القبض على الشيخ الثعالبى فى باريس ، فحمل إلى تونس ، تحت حراسة السجن وأحيل على المحكمة العسكرية ، فقضت بسجنه ثلاثة أشهر . خرج بعدها ، فى صفر ١٣٣٩ اكتوبر سنة ١٩٢٠ ليشرف عن كثب على توجيه الحياة السياسية والفكرية للبلاد على المنهج النظرى الذى يؤمن به ويدعو إليه

كان الثعالبى داعياً دينياً ، ومصلحا اجتماعيا ، قبل أن يكون زعيما سياسياً ، فلذلك كانت جهة النهضة الدينية والاجتماعية من حياة الأمة ، آخذة بنظره وسائدة على شعوره ومصرفة لفكرته . وكان نظره السياسى محل اختلاف بينه وبين كثير من عناصر الأمة التونسية ، لكن نظره الإصلاحى

كان محل اتفاق . بسبب ما هيأت حركة النهضة الفكرية السابقة للنهضة السياسية من توجيه شائع مضطرد .

وعلى ذلك جاء ضبط الخطة التي قررت لهذا الازدواج ، وإعداد الأدوات التي استعملت لتنفيذها ، فكان للخطة منهج نظري ، وضعه الشيخ الثعالبي ، يتلخص في أن مصدر التوجيه هو الدين الإسلامي ، وأن الدين قوامه العلم والأخلاق، ووسيلة نشره الدعوة والتناصح، وأن من حق الدعوة الإقدام في سبيلها . والاستخفاف بما يتعرض إليه القائم بها ، من متاعب أو يناله من إرهاق . وأن أمر المسلمين قد استمر منتظما طالما كان أهل الدعوة ، وهم العلماء ، قائمين بواجبها ، فلما قصروا فيها اختل أمر المسلمين ، وطغت عليهم الأمراض الاجتماعية ، وقامت أمم أوروبا تنازعهم السيادة . وأن تونس ليست إلا جزءاً من ذلك الهيكل الإسلامي الشرقي ، تداولت عليها أطوار السعادة والشقاء ، كما تداولت على سائر بلاد الشرق الإسلامي ، وأن دعوة ظهرت في الشرق الإسلامي ترمي إلى إصلاح شأنه ، بتجديد ما كان سبباً في سعادته الأولى ، فاصطدمت هذه الدعوة بعدوين هما : الجامدون من أبناء البلاد ، والمستعمرون من الدخلاء عليها ، ودخلت في الكفاح في وجههما معا . وأن مصر هي مستقر هذه الدعوة ، ومركز هذا الكفاح ، وعنها تلقى رجال الإصلاح بتونس دعوتهم ، وعلى مثالها سيروا كفاحهم ، فاعتمدوا كما اعتمدت هي ، على الجرائد والمجلات، في تلك ينشرون الدعوة ، وفي هذه يحررون الحجة . وأن نكبة الصحافة التونسية بالتعطيل ثمانية أعوام قد أوقفت سيرها نحو التقدم ، فلما انتهت الحرب ، التي كان حظ التونسيين من ويلاتها على عكس حظهم من غنائمها ، علق الناس أملهم في الحرية على مبادىء ويلسون فكان أملا خلبا ، ولكن الأثر الأدبي قد بقي في نفوسهم بعد تلاشي الأمل السياسي ، فكان من النتيجة الحتمية ، لإشاعة تلك المبادىء وتعلق الآمال بها ، أن انفتحت آذان الجبابرة للإصغاء إلى شكوى المغلوبين ، وقويت نفوس المغلوبين على الشكوى والاحتجاج .

وبرزت الجرائد التونسية ، بعدفك عقالها ، تبث دعوة الحرية،وتناضل المستعمرين فى سبيل إيتاء الأمم المغلوبة حقها . وتهيب بأبناء الأمة نحو التناصح بالحق والتعاون على إنشاء المؤسسات النافعة ؛ فلزم أن تكون دعوتها هذه راجعة إلى مبدأ يؤلف بينها ، وخطة توحد وجهتها نحو الغاية المثلى ، وذلك لايتحقق إلا باستناد الجرائد ، التى هى لسان الدعوة ، إلى مجلة تكون مستودع الفكرة ومنبع التوجيه ولسان القيادة الحكيمة التى تأتمر الصحف بأمرها وتصدع بكلمتها .

هذا هو برنامج الثعالبي ، الذى جعله عهد زعامته ، وأنشأ بمقتضاه مجلة الفجر فى ذى القعدة سنة ١٣٣٨ أوت ١٩٢٠ ، مفتتحة بمقال بسط فيه هذا المنهج ، الذى اطرد سيرها عليه ، ثم سعى فى توسيع نطاق الطباعة بالدعوة إلى تأسيس مطبعة كبرى ، كوّن لها شركة مساهمة ، وهى مطبعة النهضة ، على نية أن تصدر عنها صحيفة يومية كبرى . وأن تجد الصحف الأسبوعية فيها تشجيعاً وتسهيلا .

وبهذا الانسجام بين الفكر والعمل والالتئام بين وسائل الدعوة كلها ارتبطت النهضة الفكرية والأدبيـــة بالحركة السياسية ، وسيطر النفوذ السياسى على ميادين الإصلاح الدينى والإصلاح الإجتماعى ، فأصبح الحزب الدستورى ، يهتم بمقاومة البدع الدينية ويحارب العوائد الفاسدة ، ويعمل على توجيه المشاريع الخيرية والاقتصادية ، حتى استحكم الشعور بهـــذا الارتباط فى نفوس العاملين فى السياسة والمشاريع فسووا فى شرف الكفاح كل عامل فى الحزب السياسى أو الصحافة أو الجمعية الخيرية أو النادى الأدبى ، وعاملتهم الحكومة أيضاً بهذا الاعتبار . فاعتبرتهم جميعا ، كالحلقة المفرغة ، هم دعاة التشويش ونواديهم ونشرياتهم بؤر تشويش وتمرد ، فزادت بذلك فى تقوية اللحمة بينهم .

ونهضت الجمعيات الثقافية من رقادها ، فجمعية قدماء الصادقية بعد أن انقطع نشاطها وفقدت مقرها ، فأودعت مكتبتها فى دار الجمعية الخلدونية ،

نهضت بتكوين مجلس جديد لإدارتها ، تحت رئاسة الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب ، فأصدرت مجلة أدبية راقية ، باسم «المجلة الصادقية» قام بإدارتها ورئاسة تحريرها محمد السعيد الخلصى فلم يصدر منها ثلاثة أعداد حتى احتجبت ، ونظمت محاضرات فى نادى الخلدونية قام بها محمد العربى الكبادى ومحمد الشاذلى خزندار وعبد الرحمن الكعاك ، واستمرت تدأب فى سبيل استقلالها وتجديد ناديها ، فلم يتم لها ذلك إلا فى سنة ١٣٤٢ – ١٩٣٤ ، تحت رئاسة الأستاذ مصطفى الكعاك ، فكانت تلك السنة حافلة بالمحاضرات ومظاهر النشاط الأدبى فى النادى والمكتبة وتوجهت المحاضرات وجهة جديدة نحو المواضيع التحليلية الدقيقة ، والنظريات الأدبية الجزئية والمشاكل الفكرية والدراسات الأدبية النقدية ، مثل محاضرات محمد بن الحسين « هل الفنون مطية للرقى » ، « هل الكاتب يكون الوسط » ، « هل تتطور اللغة العربية وآدابها » ، ومحاضرة الطاهر صفر «هل تطورت اللغة العربية على يد جبران» ومحاضرة عثمان الكعاك « ابن الرومى والشعر اليونانى » .

كان أكثر المحاضرين البارزين على منبر قدماء الصادقية فى هذا الطور من الشبان المتخرجين بالصادقية ، أصحاب الثقافة المزدوجة ، فى حال أن الشبان الزيتونيين ، الذين كانوا عماد الأدب والصحافة ، قد بقوا بمعزل عن هذه الناحية ، يتطلعون متحرقين إلى إمكان الوسائل للظهور تحت اسم جمعية تبرز شخصيتهم الزيتونية ، وكان الشيخ محمد مناشو هو الذى يحرك فيهم ذلك التطلع وينمّيه ، ولكن الحكومة امتنعت عن الترخيص لهم فى تكوين جمعية ، كما كانت امتنعت من قبل ، فاستمروا يعملون فى نطاق ضيق ، ثم لما أيسوا من التحصيل على رخصة إصدار مجلة تسلموا فى مستهل سنة ١٣٤٠ مجلة من صاحب امتيازها تسمى مجلة « البدر » ، وجعلوها مجلة جمعيتهم التى سموها « الجامعة الزيتونية » ، وكتبوا ذلك على عنوان المجلة . فكان الشيخ مناشو المشرف عليها وتلميذه محمد الحبيب مديرها ، وسارت على منهج بحث علمى راق ، ودراسة تاريخية وأدبية عميقة ، تسودهما الروح الدينية والأسلوب العلمى .

واستمرت الحركة الفكرية سنتين ، على هذا الوضع المتين ، مستندة إلى الحركة السياسية متقوية بإجتماع كلمة الأمة وراءها .

فلما حدثت الأزمة السياسية سنة ١٩٢٢/١٣٤٠ بسبب دخول الحكومة فى محاولات إصلاحية ، حدث فى صفوف الوطنيين انشقاق هائل ، بين أنصار المنهج السياسى الشرقى الذين كان يتزعمهم الثعالبى ، وأنصار المنهج السياسى الغربى ، المعتمدين على تأييد الحزب الاشتراكى الفرنسى ، بزعامة حسن قلاتى، ضعف أمر الحركة السياسية ،وتكسرت على نفسها بانصراف الصحف إلى المعركة الحزبية ، لما أسس حسن قلاتى الحزب الإصلاحى وأصدر جريدة « البرهان » تدعو إلى قبول الإصلاحات ، والدخول فى سياسة المراحل ، التى تنتهى بالبلاد إلى نظام من الارتباط بفرنسا قائم على أساس نظام الدومنيون الإنكليزى وظهرت الدعوة الشيوعية ، وحركة العمال ، فضايقت الحركة الدستورية فى الميدان الاجتماعى ، والتهبت الحركة الدستورية بموقف الملك المقدس محمد الناصر ، لما هدد بالتنازل عن العرش تضامنا مع الدستوريين ، ثم خمدت بالحل السياسى الماكر الذى حلت به الأزمة، ثم بوفاة الملك العظيم ، فكان ذلك نازلا على الحركة الفكرية بفتور تضاءل منه أمرها فتوقفت المجلتان الراقيتان ، واحتكرت الأفكار والأقلام معارك السياسة والانتخابات ، وانسحب الثعالبى من الميدان ، ففارق البلاد واستقر بالشرق .

إلا أن شابا طموحا ، عالى الهمة الأدبية ، من أسرة مجلة البدر ، وأركان جمعية الجامعة الزيتونية ، لم تغلبه عوامل الفتور فثبت صامدا يجاهد فى سبيل المحافظة على الشعلة الأدبية ، هو زين العابدين السنوسى ، ابن الشيخ محمد السنوسى الذى عرفنا بقيمته فيما مضى، فكوّن له مطبعة باسم مطبعة العرب، على ضعف ما لديه من الوسائل المادية ، وتحيل على المنع القانونى ، بإصدار نشرة شهرية على طراز مجلة البدر فى صورة كتاب ذى أجزاء سماها «العرب». فمنعت الحكومة رواجها من العدد الرابع فاستمر ينتحل لكل عدد إسما يدل

على ثباته فى إصدار مجلة العرب التى لم يرخص فيها ، فكانت أسماء الأجزاء تختلف بين « المقالات » و « ومقالات العرب » و « لطائف العرب » واستمرت الحكومة تلاحقه وهو يراوغها على هذا النحو إلى سنة ١٩٢٦/١٣٤٤ .

ودخلت المعركة الحزبية داخل الجمعيات ، فانصرفت عن أعمالها الثقافية والاجتماعية إلى المنافسات والمناقشات الانتخابية، ودخلت الجمعية الخلدونية وجمعية قدماء الصادقية والجمعية الخيرية وجمعية التمثيل العربى ، فى شبه حياة برلمانية ملئت بالمؤامرات والدعاوى ففترت عن القيام بما أسست له ثم أخلدت إلى نوم طويل .

ونزلت فوق هذا الاضطراب السياسى دواعى اضطرابات أخرى كانت أشد مساسا بالحياة الفكرية ، مثل مسألة الخلافة ومسألة الحجاب ، فإن موقف فرنسا فى الحرب الكبرى ، ضدًّا للسلطنة العثمانية ، كان عاملا فى تقوية حماسة المسلمين فى التعلق بالخلافة ، فلما انجلت الحرب العظمى عن الحركة الكمالية تعلق الناس بها واتخذوا الغازى مصطفى كمال علم الخلافة المجدد شبابها . واعتبروا انتصاراته العظمى ثأرا مما ينال المسلمين كلهم فى الشرق والغرب من عدوان الأوربيين . وأقيمت الحفلات لمشروع الهلال الأحمر وعقدت المجامع للتنويه بالمواقع والتهنئة بالانتصارات .

ولما أعلنت الجمهورية التركية وتطورت السلطنة إلى خلافة وجد دعاة الخلافة الإسلامية من صبغتها الدينية المحضة ذريعة لعملهم فتأسست سنة ١٣٤١ — ١٩٢٢ لجنة الخلافة الإسلامية برئاسة أحمد توفيق المدنى وأعلنت بيعة الخليفة واتصلت به[1] وسرعان ما جاء قرار إلغاء الخلافة سنة ٤٣ — ٢٤ فصعق المسلمون بتونس لذلك وأنكروه كما صعق له وأنكره العالم الإسلامى كله ، وتمسكوا ببيعة الخليفة عبد المجيد واستمر الأئمة فى الجوامع يخطبون باسمه وهو مبعد فى سويسرا ، وكاتبوه بالتأييد كما كاتبوا حكومة أنقرة بالاحتجاج . وأعلن عن انعقاد مؤتمر الخلافة بمصر فبقوا ينتظرونه فى بلبلة واضطراب

---

(١) تقويم المنصور لسنة ١٣٤٢ .

ثم انعقد سنة ٤٤ — ٢٦ وشارك فيه الشيخ عبد العزيز الثعالبى والشيخ محمد الصالحى من كبار المحامين بتونس فلم يسفر عن نتيجة ، وظهر كتاب « الإسلام وأصول الحكم » للشيخ على عبد الرازق أثناء انتظار نتيجة المؤتمر وقامت حوله الضجة بمصر فكان لها صداها بتونس وكتب الشيخ الطاهر ابن عاشور نقدا علميا نشر تباعا بجريدة النهضة ثم طبع مستقلا بمصر . وانقلبت محبة الكثيرين فى مصطفى كمال كرها له ونقمة ، إلا أن أحد المعروفين باستقلال النظر من علماء جامع الزيتونة ، وهو الشيخ عثمان ابن الخوجه كتب فى جريدة الزهرة يؤيد مافعله الكماليون ويصرح بأن الخلافة على وضعها الذى ألغيت به ليست دينية لفقدها الشوكة التى هى شرطها الأصلى . فتقسمت الأفكار بذلك ، وظهر شق متطرف من شباب الكتاب والمفكرين ينظر إلى هذه المشكلة وغيرها من المشاكل الدينية نظراً مستخفا بما اصطلح الناس على تسليمه من المبادىء . ونظر الجمهور إلى هذا الشق بانكار واحتراز ، ولم تسمح لهم قلتهم وإجماع الناس على مخالفتهم بإظهار أفكارهم ، فبقوا منحازين فى نواديهم يعتضدون بالشيخ عثمان بن الخوجة ، ويجدون من الأفكار التجديدية التى تطالعهم بها الصحف المصرية وخاصة جريدة السياسة الأسبوعية غذاء لأفكارهم وتقوية لموقفهم فكانوا معروفين بميلهم إلى المبادىء الكمالية وطريقة على عبد الرازق وطه حسين ومحمود عزمى ، وربما اعتبرهم كثير من الناس ملاحدة

وشاعت دعوة السفور وتحرير المرأة فخاضت فيها النوادى والصحف ، وانتصب الكتاب الدستوريون لمقاومتها باعتبار كونها بابا من أبواب الاندماج ، واغتنم هذه الدعوة الحزب الاشتراكى الفرنسى بتونس ، فدعا لعقد اجتماع سنة ١٣٤٣ — ١٩٢٤ خطبت فيه سيدتان مسلمتان ، بالدعوة إلى رفع الحجاب ، وخطب فى الرد عليهما الكاتب الوطنى الشاذلى خير الله ، ومضت جريدة الحزب الاشتراكى بتونس تدافع عن الدعوة ، ومن كتابها مسلمون تونسيون فيهم الأستاذ محمد نعمان وغيره من رجال الحزب الإصلاحى ، وانبعث الكتاب الدستوريون يردون عليهم فى الصحف العربية والفرنسية

وكان ما بين الحزب الاشتراكى والحزب الإصلاحى من التعاون قاضيا على جريدة النهضة لسان الإصلاحيين بالسعى فى تعديل الموقف ، فكان ذلك زيادة فى توريطها فى نظر الصحف الدستورية إذ اعتبروها مناصرة للدعاوى الهدامة الرامية إلى الانسلاخ عن الذاتية القومية ، والتزم كل من الشقين منهجه فى عامة المشاكل الاجتماعية والفكرية التى من هذا الباب ، فكان الإصلاحيون والاشتراكيون أنصاراً للتجديد ، والدستوريون أنصاراً للمحافظة .

عوامل التطور الأدبى :

تعتبر هذه الفترة بتونس ، فترة الأمل ، فقد أدرك أهل البلاد عظمة موقعهم وأهمية مشاركتهم فى الحرب ، فتطاعوا إلى مكان أسمى بين أمم الدنيا ، وارتفعت عن الأبصار غشاوات توجهت بعدها إلى الملاحظات السامية ونبضت القلوب بالعزم ونفضت أصداء الفتور والكسل ، وكان تأكد الشعور العربى الإسلامى فى النهضة الوطنية ، وربط أمل تونس فى مستقبلها بمستقبل الشرق العربى ، عاملا على أن تتخذ البلاد لها من نهضة الشرق وتحرره وفيوض المدنية والعلم والأدب المتدفقة منه مثالا يزيدها اعتداداً بنفسها ، ويعالج فيها عقدة الشعور بالنقص ، ثم كانت أصداء ما تجاوب به الشرق من آثار النهضة العلمية والصناعية ، وعظا بالغا للتونسيين بأنهم واصلون إلى ما جدوا فى سبيله ، إذا صححوا العزم وواصلوا السير .

وأن الآثار الفكرية والقلمية ، التى تصلهم من الشرق ، قد كانت موضحة المسالك التى انتهت منها نهضة الشرق إلى غايتها الحميدة ، وموحية بطرق الدعوة إليها والتغنى بها إيحاء كوّن توجيها جديداً نحو أدب يصور روح النهضة العملية ، لا النهضة الشعورية التى كان يطفح بها الشعر العصرى فى الطور الماضى .

ثم إن الصبغة الجديدة التى اكتسى بها النتاج العلمى والأدبى فى الشرق ،

جاءت هى أيضا موجهة إلى تدقيق النظر العلمى والتعمق فيه ، بصورة جعلت غاية العلم البحث والدراسة بعد أن كانت المعرفة والتحصيل .

وكان لهذين العنصرين ، عنصر النهضة للكفاح التحريرى وعنصر النهضة لترقية العلوم والآداب أثر واضح فى تغير لهجة الشعر والنثر . واختلافهما عما كان عليه فى المعانى والأساليب .

فأقبلت الناشئة الأدبية بتونس تستلهم من مثل الأدب الرائج فى الشرق منهج أدبها الجديد لتودعه ما فاض على النفوس من آثار النهضة الجديدة المطبوعة على مثال النهضة الشرقية . كما أقبلت فى الناحية الأخرى، على نتائج القلم الغربى ، التى اتصل بها مباشرة العارفون باللغة الفرنسية منهم . وقد توفر عددهم وتنوعت فنون معارفهم ، فوصلوا بينها وبين إخوانهم الذين لا يعرفون تلك اللغة ، زيادة على ما وصلتهم بمثل كثيرة منه المجلات الشرقية والكتب المطبوعة بالشرق تعريبا لآثار أدبية أو تآليف فلسفية وفكرية ، وما فاض على أدب العرب فى المهجر ، من لمحات جديدة مستمدة من الروح الغربية وآدابها .

وها نحن نتتبع مظاهر ذلك التطور فى الفنون التفصيلية ، التى حصرنا فيها النتاج الأدبى وهى النـــثر السياسى ، والنثر العلمى ، والنثر الفنى والشعر ، والخطابة .

النثر السياسى :

لما تجددت الحركة السياسية، على الوضع الذى صورناه، ظهر النثر السياسى فى قالب من اتحاد المنهج ، واتفاق الوجهة ، وتشابه اللهجة ، لم يعهد له من قبل، وكان تكاثر عدد الصحف ، مقتضيا لتوفر الآثار القلمية فى باب النثر السياسى، كما كان تطور الحالة فى النواحى الثلاث ، الفكرية والسياسية والأدبية ، مقتضيا لاختلافه عن ما كان عليه فى الروح والغرض والأسلوب .

فأكثر الصحف التى كانت موجودة قبل حالة الحصار قد عادت إلى الظهور ،

وأنشئت معها صحف أخرى تلاحقت بعد رفع حالة الحصار ، ولكل صحيفة من هذه الصحف عدد من الكتاب ، يؤلف أسرتها ويساعد فى إدارتها وتحريرها ، فكان الكتاب السياسيون فى هذا الدور ، لا يقلون عن مائة ، والمقالات السياسية التى تكتب كل شهر لا تقل عن مائتين .

والمقارنة بين آثار النثر السياسى التى وجدت فى هذا الدور والتى وجدت فى الأدوار الأخرى ، تدل على أن الثقافة السياسية للكتاب ، قد تطورت واتسعت ، وأن الروح القومية قد اختمرت ورسخت بسبب طول المراس والمران ونمو التكون الفكرى والأدبى ، وبسبب ما اتصل بالحياة السياسية من أفق المعرفة الواسع ، على أن عدد القراء قد تكاثر بالنسبة إلى ما كان عليه بسبب تناقص الأمية ، وجمهور الأمة أصبح على اتصال بمجرى الأحوال ، واشترك فى مبادىء السياسة وأحاديثها بسبب شيوع الحركة السياسية وتشكلها بالشكل الحزبى .

فصارت المبادىء التى كان الأقدمون يجتهدون فى الدعوة إليها والإقناع بها ، مبادىء أولية مسلمة لا يتعلق القصد بالدعوة إليها ، بل يكتفى بالتفريع عنها والتوجيه إلى مقتضياتها ، فاختفى الأسلوب الخطابى الإقناعى الذى هو أسلوب الدعوة إلى المبادىء ، وحل محله أسلوب تذكيرى توجيهى يعتمد على اتخاذ المبدأ المسلم وسيلة للتذكير به وتوسيع معناه والتوجيه إلى المقصود من آثاره العملية، فتناقصت بذلك روح العمق فى التحرير واصطبغ بالصبغة السطحية ، حتى صارت دعوة الكتاب السياسيين بمثابة خطابة الوعاظ الدينيين . تتخذ العقيدة أصلا تذكر به وتوسع أثره فى النفس وتوجه إلى مايقتضيه من سبل الخير . ولا غرو فإن الشعور الوطنى قد أصبح عقيدة شعبية راسخة .

وإذا كان هذا شأن الصحف التى هى أداة الدعوة وآلة التوجيه العملى فإن المجلات لم تكن مجالا لضرب أسمى من ذلك من النثر السياسى، بسبب أنها لم تكن تشتغل بالمواضيع السياسية المبدئية ، ولا تعالج المشاكل بطريقة الدراسات

فإن منها مالم يكن يتناول السياسة أصلا ، فكان هذا التيار الوطنى الجامع بين نخبة الكتاب وعموم القراء ، قاضيا باختفاء صورة الدراسة السياسية فى ابتداء هذا الطور بعد أن شاعت وازدهرت فى الدور الماضى . فاقتصر النثر السياسى على خصوص المقال ، واستمر كذلك مادامت أغراض المقال منسجمة مع وحدة التوجيه السياسى واجتماع الكلمة الحزبية .

فكانت المفردات التى تدور فى هذه المقالات ، هى المفردات ذات الرنة السياسية المثيرة للتعلق أو المقت ، وبذلك أصبح لطائفة من المفردات رواج واشتهار ، فسهلت لغة التحرير ، وقربت من متناول القراء على اختلاف طبقاتهم الثقافية . وتبعت سهولة المفردات سهولة التراكيب ووضوحها ، وتبع تسلسل الأفكار ارتباط الجمل وتواصلها . وتبع روح الاحتجاج والتهكم الأساليب القوية فى إبراز ذلك المعنى بالاستعارات المفصحة عن صورة الحقيقة فى خيال الكاتب ، وضرب الأمثال . وسلوك طريقة الحوار مع القارىء بتوجيه الخطاب والتساؤل ، واعتراض الجمل المقتضية استحضار جو التخاطب والشيعة لروح التمشى مع الجدل والبرهان .

وإذا كانت كثرة الكتّاب الذين تعاطوا فن المقال السياسى ، وكثرة التحارير المهملة الإمضاء ، التى لا يمكن التحقق من شخصية كاتبها . تمنعان من حصر المجيدين فى هذا الباب من فن النثر ، فإنا نستطيع حصر البارزين الممتازين ، الذين سما فن المقال السياسى على مطايا أقلامهم ، فى ستة : هم سليمان الجادوى ، ومحمد بن الحسين ، وأحمد توفيق المدنى ، ومحمد المنصف المنستيرى ، ومحمد محى الدين القليبى ، ومحمد المهدى بن الناصر ، فأولهم سليمان الجادوى يمثل طبقة الكهول . وثانيهم وثالثهم ، محمد بن الحسين وأحمد توفيق يمثلان عنصر الشباب ذى المعارف الغربية الواسعة والثقافة العربية المتينة ، وبقيتهم من الشبان ذوى الثقافة العربية الزيتونية الصرفة .

ومع مايتحد فيه هؤلاء الستة من الفكرة والمنهج ، فإن لكل واحد منهم

اختلافا تفصيليا يبرز منه عنصراً ممتازاً بطابعه الشخصى ، فالشيخ سليمان الجادوى ، صاحب جريدة مرشد الأمة روح كتابته روح حماسة إسلامية وطنية ينهج فى تحريره نهج التذمر والاحتجاج ، ويحتدّ فى مهاجماته ويتنمر ، ويستقصى الحجج لموضوعه من كل وجه ولو كان على غير مبدئه ، قصداً إلى إفحام الخصم ، ويبدو فى طريقته الثبات على المبدأ إلى حد التطرف ، واليقين المطلق فى النظرية التى يدافع عنها ، وأكثر مقالاته نقد لمواقف رجال الحكم وتصرفاتهم ، بمقياس الخلق الدينى والمبدأ الوطنى ، وأسلوبه البيانى عربى متين يستمد من الثقافة الدينية ويبالغ فى تشنيع الصور ولا يقتصد فى كشف الحقيقة على ما يتصور فيها من شر ، ولولا ما فى تحريره من قلة الانسجام واضطراب التسلسل المنطقى وما يغرق فيه من الاستطراد والبيانات اللغوية ومسائل العلوم الآلية التى ينبو عنها ذوق التحرير الصحفى ، وما يعترى جمله أحيانا من لحن وسقم فى التركيب ، لكان شيخ مدرسة المقال السياسى بحق وإن كان ذلك لا ينزع عنه ما برز به لنظر التاريخ من أنه فارس الدفاع فى سبيل الفكرة الدستورية الذى لا يتراجع ولا يلين .

أما محمد بن الحسين فهو من أبناء المدرسة الصادقية ، وقد تكون تكونا إسلامياً خاصاً ، بالنشأة على التربية الدينية ، وحذق القرآن العظيم ، وتمرس بأساليبه وتراكيبه ، وحفظ من الأدب العربى المتين الأصيل ، شعره ونثره مادة واسعة تخرج بها . وبلغ من إجادة اللغة الفرنسية ، وتذوق أساليبها البيانية ، والوقوف على مناحى تفكيرها ومناهجها الأدبية . شأواً لم يلحق فيه إلا قليلا ، ودخل الحياة العامة مزوداً بتلك الثقافة العالية فشارك فى تحرير المجلات والصحف وكان ولعه بتتبع سير الأحداث العالمية وأحكام كبار المفكرين الغربيين ، عليها ، يدفعه إلى العمل على إيصال تلك الدروس إلى الفكر العربى . فكان يكتب فى مجلة الفجر تلخيصاً لحوادث الشهر ، هو عصارة النظر الفلسفى لأعظم الأحداث ذات المغازى ، ونشر المقالات السياسية فى كثير من الجرائد الوطنية بإمضاء مستعار عرف به : « ابن جلا » فكانت مقالاته آية فى صحة النظر وقوة الحجة وحسن الاستمداد من تصاريف الحياة

العربية مايقوى ثبات الوطنيين فى التعلق بقوميتهم والحفاظ على كيانهم ، كما كانت آية فى حسن الابتداء وحسن الانتهاء وحسن اتساق الجمل وصلا وفصلا .وحسن التنزيل وحسن الاقتباس وحسن الاختيار للتراكيب المطابقة للاعتبارات المناسبة .

وإذا كان أحمد توفيق المدنى ، يشابهه فى الثقافة المزدوجة والنشأة على العربية الخالصة ، فإن طريقة تكونه الفكرى وبروز موهبته الكتابية ، قد اختلفت عن طريقة صاحبه فكان اتصاله باللغة الفرنسية ، اتصالا محدوداً بنهاية التعليم الابتدائى ، ثم اتصل بالمعهد الزيتونى فصقل فيه فطرته على الأدب العربى الصحيح ، واشتغل بشئون الحياة العامة فألقى عليه القبض وأودع السجن شاباً دون العشرين ، فأتقن فى السجن اللغة الفرنسية ، وتعاطى لغات أوروبية كثيرة ، وطالع كتب الفلسفة والاجتماع والسياسة، وخالط الصحف والمجلات الراقية ، فكون لنفسه بنبوغه وعصاميته ، علماً واسعاً وفكرة اجتماعية ناضجة وثقافة سياسية قليلة النظير ، فلما خرج من السجن ارتمى بكليته فى الحياة السياسية والفكرية ، يخطب ويحاضر ويحرر ويترجم ، وبرزت قيمته الإنشائية فى المقالات التى ينشرها بالصحف بإمضائه المستعار « المنصور » وهى مقالات تســـودها القوة المنطقية مع الحماس الخطابى ، ويزينها التعبير المتين الصافى السهل الممتنع المتحرى دقة الاستعمال اللغوى ، وكشفت مقالته فى منهجها ومادتها عن أسلوبه العلمى وثقافته الفكرية . فرفع ذلك قدره بين أهل العلم والفكر ممن لا ينتمى إلى وسطه السياسى ، وجذبته ناحية نبوغه العلمى إلى النشر الثقافى الأدبى . فأصدر فى سنة ١٣٤١ — ١٩٢٣ تقويماً سنوياً سماه : «تقويم المنصور» والى إصداره خمس سنين ثابتاً على مالقى من المقاومة الحكومية حتى أصدر الجزء الخامس بالجزائر بعد نفيه إليها .

وأما محمد المنصف المنستيرى فإن اشتغاله بالسياسة لم يحدد من إقباله على العلم ، فتكون تكوناً علمياً زيتونياً صحيحاً على المنهج الزيتونى منهج التحصيل والبحث والتحليل ، فكان فى روحه وفكره عالما زيتونياً بالمعنى الكامل ،

وبتلك الروح العلمية تناول شؤون السياسة فى مطالعاته الواسعة ، فكان حريصاً على تحليل المقاصد وربط المعانى حريصاً على جمع الكتب والصحف والوثائق ، فتأثرت كتابته بذلك ، وجاءت مقالاته ممتازة بطول النفس ، والإحاطة بالموضوع وحسن تحليله إلى عناصره الأولية والثانوية ، وقوة الاعتماد فى حججه على الوثائق والوقائع المنصرمة مضبوطة بتواريخها ومراجعها ، يدخل موضوعه بمقدمة تربط بينه وبين مايخوض فيه الناس من شئون حاله ، ثم يتدرج فى عناصره الأولية . فلا يترك عنصراً إلا بعد الإحاطة بثنوياته ولواحقه فينتقل إلى العنصر الموالى وهلم جرّا . فكانت نزعة مقاله نحو الدراسة وبذلك طالت مقالاته ، فكان أكثرها يتتابع فى أعداد . واستعصت على متناول عموم القراء فأصبح قراؤه المتمسكون بتتبع مقالاته المعجبون بسمو تحريرها هم الممتازين من قراء الصحف بثقافتهم العلمية ومداركهم الراقية . وتبدو خصوصيته الثقافية فى أسلوبه الإنشائى القائم على حسن تخير الألفاظ لمواقعها ، وبسط المعنى الجزئى واضحاً فى الجملة ، واستعمال جمل كاملة لربط المعانى والتنبيه على ما بينها من تفرع وتسلسل ، وفى نزعته إلى الاصطلاحات العلمية بدون إغراق ينبو عنه الذوق الأدبى ، وحسن الاقتباس والتوليد من الآيات القرآنية والأمثال وأبيات المعانى ، بحيث صار الكاتب السياسى الراقى الذى اصطبغت مقالاته بصبغة الدراسات العميقة الدقيقة .

ويختلف عنه فى هذا المنهج اختلافاً واضحاً ، قرينه محى الدين القليبى ، إذ لم يكن يقارنه فى مستواه الثقافى ، بل كان تخرجه فى الكتابة تخرج ارتجال ومران ، شغف بالصحافة والحياة السياسية شابا فقطعاه عن مواصلة الطلب ، فكان استمداده من واقعيات الحياة وأحداثها ، ولكن استعداده الفطرى أبرز منه مواهب غريبة فعالج الكتابة الصحفية حتى تخرج فيها ، وحرر فى أكثر الصحف الوطنية ، ثم اختص برئاسة تحرير جريدة «الأمة» سنة ١٣٣٩ — ١٩٢١ فكانت اللسان الشبيه بالرسمى للحزب الحر الدستورى ، وكانت مقالاته فيها توجيهات ذات أثر بعيد فى حياة الحزب ، وكانت خطته فى الكتابة خطة

الدعوة الإقناعية ، يبتدىء بالمقدمات العامة ويسرع إلى إدراج موضوعه تحت كلية المقدمة ، ثم يسترسل فى توسيع نقطة الموضوع على المنهج الجدلى ، يلم بأطرافه من غير تفصيل ولا تحليل بل فى حبك وانسجام ، يسوقه الارتباط الواقعى أكثر من الارتباط العقلى ، وتمتلكه الحجة الخطابية دون الحجة المنطقية ، فى تعبير سلس يستسيغه عموم القراء ، وجمله سهلة التركيب قوية الروح الحماسى تغترف من لغة السياسة وتعتمد التأسى بالأساليب الصحفية الرائجة .

وأما محمد المهدى ابن الناصر فهو فى نشأته العلمية وتكونه الزيتونى ، أقرب إلى المنصف المنستيرى ، جمع بين الجد فى طلب العلم والاشتغال بالسياسة فجاء تكونه الثقافى الزيتونى كاملا ، ورزق ملكة خطابية امتاز بها بين أقرانه ، وشارك فى التحرير فى الصحف الوطنية بإمضاء مستعار «أبو الضياء» فكانت مقالاته وسطا بين الدعوة السطحية والدراسة المتقعّرة . وأسلوبه نازعا إلى الفصاحة الخطابية ، جمل قوية الوقع متينة التركيب متخيرة الألفاظ جميلة السبك الأدبى ، وحجة بسيطة مقنعة تتردد فى أطراف الموضوع ببراعة تدفع عنها عيب الالتواء وثقل التكرار .

هؤلاء هم الذين يبدو فيهم تطور النثر السياسى ، وعلى هذا المنهج استمر النثر السياسى فى الدور الأول من دورى الحركة الوطنية ، دور التوافق والالتئام . فلما حدث الشقاق بين الدستوريين والإصلاحيين وأنشئت جريدة البرهان سنة ١٣٣٩ — ١٩٢٢ كان ذلك قاضياً على النثر السياسى باختلاف المنهج ، إذ تكونت بالانقسام أغراض جديدة ، وأصبحت المبادىء التى كانت أولية مسلمة ، محل بحث وجدال ، ونشأت المعارف القلمية المحتدمة بين جريدة البرهان وواجهة الصحف الدستورية ، ووضعت الأشخاص موضع النقد والمهاجمة ، والكفاءات والأمانات موضع الاتهام ، واستتبعت هذه الأغراض ما يرتبط بها من الأساليب الإنشائية ، وبرزت فى تلك الأساليب مواهب معينة ، فى صف الدستوريين ظهرت من الكتاب الذين عرفناهم

مقالات ذات طابع جدلى قضت به المواقف التى فرضها على صحفهم جو التطاحن الحزبى ، وامتاز فى هذا الباب محمد بن الحسين بما أوتى من قوة الفراسة التى يتجه بها سريعا إلى محل التأثر من الرأى العام . فيجد أحسن الكلمات وقعا على ذلك المحل وأبلغ التراكيب نفوذاً فيه ، حتى سلم له من بين أنصاره وخصومه أنه بطل تلك المواقف الذى لايجارى . وفى صف الإصلاحيين ظهر النبوغ فى أقلام محمد بو رقيبه وعبد الرحمن الكعاك ومصطفى صفر . ولما كان المنهج السياسى الذى تحتذيه جريدتهم ويقوم عليه حزبهم بعيداً عن التلاقى مع اتجاهات الجمهور ، فإن تفوقهم قد انحصر فى الإفحام بالأدلة العقلية الواقعية والقهر بالبرهان المنطقى ، ولما كانت ثقة العموم بالحزب الدستورى وتسليمهم بزعامة رئيسه الثعالبى يقومان سداً دون بلوغ كلمتهم إلى نفس الجمهور فقد توجهوا إلى تهديم الزعامة وزعزعة الثقة . فاتخذوا طريقا فى المحاسبة على مبالغ الأمانة وعلى ما منيت به مساعى أضدادهم من الخيبة . وتناولوا الزعماء وخاصة الثعالبى بطريقة من التهكم والتورّى يراد منها تكوين صورة سخيفة مضحكة تفسد صورته التى استقرت فى الأذهان وسط هالة من الإكبار والاحترام ، فكان ذلك مقربا لمنهجهم فى هذه المعارك من منهج الكتابة الهزلية التهكمية على النحو الذى عرف قديما فى نثر الجاحظ وبديع الزمان والخوارزمى وابن زيدون . فصارت كتابتهم أقرب إلى النثر الفنى وأدخل فى الصناعة البلاغية ، وكان أبو رقيبه والكعاك من أوسع الناس رواية للأدب وأصفاهم ذوقا فى النقد وأرسخهم ملكة فى التلاعب بأوجه التعبير وتصاريف القول ، أما مصطفى صفر فكان ناشئا على طريقة النقل والتعريب متشربا روح اللغة الفرنسية وأدابها ، يستلهم من فن النقد وطريقة الجدل عند الكتاب الفرنسيين فيودعها فى لغة عربية متينة دقيقة الاختيار للألفاظ الكتابية والقوالب الأدبية على منهج الممتازين بالبراعة من رجال الترجمة .

النثر العلمى :

نهض النثر العلمى من كبوته وانتعش بحالة الازدهار النفسى والانسجام الاجتماعى ، ووجد من تعدد المجـــلات ميدانا فسيحا ، ومن وفرة المطابع مشجعا قويا .

وإذا نحن تجاوزنا كتب العلم والتعليم القيمة وما كان لها من أثر وهدى ، بسبب بعدها عن فن النثر وتمحضها إلى العلم والتحقيق والصناعة التعليمية ، فإنا لانستطيع أن نتجاوز كتبا فى صناعة الإنشاء والأدب وأخرى فى التاريخ فكتاب « أصول الإنشاء والخطابة » للشيخ الطاهر بن عاشور قد كان فى تحريره العالى، وتعمقه فى روح العربية الصافية ،وتحليله لمناهج التفكير وفنون التعبير مظهراً سامياً من مظاهر النثر العلمى المتين . وكتاب الشيخ الصادق البليش « القواعد الإنشائية » بما حوى من القواعد والتوجيهات وما اشتمل من المثل الأدبية المنتقاة بتقسيمها وتنسيقها والكشف عن مظاهر الجمال البلاغى فيها يعتبر مثالا للنقد الأدبى والتوجيه البلاغى الذى هو من أخص أغراض النثر العلمى ، وكتاب « لب التاريخ » للشيخ محمد الحبيب فى حسن صوغه وتنقيح عبارته وإن كان سلوك طريقة السؤال والجواب قد أضعف الروح الأدبية فيه ، وكتاب « التاريخ العام للجزائر » للأستاد عثمان الكعاك فى فصاحة تعبيره وجمال تراكيبه . وتناسق فصوله ووصوله ، وبراعة أوصافه ، وحسن إبرازه لروح التاريخ ،لهو مثال نادر من مثل التحرير التاريخى الذى تعتز بنظائره آداب اللغات وكذلك كتابه « المجتمع التونسى على عهد الأغالبة » .

ثم ننتقل إلى النشرات الدورية فنجد مجلتى الفجر والبدر . قد ابدتا مثلا غزيرة من النثر العلمى وخاصـــة فى الدراسات التاريخية والفلسفية فالشيخ الثعالبى نشر مقالا مسهبا أو كتابا غير مجموع فى مجلة الفجر تباعا هو مقال « سقوط الدولة الأموية » ، وهى دراسة واسعة للأدوار الأخيرة

للحكم الأموى مع استقصاء عوامل السقوط وأسباب الثورة واستخلاص القوانين العامة لسقوط نظم الحكم بعدم انسجامها مع التطلع الشعبى فى تعبير جزل فصيح ووصف بليغ مسهب قد يعوزه الضبط وتدقيق المعنى ، وفى المجلتين دراسات تاريخية فائقة للأستاذ عثمان الكعاك مع دراسات أثرية وتاريخية له ولغـــيره تبعد بصبغتها العلمية المحضة وإيجاز تحريرها عن صميم النثر العلمى .

أما التحرير الفلسفى فقد كان فى المجلتين ضئيلا جداً بحيث لا نستطيع أن نسجل فى بابه إلا مقالات سطحية فى الأخلاق ومقالات فى صناعة التعليم بديعة التحرير نزاعة إلى التحليل النفسى نشرت متتابعة فى مجلة البدر بقلم ثلاثة من شباب المعلمين هم : الطاهر سفر ومحمد الحليوى والبشير بن الطيب على أنها كتاب اسمه « بيان الحكيم فى فن التعليم » ولكن تتابع هذه المقالات لم ينتظم ، ولم يظهر الكتاب مستقلا فيما بعد .

* * *

النثر الفنى :

اتجه النثر الفنى فى هذه الحقبة اتجاها جديداً إذ توقف بعض أغراضه الماضية ونشأت له أغراض كان عنها بمعزل وتقلص أثره من الصحف السياسية وانقطع عن الرحلة فاستعاض بالغرضين الجديدين ، القصة والصحف الفكاهية وخدمهما مع الغرض الناشىء فى الحقبة الماضية وهو المسرحية .

أما القصة فاختمرت روحها عند الكتاب بتأثير عاملين :

أولهما — تذوق فن الرواية المسرحية ومعاناتها ، وما المسرحية إلا القصة فى خيالها وتسلسل أحداثها وعقدها ، إلا أن قالب الصوغ بينهما يختلف اختلافا ينشأ عنه اختلاف الأسلوب الإنشائى .

العامل الثانى : كثرة النقل عن القصص الفرنسية ، فقد سبق أن اشتغل

الممارسون للغة الفرنسية بنقل ما يروعهم من القصص بطريق الترجمة. فنى سنة ١٣٣٠ — ١٩١٢ اهتم محمد العربى الجلولى من متخرجى المدارس العربية الفرنسية بنقل قصة « فيدورا » عن الكاتب الفرنسى فيكتوريان ساردو . وتعاون على حسن سبكها بالعربية مع محمد الجعائبى فلم تلاق رواجا كبيراً، إذ نبت عنها الأذواق يومئذ . ولما تجددت الحركة الأدبية بعد الحرب العظمى واقترنت بنمو عدد المتعلمين بالفرنسية وارتقاء ثقافتهم الأدبية اعتنى رجال منهم بتعريب قصص عن الفرنسية أو تلخيصها . واهتمت بذلك مجلة البدر . ثم كانت أحداث النهضة التركية وما حركت فى نفوس التونسيين من عواطف الحماس ملهمة الخيال الروائى للكتاب فكانت المثل الرائعة فى التضحية والبسالة التى شاعت أحاديثها هى مواضيع التخيل ومادة صوغ القصص الروائى. فظهرت روايات صغيرة تعتمد تقريبا على مسايرة الحدث الواقعى وتدخل على جوانبه بسطا من الوصف وتخيلا فى إبراز الأشخاص والأحداث وتفننا فى التعبير ينقل إلى القراء مافى نفس الكاتب من صورة خيالية هى وليدة الإعجاب والحماس . وأول من فتح هذا الباب فى الكتابة هو الشيخ محمد الحبيب بإصدار روايتين موضعهما تركى ، ثم اقتفى سبيله فى الكتابة القصصية شاب زيتونى ، ظهر نبوغه الأدبى بتوجيه الأستاذين محمد مناشو وعثمان بن الخوجة ، وهو الشيخ أحمد خير الدين فأظهر من حسن التخيل وجمال الوصف وجاذبية التعبير ما مكن لرواياته رواجا ولسمعته الأدبية منزلة ثابتة .

وأما أدب الصحافة الفكاهية فقد سما به إلى فن النثر العربى الجيد حسين الجزيرى إذ جمع إلى ملاحظته الدقيقة وروحه الساخرة ونكتة التهكمية ومنطقه الفكه ، ممارسة لفنون الأدب العربى ، ورواية واسعة فيها ، وذوقا متصرفا بالنقد من مواقع الكلام ومجاز البلاغة ، وكانت الصحف الفكاهية التى صدرت قبل ذلك تكتب باللغة الدراجة وتستعمل الزجل الشعبى والنكتة العامية ، حتى أصدر حسين الجزيرى جريدة « النديم » ، ووجهها لخدمة المبدأ الوطنى الدستورى وفكرة الإصلاح الدينى والاجتماعى ، فأسس روح

الأدب العربى لتناول صور الحياة الماثلة بالتهكم والنقد ، وأبدع فى التلاعب بالألفاظ والتراكيب والأبيات والأمثال ، ومزج روح النقد الجدى بالدعابة والتنكيت فجدد للنثر العربى حيويته ومرونته .

وأما الرواية المسرحية فقد كان الاتجاه الجديد لحياة المسرح عاملا على تعطيل الإنتاج فيها إصالة باللغة العربية ، فإنه لما رجعت الجمعيتان التمثيليتان ، الآداب والشهامة ، إلى العمل عند رفع حالة الحصار ، لم تشتغلا أول الأمر إلا بإعادة الروايات التى مثلت فى الدور الماضى . مثل صلاح الدين ، ومجنون ليلى ، وهملت ، والقائد المغربى ، وبإخراج ترجمات جديدة لمسرحيات فرنسية كتبها مترجمون تونسيون ، أو استعراضات نقدية باللغة الدارجة . وتكونت فرق تمثيلية منشقة عن الجمعيتين فلم تحدث فى تأليف المسرحيات شيئا جديداً . وفى سنة ١٣٤٠ - ١٩٢٢ قدم الممثل المصرى جورج أبيض وفرقته فقدم روايات مترجمة عن الفرنسية ، وإن فنه التمثيلى لمتأثر جداً بالذوق الفرنسى ، ثم انفصل جورج أبيض عن فرقته فرجع أفراد الفرقة إلى مصر وأقام هو بتونس ، واتحدت بسبب ذلك جمعية الشهامة مع جمعية الآداب تحت اسم جمعية التمثيل العربى . والتأمت من ممثلى الجمعيتين فرقة يديرها جورج أبيض ويعلمها ويوجهها . ونشطت حركة التمثيل وسمت من الناحية الفنية سمواً كبيراً ، وعظم الإقبال عليها فبلغ عدد الروايات التى مثلتها فى موسم ١٩٢٣ - ١٩٢٤ نحو الأربعين رواية . إلا أن جميعها كان من المترجمات إما قديما أو حديثا فلم يتسبب المسرح فى تأليف مسرحيات تونسية يمكن أن تدخل فى النثر الفنى .

الخطابة :

نهضت الخطابة ، فيما نهض من فنون الأدب ، بالنهضة القومية العامة . بل إن نهضة الخطابة كانت هى القائدة لسير النهضة الأدبية كلها ، فباعث روح النهضة فى هذه الحقبة وهو الشيخ الثعالبى على تعدد مواهبه السياسية والعلمية

والقلمية ، كانت موهبته الخطابية هى الأصلية لعامة مواهبه والمسيطرة عليها.

على أن ارتقاء المستوى الفكرى فى السامعين كان مؤثراً فى ارتفاع فنه الخطابى ، وإن طول ممارسته وسعة رحلته . ثم طول عزلته وسعة مطالعته ، كانت عوامل فى اتساع أفقه الفكرى وانبثاق روحه البيانية فكان هو المقدم فى فن الخطابة الاجتماعية غير منازع فى هذا الدور كما كان فى الدور قبله .

وتلتحق به فى هذا الدور عبقرية خطابية ، كانت ظروفها الخاصة فاصلة بينها وبين المحيط الاجتماعى ، فلما تطورت ظروفها ظهرت فى الأفق الخطابى كوكباً وضاء يأخذ بالألباب . ذلك هو الشيخ عبد الرحمن الكعاك ، الذى فارق المعهد الزيتونى سنة ١٣٣٠ — ١٩١٢ تاركا وراءه سمعة نابغ جمع الحسنيين: حدة الذكاء وقوة الحافظة ، ودخل وظيفة القضاء العدلى . فتنقل فى محاكم الآفاق وكانت وظيفته تحول بينه وبين الظهور علناً فى مجال الحياة الاجتماعية. ولكنه مع ذلك كان لا ينقطع بمد الصحف بنفثات يراعه . وكان ذلك لا يخفى على المسيطرين على العدلية من كبار الموظفين الفرنسيين فكانوا ينزلون به مقتهم وتنكيلهم، حتى استقال من منصبه الحكومى وانتصب محامياً بالعاصمة فظهر تفوقه فى المرافعة أمام المحاكم ،وضرب بذلك للناشئين مثلا يحتذى فى الاعتماد على الفصاحة العربية للنجاح فى المرافعة ورفع شأن المحامى التونسى. وبدخوله فى مهنته الجديدة جدد اتصاله بالأوساط الثقافية والسياسية فانضم إلى أكثر الجمعيات والنوادى وكان المقدم فى كل جماعة والمالك لأزمّة القول فى كل مادة ، وتردد اسمه مقروناً بالإعجاب ببراعة خطابته وقوة بديهته فتنافست فيه الهيئات ورغبت كل هيئة أن تتوج رأسها بمقدرته العجيبة . وكانت اجتماعات النخب فى الحفلات والمجامع السياسية وجلسات الجمعيات لا تخلو من خطبة له، فأصبح بذلك خطيب الطبقة المستنيرة . واكتسبت خطبه من قوة الجأش وسرعة الخاطر وحرارة المزاج قيمة إقناعية، كما اكتسبت فى من متانة التعبير وبراعة النكتة والإطراد فى المجال ورَنَّةِ الجملة وحسن التمثل

بالروائع الأدبية والوقائع التاريخية جاذبية بيانية ، وكانت خطبه كلها بنت الساعة لا يتكلف ولا يتهيب ولا يستعد ، فإذا استهل الخطاب انهل سيلا متدفقاً لا يتردد ولا يتلعثم ولا يقطع سياقا ولا يرجع دون غرض حتى يفرغ من خطابه فى لهجة وصوت لا يختلفان عن استهلاله إلا قليلا .

ولم يبق ميدان الخطابة الاجتماعية مقصوراً على هذه الأصناف من مجامع الكهول . بل فتح فيه مجرى جديد هو حلبة الخطابة فى مجامع الشباب الجامعى ، فقد كانت الحركة الزيتونية الماضية كونت خطباء لمعوا فى وسط الطلبة فى مناسبة معينة ، ثم لم تبرز مواهبهم الخطابية بعد إلا فى الوسط الاجتماعى العام، لأن المظاهر الاجتماعية فى حياة الطلبة كانت محدودة غير متكررة ، أما فى هذا الدور فقد أصبحت حياة الطلبة ذات مظهر يومى متجدد ، فصاروا يمثلون مجتمعاً أصغر مندرجا فى المجتمع الأكبر ، وكانت خصوصيات ذلك المجتمع الأصغر قاضية بتكون فن خطابى ذى خصوصيات متلائمة مع خصوصيات المجتمع ،فروح النظر إلى المستقبل والشعور بعزة الشخصية الثقافية ، واعتبار أساس المجتمع الإنسانى على القيم العلمية ، ومرجع الصواب والخطأ فى كل عمل إلى النظر المنطقى ، مع سرعة الانفعال بالمبادىء والتهاون بظروف تطبيقها ؛ هى نفسية الشباب الجامعى التى انسجمت معها الروح الخطابية البادية على خطباء الشباب الزيتونيين فى هذا الدور ،ويعتبر أشهرهم وأبرزهم محمد المهدى ابن الناصر الذى سارت بتوجيه كلمه جميع حركات الطلبة الزيتونيين ، وكانت خطابته سامية الروح البلاغية محكمة الأسلوب يمكن لها التأثيرَ رصانته وتعاليه وجهورية صوته .

أما الخطابة العلمية فقد تجددت فى محاضرات جمعية قدماء الصادقية وظهر فيها نبغاء اكتملت فيهم صفات الخطيب العلمى مثل : محمد بن الحسين وعثمان الكعاك والطاهر صفر .

إلا أن لوناً آخر من المحاضرة العلمية ظهر فى هذا الطور هو لون

المحاضرة الأدبية التاريخية التى لا تقوم على موضوع دراسة ولا نقطة بحث بل تعتمد على الرواية واستعراض الأحداث والتواريخ والنصوص الأدبية الطريفة الممتعة ، وكان ظهور هـــذا اللون بمحاضرات الشيخ محمد العربى الكبادى التى كان يلقيها ارتجالا بما يرفع منزلتها فى الحسن والقبول إذ يزينها بعذب حديثه وواسع روايته ومنسجم ربطه ولطيف استطراده وحسن تأثير ما يلقى من الأدب الذى امتزج بنفسه الشاعرة .

وأما الخطابة الدينية فقد بقيت زعامتها بيد الشيخ الصادق النيفر ، وكانت تطورات الحياة السياسية – وماله فى إقامتها وتوجيهها من باع – زائدة فى أحكام الربط بين خطابته الدينية وعمله السياسى ، فأصبح الناس يتناقلون ما يفيضه فى خطبه من وعظ بالغ وتوجيه صالح وتثبيت للناس على الحق فى مواقف الكفاح السياسى ، وبتساميه فى إبراز المعانى الروحية وقوة استمداده من الحديث الشريف اكتسب منطقه بلاغة رائعة ، وبتنازله للأفهام ومسايرته المـــدارك البسيطة فى مناهجها المادية فتح لوعظه مداخل النفوس حتى احتل قرارتها .

* * *

الشعر :

كان الشعر منذ الدور الماضى يسير متقدما نحو الإجادة فى الناحية الاجتماعية ، ثم كان امتزاج الشعور الاجتماعى بالشعور الفردى واتصال الحياة السياسية بالحياة الأدبية من شأنه أن يعين على جودة الفن الشعرى ويخرج به عن نطاق التكلف الذى كان مضيقا عليه .

فإلى صالح سويسى وسالم بن حميده والصادق الفقى انضم الشعراء الذين نشأوا فى هذا الدور ، مثل أبى الحسن بن شعبان والهادى المدنى ، وحسين الجزيرى أو الذين علا فيه نجمهم الشعرى وإن تعاطوا الشعر من قبل مثل

العلمين الشامخين محمد الشاذلى خزنه دار ومصطفى أغا، على أن الشعر العاطفى الفردى قد تكوّن له فى هذا الدور من مؤثرات الرقة والجودة ما طبعه بطابع الكمال الفنى الذى ظهر فى شعر محمد السعيد الخلصى .

كان ابن شعبان ومحمد الهادى المدنى من أبناء الجامعة الزيتونية ، استكمل كل منهما بضاعته العلمية، وعرف كل منهما بشدة الذكاء ورشاقة الفهم وغزارة التحصيل واكتمال أدوات الصناعة البيانية . ولكن أبا الحسن ابن شعبان كان أقرب إلى الطبع المعتدل والعقل الراجح ، والمدنى كان أقرب إلى المزاج القوى والعاطفة الطاغية ، وكانت ظروف الحياة الخاصة تقرب بابن شعبان إلى الاطمئنان إلى الوضع الحاضر ، وبالمدنى إلى التطلع الوثاب نحو المستقبل السعيد ، مع أن روح الغيرة الدينية والمحافظة أصيلة فيهما على نسبة متقاربة جداً . وكان ابن شعبان بتقدم سنه أسبق إلى الظهور بنتاجه الشعرى فى عالم النشر إذا ابتدأت الصحف تنشر قصائده منذ سنة ١٣٣٢ – ١٩١٤ فى حال أن المدنى لم يبتدىء نشر شعره إلا فى سنة ١٣٤٠ – ١٩٢٢ ، وشعر ابن شعبان فى روحه حكمى منطقى ينظر إلى الحقائق بميزان الحكمة ويعرضها فى قوالب الحجة المنطقية ويعتمد التسلسل العقلى بين المعانى والقياس المنطقى لتوليد بعضها من بعض مع شغفه بابتكار المعنى وجمال توليده وحسن الاقناع به ، إذ تأثر فنه الشعرى إلى مدى بعيد بطريقة أبى تمام والمتنبى والشريف الرضى. وفى ديباجته هو حريص على أحكام التعبير فى مساواة الألفاظ للمعانى ، وسلاسة الجمل وحسن اقتضاء تراكيب الأبيات لقوافيها، وإبداع الطالع وبراعة الاستهلال وطول نفس القصيد وانسجام وحدته والتحام أجزائه وحسن الانتهاء وبراعة المقطع .

وشعر المدنى فى روحه حماسى شعورى ، يستمد المعنى من حرارة شعوره بالشكوى الاجتماعية فيبرزه تصويرا للشعور بالشعر وينظمه مع مايتصل به فى نفسه من ألم أو أمل نظما يعمد إلى الشعور القومى المشترك فيحمله تلك الهزة العاطفية حتى تطغى لزوما على كل ذى شعور قومى ، ويستوعب

جوانب المعنى فيفرع عنها ويولد منها حتى كأنه يستفرغ مافى نفوس المستمعين من معان فيبتدىء بالمعنى الذى تسرع النفوس إلى التعلق به ثم لايزال متنقلا بين المعانى المختلجة فيها حتى لا يفرغ من قصيدة إلا والنفوس خاوية قد انتزعت مكنوناتها فطارت على أجنحة القوافى . وهو فى ديباجته نقاد للألفاظ يتخير منها الفصيح القوى السهل الأخاذ المنطبق على المعنى الإفرادى ، قوام على تنقيح جمله بدفع الكلفة وتصفية النظم وإسلاس التركيب فيأتى بالسهل الممتنع ويسمو فى استعارة اللفظ المتألق بجمال الطبيعة ، وفى تكرير جملة يوقع بتكرارها على أوتار المشاعر وفى حسن وضع اسم فعل أو اسم صوت يركز فيه عمود المعنى حيث يتلاقى مع فيض الحس وثورة الطبع كأنه يروح على السامع إذ يهتف بما يتلجلج على لسانه يبدو فنه الشعرى فى إحسان التعبير وجودة الصياغة وترقيق الديباجة حتى يتكشف جمالها عن جمال المعانى المستترة وراءها فى سهولة ومتعة كما هو مظهر الفن الشعرى عند البحترى وابن زيدون .

وأما حسين الجزيرى فإن شعره يتلاقى مع نثره فى مؤثراته وأغراضه فهو ساخر متهكم يستخرج الضحك من روح الألم ويتخير الألفاظ ذات الوقع المطلوب من اللغة الفصحى أو اللغة العامية ، ومدار شعره كمدار نثره على روح الكفاح السياسى والإصلاح الاجتماعى .

وأما خزنه دار وأغا فهما قرينان وفرسا رهان ربطت بينهما أواصر القرابة وتشابه ظروف البيئة والتكون الذاتى والتخرج الأدبى ، انحدرا من سلالة المماليك الذين وصلتهم بالأسرة المالكة صلات الولاء والصهر والقرابة، فعاشوا فى قصورهم معتزلين الحياة الشعبية ، فى تلك القصور نشأ الشاعران الكبيران فلم يعرفا بيئة غيرها إذ لم ينتسبا إلى معهد ولا اختلطا بمجتمع ولكنهما تعلما واتصلا بالشيوخ وتعرفا إلى الأدباء والعلماء وتعلقا بالمطالعة وشغفا بالأدب والشعر . فلم يزعج عزلتهما إلا دوى النهضة الاجتماعية فانصرفا إليها بمدارك مكتملة تكونت لهما من المثل العليا تكونا عقليا محضا

لايتأثر بالظروف الواقعية مثل حى ابن يقظان حين انتقل من جزيرته إلى الجزيرة المجاورة ، وأخذتهما من الحياة العامة ناحيتها المثالية الكاملة فى التوجيه العقلى والتوجيه العاطفى ، واختلف تأثرهما بالناحيتين باختلاف مزاجيهما ، فانصرف مصطفى أغا إلى العقل وانفعل بدواعى التطور الفكرى والتجديد الدينى فكان فيهما من الغلاة ، وانصرف الشاذلى خزنه دار إلى العاطفة القومية وانفعل بآمالها وآلامها ، وجرى جريئا فى خطتها فكان شاعر الحماسة ولسان الثورة السياسية الجامحة .

وتلقفتهما ميادين الحياة السياسية على مقتضى هذا الاختلاف بين المنهجين فاحتضن الحزب الدستورى محمد الشاذلى خزنه دار وكان من صلاته الشخصية الوثيقة بالشيخ الثعالبى وشـــدة تأثره بمحبته والإعجاب بفكره وبيانه ما وقف شعره على حياة الحزب وعظمة زعيمه ، فارتبطت محركات شعره بالأحداث الوطنية ذات الصدى البعيد ، ورتلت ألسنة الوطنيين قصائده وأناشيده ، وتهافتت الصحف الدستورية على نشر شعره والتنويه به وإشاعة سمعته . فعظم مقامه الشعرى عند الخاصة والعامة ، واضطهد بالعزل عن وظيفته والسجن فزاد ذلك فى رفعة مقامه وسمته الصحف أمير الشعراء كما سمى شوقى بمصر .

واحتضن مصطفى أغا نادى الحزب الإصلاحى ونوهت به جريدتهم ، وكان من شفوفه الذاتى وتساميه الفلسفى واعتداده بحكم العقل والمنطق فى كل شىء ما أبعد الشقة بينـــه وبين الحركة الشعبية . وعملت جريدة الحزب الإصلاحى على إغاظة الشاذلى خزنه دار فى مناصرة مصطفى أغا وتقديمه ، فكان للمعركة الحزبية السياسية دخل كبير فى الميدان الأدبى بالمفاضلة بين الشاعرين ، كما كان بين الوطنيين والإصلاحيين بمصر فى شأن حافظ وشوقى .

واصطبغت قصائد كل من الشاعرين بصبغة المسلك الذى ارتضاه لنفسه فجاءت قصائد خزنه دار حماسية تفخر بالانتصارات وتثور فى وجه الاعتداءات ، تصدر بمناسبة المواقع الكمالية وحفلات الهلال الأحمر وحوادث التنكيل بالوطنيين والابتهاج برجوع المبعدين وخروج المساجين ووصف المظاهرات

وتشييع الوفود وانعقاد المجامع السياسية، وتفيض كلها حماسا ووثوقا بانتصار الحق وحسن عاقبة الصدق ، ويقوم فنها الشعرى على وحدة الغرض وتسلسل عناصره وطول النفس وتلاقى الفقر على طريقة الإطناب . فكانت قصائده كالخطب لها من الأثر فى السامعين وقت إنشائها مالا يستطيع الناقد أن يكشف عنه ما لم يجدد الظروف التى مكنت لها حسن القبول . على أن النقد المنصرف للفن الصرف لا يستطيع أن يغطى على أسقام فى التراكيب وزحافات فى الأوزان وابتذال فى المعانى وحشو فى الألفاظ كانت الحرارة الفائضة من تلك القصائد تذيبها فلا يحس بها السامعون .

أما قصائد مصطفى أغا فقد كانت بمعزل عن هذه المؤثرات لم تشر إلى الحركة الوطنية بكلمة ولا جرى فيها ذكر زعيم ولا لفتة إلى السياسة . بل تمحضت إلى النظر الفلسفى والوصف الاجتماعى وأقيم هيكلها على الخيال الروائى فبنيت كلها على تصوير المقامات وتخييل المحاورات بروح فلسفية ساخرة قانطة. تنظر إلى البؤس المادى والشقاء العقلى اللذين حفا بحياة الناس كما ينظر المعرى فى فى اللزوميات . وصوغها جزل واضح التراكيب مستكثر من البديع مطرد فى الوصف يتمشى مع تنقل الحوار وتسلسل الأحداث والمعانى فتتواصل فيه الأبيات كأنها جملة واحدة حتى يكثر فيها التضمين ، وربما يتعاصى عليه اتحاد الميزان الشعرى مع ما يريد من جزالة وسهولة فى التركيب ـ فيتغلب على ذلك بزحاف أو خبن ، وكثيراً ما يقع بسبب ذلك فى إهمال القواعد النحوية فيلحن لحناً فاحشاً . على أنه شاعر الحكمة السامية وصاحب الخيال البديع، حقيق بشعره أن يحتل منزلة الاعتبار فى مقاييس الآداب العالمية لولا أنه قليل التفنن منسوج على منوال واحد .

وفى شعر هؤلاء الشعراء الاجتماعيين وجدت صور من الشعر العاطفى فى وصف الطبيعة ومجالس الأنس والغراميات ، وقد أعانت صور الأدب الفرنسى المنقولة عن العصر الرومانطيكى ، على توجيه هذه الطريقة وتوسيع

مادتها . والمثال الكامل فى إجادة هذا الفن هو الشاعر العاطفى محمد السعيد الخلصى تكون فى المدرسة الصادقية على روح الأدب الفرنسى ، وأكمل تكونه العربى بالمطالعة والرواية ، ثم كان حسه المرهف وذوقه الرقيق وحياته المأخوذة بروعة الجمال والفن والمتعة ، دافعة به إلى التعلق بغراميات هوجو ولا مارتين وموسى وتفننهم فى التشبيب والنسيب والغزل والوصف الطبيعى ، فبدأ افتتانه بتلك الطريقة يوجه شاعريته إلى الامتزاج بهم فينقل عن شعرهم شعراً عربياً ، ثم صار يستلهم من فنهم قطعاً ينظمها ابتداء تعرب عن عواطفه وميوله يحذو فيها حذوهم ويقتبس عنهم ، حتى تفتحت بذلك موهبته واستقلت فصار يأتى ابتداء بروائع ساحرة من الأوصاف الطبيعية والغزلية وتصاوير إحساس الغرام والانفعالات النفسية الجميلة من حياة المرح والمتعة وساعات الأنس .

المحاضرة الخامسة

حركات الشباب

١٣٤٦ — ١٣٥٧

يبتدىء الدور الذى يتعلق به حديثنا هذا من سنة ١٣٤٦ — ١٩٢٨ ، أى بعد مضى خمسين سنة أو أكثر ، على رسوخ مؤسسات النهضة الفكرية بإصلاحات الوزير خير الدين، ومعلوم أن لهذا الزمن الطويل مقتضياته فى تأصل فكرة الإصلاح والإقبال على العلم ، لا سيما وقد نشأ فى ظل تلك الفكرة جيلان متعاقبان باعتبار أن كل ثلاثين سنة تمثل نشأة جيل جديد ، فتكون بذلك أغلبية العناصر الاجتماعية لدورنا هذا قد ورثت روح النهضة عن الأجداد . فصار لها دافعا قويا يتصل بالمبادىء والتقاليد .

هذا وإن الأطوار التى تعاقبت على النهضة الفكرية ، وفصلناها فى المحاضرات السابقة كانت معينة على تقوية روحها وتنمية وسائلها ، فانتشار التعليم لم يزل متقدما متكاثراً ، والإقبال عليه لم يزل فى حماس متزايد ، حتى إن الإحصائية الرسمية التى نشرتها إدارة المعارف فى سنة ١٣٤٧ — ١٩٢٩ أفادت أن جملة عدد التلامذة التونسيين المسلمين بلغت قريبا من ثمانية وعشرين ألفاً فى المدارس الابتدائية ، وتجاوزت ثلاثة آلاف وخمسمائة فى المعاهد الثانوية غير مندرج فى ذلك تلامذة التعليم القرآنى بالكتاتيب ، وعددهم على ما فى تلك الإحصائيات نفسها اثنان وعشرون ألفاً ، ولا طلبة جامع

الزيتونة الأعظم وعددهم فى ذلك التاريخ ألفان، فتكون الجملة خمسين ألفاً فى التعليم الابتدائى ، وخمسة آلاف فى التعليم الثانوى .

وما الغاية التى توضع نصب أعين الطلبة وأوليائهم من يوم يدخلون معاهد التعليم الثانوى إلا مواصلة التعليم العالى فى كليات فرنسا . فالتعليم الثانوى بتونس يسير على مناهج التعليم الفرنسى ، ونهايته شهادة البكالوريا التى هى فى الاصطلاح الفرنسى (مفتاح التعليم الجامعى) فلا يقنع من أحرز على المفتاح ، دون ولوج الأبواب التى هى أبواب الشرف القومى باعتبار المكانة السامية التى يحتلها خريجو التعليم العالى الفرنسى فى صفوف الكفاح الوطنى . وهى أبواب الرفاهية والنعمة باعتبار ماتفىء الحرف الحرة التى يتهيأ لها الشبان فى فرنسا من مكانة وثروة،ولذلك أقدمت العائلات على التضحيات الجسيمة فى سبيل إلحاق أبنائها بالتعليم العالى، وبذلت الحركة الوطنية قواها الأدبية والمادية فى التنشيط والإعانة على ذلك السبيل ، وبذلت الجمعيات الثقافية مثل الخلدونية وقدماء الصادقية معونتها المادية للطلبة المغتربين ، كما بذلت المدرسة الصادقية مثل ذلك عمــلا بقانونها الأساسى الذى أقيم عليه نص وقفيتها .

فبلغ - بمجموع هذه الجهود الخاصة والعامة - عدد الطلبة المزاولين للعلوم العالية بفرنسا فى الحقوق والطب والصيدلة والآداب والهندسة - مائة وخمسة وثلاثين(١) وبعد أن كانت وجهتهم مقصورة على الطب والصيدلة والحقوق تهيئاً للمهن الحرة . ابتدأوا يتوجهون إلى غايات التخصص العالى فى الهندسة العسكرية وهندسة المناجم ويكافحون فى سبيل التحصل على حق الاشتراك فى مناظرات التبريز فى الآداب حتى قبلوا فيها سنة ١٣٤٧ - ١٩٢٩ وبهذا برز عنصر الشباب فى الحياة الاجتماعية بروزا فائقاً بما أتيح لهم من قوة الكم وقوة الكيف .

---

(١) مجلة العالم الأدبى السنة الثالثة عدد ٢٠ .

وكان شيوع الروح الإصلاحية التى أساسها النهوض العلمى معيناً على هذا البروز فإن الحياة الاجتماعية مهما طغت عليها روح الجمود والتأخر، وسادها ناموس السذاجة، ضعفت فيها أهمية الشبان وارتفعت قيمة السن والوجاهة، ومهما سمت إلى التطور والتقدم وآمنت بالرقى الفكرى انحطت فيها قيم السن وارتفعت قيم المعارف والمدارك فبرز الشبان بعلومهم وسادوا وقادوا .

فإذا أضفنا إلى هذا أن العدد الضخم من التونسيين المغتربين بفرنسا فى سبيل العلم ، قد توفر لهم من الغربة ما ألف بين قلوبهم ؛ ومن ملاحظة الغايات السامية التى يرجوها وطنهم منهم ما وحد صفهم . وأنه تسرب إليهم من البيئة الجامعية الفرنسية شعور الشباب بسمو قيمته ومسئوليته على مستقبل الوطن . والشعور بعظمة الحياة الفكرية والاعتزاز بالانتساب إليها . وأنهم امتزجوا بمجتمع قوام حياته الحرية فساروا على مناهجه فى تطبيقها، ورأوا كيف تفادى الجماعات فى سبيل عزة الوطن وسعادته ؛ فقويت بذلك روحهم الوطنية ، وداخلتها العزيمة والإقدام .

ثم إن شعورهم بذاتيتهم القومية لما يدركون من غربتهم فى الأرض التى يعيشون فيها قد وجه اهتمامهم إلى العناصر الغريبة عن تلك الأرض وكل غريب للغريب نسيب . فوجدوا بينها عنصراً يؤاخيهم فى الميل ويشاركهم فى اللغة ويقاسمهم الآلام ، وهو عنصر الطلبة العرب من المصريين والسوريين واللبنانيين والعراقيين ، فالتأموا معهم وتعاطفوا وانضموا إلى مجامعهم ونواديهم ، التى هى قائمة على أساس الوحدة العربية ومقاومة الاستعمار، فامتلأت نفوسهم إيماناً بالوحدة العربية . وأوحى إليهم ما وجدوا عند الطلبة العرب من ثقافة عربية سامية وبيان عربى قوى ، أن يعالجوا نواحى النقص منهم فى الثقافة العربية وأن يمارسوا الخطابة بها ، ووجدوا إخوانهم الذين يشاركونهم فى الشعور بذلك النقص من أبناء الوطنين الشقيقين —

الجزائر والمغرب الأقصى ، فانصرف بعضهم إلى بعض يتعاونون على إنماء روح الثقافة القومية فيهم ، حتى يلتحقوا بموكب العروبة .

فتأسست جمعية طلبة شمالى أفريقيا المسلمين بفرنسا سنة ١٣٤٦ — ١٩٢٨ على مبدأ تمتين الرابطة القومية بين عرب شمالى أفريقيا بالمحافظة على اللغة العربية ، ونظمت لذلك دروسا بالعربية ومحاضرات(١) ، فارتكزت هنالك روح وحدة المغرب العربى والمحافظة على قوميته وانتشرت من هنالك توجيهات سياسية واجتماعية لم يزل غرسها ناميا .

أما الشق الآخر من شق الشباب التونسى ، ونعنى به شباب الجامعة الزيتونية فإن عوامل التوجيه نحو العروبة والقومية الواسعة ، قد كانت أصيلة بروح ثقافته الإسلامية الصرفة وطبع مناهج تعليمه ، وظهرت تلك العوامل فى صورها الإيجابية ، بما دب فى الشباب الزيتونى من روح النهضة قبل نهاية الحرب العظمى وزاد فى تقوية عزيمته على العمل وشحذ همته فى الطموح ، نفس الأسباب التى حركت عنصر الشباب المدرسى وهى الراجعة إلى بروز قيمة الشباب فى المجتمع ، كما كان ظهور روح الوحدة المغربية فيه متأصلا نامياً ، بإقبال أبناء الجزائر عليه منذ تخرج منه الزعيم الدينى للجزائر الشيخ عبد الحميد بن باديس سنة ١٣٣٠ — ١٩١٢ ، وأقام نهضة الجزائر على استكمال العلوم الإسلامية بالزيتونة .

وكانت المطالبة بالإصلاح غير منقطعة حشرجتها من صدور الزيتونيين منذ أن خلقتها حالة الحصار ، ثم كان الاندفاع فى الحركة السياسية شاغلا عن الإعراب عنها إلى أن صدر قانون جمادى الثانية ١٣٤٥ — ٨ ديسمبر ١٩٢٨ بتنظيم مهنة العــدول الموثقين ، وإيجاد امتحانات للتحصيل على رخصة الانتصاب لها ، وهى أخص المهن الحرة ارتباطاً بغاية التعليم الزيتونى ، فثار

---

(١) النشرة السنوية لجمعية طلبة شمالى افريقيا المسلمين بفرنسا ١٩٢٩ — ١٩٣٠ المطبعة المهدية تطوان سنة ١٣٤٩ — ١٩٣٠

الزيتونيون فى وجه ذلك القانون وعاودوا مطالبتهم بالإصلاح . وأعلنوا إضراباً امتد أكثر من شهر ووجدت دعوتهم صدى واسعاً فى الرأى العام إذ أيدت مطالبهم الصحف وتضامنت معهم الهيئات النيابية بالاحتجاجات ، والشعب بالإضرابات .

وتشكلت لجنة فى ذى القعدة ١٣٤٨ - للنظر فى إصلاح التعليم وتنظيم الإدارة ، وكانت هيئة إدارة الجامع هيئة علمية تتركب من أربعة أعضاء من المجلس الشرعى الأعلى تسمى « النظارة العلمية » . وتلك الهيئة بذاتها لم تكن منسجمة منذ دخلها الشيخ الطاهر بن عاشور سنة ١٣٣١ - ١٩١٣ بميله الإصلاحى الذى لم يكن يشاركه إياه بقية شيوخ النظارة ، فلم تزل بين تصادم آراء وتنازع مواقف ولم يستطع الشيخ بن عاشور فى محيطها أن ينجز عظيم أمر مما كان يعلق على دخوله فيها حتى جاء اجتماع اللجنة فصدع فيها بآرائه المتمشية مع تطلع الطلبة ، وناضل فى تأييدها نضالاً حاداً انقسمت به اللجنة إلى شقين متميزين . شق الأكثرية من الموظفين الإداريين والشيوخ الشرعيين وعلى رأسه الشيخ أحمد بيرم شيخ الإسلام يعارض فى الإصلاح الجوهرى ويرى المحافظة على صبغة التعليم الزيتونى . وشق الأقلية من ممثلى الهيئات النيابية وأفراد من الموظفين على رأسه الشيخ الطاهر بن عاشور ، باش مفتى المالكية ومعه الشيخ محمد العزيز جعيط المفتى المالكى ، يؤيدون الإصلاح الجوهرى ويطالبون بتوسيع دائرة التعليم إلى حد بعيد .

وأيد الوزير الأكبر خليل بو حاجب رئيس اللجنة ، شق المحافظين فحميت بذلك المعركة وانتشرت خارج محيط اللجنة ونشأت عنها معركة صحفية عنيفة بين الجريدتين اليوميتين - جريدة النهضة التى كانت تؤيد الشيخ ابن عاشور وبرنامجه الإصلاحى ، وجريدة الزهرة التى وقفت فى وجهها تؤيد الوزير الأكبر وشيخ الإسلام وتناصر مبدأهما فى المحافظة وانضم الوطنيون الدستوريون إلى جريدة النهضة ، فأصبح أكبر كتابهم يحرر فيها تأييداً

للإصلاح الزيتونى ومهاجمة لخصومه . وخمـــدت بذلك نار الحرب بين الدستوريين والإصلاحيين وأيد الشاذلى خير الله فى جريدته «صوت التونسى» المحررة بالفرنسية موقف أنصار الإصلاح ووالى هجومه على الوزير الأكبر بذلك السبب ، وشعرت كل من الطائفتين ، المدرسية والزيتونية بما بينها وبين الأخرى من التلاقى حيث تحركت الأولى فى سبيل المحافظة على العروبة وتحركت الثانية فى سبيل ترقية التعليم ، وظهر هذا التلاقى جلياً فى مؤتمر طلبة شمالى أفريقيا المسلمين ، الذى انعقد بتونس لأول مرة تحت إشراف الجمعية الخلدونية فى ربيع الثانى ١٣٥٠ أغسطس ١٩٣١ مؤتلفاً من الزيتونيين والمدرسيين ، وعُقدت فيه جلسة خاصة بإصلاح التعليم الإسلامى فى الزيتونة والقرويين ، فكان مظهراً لتوحد الشباب على اختلاف مشاربه فى تأييد حركة الإصلاح ولانسجام برامج العمل فى أقطار المغرب العربى ، وسارت الأمة كلها وراء شبابها فى ذلك السبيل ، وارتاح المفكرون ارتياحا عظيما لهذا الاتحاد الذى أعرب عنه الخطباء والشعراء فى الاحتفالات والاقتبالات التى أقيمت بمناسبة ذلك(١) المؤتمر فاستقرت بذلك القيادة الفكرية فى الشباب .

وتواترت مظاهرات الطلبة وإضراباتهم ، وتشكلت هيأة لقيادة حركتهم باسم لجنة الطلبة وانقسمت الأمة بين مؤيدين للطلبة ومنكرين عليهم إلا أن شق المؤيدين كان راجحاً بأكثرية الصحف المناصرة له وموقف رجال السياسية الوطنية فى تأييده ، ولم تقر عجاجة هذه الفتنة إلا فى شوال سنة ١٣٥٠ مارس ١٩٣٢ باستقالة الوزير الأكبر ثم استقالة شيخ الإسلام ثم بتسمية الشيخ ابن عاشور شيخاً للجامع الأعظم وفروعه فى ربيع الثانى ١٣٥١ سبتمبر ١٩٣٢ وتغير نظام الإدارة العليا للجامعة الزيتونية بتلك التسوية التى انتهى بها عهد النظارة العلمية وعد ذلك انتصاراً عظيما للحركة الإصلاحية ابتهجت به الشبيبة وأشاد به الشعراء .

(١) نشرة محاضرة جلسات المؤتمر المطبعة الأهلية — تونس

٤ وكانت الحياة الرياضية التى دبّت فى الشعب التونسى زائدة فى الظهور لعنصر الشباب واستيلائه على القيادة فى الناحية العملية ، فقد كان مظهر الرياضة البدنيـــة ضئيلا جداً ، فى حياة المجتمع التونسى . وكان المثقفون يستنكفون عن الانتساب إلى المنظمات الرياضية ، ومنذ أنشئت أول جمعية رياضية لألعاب القوى ، وهى الجمعية الناصرية سنة ١٣٢٥ — ١٩٠٧ برئاسة الدكتور حسين بن حاجب ، كان المثقفون يتصلون بحياة الرياضة اتصال المسيرين والمشرفين لا اتصال العاملين ، وكان المتعاطون للرياضة غالبا من طبقة العملة الأميين ، ومن هذه الطبقة من يتعاطى كرة القدم فى الجمعيات الفرنسية والإيطالية ، ومنهم أيضا جمهور من الهواة يتتبع مباريات تلك الجمعيات . وفى سنة ١٣٣٨ — ١٩٢٠ تأسست جمعيتان تونسيتان لكرة القدم « الترجى الرياضى » و « النادى الأفريقى » بسعى نخبة من الشبيبة المثقفة إلا أن اشتراكها كان كذلك للإشراف والإدارة ، وبقى تعاطى الألعاب الرياضية مقصوراً على غير المتعلمين ، وبانتشار الرياضة بين أبناء المدارس وشيوع حمية الانتصار للجمعيتين الإسلاميتين بين الشباب عموما ، بدأ الشبان المثقفون ينزلون إلى ميدان العمل الرياضى ، فكان ذلك تأييداً لمركزهم من الناحية العملية وتدريبا لهم على الاستقلال بإدارة شئونهم دون استناد على الكهول ، وتبدّى ذلك بصفة جلية عند ظهور الحركة الكشفية ، فرسخت فى الميدانين ملكة الشباب فى التسيير والإدارة وشحذت فيهم عزيمة العمل ، وصار الشاب يؤمن بأن فى أترابه من الشباب من هم أهل لأن يسير بتوجيههم وينقاد لإدارتهم ، وتأصلت بذلك فكرة النظام والمسئولية على صورة لم تكن من قبل .

واتخذ الشعور القومى من تلك الفكرة النظامية العملية سبيله للظهور فى المظاهر الجماعية بتنظيم المواكب والمظاهرات الكفيلة بإشاعة عزة الماضى وروح الأدب القومى فأصبح اعتماد الجمعيات الثقافية على جهود الشباب ، والتف حول كل هيئة من الهيئات المسؤولة عن تلك الجمعيات رسميا ، نخبة

من الشبان تقوم على ابتكار البرامج وتنفيذها ، فى الخلدونية وقدماء الصادقية وغيرهما من الجمعيات بالعاصمة وسائر مدن المملكة ، ودخلت بذلك الحياة الثقافية فى دور عملى متحرك ، واتجهت الجمعية الخلدونية فى الطليعة ، بقيادة رئيسها الشيخ عبد الرحمن الكعاك ، إلى اغتنام المناسبات لإقامة مهارج تذكارية لعظماء التاريخ التونسى ، وللأحداث ذات الأثر البعيد فى الحياة القومية للعقل والأدب ، إبرازاً للشخصية القومية بثقافة البلاد وتحديا لتظاهر الأجانب فيها بإعزاز مظاهر السيادة الثقافية لهم وللغاتهم وآدابهم .

ففى شوال سنة ١٣٥٠ - فبراير ١٩٣٢ أقامت الخلدونية احتفالا بإحياء ذكرى المؤرخ القيروانى الكبير أبى العرب التميمى بمناسبة مضى أحد عشر قرناً على وفاته ، كان بهيجاً واسع الصدى بما ألقى فيه من خطب وقصائد ودراسات . وفى ذى القعدة ٢٣ مارس نظمت الخلدونية مهرجانا عظيما لتمجيد ذكرى مدينة القيروان بمناسبة مضى ثلاثة عشر قرناً على تأسيسها ، سار لها موكب عظيم من تونس يجمع فحول الشعراء وكبار الكتاب والأدباء وكثيراً من أنصار الثقافة ، وسارت مواكب أخرى من مدن المملكة فتلاقت كلها بالقيروان ، واحتفلت مدينة القيروان احتفالا عظيما باقتبال المواكب الأدبية وأقيمت مجامع وزعت عليها القصائد والخطب والدراسات بجامع عقبة ، وضريح أبى زمعة البلوى رضى الله عنه ، ومقبرة قريش ، وضريح ابن أبى زيد ، وضريح سحنون ، وضريح زيادة الله بن الأغلب ، وجامع ابن خيرون ، وأقيم سمر فى مجمع كبير ألقيت فيه الدراسات والخطب والقصائد من أدباء القيروان والوافدين عليها ، وكان لهذه الذكرى أثرها العظيم فى بعث روح الفخر والاعتزاز بعراقة الثقافة العربية الإسلامية ومجد عاصمتها الأولى ، زاد فى إنمائه ما بذلت الحكومة من مقاومة وعرقلة وتثبيط دون نجاحها .

وفى ٢٤ ذى الحجة الموافق ٢٩ ابريل افتتحت الخلدونية أسبوعا تذكاريا لابن خلدون بمناسبة انقضاء ستة قرون على ولادته ، جاء بالغاً حد الفخامة

والتنظيم ووزعت فيه الدراسات والخطب والقصائد على أيام الأسبوع فكان سوقا نافقة للشعر البديع والخطب العالية والدراسات الممتعة .

ومن جهة أخرى كانت الخلدونية تقيم الحفلات التأبينية لكبار الشعراء والكتاب الشرقيين بمناسبة وفياتهم قصدا إلى ربط الصلة الأدبية بين أقطار العروبة . ففى صفر ١٣٤٩ – ١٧ إبريل ١٩٣٠ أقامت حفلة لتأبين محمد المويلحى ألقيت فيها دراسة تحليلية لحياته وأدبه وقصائده . وفى جمادى الثانية ١٣٥٠ أكتوبر سنة ١٩٣٢ حفلة لتأبين حافظ . وفى رجب ونوفمبر المواليين حفلة أفخم لتأبين شوقى ، وكذلك قضى الله أن تكون الفخامة دائما فى جانب شوقى دون قرينه ، فجاءت باهرة فى مظهرها ثرية بما فيها من الخطب والقصائد والدراسات التى نشر أكثرها فى نشرة الجمعية الخلدونية لسنة ١٩٣٤. وفتح فى هذه الحفلات باب اشتراك العنصر الموسيقى فى الحفلات الأدبية . على صورة طريفة من الانسجام بين مغزى الحفلة وروح الإيقاع والانشاد . وكان الداعى إلى ذلك حضور فنانين من أساتذة الفن الموسيقى فى الشرق هما: سامى شوا ، والشيخ على درويش .

وفى ترقية الدراسة العلمية والأدبية وتمتين الذوق الأدبى تعاونت الخلدونية مع قدماء الصادقية فى فتح المنتديات الأدبية وتنظيم المحاضرات المفردة أو المتسلسلة ، وكانت جمعية قدماء الصادقية أسبق إلى تنفيذ فكرة النادى الأدبى فقد ابتدأته منذ سنة ١٣٤٣ – ١٩٢٥ ملتقى أسبوعيا لتناشد الأشعار والمساجلات ومنذ سنة ٤٦ – ٢٨ وقد غلب عليها عنصر الشباب صار النادى الأدبى ملتقى يوميا تثار فيه المباحث الفلسفية والأدبية والمشاكل الاجتماعية ويتجاذب أعضاؤه الأحاديث فى توجيه الدراسات وتعيين من يقوم بها ، ويعقد مجلس واسع كل أسبوع يلقى فيه أحد أعضاء النادى محاضرة على نحو ماعهد به إليه ثم تجرى فيها المناقشات والردود التى كثيراً مايتولد منها موضوع محاضرة تلقى فى الأسبوع الماضى الموالى لبسط النظرية المخالفة

وكان لكثير من هذه المحاضرات امتداد خارج النادى مس الانقسام الفكرى الذى بدأه فى المحاضرة الماضية بين المحافظين والمجددين . مثلما وقع فى محاضرة ألقاها راهب مسيحى مصرى أقام مدة بتونس وهو الأب يوسف سلام حول فلسفة ديكارت وانتصب للرد عليه أحد نبغاء الصادقيين المعروفين بسمو الثقافة العربية وسعة المطالعة الفلسفية، وهو الأستاذ يوسف المحجوب . ومثل ذلك ما كان من الصدى لمحاضرة قام بها الشيخ محمد الصالح المهيدى عن حياة امرىء القيس وشعره انتهى فيها إلى أن شخصية أمرىء القيس خرافية لا وجود لها فى الحقيقة ، وقد بلغ عدد المحاضرات التى قام بها النادى الأدبى لقدماء الصادقية إلى صائفة ١٩٣٠ مائتين ونيفا .

وفتحت الخلدونية المجمع الأدبى ، وكان احتفال افتتاحه عظيما أنشدت فيه القصائد الرنانة ، وقام فيه الشيخ محمد العربى الكبادى بسلسلة محاضرات عالية فى فن النقد الأدبى وطرائقه ، إلا أن صبغة المعهد الدراسى كانت أغلب على هذا المجمع من صبغة النادى الأدبى ، واهتم المجمع الأدبى باغتنام الفرص لإقامة الحفلات التى تشيد بروابط العروبة وتنشر دعوتها، فكلما زار تونس عالم أو أديب أو فنان من القطرين الشقيقين الجزائر والمغرب ، أو الأقطار الشقيقة الشرقية احتفل به وخطب أو حاضر ، وكلما رجع عالم أو أديب أو فنان تونسى من رحلة شارك فيها فى مؤتمر أو اتصل بالحياة الأدبية فى قطر من أقطار العروبة، أقيم له اقتبال وتحدث عن الموضوع الذى كان سبب رحلته وعرّف بالصلات العربية ونوّه بها الشعراء والخطباء ، حتى أن كتبا أهدتها دار الكتب المصرية من مطبوعاتها إلى مكتبة الخلدونية سنة ١٣٥١ - ١٩٣٢ كانت داعية الاحتفال ومحركة لقرائح الشعراء (١) .

وإذا أصبحت روح تأكيد الروابط العربية ، خصوصا بين أقطار المغرب

---

(١) العالم الأدبى ١٣ يونيو و ٤ يوليو سنة ١٩٣٠

الثلاثة ، هى المسيطرة على الحياة الفكرية والأدبية ، فإن الحكومة التى كانت تضيق ذرعا بما لذلك الاتجاه الحر من أثر فى تكوين المستقبل السياسى على الصورة التى تخشاها أرادت أن تجعل لها حظا من هذا العمل قد تتقرب به إلى أهل الثقافة . فسعت فى إقامة مؤتمر رسمى باسم مؤتمر اللغة والآداب العربية انعقد بتونس فى ٦ شعبان ١٣٥٠ — ١٠ ديسمبر ١٩٣١ وحضره عدد كبير من المستشرقين الفرنسيين ومن علماء المغرب الأقصى والجزائر واشترك فيه كثير من عظماء رجال الثقافة العربية بتونس بإلقاء المحاضرات . مثل الشيخ أحمد بيرم والشيخ بن عاشور والشيخ محمد الصالح بن مراد والأستاذ محمد ابن الخوجة والأستاذ حسن عبد الوهاب والشيخ محمد البشير النيفر والشيخ معاوية التميمى والشيخ عبد الرحمن الكعاك والشيخ محمد العربى الكبادى والأستاذ عثمان الكعاك وغيرهم ، وكان له أثر فى توسيع دائرة النشاط الفكرى وإشاعة البحث العلمى ، لا سيما بما كان له فى الصحافة من تعاليق وذيول وما كان له من اتصال بالانقسام الفكرى وبالتطاحن بين شقى المحافظين والإصلاحيين من الزيتونيين فاغتنم هؤلاء فرصة وجود الشيخ محمد الحجوى من علماء المغرب الأقصى المعروفين بالعمل فى سبيل الإصلاح الدينى وترقية التعليم ، فأقاموا له حفل اقتبال عظيم بالخلدونية ترأسه الشيخ الطاهر بن عاشور فخطب ممجداً المواقف الإصلاحية ومؤيديها وأنشد الشعراء القصائد فى التنويه بالروابط العربية بين الأقطار المغربية ، وألقى الشيخ الحجوى محاضرة عن الفتح العربى للمغرب ، ناقش فيها نظرية ابن خلدون ، وقد نشرت فى نشرة الخلدونية لسنة ١٩٣٤ وأخرجت فى طبعة مستقلة مع القصائد التى أنشدت يوم إلقائها ، بالمطبعة الفنية بتونس .

٨ وإذا كانت الخلدونية مسبوقة فى نشاط مجمعها الأدبى وإنتاجه بالنادى الأدبى لقدماء الصادقية ، فقد كانت هى السابقة فى ميدان المحاضرات العلمية العامة إذ نظمت سلاسل محاضرات ذات حلق مترابطة ، فى الأدب والتاريخ والعلوم الطبيعية ، بحيث صارت المحاضرات لا يقل عددها عن ثلاثة فى الأسبوع

يقوم فيها الشيخ محمد العربى الكبادى بمحاضراته الطلية الممتعة فى الأدب ، والأستاذ عثمان الكعاك بدراساته التاريخية والدكتور محمود الماطرى والدكتور رشيد المنشاوى بمحاضرات علمية فى علم الإحياء وحفظ الصحة ، والأستاذ الهادى الكسورى فى علم الفلك والأستاذ الطاهر صفر فى الاقتصاد السياسى ، وبرز عنصر الشباب فى المحاضرات التاريخية التى قام بها محمد النخلى (الحفيد) والأدبيّة التى قام بها أحمد المهدى النيفر — ومحاضرات تاريخ فن النشر وتاريخ الفرق الإسلامية التى ألقاها محمد الفاضل بن عاشور ؛ واستمر هذا النشاط من أكتوبر ١٩٢٩ إلى آخر ١٩٣٢ ، وكان لهذه المحاضرات أثرها الواضح فى توسيع دائرة البحث والمعرفة وتوجيه الأساليب الدراسية النقدية ووضع المثل للخطابة العلمية الراقية ، وعظم الإقبال عليها حتى اضطرت الجمعية إلى تحديد عدد الحضور بتوزيع بطاقات على أهل العلم والأدب وطلبة التعليم العالى ، فصارت هذه المحاضرات بتسلسلها وسموها وانتخاب مستمعيها نواة للتعليم الجامعى العالى .

وبهذا المظهر الفائق من النشاط الأدبى والإنتاج العلمى أحس أهل الأفكار فى كل جانب بما شحذ قرائحهم وقوى عزائمهم فنفض الكثيرون أردية الخمول وتقدموا إلى ميدانى المحاضرة والتأليف ، وكان ذوو الأفكار التجديدية المتطرفة فيمن تحرك بهذا الداعى الجديد ، فابتدأ الناس يسمعون نغمات متحررة تتصل بالمبادىء التى كانت حملات الصحف قضت عليها فى الدور الماضى ونسبتها إلى الإلحاد. فى ٧ جمادى الثانية ١٣٤٨ نوفمبر سنة ١٩٢٩ قدم النادى الأدبى لقدماء الصادقية محاضرة من المحاضرات التى ألقيت فى جلساتها الخاصة ، فى مجمع محاضرة عامة بقاعة الخلدونية ، ألقاها شاب دون العشرين ألفت الأنظار إلى نبوغه الشعرى وهو أبو القاسم الشابى .

وكان موضوع هذه المحاضرة « الخيال الشعرى عند العرب » ، وقد بحث فيها بحثا مستفضيا حقيقة الخيال الذى هو روح الشعر ثم استقر بحثه على أن

الأدب العربى خال من الخيال الشعرى ، وأنه متسفل فى المادية ، لا يستطيع مجاراة الشعر الغربى ، وقد طبعت هذه المحاضرة بعد إلقائها بمطبعة العرب وأثارت فى النوادى الأدبية ضجة كبرى انقسم فيها الناس بين مادح وقادح وتتبع الكتاب بمقالاتهم النقدية آراء المحاضر واتجاهاته وهاجمته الصحف الدستورية مثل جريدة النديم بالاستخفاف والتهكم والتشهير وفظيع الاتهام وانتقد كتابه فى مجلة العالم الأدبى محى الدين القليبى بإنكار قوى ومحمد الحليوى بتتبع معتدل (١) .

وفى صائفة ٤٨ — ٣٠ أصدر الطاهر الحداد كتاب « امرأتنا فى الشريعة والمجتمع » جعله مقسما على قسمين : قسم تشريعى وقسم اجتماعى ، وتناول فى القسم التشريعى اقتضاء التطور العالمى لتطور التشريع الإسلامى تطوراً يقضى بإلغاء بعض ماورد من النصوص الصريحة إذا عورضت بالمصالح الحادثة المتلائمة مع مدارك الشريعة ، ثم تناول مسائل تتعلق بالمرأة من الأحكام الإسلامية كمسألة تعدد الزوجات ومسألة تنصيف الميراث ، فصرح برأيه فى لزوم العدول عن مقتضيات النصوص فيها ، ووقعت له فى أثناء هذا القسم عبارات منكرة أخذ عليه منها مس بمقام النبى صلى الله عليه وسلم وأزواجه الطاهرات ، وقسم اجتماعى وصف فيه أطوار حياة المرأة التونسية منذ تولد إلى أن تصير أما ، فأثار ظهور هذا الكتاب حركة كبرى بين علماء جامع الزيتونة الأعظم وسعت النظارة العلمية لدى الحكومة فى مصادرته فلم يتم ذلك وشكلت النظارة لجنة من كبار العلماء لتقرير رأيها فى الكتاب فنظرت فيه وقدمت تقريراً فى بيان مآخذه انبنى عليه سحب شهادة الطاهر الحداد الزيتونية عنه وحرمانه من خصائصها ، وكتب رجال من علماء الدين تآليف فى الرد عليه برز منها كتاب « الحداد على امرأة الحداد » للشيخ محمد صالح بن مراد طبع بالمطبعة التونسية سنة ١٣٥١ — ١٩٣٢ وكتاب سيف الحق للشيخ عمر برى المدنى طبع بالمطبعة الأهلية سنة ١٩٤٩ ، وأراد أنصار دعوة

التي هي روح المحافظة على الدين ولغته وتقوية الشعور بوحدة العالم الإسلامي واعتبار الإسلام والعروبة أصل ذاتية الوطن التونسي. فكان لصدورها هزة عنيفة اعتدل بها ميل الحركة الفكرية إلى منهج التطرف وشارك في تحريرها كبار علماء الإسلام وأساتذة الأدب والتاريخ ، فكانت أرقى مجلة إسلامية من ناحية الدراسة العميقة وكونت حولها هالة من القراء المنتخبين هي أرقى طبقة من قراء المجلات .

وثانية المجلتين هي مجلة « الجامعة » التي ابتدأ صدورها في ربيع الثاني سنة ١٣٥٦ — يونيو ١٩٣٧ بعناية هيئة مزدوجة من الصادقيين والزيتونيين يديرها محمد بن الحسين ورئيس تحريرها الشيخ محمد الصالح النيفر ووالت نشر المقالات القيمة في الأدب والتاريخ والأخلاق والاجتماع ، وروائع الشعر العربي والمنقول ، فكانت ديوان البحث العلمي والتوجيه الدراسي المتباعدين عن كل توجه إلى منهج معين ولعل ذلك ما يشير إليه تسميتها بالجامعة ورمزها بوضع صورة المعهدين الزيتوني والصادقي على غلافها لأنها كانت ذات الموقف المحايد بين الاتجاهين : الذي مثلته مجلة العالم الأدبي من قبل والذي تمثله المجلة الزيتونية .

ثم إن حرارة الاندفاع نحو التطور الفكري التي كانت متركزة في قضية إصلاح التعليم الزيتوني أمدت الشعراء والكتاب بما صبغ أدبهم بصبغة مزدوجة بين الفكر والعاطفة إذ أصبحت الدعوة إلى الإصلاح أصلا من أصول المنهج الذي يسير عليه تفكير الكتاب وحماسة الشعراء ويتضح من هذا أن الدعوة التجديدية ، سواء كانت معتدلة أو متطرفة هي التي جمعت في هذا الدور بين نواحي الحياة كلها في الدين والاجتماع والفكر والأدب فصار مظهر الطموح عاما وروح الشباب سائدة وتفاعلت هذه النواحي بتوحد روح التوجيه الجامعة بينها، فللتجديد الديني أثر في حركة الأدب يتلاقى فيها

مع التجديد العقلى ، ولتحرر الأدب أثر فى روح التجديد الدينى ومظاهره وللحياة الاجتماعية فى تطلعها إلى التجدد والحرية استمداد من الفكر والأدب وانعكاس عليهما ، ولهذه الحركات كلها من التلاقى المطرد المنعكس نتيجة فى التطور السياسى الذى ظهر فى الإنشقاق بين قادة الحركة الدستورية .

* * *

النثر السياسى :

كان ما بيناه فى المحاضرة الماضية من تأثر الحركات السياسية بظهور الحزب الإصلاحى وخروج الشيخ الثعالبى ، مستتبعا فتورا ظاهرا فى الحياة الصحفية قضى بتضاؤل شأن النثر السياسى فى هذا الدور إذ قلّ عدد الصحف الدستورية ونقص انتشارها وتوجه أكثر الباقين من كتابها إلى المعركة الفكرية القائمة بينهم وبين الذين تنمروا لهم من أصحاب الدعوة التجديدية المتطرفة .

وكانت الصحيفة اليومية القديمة « الزهرة » محايدة بعيدة عن الدستوريين ولكن صدور الجريدة اليومية الآخرى التى أصدرها الحزب الإصلاحى سنة ١٣٤٢ — ١٩٢٤ وهى « جريدة النهضة » قد كون ارتباطا بين الزهرة وبين الكتاب الدستوريين بدافع المنافسة الصناعية من جهة ، ودافع الاعتماد على نشرة يومية عتيدة فى مقاومة نشرة يومية مثلها من الجهة الأخرى، فعاش بذلك الجدال القلمى بين الجريدتين قويا عنيفا ولكنه كان أكثر ما ينصرف إلى المسائل الاجتماعية والدينية والجزئيات الإدارية ، فلا يتناول الأصول السياسية ، إذ كان الاختلاف قد استقر واشتهر وعلم كل أناس مشربهم .

وكانت جريدة النديم بطريقتها الفكاهية النقدية دائبة على خدمة مبدئها الحزبى ومقاومة النهضة وتناول المجددين ولكنها بأسلوبها الذى يدخل فى النثر الأدبى، ومواضيعها التى تتصل بالحياة الدينية والفكرية، لم تؤثر فى بعث النثر السياسى ، وكان ظهور جريدة « صوت التونسى » باللغه الفرنسية ، نشرة رسمية للحزب الدستورى ، قد ركز النشاط فيها وصرف رؤوس الحزب

إلى الاشتغال بسياستها ولو لم يكونوا من المحررين فيها ، ولم يطل ما بين تلك الجريدة والحزب من الاتصال فاستقل بها صاحبها الشاذلي خير الله ، وظهرت الحركة الشعبية الهائلة في ذي الحجة سنة ١٣٥١ — مارس ١٩٣٣ — في مسألة التجنيس ودفن المتجنسين في المقابر الإسلامية ، فنشط الحزب نشاطا عظيما ، وأصدر جريدة جديدة هي جريدة « العمل التونسي » حرر فيها كتاب الحزب الذين عرفناهم من قبل ، وطائفة من العناصر الجديدة الشابة ذات الثقافة الغربية ، منهم الطاهر صفر ، وصدرت لها نشرة فرنسية كان يكتب فيها أصحاب القلم الفرنسي مثل الحبيب بورقيبة ، ومحمد بورقيبة ، ومحمود الماطري ، والبحري قيقه .

ومع ذلك لم يظهر النثر السياسي بصورة ممتازة في النشرة العربية لجريدة العمل إذ كان أكثر انصرافها إلى الجزئيات الإدارية وعلاج مسألة التجنيس من ناحيتها الدينية وما حولها من الأحداث والإجراءات ، وسرعان ما حدث الانشقاق ، فاستقلت كتلة الدستور الجديد بجريدة العمل وأصدر جماعة الدستور القديم جريدة « الإرادة » ودخلت الجريدتان في المعركة الحزبية الكبرى التي تقابل فيها شقا الحزب الدستوري . وظهرت مقدّرات فائقة في الجدال الصحفي بين الجريدتين فكان في الشق القديم الذين عرفناهم في الدور الماضي ، مثل محمد المنصف المنستيري ومحي الدين القليبي ، وظهر في مقابلتهم من الشق الجديد كاتب نزل حديثا إلى ميدان المعارك السياسية ، هو الطاهر صفر .

وهو صادقيّ من ذوي المكانة المعتبرة في اللغة العربية وأدبها ، وتخرج في التعليم العالي من باريس بكلية الحقوق ومدرسة العلوم السياسية ، وله قدم راسخة في الفلسفة والآداب الفرنسية ، بحيث يعتبر أرقى من أنجبته البلاد التونسية علما وفكرا وأدبا من ذوي الثقافة الغربية فانتصب يناقش كتاب الدستوريين القدماء في دواعي الانشقاق ، مؤيدا منهج مكوني الدستور الجديد ، وتنشر مقالاته في جريدة العمل التونسي ، أو في جريدة الزهرة تحت عنوان المنبر الحر الذي فتحته للشقين ، وكانت أكثر مقابلاته مع محي الدين القليبي ومحمد المنصف المنستيري ، وهو في تحريره واسع النظر ، يريد أن يلم في كل نقطة

جزئية بجميع أطرافها ، دقيق النقد يتتبع فكرة مناظره بالمناقضة التفصيلية حكيم فى إيراد الحجة المنطقية ، والنقض الجدلى . يشبع موضوعه تقليبا وتحليلا ، ولكنه لايستقل بابتكار موضوعه فهو إما مقرر لفكرة أو راد لكلام أو واصف لحال ، حتى إن مقالاته المبتدئة كثيرا ماتتصيد من المقال فكرة معارضة فتندفع فى بسطها وتقريرها ثم تكر عليها بالنقض . فروحه البيانية روح مدرس ، وتلك هى موهبته الحقيقية التى لم ييسر لها . وهو فى تعبيره متين الجملة مطنبها يؤدى تمام المعنى المراد مستوعبا واضحا . يطيل السياق بمتابعة الجمل وربطها بالتعليل والتفريع والمقابلة والاستئناف . خالص التراكيب من مسحة النقل والتأثر باللغة الأجنبية . لايتعلق بالنكت الأدبية والتلاويح والتلاميح والمعاريض ، بل يرسل الكلام جادا جزلا مستويا يهاجم الآراء ويقارع الحجج .

* * *

النثر العلمى :

توفرت دواعى النثر العلمى وتعددت أغراضه وتفننت نواحيه . بسبب اتساع دائرة البحث وتوافر مواد المعرفة . وانطباع الأفكار على ملكة النقد والتحليل، وسمو الهمم إلى التحقيق والدراسة والإنتاج، وإذا نحن قطعنا النظر عن التآليف العلمية التى تدخل فى حد العلم لا فى حد النثر العلمى رأينا أن مجال النثر العلمى فى هذ الدور إنما هو فى مقالات المجلات لا فى الكتب ، فمقالات عثمان الكعاك فى التاريخ والأدب واستعراض المذاهب الأدبية والفلسفية ، هى من أرقى مثل النثر العلمى الذى عرفناه من قلم هذا الكاتب فى الدور الماضى ، على مازادت من تعمق فى البحث ومكانة فى أسلوب العرض وقوة فى الاستدلال والاستشهاد ، وظهر فى النثر العلمى لون جديد فيه شائبة النثر الفنى ولكن صبغة النثر العلمى أعلق به ، وهو لون المقالات الأدبية المنهجية التى تعالج أصول الأدب وتدرس مقاييسه بناء على قواعد علم النفس

وعلم الجمال . وقد امتازت مجلة العالم الأدبى بنشر مقالات عظيمة الشأن فى هذا النوع ، مثل مقالات صاحب المجلة زين العابدين السنوسى « الوضوح والإبهام فى الأدب » و « الأدب القومى » و « الطريقة القصصية » ومقالات محمد الحليوى « العبقرية » ومقالة محمد عبد الخالق البشروش « الأسلوب » ومقالة أبى القاسم الشابى « الشعر كنهه ومقياسه » ومقالة محمد الفاضل بن عاشور « الخيال العام فى الأدب العربى » . ويعتبر محمد الحليوى أبرز الكتاب فى هذه الناحية وأتمهم تسديداً فى بسط النظريات وتعليلها وحسن تطبيقها على خطة فيها أمانة الوصف ونزاهة الحكم وحسن الانسجام فى الجمع بين روح الأدب العربى ومقاييس النقد الغربى التى يصلها به .

أما الدراسات الأدبية المتعلقة بالطرائق والأشخاص فقد ظهرت منها مثل كثيرة فى المقالات والمحاضرات ولكن الذى طبع هذا الفن بطابع الدور الذى ندرسه فأخرج عملا واسعا مبتكرا فيه التسجيل والتحليل مع النقد والتوجيه انما هو زين العابدين السنوسى بكتابه « الادب التونسى فى القرن الرابع عشر » الذى طبع فى جزئين بمطبعة العرب سنة ١٣٤٦ - فقد جمع فيه منتخبات شعرية لـ ٢٦ شاعراً تونسيا من المعاصرين ، واهتم بتقديم كل واحد من هؤلاء الشعراء بدراسة توضح حياته من حيث ترتبط مع آثاره الأدبية وتحلل طبعه وذوقه ومنهجه الأدبى ، فكان لعمله قيمة كبرى بما فيه من الابتكار وكونه مصور عصر أدبى لم تسبقه الأقلام إلى تصويره ، زيادة على ما فى تحليله من تعمق وتدقيق وما لبيانه من وضوح وجمال تعبير ومقدرة فائقة فى ضبط الكلمات والجمل التى تبرز خصوصية الفكرة أو المنهج بصورة تميزه تمييزاً لا يبقى مجالا للالتباس .

النثر الفنى :

استمر النثر الفنى سائراً فى الأغراض التى انحصر فيها فى الدور السابق وهى المسرحية والقصة والصحافة الفكاهية ، ودخل فى غرض جديد هو غرض الوصف الاجتماعى .

فالمسرحية خرجت عن دائرة الترجمة التى قصرت عليها فى الدور الماضى، وعاودها نشاط الكتاب التونسيين فى وضع المسرحيات ابتداء ، وذلك بظهور فرقة «السعادة» التى أسست سنة ١٣٤٣ بعد ١٩٢٤ واحتجبت مدة ثم عادت نشيطة سنة ١٣٥٠ — ١٩٣٠ ليقوم عليها نخبة من أدباء العربية على رأسهم محمد الحبيب ، وهو الذى وضع لهذه الفرقة مسرحيات مستمدة من التاريخ التونسى أو التاريخ الإسلامى عامة مثل « الواثق بالله الحفصى » و « فتح فارس » ومسرحيات مستمدة من صميم الحياة التونسية الماثلة مثل «جيل اليوم» .

ولقد كان لزيارة فرقة رمسيس وعلى رأسها يوسف وهبى وفاطمة رشدى سنة ١٣٤٦ — ١٩٢٧ ثم عودة فاطمة رشدى ، بعد انفصالها عن فرقة رمسيس سنة ١٣٥١ — ١٩٣٢ - ومعها عزيز عيد وحسين رياض وعباس فارس تأثير كبير فى شحذ الأذواق وترقية فن الإخراج فتأسست جمعيات جديدة ونشطت الجمعيات فسعى مصطفى صفر ، الذى عرفناه فى الدور الماضى كاتباً عبقرياً ، وقد صار شيخ مدينة تونس ورئيس بلديتها ، فى توحيد الجمعيات التمثيلية فى جمعية واحدة باسم « الاتحاد المسرحى » سنة ١٣٥٥ — ١٩٣٦ ، وأمدها بذوقه وجاهه فأفادها ذلك نشاطاً ونجاحاً ، إلا أنها توجهت نحو التمثيل باللهجة العامية ونشّطت وضع المسرحيات فيها ، ومع ذلك لم يخل عملها من تنشيط على وضع مسرحيات بالعربية الفصحى . وفى ظلها قام حميدة الحبيب بإخراج مسرحيات فكاهية قصيرة محورة من مقامات الحريرى .

وفى سنة ١٣٥٧ — ١٩٣٨ كون محمد الحبيب جمعية الكوكب التمثيلى على الأصول التى كان يعمل لها فى جمعية السعادة ، وتولى هو وكتاب آخرون وضع مسرحيات ذات قيمة مثل « الناصر لدين الله » و « يوم غرناطة » و « الزوجة الثائرة » لمحمد الحبيب و « ولادة وابن زيدون » لعبد الرزّاق كرباكه و «المنصور ابن أبى عامر» لأحمد المختار الوزير و «زيادة الله بن الأغلب»

و« الحكم الأموى » و« المعز الصنهاجى » لخليفه السطنبولى ؛ فكانت ثروة عظيمة مجدية هذه التى أفادتها الحياة المسرحية للنثر الفنى بتونس ، وتبعتها فوائد جسيمة أضيفت إليها فى توفر مادة النقد المسرحى التى اعتنى بها ووفق فيها زين العابدين السنوسى فى مجلة العالم الأدبى .

أما القصة فقد اختصت بها مجلة العالم الأدبى ووجهت إليها بالمقالات النقدية ونشر المثل المنهجية ، وما انفك زين العابدين ينادى بوجوب تحرير القصة التونسية من طوابع الحياة الفرنسية وإبرازها صورة للحياة التونسية الشرقية بما فيها من ألوان وأذواق ، وأتى هذا التوجيه بنتائج . فكان فيما نشرته مجلة العالم الأدبى أقاصيص ذات لون تونسى مستمد من صميم الحياة الشعبية والنفسية العربية، إلا أن أكثر ما نشر من تلك القصص الرائعة كان ممضى بإمضاء رمزى يظهر أنه لكاتب واحد وإن اختلف الإمضاء، فكان مرة « الراوى » وأخرى « المحدث » نشر له نحو ثمان قصص ، وأقل تلك القصص ما نسب إلى اسم كاتبه مثل « قصة روح ثائرة » لأبى القاسم الشابى ، وقصة «دموع القمر» لمصطفى خريف، وقصة «زوجة احمد شرودة» لمحمد عبد الخالق البشروش و « هل كان مجنوناً » للتيجانى بن سالم. والمنهج التحريرى لهذه القصص متقارب ، فهو جمل تصويرية متناسقة تعتمد أبلغ وسائل التصوير فى اللغة العربية وأنسب الاعتبارات بالتخييل ، فى الإبتداء بأكثر المقامات أو الجمل تشويقا لروح القصة ، وحسن ترصيع الرواية بالحوار « ودقة استعمال الجملة الفعلية وخاصة المضارعية وإبداع تقييدها بالجمل الحالية والظروف الفجائية .

وأما الوصف الاجتماعى ، فيكاد يختص به كاتب واحد ، هو : الطاهر الحداد ، وقد أظهر براعته فى هذا المنهج فى كتابيه، حركة العمال التونسيين . و « امرأتنا فى الشريعة والمجتمع » وعلى ما تعلق بقسمه التشريعى من هذا الكتاب من نقد وإنكار وتغليط وتقصير وتجهيل ، فإن أهل المعرفة بالفنون البيانية مجمعون على تقدير الوصف الدقيق والبيان المعجب اللذين ظهر بهما

القسم الاجتماعى ، حتى سمعت أكبر أساتذتنا فى البلاغة العربيـــة وأشدهم تمسكا بالقديم وأكثرهم تشنيعاً على القسم التشريعى ؛ وهو شيخ الاسلام محمد ابن يوسف وناهيكم به ، يكرر التصريح بأن بلاغة تحرير الطاهر الحداد ودقة تعبيره فى منزلة قل أن تنال .

* * *

الخطابة :

إن الأسباب التى أوضحنا بها ضيق دائرة النثر السياسى كافية للدلالة على أن الخطابة السياسية قد تضاءل شأنها أيضا بعد أن انتظمت الحياة السياسية فى النظام الحزبى وأصبحت المواقف والأعمال تملى على أتباع الحزب بالطريقة التدريبية الرابطة بين مركز القيادة وشعب الحزب ، وارتكز العمل السياسى النظرى على الكتلة الملتفة حول جريدة صوت التونسى . ولما حدث الانشقاق بين قادة الحزب الدستورى واضطر كل من الطرفين إلى التوجه إلى الشعب ، كانت طريقة البيان إما محاورات فى مجالس ، وإما إقناعا للجماهير باللهجة الدارجة ، ولكن حياة الطلبة الشبان قد كانت لها مواضيعها الخطابية ولها خطباؤها ، وذلك ما ظهر أول الأمر فى الطلبة الزيتونيين وبيناه فى المحاضرة الماضية ، ونمت عوامله وازدهرت مظاهره فى هذا الطور بما داخل حياة الطلبة الزيتونيين من النشاط فكانت مواقفهم فى الإضرابات والمجامع بتقرير خططهم حول لجنة الطلبة ، مناسبات لظهور المواهب الخطابية الارتجالية وارتفاع شأن النابغين فيها ، مثل محمد الصالح المهيدى ومحمد بوشربية .

أما أولها فهو زعيم لجنة الطلبة مدة ست سنين . وكان لبعد نظره ورجاحة فكره وهدوء مزاجه ما جعل إرادتهم الجماعية معلقة بتوجيهه الحكيم ، وكانت خطبه الكثيرة فى جموع الطلبـــة مظهر التعقل والاتزان والروية والإقناع بالحجة ورشاقة السير الدقيق ، وكان بيانه قويا منطقيا ، وجمله فصيحة محكمة منسقة مطبقـة المحز قوية الأثر فى التوجيه ، تبعث على التأمل ولا تتجه

إلى إلهاب الحماس حتى ينبعث بها حماسا إراديا عقليا تلقائيا .

وأما محمد بوشربية فهو أديب ساخط ثائر ارتوى من مناهل الأدب العربى بصفوته شعراً ونثراً ، إذا تكلم انثالت فى كلامه القوالب البليغة البديعة وتزاحمت النكت والإشارات والأمثال ، فألقاها بجأش ثابت وصوت قاصف كالرعد ورمى بصواعقها المحرقة ، فلا يبالى على من وقعت ، واستمر فى قوته ساميا فى البيان، عنيفا فى تناول المعانى، يشهر بالضعف والاستخذاء والاقتناع بالدون،فتلتهب النفوس بحرارة بيانه وتكاد تنطلق نحو غاية خطابه قبل أن ينتهى إليها ، نال بذلك مكانة عظيمة بين الطلبة قريناً لهم ثم أستاذاً محبباً على تعاظمه وصلابة عوده ومرارة كلمة الحق الصريح التى لا تفارق منطقه ، فأصبح المنظور إليه فى المواقف الحاسمة التى إذا قال أما بعد فهو خطيبها ، يرسل القول سمحاً واضحاً متين الجمل متناسقها مليئا بالتهكم والنكت وتجاهل العارف، بارعا فى ربط انتباه السامع بمعاقد خطابه إذ يبنيه على تخييل الحوار واصطناع التردد .

وكما كان للزيتونيين فى حياتهم هذا الجو الخطابى المكهرب ، فقد كان لطلبة التعليم العالى بفرنسا ، جوهم الخطابى أيضاً ، بعد أن تكونت وحدتهم الاجتماعية على نحو ما وصفنا فى صدر هذه المحاضرة ، فكان خطباؤهم يتناولون المواضيع الوطنية ، ومشاكل الحياة الطالبية ، فعالجوا فيها الخطابة حتى برزوا بها إلى الجماهير متدرجين بتدرج المناسبات التى يسلك بها الطالب من الحياة الطالبية الخاصة إلى الحياة الاجتماعية العامة .

ويعتبر أكمل هذا الصنف من الطلبة ، مقدرة خطابية . على البلهوان ، فقد كان استعداده للخطابة بالعربية مكتمل الشروط منذ تخرجه فى التعليم الثانوى بالصادقية ، ثم كانت حياة الطلبة الأفارقة والعرب فى باريس ، هى التى شحذت موهبته وصقلت مقدرته واخرجته خطيباً مصقعاً قوى الجأش حاد القول حماسى الروح، يبتدىء خطابه رصيناً ثابتاً ليناً تغلب عليه الروح

الفكرية والميزان المنطق، فيبسط المعانى فى تقرير وتقريب وتنظير ومقارنة، فى لهجة أستاذ محاضر، ثم لا تزال حرارة الموضوع تصعد به عن مستوى النظر المنطق إلى أفق الإحساس الوجدانى ،فتصعد معها حرارة نفسه المنفعلة حتى تطغى عليه الروح الحماسية فتفصله عن الجو الذى كان فيه فإذا هو ثائر عنيف يرمى فى بيانه بحجارة من سجيل، فلا يفرغ من خطابه إلا وقد نقل سامعيه إلى ذلك الجو الذى حلق فيه فإذا هو وإياهم فى بحران الحماس المتقد والإرادة العارمة الهاجمة.

ولم يزل مرانه الخطابى يمد روحه، وسمو ثقافته يرفع بيانه، وسعة مطالعته ودراسته للأدب العربى تهذب تعبيره، حتى أصبح بين أقرانه الخطيب الممتاز الذى لا ينازع طول نفس وسلامة تركيب وفصاحة لفظ وبلاغة جملة.

وإذا نحن تجاوزنا ميدان الخطابة العامة إلى ميدان الخطابة الخاصة، وجدنا للمجامع العلمية والمحافل الأدبية، خطيبها الارتجالى الذى لم يزل ظاهر التفوق، الشيخ عبد الرحمن الكعاك، الذى أظهر من بدائع خطبه الارتجالية فى هذا الدور، فى الحفلات والذكريات وتقديم المحاضرين، ماسد باب الظهور معه على كل مزاحم، وقد طالما أحرج كبار المحاضرين وهو يقدمهم بكلماته الارتجالية تناوله لموضوع المحاضرة ببديهته تناولا يشفق معه المحاضر وهو ينتظر نهاية التقديم من أن تكون الكلمة الافتتاحية لم تبق فى الموضوع مقالا لقائل.

ثم وجدنا للخطابة العلمية أساتذتها الذين نبغوا فيها وفازوا بالإعجاب والتسليم، حتى جعلوا هذا الباب على مابرعوا فيه واتقنوا وجودوا أعظم مظاهر الارتقاء العلمى والأدبى فى هذا الطور، وهم الذين أوردنا أسماءهم ومواضيع محاضراتهم عند الكلام على محاضرات الخلدونية.

الشعر :

كان من آثار طموح الشباب، وهو الميزة الأصلية لهذا الدور، أن وثب الشبان ينازعون الكهول والشيوخ قياد الشعر حتى امتلكوها ، فسلطوا بذلك على المناهج الشعرية روح التجديد التي كلما نزل الشبان منزلا أشاعوها في أرجائه، فوصلوا تطور الشعر بتطور التفكير وتطور الأوضاع الاجتماعية، وأفسحوا الميدان لوثبات متحررة من القيود ، هدامة للحواجز ، تنبعث طلقا في أشواطها لا تستلهم غير الإحساس ولا تستوحي غير الفكر، وبهذه الوثبة دخل الشعر في طور تلون فيه بلون غير لونه في الطور الماضي ، إذ اتجه في استمداد معانيه إلى الطبيعة المطلقة والإحساس الفطري ، فسقطت الخواص والأعراض التي كان الفن الشعري يتكيف بها من قبل حتى نزلت منه منزلة الذاتيات .

وإذا كان الواقع ينطق بأن ميدان الإنتاج الشعري لم يخلص للشبان ولا تحرر للذين ظهروا في هذا الطور ، فإن التأمل العميق يدل على أن روح الشباب طغت طغيانا مطلقا ، وأن كل من بقي من شيوخ الشعر وكهوله ثابتا في الميدان فإنه لم يثبت إلا لأنه قد تشبب فبرزت آثاره الشعرية مطبوعة بطابع غير الذي طبعت به من قبل ، حتى انسجمت بذلك وحدة الأصول المنهجية بين الشبان والمتشببين ، إلا الذين تحيزوا إلى ركن خاص فأقاموا فيه على فنهم المألوف لم يدخلوا المعمعة ولا كان لهم من الامتداد إلى الجمهور والتجاوب معه ما كان لهم من قبل .

وحسبنا برهانا على هذا أننا نجد عَلَمَي الطور الماضي «خزنة دار» و«آغة» قد خفت ضجيج التحدث بهما منذ استهل هذا الطور الجديد، أما أحدهما، وهو خزنة دار فاحتجبت آثاره عن الصحف والمجامع بتاتا ، وأما الآخر فقد بقي يظهر بين الفينة والفينة، قصيدا على ما عهد من شعره فيطلع في الأفق الأدبي خفيا كالسهى ، وقد كان له من قبل مطلع الشمس والقمر ، وفي مجموع

الأمرين ما يدلنا على أن القيادة انتقلت وأن الميدان قد ساده قوم آخرون.

وما سر ذلك إلا أن محيط التلقى قد تغير وتحول، وأن الروح التى استمدها شعره من المحيط فنال بها مكانته لم تبق مستقرة فيه .

وإذا كان أقرب أبطال الطور الماضى من روح الطور الجديد وأكملهم استعداداً للانسجام معهم وقابلية للتشبب أو لاستصحاب الشباب . هم « المدنى » و«ابن شعبان» و«الخلصى»، فإن ثلثين من هذا المجموع قد قضت عليه ظروفه الخاصة بالبعد عن الميدان إذ لم يبعد عنه بحكم التنافس بين الروح والروح كما ابتعد «أغا» و«خزنة دار». فالمدنى قد طوح به وظيفه العدلى فى الآفاق . فانقطع عن مثارات الحماس وملهمات الإحساس . وانقطعت آثاره الشعرية طيلة هذا الطور ، ومحمد السعيد الخلصى، كان أمعن فى البعد إذ انتقل إلى المغرب الأقصى فلم تبق له صلة بالحياة التونسية وذكرياتها إلا لماما . فلم يبق إلا ابن شعبان ، الذى كانت وفرة إنتاجه الشعرى . وتطور لونه ، تسمح بأن نعتبر هـذا الطور موسم حياته الشعرية . لنصرح بأنه تشبب فكان بتشبيبه نقطة التحول أو هبة اللقاح .

ثم يأتى «الطاهر القصار» الذى كان فى ابتداء هذا الدور قد تجاوز الثلاثين ومع ذلك فقد كان شاعره الاجتماعى الذى تكيفت أغراض شعره بتطلعات الجيل ، والتحم طبعه الفنى بذوق العصر ، وتجاوبت لغته السهلة وبيانه المطبوع ومعانيه المولدة المنشرحة الباسمة مع اصداء الأحاسيس والأحاديث الجائلة فى البيئة العامة .

لم يكن لنتاجه الشعرى مظهر واضح قبل هذا الدور ، فكأن العوامل التى خلعت على هذا الدور صبغة الشباب ، قد كشفت عن نفس الطاهر القصار شبابا غضا رائقا كان مضروبا بينه وبين الناس بحجاب .

فإذا هو يشرق بانعكاس شباب الروح العامة عليه فينمو ويزكو ويتصل بالبيئة حتى يذوب فيها ، فتصبح له روحا ، ويصبح لها لسانا .

وحقاً أن أدب «القصار» ينبغي أن تطلب له روح من غيره ، لأنه لسان بلا روح ومنهج بلا رائد إلا روح الشعور الاجتماعى ورائد الفكر العام ، فهو مرهف الحس، خفيف الروح، حاد عصبية المزاج ، سريع الانفعال بما يسمع سريع النسيان لما ينفعل به سريع الامتزاج بالوسط الذى يدخله ، يتنقل فى المجالس ارتياداً للأنس ولطيف الحديث وبراعة النكتة ، فيحلو له من كل مجلس طعم ، ثم لا يلبث أن يلهيه عنه طعم حلاً من مجلس آخر ، فلا يبقى فى النهاية إلا الأثر المكنون فى حسه المشترك من توالى التذوقات واختلافها ، فإذا خلا بنفسه واستلهم فنه ، طفحت مكنونات نفسه فما هى إلا صورة دقيقة لمحل التلاقى بين ماتذوق من أحاديث . وكذلك شأنه فى مطالعته الأدبية ، يروى الأشعار ويتأثر بها ، ويطالع روائع النثر وآيات العلم والفكر فتأخذه بالإعجاب ، ولكنه لا يحفظ ولا يذكر ولا ينقل ، فسرعان ماتغيب عنه الألفاظ والأساليب فلا تبقى له إلا روعة الحسن والإعجاب بالإجادة . فإذا تطلع إلى إبداع فنه الشعرى تعلق بمثل عليا ، يسمو إلى وحدتها الجمالية الجلية ، ولا يحصى مناحيها التفصيلية ، فجاء شعره صورة لما تأثر به طبعه من تلك المثل ، لاصورة لها هى بذاتها .

وبذلك أيضاً تأتى له ما امتازت به ديباجة شعره من السهولة والسلامة والرقة ، وما كان له من القبول والرواج عند مستمعيه وقارئيه، لأنه لا يتطلب مفرداته إلا من المأنوس الواضح الدلالة ، ولا يصوغ تراكيبه إلا على المنهج الأصلى البسيط لتأليف الجمل فكان شعره السهل فى لغته وتراكيبه ، الممتنع فى معانيه التى هى بنت طبعه ، وبذلك لم ينزل بالفن الشعرى بل فتح فى شعره معارج تسمو بالناس إلى علياء المعانى بالبيان السهل ، فحاز بذلك لقب الشاعر الاجتماعى إذ أصبح شعره روح المحافل والمجامع ، أما هو فلعل ما أحس به من أن عمله متجه إلى فن التعبير دون ابتكار المعانى ، هو الذى كون طموحه إلى تلقيب نفسه ببحترى العصر .

ويشارك ابن شعبان والقصار فى منهجهما الاجتماعى ، محمد بو شربية وقد عرفنا منهجه الخطابى ، إلا أن شعره كان اجتماعيا باعتبار الموضوع لا باعتبار الأسلوب لأنه يتجه بنظره إلى المجتمع وادوائه وعيوبه فيتبرم به ويألم له ويشكو منه ويثور عليه فلا يتلاقى مع اتجاهات الناس بل ينفرهم ويقسو عليهم ويزمجر فى وجههم ، فهو فى روحه واسلوبه حكمى وجدانى ، وإن كان موضوعه اجتماعيا ، إلا أن تعلقه بالفكرة الإصلاحية والروح القومية هو الذى أساغ بعض قصائده للجمهور فى هذا الطور ، لا سيما حماسياته التى يثور بها فى وجه الظلم والجهل والتأخر ، وقلما كان ينشد فى المجامع فى هذا الطور إلا أن مانشر من شعره أوجد صدى واسعاً وأحدث أثراً قويا فى توجيه النهضة الإصلاحية والثورة القومية فى وجه الاستعمار ، ويعتمد فنه الشعرى على الإغراق فى المعانى والمبالغة فى اظهار الصور الكريهة بالتمثيل البليغ والاستعارة البديعة التصوير واختيار الألفاظ القوية الوقع المستمدة من ثورة الطبيعة الطاغية على طريقة أبى الطيب فى الإفراط ، كما يعتمد بيانه على قوة التعبير وصراحة الجملة وحسن تنضيد الأبيات بتحرى البديع المعنوى وتحاشى الكلفة والنبوة ، فيأتى شعره جزلا محكما قويا مسبوكا متناسب المعانى منتظم الجمل مفصلا على عناصر الموضوع بحسن التصريع وحسن مواقع الفصل والوصل .

وهناك طبقة أخرى من الشعراء هى التى أنيط بشعرها روح التطور الشعرى المميز لهذا الدور ، وهى طبقة الشعراء الوجدانيين الذين يتجهون إلى وصف شعورهم بالأشياء وحكمهم عليها لا إلى وصف الأشياء بذاتها ، وقد كان لعوامل التحرر وإبراز الشخصية أثر قوى فى توجيه الشعراء إلى هذه الناحية . على نحو ما كان فى الأدب الفرنسى فى القرن التاسع عشر ، فكثر الشعراء الوجدانيون كثرة لا يمكننا معها استقصاء الفحول منهم فضلا عمن عداهم .

وفى استطاعتنا أن نقسم طريقة هذا الشعر الوجدانى إلى مسلكين ، المسلك الحكمى والمسلك الغزلى . فنأخذ للمسلك الحكمى مثاله فى أبى القسم الشابى وللمسلك الغزلى مثاله فى عبد الرزاق كرباكه .

وإذا نحن اكتفينا بالشابى عن مصطفى خريف فلأن مصطفى قد كان له بعد فقد الشابى أفق ممتد شعّ فيه شعره تتناوله محاضراتنا المقبلة ، ولأن الشابى نفسه كان يرى أن مقاييس الشعر التى هام بها وسار عليها أكثر ماتتحقق فى شعر خريف حين اعتبره أول شاعر تونسى فى جوابه عن الاستفتاء الذى أجرته مجلة العالم الأدبى فى ربيع الأول ١٣٥١ ـ أغسطس ١٩٣٢ .

وإذا نحن اكتفينا بكرباكه عن محمود بورقيبه ، فلأنهما قريعان تنازعا عهداً طويلا لقب « شاعر الشباب » ولأن كرباكه نفسه يصرح بمناسبة استفتاء العالم الأدبى بأنه يرى طريقته متجلية فى شعر أبى رقيبة وروحه متجددة فيه .

وبعد فلا شك فى أن أبا القاسم الشابى هو آية الشعر فى هذا الطور، وأن منهجه السائر على خطة محددة مدروسة مرتبطة بنزعته التجديدية العامة ، هو أكمل مثال للمنهج الشعرى الجديد .

عاش ابو القاسم الشابى عمرا قصيرا لم يتجاوز سبعة وعشرين سنة ، فى بيئة عائلية محافظة مطمئنة منعم عليها لا تعرف البؤس ولا الحرمان ، ونشأ على الثقافة الإسلامية العربية بجامع الزيتونة ،فأتقن القرآن والعربية وتمرس بالأدب فغاص فى الدراسة والمطالعة ، ثم ظهر نبوغه الشعرى وهو ابن خمسة عشر عاما ، فابتدأ ينظم الشعر الجيد على الطرائق المألوفة فى مثل البلاغة العربية فى الأغراض المطروقة ، وعنى بمطالعة الدراسات الاستعراضية للآداب الغربية والنصوص المنقولة من تلك الآداب إلى اللغة العربية ولم يكن يحسن لغة أخرى .

وحببت إليه العزلة والانكماش حتى صار محيط حياته محيطا نظريا بحتا

بين المطالعة والتأمل والحديث النفسي ، ونمت فيه بذلك روح الملاحظة والاعتبار حتى تربت فطرته العقلية على المنهج الفلسفي فكان ينظر الى الوجود من خلال المناظر الطبيعية، والى المجتمع الإنساني من خلال الصور المرتسمة منه في مادة مطالعاته وتأملاته . وفيما يجد في نفسه من الحقائق الشعورية ، ودفعت به غريزته الفنية الى تصوير تلك الانفعالات على نحو المثل الأعلى الذي يتطلبه لفنه فوجد الطرائق الأدبية التي كان سائرا عليها قاصرة عن الوفاء بما يريد فضاقت نفسه بفيضها الفني ضيقا ولد فيها ثقلا وانقباضا ووحشة سوداء من معاناة طرق الإفصاح عن مكنوناتها . حتى ضاق ذرعا بالحياة ـ وما الحياة عنده إلا الحياة الأدبية ـ واصطبغت فلسفته بصبغة التشاؤم المظلم .

وتداعى كيانه الجسمي بطول الاحتباس واستفحال الألم الباطني . فإذا جراثيم السل تهجم فتستقر بـكلتا رئتيه . وإذا شبح الموت منتصب أمامه ، هنالك صممت نفسه على التخلص من اوقارها بتمهيد مسلك تنفذ منه إلى التعبير عن مشاعرها على النحو الذي تطلب ، فانبعثت أمام عينيه صور من الأدب الغربي الذي تعرف إليه من خلال المترجمات، وأنس بما فيها من صور قاتمة وروح متشائمة . ونقل نفسه بدافع التقمص الشعوري إلى الحياة الغربية التي لم يعرفها ولم يقع بصره على ألوانها . فالغاب والضباب والراعي النافخ في نايه والثلج كلها أمور لم يعرفها الشابي ولم يعش في دائرتها ، ومع ذلك كانت أكثر الألفاظ دورانا في شعره ، فكان استعماله إياها أقرب إلى الاستعمال الرمزي منه إلى الاستعمال التمثيلي والمجازي . ووجد من شعر جبران خير رائد له في هـذا الطريق ومساعد على سلوكه فتعلق به حتى تخرج على منهجه وامتزج بروحه فأتى بالتأمـــلات العجيبة العميقة في العواطف الإنسانية وأسرارها والوجود وحقائقه وأظهر التلاقي المتحقق في ذاته بين الحياة المودعة والموت المتوقع فمزج الحياة بالموت وركب من مزيجها وحدة الوجود .

ولم تستعص اللغة العربية ومناهجها الأدبية عن محاولاته المرهقة ، بل

لانت له كما يلين الصخر لنحت الفنان ، فجاءت قوالب شعره رقيقة صافية محكمة النسج رائقة النظم شيقة التعبير معتدلة المقاطع ثرية من طلاوة الفصاحة ورونق البديع ، بحيث أن أشد الناس إنكارا لمذهبه فى تجديد المعانى والأغراض لا يقدر أن يغض من براعته العجيبة فى إتقان الصناعة البلاغية التى هى مقياس الجودة المشترك بين المشارب المتباينة .

أما عبدالرزاق كرباكه فقد تكونت روحه الشعرية بقوة مراسه للأدب وشغفه بالفن البلاغى بذاته، إذ تخرج على الشيخ ماناشو ، فامتزج الميل البلاغى فى نفسه بميول عواطفه الغريزية إلى الجمال والحب والأنس والمتعة ، فجرى فى مسالك الحياة بنور الشباب حتى كان كما يقول هو عن نفسه (١) . بسمة وجيع . ودمعة صريع ، يحرقنى البعاد ، وينهكنى السهاد ، وتعبث بى عين الريم، واهتز للحسن هزة الكريم . وأننى أومن بنفسى وما خلقت، وبغرامى وما أثار ، حتى يصل بى المقام إلى أن أردد قول بشار ، أنا فى شرعتى وحيد . فلما خالط الحياة قوى الاعتداد بفنه القولى وفنه الغرامى ، جاء شعره صوراً جميلة لانفعالات نفسه من الحياة الغرامية والمجالس الفنية ، على ديباجة جزلة الألفاظ متينة التراكيب مشرقة بالنسج الرفيع والطرز البديع . ومع كونه غزلى الروح الشعرية فإن تعلقه بالفن للفن ، كأستاذه ماناشو ، قد حبب إليه التنقل بين أفنان الأغراض فخاض الاجتماعيات ولكنه لم يؤت فيها ما أوتى فى الغزل من رقة المعانى وانسجامها ، فجاءت اجتماعياته مغسولة المعانى مضطربة الأغراض ، ولكنها برزت فى قوالب جزلة وتراكيب متخيرة ذات وقع جميل يزيده حسن اختياره للأوزان المنشطة ، وقوة فصاحته فى إلقائها .

---

(١) مجلة العالم الأدبى السنة الثالثة العدد ٢٠ .

المحاضرة السادسة

الإذاعـــــة

١٣٥٧ – ١٣٦٣

كما كان فتور الحياة السياسية فى الدور الماضى ، ممكنا لتغلب النشاط الفكرى والأدبى ، وسيطرتهما على الحياة العامة ، فإن النشاط السياسى الذى تبع حوادث التجنيس وحوادث الانقسام الدستورى ، قد جاء قاضيا بتضاؤل النشاط الفكرى ، فانقطعت الاجتماعات الأدبية وتعطلت المحاضرات وخفت صوت الشعر ، ثم إن امتداد النشاط السياسى إلى الحياة الشعبية ، بعد استقرار الانفصال بين الشقين . وامتلاك الدستور الجديد قياد الأغلبية ، وخروجه بالحركة الى المحيط الشعبي الواسع ، كان معطلا لنشاط الحركة الفكرية ، إذ انصرف الناس كلهم إلى الكفاح السياسى واندمجت نخبة أهل الفكر فى العنصر الشعبي .

وتضايق الحكم الاستعمارى، تضايقاً شديداً، من هذا التعاظم بالانتشار والتقوى بالالتحام ، فبدأ يعمل على قتل الحركة السياسية بالمصادمة والعنف والإرهاق ، من جمادى الثانية سنة ١٣٥٣ – سبتمبر ١٩٣٤ ، فلم تزد الحركة الوطنية بذلك الا اشتداداً واتسعت دائرة المظاهرات والمصادمات ، فضيقت حرية الصحافة ، وعطلت صحف كثيرة منها الإرادة والعمل والتونسى ، وحلت الأحزاب ، فزادت حركة التمرد الشعبي شدة وغليانا ، ونزل الطلبة الزيتونيون والصادقيون ، إلى ميدان العمل السياسى ، وتفاقم خطر

الاضطرابات فى الحاضرة وبلدان المملكة، واتسعت دائرة النشاط السياسى إذ خرجت عن حدود النظام الحزبى، وتطوع بالقيادة شبان ممن رجعوا حديثاً من فرنسا مستكملين دراستهم العالية، وحاولت الحكومة الفرنسية العدول عن خطتها، فابتدأت فى ذى الحجة ٥٥ - فبراير ٣٧ بإبدال المقيم العام، وإعـــلان العفو عن المبعدين، واطلاق الصحف المعطلة، والاعتراف بالأحزاب، ولكن حزب المعمرين الفرنسيين بتونس ثار فى وجه هذه التجربة حتى قضى عليها بالإخفاق، ولم يمض عليها أكثر من تسعة أشهر، فعادت الحركة الوطنية إلى سبيل القطيعة والتمرد والتصميم على التضحية وعلى تحرير الوطن التونسى بأيدى التونسيين ودمائهم، وانطلق الشبان، من طلبة المعهدين الزيتونى والصادقى، يعملون منادين لتطبيق هذه الخطة التى انعقد عليها مؤتمر الحزب الدستورى الجديد فى شوال سنة ١٣٥٦ نوفمبر ١٩٣٧ فدخلت بذلك الحركة فى طور العصيان المدنى والتصادم مع السلطة، وساد الاضطراب فى الطلبة، وأصبحت الصادقية مركز توجيه حركات الشباب بقيادة الأستاذ على البلهوان، وتوجهت الإدارة إلى هـذا الأستاذ بالتهديد فزاد ذلك الطلبة اضطراباً وإصراراً على موقفهم، ثم قررت فصله فأعلن الطلبة الاضراب وأغلقت الحكومة المعهد، وأضرب طلبة الجامع تضامناً مع طلبة الصادقية، وأضربت البلاد إضراباً عاماً، وتظاهرت الجماهير أمام دار السفارة الفرنسية فى ٨ ابريل، ودعى الأستاذ البلهوان من الغد الى دار المحكمة الفرنسية ليعتقل. وتظاهر الطلبة أمام المحكمة، فاصطدموا بأعوان الأمن اصطداما مدبراً، كوّن المقتلة التاريخية الكبرى، مقتلة ٩ ابريل، التى سقط فيها من الطلبة المتظاهرين نحو المائة قتيل، وخيم الحزن على البلاد واستمر الاضراب الشامل وحالة الفزع حتى أعلنت حالة الحصار، وألقى القبض على زعماء الحركة، ودخلت البلاد تحت الحكم العسكرى، فتوالت أعمال القمع والإرهاق، ودخلت الحركة الوطنية فى طورها السرى الرهيب، وتأصل القنوط والسخط والحقد الكمين، لشدة الإرهاق وفداحة

الاعتداء ودوس الكرامة الوطنية . فبعد ان كانت السياسة عملا ، صارت روحاً وعقيدة ، امتلكت مشاعر كل فرد من الأمه التونسية . فلم يبق فى نفس أحد مجال لدواعى العمل العقلى والإنتاج الأدبى ، وكان القمع الحامل على الهدوء بالقهر قد عكس الاضطراب الى دواخل النفوس ، وعزيمة التطلع الى المقاومة مع عدم التمكن منها قد كونت حماساً باطنياً مكبوتاً زادت فى حرارته جميع القرائح العلمية والأدبية والفنية . فتعطل الإنتاج تعطلا تاماً ، بسبب الركود النفسى الذى بلغ درجة الذهول لولا أن بارقاً نزل من علياء الاثير ، فألفت النفوس عن غير إرادتها إلى تعهد الناحية الأدبية منها ، هو صوت المذياع العربى .

كان المذياع معروفاً بتونس منذ شيوعه. ولكنه لم يكن رائجاً فى العائلات والنوادى ، الا فى عدد قليل من العائلات المترفة التى تستمتع بالموسيقى الغربية وحديث اللغات الأجنبية، إذ لم تكن تسمع فيه اللغة العربية إلا شيئاً قليلا من محطة الجزائر لم يكن التونسيون يأبهون به .

فلما تأسست محطة الإذاعة بمصر . أحس أهل الغيرة على انتشار العربية بارتياح نفسى عظيم إلى أن وسيلة من وسائل الانتشار والسلطان الأدبى . كانت الثقافات الغربية تصول بها على الثقافة العربية. قد تمكنت اللغة العربية منها ، فدخلت بها فى زحام مع الثقافات الأخرى يعتز العرب ويفخرون به ، وتنشرح نفوسهم لآمال السمو والعظمة التى ستنالها اللغة العربية من وراء ذلك.

فبدأت المذاييع تتكاثر فى العائلات العربية ، نزولا من ذوى الثقافة واليسار الى الطبقات الموالية ، وبدأ الناس ينعمون بالحديث الأدبى الممتع والمحاضرة العلمية المجدية والإلقاء الفصيح والفن الراقى، ولكن العوائق الفنية التى كانت تمنع من الاستماع فى وضوح وصفاء إلى محطة الإذاعة بالقاهرة ، بسبب مزاحمة محطات أخرى غربية اياها على الموجة ، قد ترك المشغوفين بالإذاعة العربية يتحرقون على تلك المصادفة الممقوتة ، ويثورون فى و

الزمان الذى لم يزل يعطى الغرب وثقافاته أسباب التغلب ، عن قصد أو عن غير قصد ، ثورة سجلها الزجال المصرى بيرم التونسى أحسن تصوير فى زجل بديع نظمه فى تونس ونشر فى الجزء الثانى من ديوانه ، ومع ذلك فإن هزة الشوق الى ذلك الصوت المحبب ، لم تزل تحمل الناس على الاصطبار وتملأ أحاديثهم تعاليق على ماسمعوا وما فاتهم ، وتدبيراً للحيل الفنية للفوز بالاستماع وتباصراً بها ، وتكاثرت المذاييع فى المنازل وانتشرت فى المقاهى فأقبل عليها من لم يكن يغشاها، ممن لا تتوفر لهم الوسائل للتحصيل على مذاييع ، وبخاصة الطلبة الزيتونيين ، فتحرك بذلك الركود الأدبى ، وتجددت بين أهل الأدب أحاديث التعليق والنقد، ومثارات المباحث العلمية والأدبية، وانتعشت الروح القومية المنكودة بهذا السبب الجديد من أسباب اتصال الأخوة العربية ، الذى امتد الى تونس متغلباً على عمل الاستعمار فى قطع المواصلات وازدهت بتلقى الاخبار عن حياة مصر الشقيقة الحبيبة ، حياة استقلال وكرامة ، فكم صفق الناس فى المقاهى والنوادى ، وكم استدعت العائلات أقارب وأصدقاء ، للاستماع الى ما تنقله الاذاعة ، عن افتتاح البرلمان ، أو عن محاضرة دينية فى الأزهر ، أو عن مجمع سياسى يخطب فيه أحد الزعماء. فكان ذلك يغيظ الحكومة ، ويشعرها بما ينطوى عليه من المغازى ، حتى أيقنت بأن صوت الإذاعة المصرية قد أصبح متعلق قلوب التونسيين ومناط أهوائهم ، وأنه بعث فيهم الروح التى كانت تبعثها الأحزاب والجمعيات بعد أن ظنت الحكومة إنها ماتت وقبرت .

واتخذت الدعاية الاستعمارية من جهتها أيضا ، هذا الطريق ، لإبلاغ صوتها فأنشأت إيطاليا حصص إذاعة عربية ، روجتها بالنشرة المتعلقة بها التى تعمل على جذب الروابط الأدبية من البلاد العربية نحو إيطاليا . وأنشأت فرنسا حصص إذاعة كذلك من محطة باريس ، ولكن الإذاعات الإيطالية كانت أقرب إلى مداخلة النفوس ، بسبب أن المزاحمة التى بين الأختين

اللاتينيتين ، كانت تدفع بالتونسيين دفعا فطريا إلى الميل نحو عدو عدوهم المباشر ، زيادة على تفوق الإذاعات الإيطالية من ناحية الإتقان الفنى والصناعى.

وبتظاهر هذه الأسباب ، بدأت تروج فى الأوساط الإدارية بتونس فكرة إنشاء محطة للإذاعة ، تنازع محطة القاهرة ومحطة إيطاليا مالها من الأثر على توجيه الرأى العام التونسى ، وبينما الفكرة تدرس والمباحثات تجرى بين تونس وباريس . أسرع رجال من أهل المال والمعاملات إلى استثمار هذه الفكرة ، بإنشاء محطات محلية صغيرة حرة . فأنشئت سنة ١٣٥٦ — ١٩٣٧ محطة بتونس ، وأخرى ببنزرت . وثالثة بصفاقس . ونشطت محطة تونس ومحطة بنزرته فى الإذاعة باللغة العربية . واستدعتا الأدباء والمفكرين ورجال الفن للإذاعة والاشتراك فى الإشراف على الإدارة ، فتحركت القرائح بذلك حركة نسبية . ووضعت بتلك المناسبة مشاكل دينية متعلقة بحياة الإذاعة استتبعت صدور تحريرات فقهية اشترك فيها كبار العلماء واشتغلت بها الصحف والمجلات العلمية . كمسألة قراءة القرآن فى الراديو ، ومسألة نقل الخطب والصلوات والدروس الدينية من المساجد ، ومسألة الاعتماد على خبر الصوم والفطر بطريق الإذاعة . وبدأ الإنتاج الأدبى ينتعش ويتلون بلون خاص بالإذاعة ، وظهرت صور حياة الإذاعة فى الشعر والنثر .

وقوى عزم الحكومة على تنفيذ فكرتها فى إنشاء محطة الإذاعة التونسية بما لقيت تلك التجارب الفردية من النجاح ، فتم إنشاؤها سنة ١٣٥٧ — ١٩٣٨ وأقبل الأدباء والشعراء والباحثون على إلقاء أحاديثهم فى الإذاعة فكانت برامجها الثقافية بالغة أقصى حدود الرقى ، وقد جعل الإشراف على الإذاعات العربية ، لأستاذ من أشهر الكتاب وأوفرهم إنتاجا فى الأدب والتاريخ ، هو عثمان الكعاك ، صاحب الملكة السامية فى التوجيه وابتكار مواضيع البحث ، إذ كان من أكبر عناصر النشاط والإنتاج فى حياة الجمعيات الثقافية .

ويعتبر اتصال النتاج الأدبى بالإذاعة بعد افتتاح المحطة الدولية الرسمية ، طوراً جديداً للحياة الأدبية ، أدخل عليها عوامل كيّفت حياة الشعر والنثر والخطابة العلمية تكييفا جديدا ، ويرجع تفصيل تلك العوامل إلى النقط الست الآتية .

* * *

١ — المكافآت المادية :

فقد كان الإنتاج الثقافى قائما على مجرد الهمة الأدبية والتضحية فى سبيلها. فلم تكن مقالات الصحف ولا المحاضرات ولا غيرها تفيد صاحبها أى جزاء مادى. فلما نظمت الإذاعة على أصل أن كل عمل له مقابل مادى، كان ذلك منشطا جديداً على الإنتاج ، إذ أصبح الأدباء يتوصلون بمجهود قرائحهم إلى التوسيع على أنفسهم فى الرزق من باب شريف لا يناله شؤم حرفة الأدب .

٢ — ضبط الخطط :

فبعد أن كان الأدباء يستلهمون من أنفسهم اختيار المواضيع وتأليف عناصرها فيبرزونها على الصحف أو على المنابر وقد انتظمت عناصرها غالبا بحسب تزاحمها على فكر الكاتب عند النظر أو التحرير ، أصبحوا يتلقون الاقتراح بها من طرف الإذاعة ويطالبون بتقديمها محررة قبل إلقائها، فيعينهم ذلك على ضبطها وتخطيطها قبل الشروع فيها ، فاصبح مظهر الانتظام والتسلسل ووفرة المادة الفكرية ، سائداً على أثارهم ، إذ أصبحوا يكتبون كما يراد منهم بعد أن كانوا يكتبون كما يريدون .

٣ — الايجاز :

فإن تحديد الأوقات وقصرها، كان ملزما لكل محاضر أن يجمع أطراف

موضوعه وأن يتجنب الانتشار والاستطراد ، وأن يودع كلامه أحسن القوالب اللفظية مطابقة لمقتضى الحال بالإيجاز . وبذلك اتسعت ملكة محاسبة الكاتب نفسه على تحرير مقاله باجمع الأساليب للإيضاح والاختصار .

٤ — التفنن فى ابتكار المواضيع :

فان ضيق المقام بسبب تحديد الحصة من جهة ، وكثرة الاستنفاد اليومى من جهة أخرى ، قد تلاقيا على تجزئة المواضيع على نقطها الدقيقة ، فبرزت مواضيع تفصيلية طريفة ، وخطرت فى الأفكار مواضيع من أثر إلحاح الدواعى فى تناول مايقتضيه البرنامج .

٥ — تكوين مناسبات التلاقى والتعاون بين الكتاب والأدباء وبين أهل الفن التمثيلى والفن الغنائى :

فقد مضى على الأدباء حين وليس لهم ناد يجمعهم . ولا طريقة تمكن بعضهم من الاتصال ببعض ، وكان أكثر منتجى الأدب لا تسمح لهم الأوضاع والفرص بالاتصال بدواخل الحياة الفنية ، إلا فئة قليلة معينة من الأدباء المتصلين بالحياة المسرحية ، إلا أن مشروعا أدبيا فنياً ، أنشىء قبيل إنشاء الإذاعة ، هو مشروع الجمعية الرشيدية وهى جمعية فنية راقية أحدثت لتشجيع الفن الغنائى التونسى وإحياء قديمه . وتكونت من هيئة أدبية تشرف على النقد والتصحيح والإنشاء ، وهيئة فنية تتولى التلحين وتشرف على صحة الإلقاء ، فاتصل بذلك مجهود الأدباء اتصالا وثيقاً بمجهود الملحنين والمغنين . واشترك الملحنون مع الأدباء فى إبداء مطالب فنهم ، فى نظم القصائد والتواشيح ، كما اشترك الأدباء معهم فى ابداء ملاحظ الذوق الأدبى والعربية الصحيحة على مايلحنون ويغنون .

فلما فتحت محطة الإذاعة ، سارت على هذا المنهج فى دائرة أوسع ، إذ

شملت من كانوا يتصلون بالرشيدية وغيرهم ، وعممت أسلوب التعاون على الفن التونسى والفن الشرقى على السواء ، فدعت الأدباء إلى تأليف قطع فى أغراض لتغنى فى ظروف مضبوطة بتعيين الحفلات والملحنين والمغنيين ، فأصبح كل من الشقين ، الأدبى والغنائى ، يشعر بأن عمله جزء من عمل تام يشترك فيه مع الشق الآخر ،وانتبه كل إلى مقتضيات صناعة الآخر ومقاييسها.

٦ — انتشار المستمعين

وهذه أيضا نقطة لها أهميتها العظمى ، إذ لا يخفى أن الخطابة العلمية كالخطابة العامة ، تتأثر تأثراً عظيما بحال المستمعين ، فقد يلقى الخطيب فى مجمع خاص كلمة أو فكرة لا يلقيها فى مجمع غيره ، وقد يعتمد على أن مدارك سامعيه تتطلب بسطا أو اقتضابا ، وأن فيهم من يقنع بالدون أو من لا يرضيه إلا كمال التحقيق ، فلما أصبح المحاضر يتكلم فى بيت ضيق مفصول عن الدنيا ، وهو يشعر بأن كلامه يدخل على المستمعين فى زوايا المنازل. فكلما استحضر فى ذهنه صنفا من أصناف الناس ،أو شخصا ممن يخشى بأسهم فى النقد ويرهب مقامهم فى المعرفة ، توقع انه أحد من يصغون إلى خطابه ، فتطلب الكمال المطلق . وأخذ بالاحتراز من كل جانب ، علاوة على أن هذا الانتشار قد أكسب المحاضرين شعورا بتزايد امتدادهم الأدبى ، إذ خرجت آثارهم عن حدود الحصر التى كانت تعيش فيها وسط المعاهد والنوادى .

* * *

وبهذه الأمور متلاقية ، اصطبغت الخطابة العلمية صبغة جديدة ، إذ تبسطت وسهلت ودقت وجادت قوالبها ، حتى التحقت بالنثر الفنى ، وسمت فيها روح التحقيق واستيفاء حق المواضيع، حتى التحقت بالنثر العلمى .

وإن كان هذا قد أفقد الخطابة العلمية براعة الارتجال ، كما أضعف فى الشعر روح الشخصية،إذ أصبح شعراء الإذاعة ينظمون مايطلب منهم ، لا ماتفيض

به خواطرهم ، فانصرفت قرائحهم إلى الصيغ والقوالب أكثر من المعانى ، وظهر على الشعر الاعتناء بالديباجة واصطناع البديع .

هذا وللإذاعة وراء ناحية المتكلمين ، ناحية أخرى . تطورت بها تطورا ميز هذه الحقبة من تاريخ الأدب ، وتلك هى ناحية المستمعين . فإن المذياع قد انتشر فى العائلات والمجامع الشعبية انتشارا مهولا ، فيقل أن تجد بيتا فى الحواضر جمع حاجياته الأكيدة وخلا من مذياع . ولم يبق مقهى ، كيفما كانت حالته ، ولا خان ولا منزل قوافل . فى المداشر والقرى ، وحتى فى مضارب الخيام ، إلا وتسمع فيه جعجعة المذياع ، فكان ذلك مبلغا صوت الأدب ودعوة الفكر وحديث السياسة ، إلى مناطق كانت منقطعة عن تلك النغمات انقطاعا مطلقا ، وفى البيوت ، حيث الأكثرية الغالبة من النساء غير متعلمات ، شاعت أصوات المذياع وكوّنت شغفا به وإقبالا على الاستمتاع بأغانيه وتمثيلياته ، وأحاديثه باللغة الدارجة . فهجمت بين ذلك الأحاديث الدينية والأدبية ، ووجدت المرأة داعيا طيبا للاستماع إليها والاستفادة مما تحيط به مداركها ، وتعلقت بمظاهر ماتسمع ، إما لروعة الحديث الدينى وبعد أثره فى نفسها ، أو لحسن منطق المحاضر الأدبى ، أو للاهتمام باسمه المعروف ، وكان هذا الاستماع فى أول أمره ، كما قيل .

ولم أفهم معانيها ولكن شجت قلبى فلم أجهل شجاها

إلا أنه بالتكرار والتعود ، وتحرك الهمة ، وغريزة حب المعرفة . بدأ المستوى يرتفع شيئا فشيئاً ، وبدأت الأسئلة تترى على المثقفين والمثقفات فى البيئات القروية والبدوية والمنازل العائلية ، حتى تعوّد المستمعون الإصغاء فى سهولة إلى الأحاديث التى كانت مستعصية عليهم ، وأصبح ما يأخذون منها أكثر مما يدعون ، وانتظمت العلاقة بين الحديث وبين المستمعين الذين رفعهم إليه من حضيض الجهالة .

أما من حيث اللغة فإن اللغة العربية الفصحى ، التى تلقى بها أكثر أحاديث الإذاعة

وأسماها منزلة ، لا سيما الأحاديث الدينية ، تختلف عن اللهجة العامية الدراجة بتونس ، كما تختلف اللهجات العامية عن اللغة الفصحى فى غير تونس من البلاد العربية . ويقرب الناس من المقدرة على الكلام باللغة الفصحى ، على نسبة بعدهم من الأمية ، ولم تكن ظروف حياة الأميين تسمح لهم بالاستماع إلى الحديث بالعربية الفصحى ، إلا فى الخطب الجمعية ، فكان ذلك يبعد بمفردات اللغة وتراكيبها عن الجريان على ألسنتهم ، وابن خلدون يقول :

« السمع أبو الملكات اللسانية » فلما شاعت أحاديث المذياع فى أوساط الأميين . كثر مرور الألفاظ والتراكيب الفصحى على أسماعهم ، فألفوها ، وارتقت المعانى النفسية التى يعربون عنها بارتقاء مستواهم الفكرى ، فتطلبوا المفردات لأدائها . فوجدوها فيما علق بأذهانهم من المذياع ، وبذلك بدأت المفردات العامية تتناقص والمفردات الفصحى تكثر . وصيغ النطق تعتدل ، حتى تطورت اللهجة العامية تطوراً عظيما ، اختلفت به اختلافا كبيراً عن لهجة الجيل الماضى ، وسمت به نحو اللغة الفصحى ، بصورة قرّبت جداً تحقيق الأمل الذى تسمو إليه همم المصلحين ، من تقريب اللهجات العامية من اللغة الفصحى وذلك من أمتن دعائم الوحدة العربية الكاملة .

كان هذا التطور فى الحياة الأدبية بأثر الإذاعة ، وشيكا أن يرد إلى الحياة الأدبية نشاطها فى ميادينها القديمة ، فإذا بقنبلة الحرب العالمية الثانية تنفجر فى رجب ١٣٥٨ — سبتمبر ١٩٣٩ فدخلت بذلك البلاد التونسية تحت الحكم العسكرى من جديد ، وعاودت حياة الخوف والضيق واللأواء أضعاف ما عرفتها فى الحرب العالمية الأولى ، وسيق التونسيون مجندين لإجابة دعوة النفير العام فمنهم من التحق بميادين القتال فى أوروبا ، ومنهم من بقى فى الجيوش المرابطة بخط مارث على الحدود الليبية ، توقعا لدخول إيطاليا فى الحرب . وما هو معروف من طمعها فى احتلال البلاد التونسية ، وبدأ نظام التقسيط يدخل على المعاش فانصرف الناس إلى معاناة الحياة المنغصة ، وهجمت جيوش

ألمانيا على فرنسا فى ربيع الثانى ١٣٥٩ — ١٠ مايو ١٩٤٠ فلما أوشكت أن تكتسحها وأنذرت حالة الدفاع الفرنسى بالانهيار، أعلنت ايطاليا الحرب على فرنسا فكانت القاضية ـ وأصبحت البلاد التونسية دار الحرب ومقر الفزع ؛ واضطربت حياة العاصمة التونسية تحت نذير القذف الجوى من الطائرات الإيطالية ، فخرج الناس على وجوههم لاجئين إلى البوادى ، وفارقوا حياة الرفاهية التى كانوا عليها ، فعرفوا شظف العيش وافـــتراق الشمل ونقص الأموال والأنفس والثمرات ، ولم تطل بهم هذه الشدة إذ استسلمت فرنسا لطلب الهدنة . فانعقدت فى جمادى الأولى ١٣٥٩ — يونيو ١٩٤٠ فارتفعت حالة الذعر وعاد أهل العاصمة ، وقد قروا عينا بالهزيمـة الفرنسية ، وزادوا ابتهاجا بما أوجبته معاهدة الهدنة من تنقيص عدد الجيش الفرنسى ، ورجوع أكثر المجندين التونسيين إلى الوحدات التونسية ، إذ التجأت فرنسا إلى إكثار عددها تعديلا للنقص الذى فرض على جيش الاحتلال . واستقرت بتونس لجنتان ، ألمانية وإيطالية ، لمراقبة تطبيق شروط الهدنة : فقضى ذلك على ما كان للفرنسيين على حظوظ البلاد من هيمنة مطلقة . ولـكن عداء انجلترا لحـكومة فرنسا المنهزمة ، قد تولدت عنه أزمة كبيرة بفقدان كثير من المواد الأولية ، بسبب المقاطعة الاقتصادية والحصار البحرى وانقطاع سبل المواصلات فى البحر المتوسط . فعاودت الشدة أهل المملكة التونسية ، لـكنهم قنعوا بالأمن وصبروا على الضيق ، وكان مذياع برلين يؤلف النفوس حوله بما ينطق به من تطاول وتهكم على فرنسا ، وما يحمل من أنباء الانتصارات الألمانية ، فتكوّن عطف فى الفـكر العام التونسى على قضية ألمانيا ، إذ كانت أقل دول أوروبا شأنا فى الاستعمار ، وغذت هذا العطف ذكريات عهد الموقف الألمانى فى الحرب العالمية الأولى إلى جنب الخلافة العثمانية ، وما عرف عن سياسة ألمانيا النازية من بغض لليهود وعزم على قطع أملهم فى فلسطين ، وما كان يصدر عن مذياع ألمانيا من تنويه بانضمام رجال من عظماء القادة فى العالم الإسلامى إلى ألمانيا ومناصرتهم سياستها . حتى بلغ الحماس مبلغاً متناهيا فى الاهتزاز فرحا وفخراً لانتصارات ألمانيا ، والتعلق بإذاعات برلين .

وفى وسط هذا الازدهار القومى ، أشرق على التونسيين نور جديد من أنوار الأمل ، وهبت عليهم ريح طيبة من شعور العز والكرامة ، بولاية الملك المقدس ، محمد المنصف ، عرش تونس فى جمادى الثانية ١٣٦١ — يونيو ١٩٤٢ ، لما عرف به من وطنية ، وما أظهر من تعلق بالخير وعطف على الشعب ونفور من الفرنسيين ، ولم تمض على ولايته خمسة أشهر كاملة حتى عادت البلاد التونسية إلى حياة الحرب والمصاعب ، إذ تركزت فيها الواجهة الحاسمة لحرب أوربا . فنى الوقت الذى نزلت فيه قوات الحلفاء على طول الساحل الشمالى لبلاد المغرب العربى ، من الدار البيضاء إلى الحد التونسى الجزائرى ، فى ذى القعدة سنة ١٣٦١ — ٨ نوفمبر ١٩٤٢ بادرت الجيوش الألمانية الراجعة متقهقرة بعد هزيمة العلمين ، باحتلال المطارين الرئيسيين فى تونس وبنزرت ، ثم توالى تلاحق عساكرهم وعتادهم ، بمختلف الطرق البرية والبحرية والجوية ، واستقرت قدم الاحتلال الألمانى الإيطالى فى منطقة العاصمة وما وراءها ، إلى أقصى الحدود الجنوبية ، وفى الشمال الشرقى إلى ساحل البحر وتقدمت جيوش الحلفاء من الغرب ومن الشمال الغربى ، فبلغت سلسلة الجبال الوسطى ، وأصبحت المملكة التونسية مقسمة إلى شطرين : تفصل بينهما خطوط النار .

وفارقت الجيوش الفرنسية عن آخرها ، العاصمة ، فانحازت إلى منطقة احتلال الحلفاء وبقى الملك والحكومة التونسية فى منطقة الاحتلال الألمانى الإيطالى ، فكان ذلك مبلغ الأمل القصى عند التونسيين ، إذ رأوا عاصمتهم خالية عن جيش الاحتلال ، ونزل السكان الفرنسيون والمعمرون وحتى المقيم وبقايا الموظفين ، عن أوج تطاولهم ، فكان ذلك أعظم باعث للاختيال بالعزة القومية ورافع للكابوس الذى كان نازلا على النفوس من إمعان المستعمرين فى الضغط والإرهاق ، وتعرضت العاصمة وجميع المدن إلى قذف جوى عنيف أكثر الخراب والفناء وقضى بالجلاء ، حتى إن مدنا كبرى ، كمدينة سوسه ، أصبحت خاوية على عروشها ، وشاعت فى العائلات المصائب

والأحزان ، وذاق الناس كلهم أمر الدواهى فى الغربة والتشرد والجوع والخوف وتلاشى المتاع والثروة وانقطاع طرق الاسترزاق ، ونزلت بوسط المملكة كوارث أشد هولا ، إذ أصبحت متداولة بين القوتين ومصادمات المصفحات ومنازلات الجيوش والمعارك الجوية تغاديها وتراوحها ؛ وانتشرت المجاعة بسبب تعطل استغلال الأرض وضيق نطاق المواصلات ، كما أصاب ذلك مناطق الاحتلال الألمانى ، للأسباب نفسها ، ودامت هذه الحالة قريباً من ستة أشهر ، فلم تنته هذه الشدة بعد أن بلغت مداها إلا فى ٨ ربيع الثانى ١٣٦٢ — ١٢ مايو ١٩٤٣ ولكن انتهاءها كانت إلى شدائد أخرى مست بالروح القومية مساساً بالغاً ، فإن رجوع الجيوش الفرنسية ضمن جيوش الحلفاء الظافرة ، ومراجل نفوسهم تغلى حقداً على العرب ، لما نالوا منهم بمظاهر الشماتة والازدراء ، قد كان عاملا فى فتح طور جديد من الإرهاق ابتدأ بخلع الملك وانتشار القتل بالحكم العرفى العسكرى ، وانتهى إلى محاولة قلب النظام تماما ، بتسيير الإدارة على طريقة الإلحاق المباشر والعدول عن طريقة إدارة الحماية، إلا أن هذا الإرهاق لما كان آتياً فى ظروف تختلف عن ظروف الإرهاق أول عهد الاحتلال فإن عوامل الصمود فى وجهه ، والتمرد عليه قد توفرت ، بصورة أبرزت موقف التونسيين فى وجه الاستعمار أحدّ مما كان عليه قبل الحرب ، فلم يلينوا ولم يهنوا ، بل أقبلوا على المحتل ينازعونه السلطة ، وعلى وطنهم يستلهمونه عظمة الخلد ، وبدأت الحياة الأدبية تعاود سيرتها الأولى ، فعادت الصحف العربية فور دخول الحلفاء العاصمة بصدور جريدة الأخبار عن مطبعة النهضة ، جريدة يومية ، ثم عودة الجريدتين اليوميتين ، الزهرة والنهضة ، واستئناف الإذاعات بمحطة تونس ، فى رجب ويوليو ٦٢ — ١٩٤٣

وبرزت لسكان المدن عظمة مدنهم ، وحببها إليهم التلاقى بعد الفراق ، فأقبلوا على تجديد المعالم وتنظيم الحياة الاجتماعية ، وكانت روح تجديد بناء المدن ومعالمها ، قد أكسبت المجتمعات حرارة القومية التى تصحب أطوار

تأسيس المدن ، وطول حنينهم إلى الديار قد ألهب فى نفوسهم شعلة الوطنية ، واختلاف الأطوار والأجناس التى تعاورت البلاد ثم ذهبت كغثاء السيل ، قد زادهم حباً لأنفسهم وإعظاما لشخصيتهم القومية ، فتطلعوا يطلبون لشخصيتهم مظهرها فى روابط الجامعة المستمدة من شعورهم بمقومات شخصيتهم الملية ، فاندفعوا نحو البلاد العربية الشرقية يستمدون منها غذاء الروح القومية ، مجدين فى اغتنام كل فرصة من فرص الاتصال ، فكانت زيارة الأميرين السعوديين ، فيصل وخالد ، فى ذى الحجة وديسمبر ١٣٦٢ — ١٩٤٣ مناسبة لمظاهرة ابتهاج حارة داوية بالهتاف ، لا سيما عند زيارتهما لجامع الزيتونة . وكذلك كان سفر وفد الحج الرسمى سنة ١٣٦٢ — ١٩٤٣ والسنتين بعدها ، على قلة عدده وضيق حريته فى السير والإقامة ، وصارت الإذاعات العربية من مصر ولندن ، محل الاعتناء والإقبال . وكثرت الاتصالات بمحطة لندن بالأسئلة والاقتراحات ، وأصبحت نشرتها « المستمع العربى » أكثر النشرات الأدبية الآتية من الخارج ، رواجا بالبلاد التونسية ، وكانت الدعوة إلى تكوين الوحدة العربية ، مركز الاهتمام ، والأعمال التمهيدية فى سبيل إنجازها ، مبعث البشائر ، حتى وضع أساس « جامعة الدول العربية فى بروتوكول الإسكندرية شوال ١٣٦٣ — سبتمبر ١٩٤٤ ، فأصبحت هى روح الحياة القومية ومحور الحركة الفكرية وغاية الاتجاه السياسى .

* * *

مظاهر النشاط الأدبى :

لم يكن للحياة الأدبية فى هذا الطور لون جديد ولا مظاهر متميزة ، ولم يظهر فيها كتاب ولا شعراء ولا خطباء غير الذين كانوا بارزين فى الدور الماضى فلسنا بمتوجهين إلى النظر إلى فنون النتاج الأدبى . ولا إلى تحليل المنتجين وطرائقهم ولكننا نكتفى بإلقاء نظرة عامة على مظاهر الحركة الأدبية ، وأغراض

الشعر والنثر ، نتبين بها الصورة التى تكيفت بها الحياة الأدبية عند استعادة نشاطها فى هذا الطور.

كانت حياة الأدب قد تركزت فى الإذاعة ، ثم لما جفّ تيارها بالتهاب الحرب وعاد بعد انتهائها ، عادت الحياة الأدبية إلى مركزها متأثرة بالعوامل التى شرحناها من أثر الإذاعة.

وعن الإذاعة تولدت حياة النشر الأدبى بعد الحرب العالمية الثانية ، بصدور مجلة « الثريا » فى ذى الحجة ١٣٦٢ — وديسمبر ١٩٤٣ . أصدرها الكاتب العام للإذاعات العربية ، الأستاذ نور الدين بن محمود ، وهو من الأدباء البارزين ، المتصلين بمختلف فروع حياة الفكر والأدب والفن ، وجعل مادتها مما يلقى فى الإذاعة من الدراسات الأدبية والتاريخية وقطع الشعر والنثر. وانتشرت هذه المجلة فى تونس وعموم المغرب العربى انتشاراً واسعاً ، ووصلت إلى الشرق ، فأكدت الصلات الأدبية . بين تونس وبين كثير من مراكز الإنتاج العلمى والأدبى . وانتعشت برواجها حركة النشر الأدبى فى البلاد التونسية ، فاستأنفت (المجلة الزيتونية صدورها . وأحيت نخبة من الأساتذة مجلة « المباحث » التى كان أصدرها ثم أبطلها منذ سنين الأستاذ محمد عبد الخالق البشروش ، فكانت سجلا لأرقى فنون النثر العلمى . وامتازت بإشراف نابغ من أساتذة اللغة العربية المتخرجين من الجامعة الفرنسية ، هو الأستاذ محمود المسعدى ، وبمنهج كتابته التى سارت على طريقة طريفة من النثر الفنى ، هى طريقة القصة الفلسفية الرمزية . وبدراسات هامة فى الأدب والتاريخ ، من أقلام بقية أسرة المجلة ، ومنها مقالات كثيرة تكتب بالفرنسية ثم تعرب .

وأصدرت جريدة النهضة فى المحرم ١٣٦٣ — يناير ١٩٤٤ عدداً أسبوعياً خاصاً بالأدب والتاريخ والأخبار العلمية باسم « النهضة الأدبية » يشرف عليها الأستاذ الطيب العنابى ، وخصصت الزهرة ركناً أسبوعياً لذلك ولكنها لم تبرزه نشرة خاصة كما فعلت زميلتها النهضة .

وسارت محطة الإذاعة على إقامة مهارج تذكارية وإذاعات ممتازة، ابتدأتها بمهرجان الذكرى التاسعة لأبى القاسم الشابى . ووالتها بمناسبة عيد الأضحى وزيارة الأميرين السعوديين ، وعودة الحجيج ، ورأس السنة الهجرية، وعيد المولد النبوى الشريف . وفى ٢٨ ربيع الأول ١٣٦٣ — ٢٣ مارس ١٩٤٤ أقامت مهرجاناً عظيما للذكرى الألفية لأبى العلاء المعرى ، افتتح باجتماع كبير فى المسرح البلدى القيت فيه الخطب والدراسات والقصائد ونقلته الإذاعة كاملا . ثم خصصت أسبوعاً لدراسة المعرى والإشادة بذكره .

وأصدرت مجلة الثريا عدداً ممتازاً حافلا مخصصاً بأبى العلاء ، كما أصدرت عدداً ممتازاً خاصاً بالحج والبلاد العربية ، بمناسبة سفر وفد الحاج ، فى ذى الحجة ١٣٦٣ — ونوفمبر ١٩٤٤ ، فكانت هذه الذكريات منشطة لحركة الأدب وموسعة لدائرة الدراسة ومسلطة روح الذكرى المجيدة والافتخار بالماضى والاعتزاز بالعروبة ، على أغراض الشعر والنثر ، حتى أصبحت روح المجد والنخوة والذكرى وحماسة القومية العربية ، روحاً سائدة على الفكر والأدب، لا يخلو عنها منطق شاعر أو كاتب ، ولا تنفصل عن مجمع ، مثقف أو أمىّ وقد جعلتها الإذاعة سمر الأسر فى البيوت ، وروح الجماعات فى النوادى .

وبانتشار الدراسة الأدبية ، وذيوع النشر الأدبى . عمت الملكة النقدية أهل الثقافة ، قراء الصحف ومستمعى الإذاعة ، وشاع فيهم التطلع إلى أرقى المثل فى الجودة الفنية ، وأصبحوا ينظرون إلى كثير مما كان يعجب به الناس من قبل ، من قوالب التعبير ، نظرهم إلى الساقط المبتذل، فحمل ذلك الكتاب على السمو بتحريرهم والتوفر على تجويده ، حتى يتوافق مع تطلعات القراء ، فاكتمل النثر من حيث صوغه ومتانة ديباجته ، وزال عن تحرير الصحف شيء كثير مما كان يعتريه من مظاهر الضعف والسقم والابتذال ، فسما فى حد الفصاحة وأشرق بسلامة التركيب ،

المحاضرة السابعة

الاصلاح الزيتونى

١٣٦٣ — ١٣٧٠

أثر انتعاش الروح القومية ، وارتقاء المستوى الثقافى ، بالأسباب التى أوضحتها المحاضرة الماضية ، أثراً قويا جداً فى التقريب بين مختلف العناصر التى تتألف منها الأمة التونسية ، فأصبح الإحساس القومى أقوى العوامل الشعورية فى إبراز ذاتية الفرد وبذلك تضاءلت عوامل التفرقة والتمايز بين عناصر الأمة ، سواء مايرجع منها إلى المنازل الاجتماعية أو مايرجع إلى المكونات الثقافية .

وما الإحساس القومى إلا إحساس كل فرد بما فيه من اعتداد بالمجد وفخر بالنسبة الإسلامية التى تعزز وجوده حين تربطه بوجود الملايين من أمثاله ، وتفرق بينه وبين القاهر المستبد ، وتبرز استمرار بقائه سيدا فى وطنه ، ثابت الكيان ، على رغم المساعى الاستعمارية التى تنازعه الأرض عاملة على محقه .

والفرد حين تثور فى نفسه هذه المعانى ، يتوجه بملاحظته إلى محل وجودها فى كل من يشترك معه فى هذا الانتساب القومى ، فيعظم فى نظره ابن ملته بعظمته هو فى نفسه ، ويتقمص كل منهما ذاتية أخيه ، فتلتحم الرابطة القومية ، وتتلاشى الفوارق وتتجه النفس الشاعرة إلى محل التلاقى ، فى معالم المجد القومى .

وإن أعظم معالم المجد القومى ، فى البلاد التونسية ، وأجمعها للمعانى التى تمثل عظمة الماضى وضمان الحاضر والمستقبل ، هو جامع الزيتونة . فإنه باعتبار كونه أعظم مساجد العاصمة يمثل قدسية الدين ، وباعتبار كونه أقدم مبانيها ، مضى على تأسيسه اليوم الف ومائتان وإحدى وستون سنة ، يمثل عراقة المجد ، وباعتبار كونه معهدا تعليميا ، يجمع علوم الملة ويخرج حفظتها ، يمثل عظمة الحضارة الإسلامية وسلطان الثقافة العربية ، فليس بدعا أن الأمة التى تحرك شعورها بالشخصية القومية واتصلت تلك الحركة فى نفسها بحركة الارتقاء الثقافى ، يتجمع تقديرها وإجلالها حول المعلم الشامخ الذى تتمثل فيه عظمة ماضيها ممتزجة بحياة ثقافتها ، فهى إذا أرادت التسلى عن أكدار حاضرها المؤلم باستعادة ماضيها السعيد ، اتجهت بها تلك الإرادة اتجاها ، شعوريا أو غير شعورى ، إلى جامع الزيتونة .

وهل يستطيع إنسان تحدثه نفسه اليوم فى مصر أو فى الشام بالانسلاخ عن محيط العصر الذى يعيش فيه ، والعودة إلى حياة البلاد فى ماضيها ، إلا أن يجد خياله قد حل به أمام الجامع الأزهر أو الجامع الأموى .

فإذا أضفنا إلى هذا أن النسبة الغالبة فى المثقفين بتونس إنما هى خريجى جامع الزيتونة ، أصحاب الثقافة العربية الصرفة . وإن منهم جميع معلمى اللغة العربية فى المدارس الحكومية والحرة ، وجميع رجال المحاكم الشرعية والعدول الموثقين والأكثرية الغالبة من حكام المحاكم الأهلية وموظفيها ومن المحامين ، ونسبة معتبرة من موظفى المصالح الإدارية . وإن أكثر الأدباء والكتاب والمحاضرين منهم ، وأن المدن الصغيرة والقرى . قد انحصر المثقفون فيها تقريبا فى الزيتونيين ، لتجمع ذوى الثقافة الغربية من الموظفين الكبار وأصحاب المهن الحرة فى العواصم الثلاث الكبرى ، تونس وصفاقس وسوسه ، زيادة على أن الصبغة الدينية التى لثقافة الزيتونيين ، تمكن من الارتباط بينهم وبين الطبقات الشعبية مالا يتمكن لذوى الثقافة الغربية ، ثم أضفنا إلى

ذلك أن سيطرة الفرنسيين على الإدارة وغلبتهم على الحياة الاجتماعية، كانت ترفع من قيمة المثقفين بثقافتهم من التونسيين، وتعوض لهم بأهمية الكيف مافاتهم من أهمية الكم ، وإن تزعزع نفوذ الفرنسيين ، بالاحتلال الألمانى وماتبعه ، قد كون للثقافة الفرنسية أزمة عظمى، فتعطلت مدارسهم، وانقطعت صحفهم ونشرياتهم ، وانسحبت جيوشهم وجالياتهم عن كثير من البلدان ، وأصبحت لغة الحاكمين غير لغتهم ، فأحس التونسيون جميعاً بأن ليست الثقافة الفرنسية فى البلاد إلا غريبة ، وأن ماكان يخيل إلى الناس اصالتها وأهميتها ليس الا وضعا عارضاً . هو رهن بالنفوذ الاستعمارى الذى يكافح التونسيون جميعاً فى سبيل التخلص منه. فبعث ذلك اعتزازا باللغة العربية والثقافة القومية، كان عاماً فى نفوس الوطنيين كلهم ، ولكنه كان أظهر فى نفس العنصر الذى ينتسب الى تلك الثقافة انتسابا أصلياً . فكون فيهم اعتزازا بأنفسهم ، وكون فى نفوس اخوانهم غبطة لهم ، واعترافا بقيمتهم ، كانت الأوضاع السابقة لظروف الحرب تحجبهما وتصرف عنهما ، فجاءت العقيدة الوطنية الصميمة تكشفهما وتبرزهما ، وبذلك صار اعتبار التعليم الزيتونى والزيتونيين أصلا من أصول الروح الوطنية ، ومظهراً من مظاهر ثورة التونسيين قاطبة فى وجه الاستعمار ، وتضحيتهم فى سبيل ذلك بالحظوظ الشخصية .

وكان الاستعمار الفرنسى ، من جهته، عاملا على تعزيز هذا التلاقى وتدعيم هذا التكتل ، فإن نقمة السلط الفرنسية ، العسكرية والمدنية ، على التونسيين قد كانت عامة ، واضطهادهم إياهم جاء شاملا لا يبقى ولا يذر ، وحيث اتحد الوطنيون كلهم فيما لقوا من جور الاستعمار بمجرد النسبة القومية العربية ، واجتمعوا فى السجون والمحتشدات ومواقف تنفيذ الحكم بالإعدام، بجامع وطنيتهم وعروبتهم ، بعد أن اجتمعوا ، مدة الحرب ، فى الملاجئ واتحدوا فى معاناة الحياة المضطربة ، فإن ذلك زاد فى تدعيم وحدتهم ، فكون فى ذوى الثقافة الفرنسية إباء من أن يشعروا بأن شيئاً مستمداً من المستعمر

وثقافته ، يميزهم عن إخوانهم فى الملة ويفصلهم عنهم ، فنفروا من الثقافة الفرنسية ، وسلخوا مؤثراتها عن أنفسهم ، وتقمصوا ما فى إخوانهم ، من روح الاعتزاز بالثقافة القومية .

ولما انحلت الحركة الوطنية المنظمة ، باضطهاد الزعماء السياسيين وحل الأحزاب وتضييق الرقابة على الصحف ومنع الاجتماعات . أتخذ الشعور القومى مجراه فى مظاهر الحياة الدينية ، فاحتمى بالمساجد ، وتدرع برجال الوعظ والإرشاد من العلماء الدينيين ، وأظهرت جمعية « الشبان المسلمين » نشاطا عظيما فى التوافق مع هذا الاتجاه الشعبي ، فنظمت مجالس التذكير فى المساجد ، بالعاصمة وجميع بلدان المملكة وقراها ،وأسست فروعا للمحافظة على القرآن الكريم ، بتنشيط الحفاظ وتنظيم الإملاءات،وفتحت دروسا ليلية لمبادىء القراءة والحساب وعرض الأفلام التثقيفية ، وأقامت المحاضرات ومهارج الذكريات الدينية فى العاصمة والمدن الكبرى، وكان رئيسها الشيخ محمد الصالح النيفر ، لاينفك متنقلا بين المراكز ، يتعهد نشاط حركتها ويغذيها ويوجهها ، وماجمعية الشبان المسلمين ، فى روحها ورئاستها وغلبة عناصر مسيريها ، إلا أداة الوصل بين الثقافة الزيتونية وبين الجمهور غير المثقف ، فكان نشاطها فى هذه الفترة من أقوى العوامل فى بروز عظمة الجامعة الزيتونية لنظر الرأى العام ، وتمهيد الطريق لمن ليس من خريجى تلك الجامعات الدينية العظمى ،لأن يتصل بروحها الثقافية .

فكان من طبيعة هذا ،مع ما انضم إليه من العوامل المتقدمة، أن يدخل على رجال التدريس بالزيتونة شعورا ساميا بعظمة مركزهم الاجتماعى ، وعظمة الرسالة التى يحتملون مسئوليتها ، لاسيما وقد أحسوا من التفاف ملك البلاد ، صاحب الجلالة محمد الأمين الأول ، أعز الله نصره ، إلى جامعتهم باهتمام وتنويه ، نطق بهما حضوره حفل افتتاح السنة الدراسية ٤٣ — ٤٤ والخطاب العظيم الذى ألقاه هناك ، مانجح نفوسهم وقوى عزائمهم على العمل فى تنظيم جامعتهم وتدعيم مركزها وإعلاء كلمتها ونشر رسالتها .

فتقدموا فى شوال ٦٣ — نوفمبر ٤٣ إلى الحكومة متذرعين بسوء وضعهم الإدارى ، وانحطاط مرتباتهم ، يطالبون بمنحهم حقوق الموظفين كاملة ، واعتبار تعليمهم تعليما رسمياً ، وحين قوبلوا بالتجاهل والمماطلة ، أعلنوا الإضراب ، فكان إضرابهم أول موقف من مواقف التحدى والمقاومة ظهر فى وجه السلطة الفرنسية بعد الحرب العالمية الثانية ، على شدة الضغط الإدارى وتكالب الحكم العرفى العسكرى ؛ واهتزت الحكومة لذلك ، فبذلت جميع الوسائل السلمية والإرهابية لحل الإضراب فلم تفلح . وسعت فى إصدار مراسيم ملكية بإجراءات استثنائية للقمع ، فامتنع جلالة الملك ، وهدد بالاستقالة ، وأقيمت مظاهرة شعبية كبرى ، أمام القصر الملكى بحمام الأنف ، لتأييد جلالته فى الموقف ، وتوالت مظاهر التأييد الشعبى لحركة المدرسين ، وأضربت الأسواق التجارية بالعاصمة . فكان ذلك مع مظاهرة حمام الأنف ، أول مظهر لانبعاث الكفاح الشعبى متأثراً بالروح الزيتونية ، واضطرت الحكومة إلى النزول عند رغبة المدرسين ، فصدر تصريح رسمى بترسيمهم على النحو الذى أرادوا . وعد ذلك انتصاراً عظيما لهم وللحركة الشعبية عامة ، قوى روح التمرد على السلطة الغاشمة ، وضرب للناس مثلا رائعا من انتصار الثبات فى الكفاح الشعبى على كل قوة من قوى الضغط والإرهاق ، وسرت فى الطلبة روح الاعتزاز بعظمة جامعتهم ، وشرف موقف أساتذتهم ، فأقبلوا يجددون قواهم . بتأليف الجمعيات وتكوين المؤسسات الطالبية ، فتكونت فى صفر ١٣٦٣ - وفبراير ١٩٤٤ جمعية « مكتبة التلميذ الزيتونى » ، ثم جمعية التواد الزيتونى » التى انقلب اسمها بعد إلى اسم « الإخوان الزيتونيين » ، وبدأت كل من الجمعيتين تعمل فى تنظيم الطلبة وابتكار الوسائل لترقية مستواهم الأدبى ؛ وتنمية مظاهر وجودهم الاجتماعى ، وكان تسيير هذين المشروعين بأيدى الطلبة أنفسهم .

وحين اطمأن المدرسون إلى ما تم لهم من النصر الباهر ، فى تثبيت المركز الإدارى المتين لهم ولجامعتهم ، التفتوا إلى توحيد صفوفهم ، وتنظيم حياتهم الجامعية بصورة تعينهم على حسن الاضطلاع برسالة التثقيف

والهداية ، فقرروا فى صائفة ١٣٦٣ – ١٩٤٤ عقد مؤتمر للمدرسين ، سموا رئيس هيئته الشيخ محمد الشاذلى بن القاضى وأمينها العام الشيخ محمد الصالح النيفر ، وانعقد المؤتمر فى شوال وأكتوبر فانتهى إلى وضع برنامج مفصل لخطط إصلاح التعليم ، انعقد اجماع المدرسين عليه ، واتفقت كلمتهم على مطالبة مشيخة الجامعة والحكومة بالشروع فى تنفيذه . كما اتفقوا على أن الواجب يقضى على الشيخ الطاهر ابن عاشور ، الذى كان اعتزل منصب المشيخة سنة ٥١ - ٣٣ - بأن يعود إلى منصبه القديم ، وقوبلت هذه الرغبة بالتأييد من طرف جلالة الملك ، وكان شيخ الجامعة إذ ذاك ، الشيخ صالح المالقى ، نفسه ، مقتنعاً بوجوب تنفيذها .

وعقدت الحكومة مجلساً للنظر فى برامج الإصلاح التى طالب بها المدرسون فى ذى القعدة ١٣٦٣ – نوفمبر سنة ١٩٤٤ ألفته من العلماء وكبار الموظفين ورجال الثقافة ، فكان اتجاهه مؤيدا لتلك البرامج ، إلا أن العراقيل الإدارية عطلت تلك النتائج دون البروز فى القالب القانونى النهائى .

وفى ربيع الأول ١٣٦٤ - وفبراير ١٩٤٥ سمى الشيخ الطاهر ابن عاشور شيخاً للجامع الأعظم وفروعه ، فتلقى المدرسون والطلبة وعموم الخريجين والرأى العام التونسى تلك التسمية بأعظم الابتهاج ، وابتدأ أثناء تلك السنة الدراسية فى تطبيق الإصلاحات ، التى كان ينادى بها من زمان بعيد ، حتى انعقد عليها الإجماع فى مؤتمر المدرسين ، وكانت الإدارة الفرنسية تنظر إلى هذا العزم بعين الإنكار ، وتبث فى سبيله ما تستطيع من العراقيل ، ولكن شيخ الجامع تقدم ، يؤيده جلالة الملك وتناصره العائلة الزيتونية بأسرها ، ينجز مراحل الإصلاح ويقوى الروح الزيتونيـــة ، ويضع الحكومة من انجازاته وابتكاراته ، أمام الأمر الواقع .

وكان أهم هذه الأعمال ، وأبعدها أثراً فى نشر الروح الزيتونية ، أن المعهد الزيتونى بتونس الذى يشتمل يومئذ ، على ثلاثة آلاف طالب ، بين

طلبة التعليم العالى وطلبة التعليم الثانوى ، قد كان له فرع واحد بالعاصمة ، وخمسة فروع فى بلدان المملكة ، وكانت فروع بلدان المملكة إسمية ، مفصولا بينها وبين الاتصال المباشر بالإدارة العليا بالعاصمة التى هى «مشيخة الجامع الأعظم وفروعه » فكانت إدارة الفروع محلية ، وأساتذتها محليين لا اتصال بين مختلف مراكزهم ولا اندماج لهم فى هيئة المدرسين بالعاصمة ، وكان ذلك قاضياً على تعليم الفروع بالفتور المتناهى ، فلما ولى الشيخ ابن عاشور المشيخة بادر إلى القيام برحلة تفقدية فى الفروع كان لها أثر عظيم فى الروح الشعبية ، سجلته القصائد والخطب والمقالات .(١)

واشتدت الحكومة فى مقاومة هذا الارتباط فغلبت ، ونمت حياة التعليم بالفروع، وانشئت فروع أخرى كثيرة ، فعمت المملكة التونسية وتجاوزتها إلى الجزائر ، وتكاثر عدد الطلبة ، حتى لم ينته الدور الذى ندرسه اليوم من تاريخ الحركة الفكرية بتونس . إلا وعدد طلبة الجامعة الزيتونية ، أصلا وفروعاً ، يتجاوز عشرين ألفـــاً . وعدد فروعها بتونس والجزائر خمسة وعشرون .

وليست هذه المحاضرة بمتسعة للإلمـــام بمراحل التطور فى الحياة الزيتونية التى تمت فى هذه السبع السنين ، ولا مواقف الكفاح التى حفت كل مرحلة من المراحل بسبب ما وضعت الإدارة الاستعمارية فى كل مرحلة من السدود والعوائق ، ولكننا نكتفى بالإشارة إلى أن الثبات فى وجه تلك العراقيل والنجاح فى إنجاز نقط البرنامج الذى أقيمت عليه الحياة الزيتونية الجديدة ، قد زاد سلطان الحياة الزيتونية على الروح الشعبية مكانة ورسوخاً. فأصبحت الجامعة الزيتونية محل اعتناء العناصر الشعبية كلها ، ومركز التفاف جميع المنظمات القومية ، تعمل على مناصرتها وتبرز إلى الجمهور تحت اسمها .

وكانت الجمعية الخلدونية ، بما سبق بيانه من اتصـــال روحها بالروح

---

(١) المجلة الزيتونية عدد ٣،٢ المجلد ٦

الزيتونية منذ نشأتها، أسبق الجمعيات الوطنية إلى تأييد حركة الزيتونة وشد أزرها، ففي ذي القعدة ٦٤ – وفبراير ٤٥ أقامت حفلة لاقتبال الشيخ ابن عاشور بمناسبة عودته إلى المشيخة. خطب فيها رئيسها الشيخ عبد الرحمن الكعاك، مؤكدا عزم الجمعية على اتخاذ موقفها إلى جانب الجامعة الزيتونية لقطع المرحلة الأخيرة في سبيل تمكين الثقافة القومية من التطور والازدهار والسيادة وأقامت جمعية الزيتونيين، التي تجمع الخريجين من رجال القضاء الأهلي والإدارة والمهن الحرة، حفلا في ربيع الثاني ٦٤ – ومارس ٤٥، خطب فيه شيخ الجامع مجيبا الخطباء والشعراء فقال: «ما كان فخر جامع الزيتونة بشيوخ الشريعة وأساطين التدريس في عديد الأجيال، بأعظم من فخره بخريجيه، من كبار الوزراء وعظماء الكتاب ومشاهير الحكام والمحامين ورجال الصحافة والاقتصاد. فلنعقد العزم على خدمة شرفنا الأثيل الذي يمثله معهدنا الرفيع العماد، فنكون أحقاء بمجد بنوته، ونضمن له النجاح في خدمة الجامعة الإسلامية وبخاصة الأمة التونسية».

فكان لهذا الاجتماع أثره في إشاعة روح التكتل الزيتوني في نفوس المنقطعين عن الجامعة من أبنائها، على نسبة تساوي شيوع تلك الروح بين المتصلين بالجامعة من العلماء، وتؤكد ارتباط تلك الكتلة العائلية العتيدة، بالعمل الصالح في الحياة العامة.

واتجهت الصحافة الوطنية كلها هذه الوجهة، فصارت تعتبر العنصر الزيتوني في المجتمع التونسي، العنصر القومي النير المسئول عن العمل والتوجيه، واستجاب الزيتونيون والرأي العام إلى ذلك، فصـــارت جميع الندوات السياسية والوفود، لا تنعقد، ولا تسير إلا بهم، والمظاهرات لا تخرج إلا وهم في مقدمة قادتها.

وارتبط العنصر الشعبي من ذلك ارتباطا محكما بالتوجيه الديني، فسد بذلك الطريق على الدعوة الاشتراكية والشيوعية، التي كانت تتسرب إلى

العمال من باب الحركة النقابية ، ونفض جميع التونسيين أيديهم من الأمل فى تلك المبادىء الأجنبية ، وآمنوا بأن لا سبيل إلى تدعيم كيانهم الاجتماعى إلا بمنظمات مستمدة أصولها من روحهم القومية ومبادئهم المليه ، فتكونت الجامعة العامة للموظفين التونسيين منفصلة عن جامعة الموظفين التى كانت تجمع التونسيين وغيرهم على أصول اشتراكية مجافية لروح القومية . وتكونت نقابات مستقلة للعمال التونسيين كان ابتداء ظهورها بصفاقس بزعامة فرحات حشاد . وفى صفر ٦٥ — ٢٠ يناير ١٩٤٦ انعقدت بالخلدونية الجلسة التاريخية الجامعة التى التأمت فيها جامعة الموظفين مع جامعة نقابات العمال المستقلة تحت اسم « الاتحاد العام التونسى للشغل » على قاعدة الرابطة القومية والأصول الإسلامية . وأصبح الاتحاد العام التونسى للشغل فى روحه وتأسيسه ومبادئه العليا وأغلبية عناصر قيادته المركزيين والمحليين ، إسلاميا بل زيتونيا . ولما تم له النجاح بذلك والقضاء على الحركات النقابية المخالفة ، تكونت على مثاله جامعة النقابات الفلاحية ، ثم اتحاد الصناع وصغار التجار ، منتسبين كذلك إلى روح التوجيه الزيتونى ، وانعقد فى ٢٦ رمضان ١٣٦٥ — ٢٢ أغسطس ١٩٤٦ المؤتمر القومى العظيم « مؤتمر ليلة القدر » جامعاً لكافة العناصر الوطنية على اختلاف الأحزاب والكتل . فأعلن المطالبة باستقلال البلاد استقلالا تاما وانضمامها إلى جامعة الدول العربية ومنظمة الأمم المتحدة ، وكان العنصر الزيتونى بارزاً بين مكونى المؤتمر ، وزاد بروزاً حين اعتقلت طائفة من المؤتمرين بتهمة التآمر على أمن الدولة الداخلى والخارجى ، فكان فيهم ممثل الزيتونة ، وقامت المملكة كلها احتجاجا فى وجه ذلك الاعتقال بالإضرابات التى شملت جميع التجار والصناع والعمال والموظفين ، وإعلان الامتناع عن اتخاذ مظاهر الزينة يوم عيد الفطر ، وامتناع جلالة الملك من عقد الموكب الرسمى تضامنا مع الأمة فى إعلان أسفها .

ومن يومئذ انطبعت الروح الشعبية فى تونس بطابع مصوغ من مادة الروح الثقافية للجامعة الزيتونية وهى مادة الرابطة القومية الواسعة والحرص على الالتئام مع الأمم الإسلامية الشرقية وبخاصة الأمة العربية. فأصبح الاتجاهان السياسى والثقافى يسيران على خطة واحدة ، هى خطة طلب الذاتية القومية التونسية لمقوماتها التونسية ومقوياتها فى الاندماج فى العالم العربى .

وأصبحت الجامعة العربية باعتبار ناحيتها الثقافية والسياسية ، الغاية التى يتجه كل عمل فكرى أو اجتماعى فى تونس إلى تحقيقها ، ففى ربيع الأول ١٣٦٥ يناير ١٩٤٦ أسست الجمعية الخلدونية معهدا للدراسات العالية باسم « معهد البحوث الإسلامية » يصرح نظامه الأساسى بأن غايته : « بعث روح الثقافة الإسلامية وقيادة ذوى الثقافة إلى الشعور بوحدة العالم الإسلامى وعظمته ، والوقوف على حقائقه الوجودية ، وتكوين الاستعداد لدراسة حرة لا تتأثر بالظروف العارضة ولا بالتيارات الخارجية فتستوحى سيرها من المعارف التاريخية والجغرافية المستندة على الأصول الصحيحة المتمشية مع روح الجامعة الإسلامية الكبرى . » وأقيم منهجه الدراسى على اعتبار العالم الإسلامى مؤلفاً من أربع وحدات هى : الوحدة العربية ، والوحدة الهندية ، والوحدة الطورانية ، والوحدة الإيرانية ، فكانت محاضراته تتناول المسائل السياسية والثقافية والاقتصادية وتدرس أوضاع البلاد المندرجة فى كل وحدة من الوحدات الأربع ـ وتدرس المؤسسات والرجال ـ فكان عدد محاضراته فى بحر الخمس السنين التى بين تأسيسه ونهاية الحقبة التى ندرسها ، يتجاوز ٥٠ محاضرة فى كل دورة دراسية . توزعها أساتذة فيهم من القدماء ، عثمان الكعاك وعلى البلهوان ومحى الدين القليبى ومحمد الصحبى فرحات ومحمد الصالح المهيدى والطيب العنابى والصادق بسيس ومحمد الفاضل ابن عاشور ، ثم التحق بهم من الشبان الذين تخرجوا من المعهد نفسه فى دورتيه الأوليين محمد الحبيب بن الخوجه ومحمد العروسى المطوى .

وكان لهذا المعهد أثره العظيم جداً فى تقوية الروح القومية الواسعة

وتركيز دعوتها فى شباب الجامعة الزيتونية الذى كان أكثر عناصر الشباب إقبالا عليه ، وكانت حفلات افتتاح كل دورة وانتهائها ، مواسم مشهودة فى حياة القومية العربية فاض بها الروح الشعرى لقصائد الهادى المدنى والطاهر القصار ومصطفى خريف ومحمد زيد وطفحت بهـا الصحف الوطنية على اختلاف مشاربها ، والتأمت بها وحدة المثقفين حول روح العروبة على اختلاف صبغتيهم الثقافيتين .

وظاهرت الخلدونية هذا العمل بإنشاء « معهد الحقوق العربى » « ومعهد الفلسفة فلم يطرد نجاحهما لتزاحم الأول مع المعهد الرسمى الذى يتخرج منه حكام العدلية التونسية ومحاموها ، بعد أن قررت الحكومة توسيع نطاق دراسته بإضافة المواد التى كان مختصاً بها معهد الخلدونية ، ولاندماج الثانى فى مناهج التعليم الثانوى الذى أنشىء حديثاً بالخلدونية للتهيئة لشهادة البكالوريا العربية ، فإن للخلدونية من عهد تكونها ، معهداً ثانويا حراً يزاول فيه طلبة المعهد الزيتونى دروسا فى الرياضيات والطبيعيات والتاريخ والجغرافيا واللغات الأجنبية ، وكانت مناهج دراسته مقصورة على المرحلة الأولى من التعليم الثانوى . وتنتهى بشهادة رسمية تسمى «شهادة التحصيل على المعارف العملية»

وفى سنة ٦٦ — ٤٧ قررت الخلدونية إحداث شهادة جديدة تسمى شهادة البكالوريا العربية ، القصد منها تهيئة الطلبة للالتحاق بكليات التعليم العالى فى جامعات الدول العربية الشرقية وإمداد الجامعة الزيتونية بأساتذة مساعدين ، ونظمت تعليما ثانويا عصريا كاملا باللغة العربية ينتهى بالإحراز على هذه الشهادة .

وبشيوع هذا التوجيه أقبل الطلبة على الالتحاق بالبلاد الشرقية لاستكمال دراستهم العالية باللغه العربية « وساعدتهم الجمعية الخلدونية على ذلك ، وابتدأ التحاقهم بجامعات سوريا ومصر والعراق من سنة ٣٦٦ — ١٩٤٧ فكانوا فى أول الأمر جمع قلة واطرد عددهم فى نمو حتى تجاوز اليوم المائة .

ووفاء بعهد التعاون بين الزيتونة والخلدونية أحدثت الجامعة الزيتونية

سنة ٦٦ – ٤٧ لمعاهدها الثانوية مناصب تدريسية خاصة بالرياضيات والطبيعيات والتاريخ والجغرافيا والفلسفة ينتخب لها متولوها بطريق المناظرة بين خريجي الخلدونية ، ثم قررت تكوين ارساليات على نفقتها للتخصص فى هذه المواد بجامعات الشرق العربى ، فارتبط بذلك التعليم الثانوى فى تونس بالتعليم العالى فى الشرق وفتح باب التخرج فى العلوم العالية باللغة العربية ، بعد أن كان مقصوراً على الذين يلتحقون بالجامعات الفرنسية بعد مزاولة التعليم الحكومى بتونس ، وانتظم تطور التعليم الزيتونى تطوراً وصل بينه وبين روح العصر مع الإبقاء على مميزاته القومية ، وتمت للطلبة الزيتونيين وسائل استكمال عدتهم الثقافية بالجمع بين دراسة اللغة العربية وبين الدراسة العصرية بأداة الثقافة القومية التى هى اللغة العربية ، فقوى فيهم الاعتداد بأنفسهم وقوى فى الأمة الاعتداد بهم واتساع الأمل فى مستقبلهم والازدهاء بالاستغناء بهذا الارتباط الثقافى بالشرق عن الالتجاء إلى الاستعانة بفرنسا فى تكوين النهضة الثقافية العصرية ، وتعاظمت همة العائلة الزيتونية الملتئمة من مشيختها وأساتذتها وطلبتها وربيبتها الجمعية الخلدونية ، بما تمكن لها من وسائل النهوض المنشود التى أعانتها على ما كانت تطمح إليه من الوفاء بواجب أداء رسالتها العصرية فى ظل الثقافة الإسلامية التى هى روحها. وشعرت بعظمة امتدادها ومتانة الرابطة التى وصلتها بالعالم الواسع الذى تحن إلى الاتصال به من طريق العروبة والإسلام .

وكان الأمل القديم الذى يغذى نفوس الزيتونيين ، هو أن يقيموا لهذه الرابطة مظهراً قويا يعززها ويسمو بها ، بعقد مؤتمر علمى بتونس يتناول نواحى الثقافة الإسلامية ويشترك فيه ممثلون للبلاد الإسلامية شرقا وغرباً من العلماء والمفكرين والكتاب ومندوبى الجامعات والمنظمات الثقافية . وانتدبت الخلدونية لتحقيق هذا الأمل فقررت سنة ٦٧ – ٤٨ الدعوة إلى عقد مؤتمر اسمه «مؤتمر الثقافة الإسلامية» يكون انعقاده بتونس فى ذى القعدة ٦٨

وسبتمبر ٤٩ . ووجهت الدعوات فى نطاق واسع جدا وشكلت للمؤتمر هيئة مثلت فيها جميع عناصر المثقفين بتونس ، تحت رئاسة الشيخ محمد المختار ابن محمود وكيل شيخ الإسلام الحنفى . وأعدت للمؤتمر مناهج عمل راقية دقيقة ، وكان أملها أن يكون ذلك المؤتمر تاج الانتصار لتمكن الصبغة القومية من روح الثقافة التونسية ، وبذلك نظرت إليه الحكومة فصوبت نحوه المدمرات على نسبة تلك الأهمية ، وإذا كان المؤتمر قد انعقد فعلا فى ميعاده ونال حظا عظيما من النجاح ، فإن شيئاً عظيما جدا من البلبلة والفشل قد أحاط به وبنتائجه حتى كأن مواكبه الباهرة كانت توديعاً لذلك العهد السعيد من التفاف الأمة حول نهضة الثقافة الإسلامية .

إن سير الإصلاح الزيتونى قد كان شجى فى حلق الاستعمار ، لأن اتجاه السياسة الاستعمارية منذ احتلال فرنسا لتونس، إنما كان لغاية معروفة، هى سد أبواب التطور فى وجه الثقافة القومية، ومنع اللغة العربية من أن تكون أداة النهضة الفكرية ، حتى إذا ألحت عوامل التطور والنهضة على المجتمع التونسى لم يجد لها سبيلا إلا من الثقافة الفرنسية واللغه الفرنسية . فصارت تونس بذلك مرتبطة ارتباطاً دائماً بفرنسا يجعل حاجتها إليها وتعلقها بها ضربة لازب.

وقد أوضحت المحاضرات الماضية أنه كلما اطمأن التونسيون أو بعضهم إلى مظهر من مظاهر ارتباطهم الثقافى بفرنسا ،جاءت ظروف اليقظة القومية المنبعثة من شعور الأمة التونسية بشخصيتها وتعلقها بجامعتها القومية ، قاضية على ذلك الاطمئنان ، وصارفة وجهة الوطنيين التونسيين عنها ، وأن بروز فرنسا للتونسيين بوجهيها ، وجه الديمقراطية والاشتراكية يبسم للإنصاف والتفاهم والتعاون ، ووجه الاستعمار يقسو فى غلظته ،فينفر من الاقتراب منه ، قد جعل حياة التونسيين مع الفرنسيين بين كروفر ، لايقبلون على النظر إلى أحد الوجهين حتى يحملهم النظر إلى الآخر على الفرار .

فلما جاءت الحرب العالمية الثانية بما أعقبها من الأحداث ، قابلتهم فرنسا بوجه واحد كالح متجهم لا مجال فيه للابتسام . فصدوا صدودا باتاً ورجعوا إلى أنفسهم فتكتلوا حول ثقافتهم القومية ، ونفض المدرسيون أيديهم من الثقافة ، ونفض العمال أيديهم من الاشتراكية ، ونفض السياسيون أيديهم من الديموقراطية ومبادىء حقوق الإنسان ، وثاروا ثورة رجل واحد يحمون كيانهم ويستردون سيادتهم مستندين إلى العالم الذى تربطهم به ثقافتهم القومية .

فلم تجد فرنسا لها فى مقاومة هذه الثورة الجامحة سبيلا إلا أن تتربص بهم الدوائر وتتصيد الفرص لتضعف فيهم روح التكتل بفصلهم عن مدد الثقافة القومية الذى هو لحمة الاتحاد . فكانت تطاولهم منتظرة من سير الزمان أن يمكنها من أزمة يقع فيها الاتحاد الشعبى فتهتبلها .

فلما سمت النهضة الزيتونية إلى أوجها بالدعوة إلى عقد مؤتمر الثقافة الإسلامية ، أخذت الحكومة تبرز من مطالب المدرسين التى كان أيدها مجلس الإصلاح ماهو راجع إلى الحقوق المادية من مرتبات ومنح وضمانات للوظائف حتى تبدو مطالب الزيتونة مطالب مادية فتفتر حرارة تعصب الرأى العام للقضية الزيتونية وينفض الناس عنها انفضاضهم عن كل أمر مادى من شأنه أن يثير الحزازات والفروق ويقضى على روح التكتل التى لا تسير إلا مع المعانى الأدبية السامية .

وبدأت جذوة هذه الفكرة تتقد ، والصحف الاشتراكية تنفخ فى ضرامها ، بروح النقمة التى امتلكتها من انفصال الحركة السياسية عن الحزب الاشتراكى وتوغل التونسيين فى النزعة القومية ، ومن إفلات قيادة الحركة النقابية من يد الاشتراكيين ، ومن استحكام روح العداء لليهود بالحماسة لقضية العرب بفلسطين ومقاومة الصهيونية والثورة على قرار التقسيم ؛ ومن اليهود أبرز عناصر الحزب الاشتراكى بفرنسا وبشعبته بتونس كما هم فى العالم كله .

وتحسست الحكومة أثر هذه المكائد فبدأت تعمل على نصب العراقيل فى سبيل حركة الإصلاح الزيتونى ، بمقاومة إنشاء الفروع والتضييق فى الاعتمادات المالية ومنع الأساتذة التابعين لإدارة المعارف من إلقاء الدروس التى كانت تنتدبهم لها الجامعة الزيتونية والخلدونية ، والامتناع من منح تأشيرة الدخول للأساتذة الذين انتدبوا من مصر حتى أحاط بمشيخة الجامع عجز قاهر عن المضى فى إنجاز الإصلاحات . فأعادت الحكومة جمع مجلس الإصلاح فى المحرم ١٣٦٩ مارس ١٩٥٠ لتعقب ما كان قرره فى سنة ٦٤ - ٤٥ على أمل أن الظروف العامة والتركيب الجديد للمجلس يقضيان بتخاذل وتراجع ينقض بهما مجلس الإصلاح غزله . وأحس الطلبة الزيتونيون بأن قضيتهم قد أحاط بها الخطر وأن اطمئنانهم القديم إلى ما كان يحمى مصالحهم من تساند القوى الشعبية والرسمية قد انقطعت أسبابه . فتقدموا إلى الدفاع عن مصالحهم بأنفسهم ونظموا حركة طالبية قوية أسسوا لقيادتها هيئة باسم « لجنة صوت الطالب الزيتونى . ودخلوا فى كفاح مع الحكومة عنيف المواقف ، نشأت منه مصادمات بينهم وبين كثير من العناصر الوطنية بسبب مادب بين الفريقين من عقارب السعايات ، وتوصل الطلبة بكفاحهم المرير إلى الانتصار وقبلت بعد عناء مطالبهم ، فصدرت المراسيم بإحداث بناية جامعية كبرى لإيواء التعليم الزيتونى ، وأنشئت شعبة العلوم العصرية وأحدث لها شهادة تهيء للتعليم العالى بالشرق وتقررت الإرساليات الزيتونية ، إلا أن هذا كله لم يدفع ضرر ما اتصل به مما أصاب الحياة القومية من انشقاق قواها وإحجام كثير من العناصر الوطنية عما كانت مندفعة فى سبيله من مناصرة هذه الحركة وإحلالها محل الكرامة والفداء . وبذلك ابتدأ طور جديد فى تاريخ الحركة الفكرية ، هو طور الساعة الحاضرة الذى تقف بنا عنده هذه المحاضرات .

مظاهر التطور الأدبي :

إذا كانت الحقبة التي ابتدأت بنهاية الحرب العالمية الأولى قد سميناها فترة الأمل ، فإن هذه الحقبة التي تبتدىء بنهاية الحرب العالمية الثانية هي فترة النجاح والانتصار ، فجميع التيارات الفكرية والأدبية التي نشأت في تلك هي التي استرسل سيرها وقوي انصبابها في هذه الحقبة . فجميع عوامل اتساع الأفق الأدبي والسمو الفكري والعاطفي والروح القومية المحققة للتجاوب المنسجم بين النتاج الأدبي وبين التلقي العام ، قد قويت واستحكمت وتلاقت مع العوامل التي تلاحقت عليها من طموح الشباب وانتشار الثقافة بالإذاعة ، وما تولد عنهما من العوامل ، فنمت وزكت وبلغت أوجها .

ثم جاء انتشار روح القومية وتحقق الآمال القديمة في عز العروبة وسيادة ثقافتها ، ملهما الاعتزاز والفخر والحماس ، فانطبعت به الطرائق الأدبية في الشعر والنثر والخطابة .

وإذا كان أعلام النثر السياسي الذين سادت أقلامهم في هذه الحقبة هم الذين أمسكوا بزمام الزعامة في هذا الفن في الأدوار الثلاثة الماضية ، فإن أغراضهم وأساليبهم قد اكتسبت في هذا الطور من نخوة الانتصار وقوة الثقة في المستقبل وقوة الاعتزاز بتحقق ما جاهدوا في سبيله أمورا ظهرت في تكييف دعاويهم وبراهينهم بالوضوح والانسجام ووصل الحجة المنطقية بالدليل الواقعي ومزج الفكرة السياسية بالروح الحماسية القومية . وإذا كان للنثر السياسي في هذه الحقبة مظهر جديد في غير أعلامه المعروفين وطرائقهم من أمثال ابن الحسين والمنستيري والقليبي ، فإنما هو ظهور كاتب جديد ملأت آثاره الأفق السياسي بما بدا عليها من شباب الروح وشباب الفكر وشباب الأسلوب ، هو الطيب العنابي الذي حرر في كثير من الصحف الوطنية واختص بتحرير سوانح جريدة النهضة عهداً طويلا فكانت روحه القومية وثابة إلى الشرف والحق وصدق الموقف ، وفكره نزاعا إلى الحجة

المادية التى لاغبار عليها وبيانه معتمدا على الإقناع الواضح والنكتة الجميلة والتهكم القوى المنال والاسترسال العقلى المحكم فى عناصر الموضوع ، مع طرافة المواضيع ودقتها ، وصوغ الجمل المترابطة الملتحمة . سهلة سائغة يخيل إلى مطالعها أنها نزلت إلى مستوى الحديث العادى وهى متمسكة بسليم العربية ومرتوية من صميم آدابها . على براعة فى اختيار الألفاظ البديعة التصوير وحكمة فى تصريف المواد والاشتقاق منها كثيرا ماتجعل محور الفكرة مرتكزا على كلمة مرتجلة جريئة الاشتقاق تقوم بذاتها فى تصوير روح المقال .

وسما النثر الفنى سموا واضحا إذ كثرت آياته فى المجلات والصحف حتى دخل طور الشعر المنثور .

أما الخطابة الاجتماعية فإن ما أتيح لها من الأغراض والمناسبات فى المجامع الدينية والسياسية والنقابية . قد وفر مادتها وأبرز مواهب رجالها ومكن لهم من امتداد النفوذ مالم يتمكن للخطباء من قبل . وإن الذى يعتبر ظهوره بارزا فى هذا الطور إلى جانب البارزين من قبل فى الخطابة الاجتماعية بالعربية الفصحى ، هو محمد الصحبى فرحات الذى ظهرت قيمته الخطابية السامية فى الحياة النقابية فكان يرتجل الخطب الطويلة النفس الصحيحة المعانى والأساليب القوية الروح البعيدة الأثر فى التوجيه ، فيدخل بها عشرات الآلاف من المستمعين تحت سلطان الدين والقومية الصميمة ويدفعهم إلى استلهام المثل العليا لحياتهم من الماضى الإسلامى وروح العروبة الطاهرة بما يضرب من الأمثال ويقيم من الشواهد التى ترفع الأميين إلى مدارك المثقفين ، فكان بخطبه الرنانة روح المبادىء القومية الإسلامية التى تكون عليها الاتحاد العام التونسى للشغل .

والذى ظهر بارزا فى ميدان الخطابة الدينية الجمعية هو الشيخ محمد الشاذلى ابن القاضى الذى كانت خطبه بجامع حموده باشا تثير الحماس وتسيل العبر وتبعث العقيدة الدينية الصميمة فى النفوس ، وكان لها أثر قوى فى تمكين

الروح الدينية من السيطرة على النهضة القومية حتى أسرعت الحكومة إلى فصله عن وظيفة الخطابة لما عرف من بعد مدى تأثيره فيه .

وكذلك وجدت الخطابة العلمية مجالها الواسع فى نشاط المحاضرات بالخلدونية وقدماء الصادقية ومختلف منظمات الشبان التونسيين والجزائريين حتى بلغت الدراسة العلمية بالمحاضرات أسمى مقاييسها . وشاع فى الشباب ذوق المحاضرة العلمية وصقلت فيها ملكتها .

وأما الشعر فإن مادته الحماسية قد اكتملت فاكتمل فيه مظهر الجزالة والقوة وإسلاس التراكيب الفصيحة الفخمة وابتداع القوافى الأخاذة والمعانى العميقة والصور الرائعة ، وقد عاد إليه الهادى المدنى بعد طول الانقطاع ، وعلا فيه نجم مصطفى خريف الذى تركناه فى مشرقه قرينا للشابى ، فكان محور الإجادة الشعرية فى هذا الطور بين المدنى وخريف . فعاودته من المدنى عبقريته وقد اكتسبت من طول المران وخبرة الزمان ما سما بها إلى صف الفحول العالميين من شعراء المعانى ، ومن حسن الحاضر وبشائر المستقبل مابلغ بروحه الحماسية أشدها ، وظهرت من خريف حكمته التى دخلت من الحكمة الطبيعية النفسية إلى الحكمة الاجتماعية القومية ، فصيرت الطموح القومى فلسفة ثابتة الأركان وشعرا نير البيان . وظهرت قصائد هذين الفحلين فى صورة الملاحم القومية السامية الروح المتينة النسج الشريفة المعانى ، تأخذ من الأحداث وروح المجامع معانيها المجردة فتضطرد فى وصفها والإشادة بها وترفيع مغازيها الروحية السامية ، حتى أصبحت بحق روح الشعور القومى وصورة العالم المثالى المشرق ، الذى أضاءت بأنواره بصائر الداعين إلى القومية الكبرى ، وصدق فيها بلوغ الشعر فى هـــذه الحقبة أوج كماله .

المحاضرة الثامنة

الموقف الحاضر وأعقابه

استمرت البلاد التونسية ، طيلة الثلاثة الأرباع التى انقضت من قرننا الهجرى الحاضر ، تعيش فى معترك ثقافى عنيف تأثرت به حياتها الاجتماعية وحياتها الفكرية وحياتها الأدبية

ولست فى حاجة لأن أبين أن المعترك الثقافى ليس هو المعترك العلمى ، فإن العلوم تتلاقى فتتداخل وتتلاقح وينتظم كل منها مع الآخر وينتظم مجموعها فى الكل الثقافى للأمة ، فليس للعلم أوطان ولا عصبيات .

أما الثقافة ، فهى ملكة تلقى العلم وتصريف الفكر ، لا مادتهما ، فهى ككل ملكة من ملكات الشعور والإدراك ، ناشئة من الشخصية ومرتبطة بها . ولذلك تختلف فى كل أمة باختلاف شخصيتها عن شخصية غيرها من الأمم اختلافا ناشئاً من اختلاف الطبائع والأقاليم وذكريات الماضى وطرائق التعبير وفنون الآداب وغير ذلك من مقومات الشخصية القومية لكل أمة، بحيث لا يستطيع أى فرد أن يكوّن لنفسه ثقافة كما يريد، بل هو مدفوع بعوامل تكوّنه إلى ثقافة معينة ، فإما أن تنشأ فيه فيكون مثقفاً وإما أن لا تنشأ فلا يكون مثقفاً أصلا ، ولذلك يقول الدكتور طه حسين فى بيان أثر الأدب القومى للأمة الإسلامية فى تكوين مثقفيها : « إن الذى يجهل أدبنا العربى وبخاصة الإسلامى ، لا يعتبر مثقفاً وإن برع فى أى فن من الفنون ، لأن ذلك الأدب يمثل ماضينا تمثيلا واضحاً جليا، وليس بمثقف من يجهل ماضيه .

ومن هنا نشأت فى حيـــاة كل أمة من الأمم التى غلبت على أمرها فى الحروب الاستعمارية ، معركة من معارك تنازع البقاء ، هى المعركة الثقافية ، فالمستعمر بما فيه من حرص على تلاشى شعور الأمة بشخصيتها القومية ، حريص على القضاء على ثقافتها حتى يمكن لأفرادها أن يندمجوا فيه ويعيشوا معه فى الأرض التى غلبوا عليها ، غير متطلعين إلى الانفصال والاستقلال بأرضهم إذ لا يجدون فى أنفسهم شعوراً يميزهم عنه من ثقافتهم القومية .

ولما كان تطلعهم إلى الثقافة تطلعاً فطرياً ، وحرصهم على العلم باعتبار كونه سلاح الحياة ووسيلة الكمال الإنسانى ، حرصاً جبلياً . فهو يعطيهم من العلم ويمدهم من الثقافة بما لا يمكن أن يجعلهم مثقفين . فيمدهم بتعليمه وينشئهم على ثقافته ، تقريبا لاندماجهم فيه بسبب كونهم لا ثقافة لهم ، لا بسبب كونهم قد صاروا مثقفين حقيقة بثقافة المستعمر .

وقد كشفت محاضراتنا المتقدمة على أن هذه المعركة الثقافية الاستعمارية قد كانت بتونس بالغة أشدها ، فإن الاحتلال الفرنسى قد حمل اليها ثقافتها مفروضة لا معروضة، فجعل اللغة الفرنسية لغة التعليم، ولقن الناشئة التاريخ الفرنسى والآداب الفرنسية وروح القومية الفرنسية من أول عهد الطفولة ، ولم تبق اللغة العربية أداة للتعليم إلا فى الجامعة الزيتونية على أنها لا تتناول مواد استكمال الثقافة العصرية ، بحيث يصير المتخرج من الجامعة الزيتونية غير مثقف، لأن وسائل التوافق مع بيئته العصرية تعوزه ، والمتخرج من المدارس الحكومية كذلك لأن وسائل الارتباط بمقوماته الملية تعوزه .

وهبت الأمة التونسية تدافع عن هذا الوضع الفاسد فى توسيع دائرة التعليم الزيتونى وتعصيره وإنشاء التعليم الحر باللغة العربية ، حتى توصلت بعد طول الكفاح المضنى إلى ايجاد تعليم عربى قومى مستكمل وسائل التوافق مع البيئة العصرية مرتبط بمناهج التعليم فى بقية الأقطار العربية ولكن هذه النتيجة ، لم يتوصل الكفاح التونسى إلى تحقيقها إلا فى الجيل الثالث من الأجيال الناشئة تحت حكم الاستعمار، ولم يكن تحققها إلا فى طائفة قليلة من

طلاب الثقافة بتونس . أما الأكثرية فقد أوقعها ضعف وسائل الكفاح تحت طائلة الثقافة المفروضة ، فبقيت الشخصية القومية بين تجاذب وتدافع، بتصادم تيارين ثقافيين يصول أحدهما بالقوة المادية ، ويعتد الآخر بالقوة الروحية .

وكانت الثورة النفسية العامة فى الشعب التونسى عاملا قوياً فى تغليب جانب الثقافة القومية ، إذ كانت توحى إلى الشباب الواقع تحت طائلة التيار الأجنبى بما يبعده عن التأثر بدوافعه ويمده بثقافة قومية مستمدة من روح الثورة الشعبية تعوض عليه بعض الشىء مما فاته من التكوين الثقافى القومى الكامل . وبذلك لم تتم للمستعمر مقاصده كاملة فى الذين انشأهم على مناهجه التثقيفية ، إذ كان لهم من روح الثورة مايصلهم بماضيهم وجامعتهم القومية ولو فى إجمال وغموض ، وإذا كان الشباب التونسى يتلاقى بالمآل فى الجفاء لثقافة المستعمر وقلة الثقة بها . فإن وراء هذا التلاقى اختلافاً عظيما متولداً من اختلاف منشـــأى هذا التوافق . ويتجلى هذا الاختلاف فى أن أحد عنصرى المتعلمين وهو الذى تخرج فى المجالس الحكومية قد تزود بمادة ضعيفة من معارف اللغـة العربيـة وآدابها والدين الإسلامى وحضارته وتاريخه . واتخذ لتفكيره أداة غريبة عن نفسه هى اللغة الفرنسية واكتسب من أساليب التعليم العصرى مامكنه من حسن التطبيق وحسن التصرف . وأن لعنصر الآخر ، وهو الذى تخرج من المعهد القومى الزيتونى، قد تزود بمادة غزيرة من معارف اللغة والدين واتخذ من اللغـة العربيـة أداة منسجمة مع روحه للتفكير والتحصيل ، ولـكن قصور أساليب التعليم العتيقة التى درج عليهـا . وضيق مادة التعليم الذى زاوله عن كثير من العـلوم اللازمة لـكمال الثقافة ، قد قعدا به عن حسن التطبيق وحسن التصرف ، فنشأ فى وحدة العنصر المثقف سوء انسجام واضطراب وتنافر لم يستطع معه أن يحتمل على الوجه الكامل أمانة الثقافة وأن يوفى بحق أدائهـا للعناصر الشعبية . فروح الثورة على الاستعمار والتطلع إلى إحياء المجد الإسلامى تجمع بين المثقفين وغيرهم من

عموم العناصر الوطنية . وإذا تجاوزنا هذا القدر المشترك ، للبحث عن الخصائص التى تميز المثقفين عن الجمهور ، لم نجد منها ما يطرد إطراداً ثابتاً يصلح لتمييز وحدة المثقفين الشاملة لعنصريها . ومن هنا أصيب التوجيه القومى بخلل عظيم إذ انعدم فيه التجاوب بين التطلع الشعبى والإرشاد الثقافى ، بقصور ملكات المثقفين عن الاستمداد ، إما لقصورها عن حسن الانسجام مع روح الشعب ، وإما لقصورها عن حسن الانسجام مع البيئة العصرية . فأصبح النتاج الثقافى غير سائغ لتلقى الطبقات الشعبية، ولم يجد له الانتشار الذى يضمن حياته ونموه ، ففقد عاملا عظيما من عوامل الازدهار ، وهو ملاحظة استمداد المتلقين والحرص على ربط النتائج الثقافى بذلك الاستعداد .

على أن هناك سبباً آخر قضى بتضاؤل الثقافة القومية بتونس ، وهو التباس الثقافة العصرية بالثقافة الفرنسية ، بسبب ما أحدث تحكم السياسة الاستعمارية فى التعليم من حصر علوم الحياة وأحوال العصر الحاضر فى مناهج التعليم الفرنسى بما فيه من قصد سيء الى تقريب المتعلمين من روح القومية الفرنسية . فنشأ عن ذلك أن صار سبب الاتصال بين الأمة وبين المكونات العصرية للثقافة مصطبغاً بصبغة ذلك الانحصار ، ففقدت تلك العلوم شرفها وتسلط عليها ما فى نفوس الأمة كلها من جفاء للتعليم الفرنسى وثورة عليه ، حتى أصبح المتعلم لها ، فضلا عن غيره ، كارها إياها غير مستسيغ هضمها .

وانضم إلى هذين العاملين من عوامل ضعف الثقافة عامل آخر ليس هو خاصاً بتونس ولا غيرها من البلاد، بل هو آفة من آفات المدنية العصرية عامة فى الشرق والغرب ، لم يزل كبار الكتاب والمفكرين فى أوروبا يشكونها ويحاولون علاج دائها ، وتلك هى آفة الفتنة المادية التى طغت على النفوس ، فقتلت الهمم العلمية ، فإن عظمة الصناعة واتساع وسائل العيش وكثرة المرافق والمباهج ووفرة المغريات . قد عودت الناس على الاقتصاد فى الجهد

وملأت أوقاتهم بوسائل المتعة، ووسعت حاجتهم إلى المال. وقوت حرصهم على تحصيله . وجعلته فيما بينهم مقياس القيم . فأصبحت همة الطلبة منصرفة إلى الشهادات وخصائصها والمهن وحظوظها . وأصبحت همم الخريجين والأساتذة متعلقة بالمناصب والرتب وما وراءها من متع الحياة . فضعفت الدوافع النفسية التى كانت تحبب إليهم الثقافة لذاتها وتحملهم على المصابرة فى سبيل التحصيل والبحث والإنتاج

وتولدت عن هذه الأسباب الثلاثة أزمتان خطيرتان تأثرت بهما حياة الثقافة العربية أثراً سيئا جداً . هما : أزمة النشر . وأزمة التعليم .

أما أزمة النشر فقد ابتدأت من ضعف الروح الثقافية فى المتعلمين. وعن ذلك تفرع مظهران مختلفا المحل، هما : ضعف الهمة فى الإنتاج. وقلة الحرص على التلقى . وابتدأت نتائج الثقافة القومية الصحيحة تصفح على البلاد التونسية من الشرق ، فكان المثقفون يرون فيها المثل العليا للإنتاج الثقافى . فيزيد ذلك فى ضعف همة الإنتاج عند أهل الإنتاج ، بما يدركون من بعد عن اللحاق بتلك المثل العليا . ويزيد ذلك زهادة فى التلقى عند أهل التلقى .

وتأثرت الطباعة تأثراً مادياً سيئاً بذلك . فكلما أقدمت مطبعة على ترويج أثر من النتاج التونسى ، تلقت من الخيبة عبرة قاسية مريرة تمنعها من العودة إلى الإقدام على مثل ذلك ، فقصرت المطابع من الجهة الصناعية عن ملاحقة حياة الطباعة العصرية . وبدت آثارها ضئيلة المظهر ، فزاد ذلك فى صدوف الناس عنها وعاد عليها هى بفداحة الخسارة والإمعان فى الخلل ، حتى احجمت عن تعاطى النشر فأصبح المنتج مضطراً إذا أراد نشر أثر من آثاره أن يتولى هو الانفاق عليه . ووجد أهل الإنتاج من سوء حالة الطباعة تبريراً لفتورهم ، فحملوا الأمر على سوء حالة الطباعة ، وما هو فى الحقيقة إلا أمر متداخل الأسباب متفاعل النتائج . وانتهى الامر بعد الحرب العالمية الثانية إلى أسوأ حالاته فأصبح لا يبرز كتاب واحد بالمطابع التونسية إلا بعد سنة أو أكثر لولا أن تحوير مناهج التعليم الزيتونى، والسير نحو تعريب التعليم الابتدائى فى مدارس الحكومة . نشّطا على نشر

كتب دراسية مقررة فى المناهج . فكان نجاح الناشرين فى ترويجها مشجعاً لهم وللمؤلفين .

وأما أزمة التعليم ، التى هى الأصل الأصيل لأزمة النشر ولجميع الأزمات الثقافية الحاضرة فى البلاد التونسية ، فإنها ابتدأت بتفريق التعليم إلى شقين ، أحاط بكل منهما نقص لازم ، فأصبح مفروضا على الأجيال الناشئه أن تتخرج على صنفين من المعلمين ويبقى جهاز البلاد الثقافى مشطوراً دائماً إلى شطرين :

وقد جابهت هذه المشكلة أولا الجامعة الزيتونية لما أرادت أن تكيف تعليما بالصورة المثالية المرجوة للتعليم القومى بتونس ، ثم بدأ يتمهد السبيل لتذليل هذه المشكلة بالخريجين الزيتونيين الذين أتموا دراستهم العالية بجامعات الشرق العربى ، ومنهم اليوم من يقوم بالتدريس فى المعاهد الزيتونية وفى المعاهد الدولية التابعة لوزارة المعارف ، وحاولت الجامعة الزيتونية التقدم فى تمهيد هذا السبيل باستدعاء أساتذة من الشرق ، فحالت دون ذلك العوائق التى نشأت من الوضع الإدارى الماضى .

وإذا كان ذلك الوضع قد تغير الآن ، بدخول البلاد فى عهد استقلالها الداخلى ، فإن المعركة الثقافية لم تنته بابتداء هذا الوضع الجديد ، لأن فرنسا وإن رفعت يدها عن توجيه سياسة التعليم بتونس ، فإنها قد احتفظت بحق فتح المدارس على نفقتها وسن مناهج التعليم فيها على الخطط التى تراها . وأن الذى يتبع البعثة الثقافية الفرنسية بتونس الآن يتجاوز نسبة ٦٠٪ من معاهد التعليم علاوة على ما يتبع المؤسسات الأجنبية الحرة من مسيحية واسرائيلية .

فالمعركة الثقافية قد انفصلت عن المعركة السياسية حقا ، ولكن هل يكون هذا الانفصال من عوامل قوة الشق الفرنسى فى المعركة الثقافية أو من عوامل ضعفه ؟

إننا إذا لاحظنا ما كنا بيناه فى المحاضرات الماضية ولخصناه فى صدر هذه المحاضرة من أن التحكم الفرنسى . بما فيه من عدوان وطغيان . هو الذى كان يحول بين مناهج التعليم الفرنسى وبين استحكام النفوذ فى الأمة . بما استمر فى الحياة الشعبية منذ الاحتلال من ثورة على الفرنسيين وإعراض عن كل ما يأتى منهم . فإن العلائق الجديدة بين تونس وفرنسا ستخفف من حدة هذه الثورة . وسيقدم الفرنسيون إلى التونسيين فى المستقبل ثقافة معروضة لا مفروضة ، ينفقون عليها من ميزان دولتهم لا من الميزان التونسى مليارات الفرنكات ، ويبرزونها للتونسيين عملا فكريا إنسانياً بعيدا عن كل مظهر من مظاهر الحكم والإرهاق . فلعل هذا التفكيك بين ثقافة الفرنسى واستعماره ، يكون عاملا فى فتور روح الإعراض التى كان التونسى يلقى بها الثقافة الفرنسية ، يوم كانت مرتبطة مع الاستعمار وآتية من يده .

فإذا اعتبرنا مع هذا أن الثقافة الفرنسية لها من وفرة إنتاجها وقوة وسائل عرضها وانتظام تجددها وارتباطها المحكم بالعوالم الثقافية الثلاثة ، الفرنسى ثم اللاتينى ثم الغربى يحلق بعضها وراء بعض . فان الأمر ينتهى بنا إلى تصور قوة عالمية هائلة تتزاحم مع قوة محلية محصورة ضئيلة الإنتاج ناقصة وسائل التقوى ، ويحق لنا هنالك أن نتوقع للثقافة العربية خسارة المعركة . وللثقافة الفرنسية الفوز بها . وذلك ما يوجب علينا النظر إلى وسائل تقوية الثقافة العربية والعمل على تحقيقها بجد . حتى تكون هى الفائزة بالمعركة . وحتى لا تنسلخ البلاد التونسية عن وحدة الأمم العربية .

ووسائل هذا التقوى تنحصر فى وسيلة وحيدة هى تمكين الثقافة العربية بتونس من الارتباط بالثقافة العربية فى بلاد العرب بأسرها ، ارتباطا متينا محكما مطردا منعكسا عاما فى جميع مظاهر الحياة الثقافية . ويتحقق ذلك بتحقيق النقط العشر الآتية :

١ – تشجيع الإنتاج العلمى والأدبى بتكوين وسائل الرواج للآثار

التونسية فى الشرق العربى بالتنويه بها وتيسير وسائل انتشارها ورصد الجوائز المخصصة لها من طرف جامعة الدول العربية والدول والجامعات والمجامع العلمية .

٢ — تقوية حركة النشر بتمهيد طرق الرواج للمنشورات التونسية والإعانة على ترقية فن الطباعة واشتراء جامعة الدول العربية ووزارات المعارف والجامعات والمعاهد والمجامع لمقادير من تلك المطبوعات على معنى التشجيع .

٣ — التعاون مع الدولة التونسية بإمدادها بالأساتذة للجامعة الزيتونية ومعاهد التعليم العمومى ، وتشريك تونس فى المؤتمرات العلمية التى تقرب مناهج التعليم وإصطلاحات العلوم، وفيما ينشأ عن تلك المؤتمرات من مقررات ومعاهدات ثقافية .

٤ — التعاون مع الجمعيات المشرفة على التعليم الحر بالتيسير عليها فى إنشاء معاهد ثانوية تسير على مناهج التعليم فى البلاد العربية وإمدادها بالأساتذة على نفقة الدول العربية وقبول المتهيئين فى تلك المعاهد لاجتياز امتحانات نهاية التعليم الثانوى أو إرسال لجان الامتحانات إلى تونس ، حتى يتوفر بذلك عدد المتهيئين لمواصلة التعليم العالى بالشرق .

٥ — تسهيل الالتحاق بالتعليم العالى على الإرساليات الرسمية ، بتقرير معادلة الشهادات وتعميمها فى فروع التعليم العالى كافة .

٦ — تشجيع القاصدين للالتحاق بالتعليم العالى من غير الإرساليات، بإعفائهم من الرسوم ومنحهم الإعانات الكافية ، من الجامعة العربية ووزارات المعارف والأوقاف .

٧ — انتداب أساتذة تونسيين لإلقاء الدروس والمحاضرات بالجامعات والمعاهد فى الشرق ، واستخدامهم فى التعليم الثانوى .

٨ — تكوين إرساليات علمية من الأساتذة وطلبة الجامعات والمعاهد، للبحث والدراسة فى الشئون التونسية وتكوين القوافل السياحية الجامعية، وقبول قوافل مثلها من تونس .

٩ — تشجيع المسرح العربى التونسى بعرض تمثيلياته فى الشرق ورصد الإعانات التشجيعية للفرق والجمعيات التى تكافح للمحافظة على التمثيل بالعربية الفصحى وإمدادها بالمشرفين الفنيين .

١٠ — الحرص على تعريف الشرق بالحياة التونسية وحضارتها ونظم الدولة والمؤسسات والشخصيات وإبراز روح العروبة السائدة على البلاد .

ووراء هذه النقط العشر تفاصيل وتفاريع هى كفيلة بتحقيقها .

وقد بدأ بالفعل العمل فى تحقيق بعض من هذه النقط ، والأمل أن إطراد السير على ما وقع الشروع فيه ، والابتداء السريع بتطبيق البقية هو الذى يكون ضماناً لمستقبل الثقافة العربية فى البلاد التونسية ، وإنعاشاً لحركة الفكر والأدب ؛ وتعزيزاً لروح العروبة التى هى أساس الروح الوطنية التونسية ، حتى تلتئم وحدة العرب كاملة سالمة ، ويصدق للتونسيين الفال الذى لم يزالوا يتغنون فيه بالشطرة السائرة لشاعرنا الاجتماعى القصار :

« العز لله ثم الفوز للعرب » .

نصـــــوص أدبية

مقـــــدمة

لقد دعا معهد الدراسات العربية العالية الشيخ محمد الفاضل بن عاشور رئيس الجمعية الخلدونية والأستاذ بالجامعة الزيتونية بتونس - إلى المساهمة فى أعمال المعهد بإلقاء سلسلة محاضرات عن الحركات الأدبية والفكرية فى تونس .

وقد لبى الأستاذ هذه الدعوة ، وحضر إلى القاهرة . وألقى ست محاضرات فى الموضوع المذكور .

ولما كانت الكتب والمجلات والجرائد التى تشير إليها المحاضرات غير موجودة فى مكتبات الشرق العربى ، رجوناه أن يزود المعهد بمجموعة من المختارات الأدبية ، لتنشر ملحقة بالمحاضرات .

إن الصحائف التالية تتضمن هذه المختارات الشعرية والنثرية ، وهى تظهر الأدوار المختلفة للحركة الأدبية والفكرية فى تونس .

محمود قبادو

من المقدمة

إن مولانا لما تاقت نفسه إلى أن يترك بحر هذه المملكة رهوا ۞ وسمت همته إلى أن ينتهج لها طريقاً عفوا ۞ فيجتلى منها روضة أنفاً ۞ ويبتنى من فوق غرفها غرفا ۞ ثنى عطف أصمعيه ۞ ولوى عذار أصغريه ۞ إلى حفظ نظام ألفتها بالسلطان والبرهان ۞ وقطف جنى خلفتها فن الشراسة والليان ۞ إيقافا بانطباع البرهان ۞ فى صقيل الماويه ۞ وجلاء السلطان . للسجنجل الصديه ۞ وتلازز الملك والدين فى قران ۞ حتى كأنهما فرسا رهان ۞ إذ الملك يجرى من الدين مجرى السيف من يد البطل ۞ ويقوم منه مقام الحاجب من المقل ۞ لكنه جل جلاله ۞ وعم نواله ۞ قد خار لمولانا ومولى المؤمنين ۞ وأولانا وأولى العالمين ۞ بأن مد له باعا لا يطوله باع ۞ فى رقعة من الأرض ليست بأوسع الرقاع ۞ وجدد به فيها من رسوم الفضل كل دارس ۞ وأحيا ذكره بها بين الحصون والمدارس ۞ استغفر الله بل ضاعف منه طلها المقلع بوابل ۞ كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ۞ فهل كانت تونس تونس من طور المشيرية ناراً ۞ أو تبتنى لجندها فى مسالك الحرب مناراً ۞ بلى وقد كانت دوحة الملك فى البلاد الإسلامية وارفة الظلال ۞ شائكة الصيال ۞ فكيف وقد لقيت ما سحاها ولحاها ۞ وعجاها وعظاها ۞ فأضحت فى كل قراره ۞ حوارا فى محاره ۞ وأمست فى جميع البقاع ۞ أذل من فقية بقاع ۞ يطأها الحافى ۞ ويعلوها السافى ۞ قد فصمت أواصرها ۞ وغابت نواصرها ۞ وأصغى أناؤها ۞ وألغى بناوها ۞ وتولى مجدها بعدوليه ۞ وعطل جيدها بعد حليه ۞ فلا جرم أن أنهض إليه بهذا الغرب ۞ كما أنبأ به سيد الأمم (صلى الله عليه وسلم) أهل الغرب ۞ طائفة قد حالفوا الحق وحالفهم ۞ فلا يضرهم من خالفهم ۞ وملك لأميرنا زمامهم ۞ وجعله فى

بجديد الدين أمامهم ٭ فبيت التدبير مسامرا ٭ وخمر التفكير مخامرا ٭ وشمر لتأسيس الملك ذيلا ٭ وقضى أمره ليلا ٭ وطفق يمتحن بمسبار الروية دفينه ٭ ويجس بأنامل الرفق شرايينه ٭ فإذا هو لما ألف الجمام واستوحش الرياضة ألم به أعياء فهاضه ٭ وشتان ما رابض ورابض ٭ وباسط وقابض ٭ فإن الدولة الإسلامية لما نشرت لها راية الرعب ٭ وخفقت فى كل قلب ٭ لم تزل الكفرة فى طلاب المنجاة منها تمشى تحت كل كوكب ٭ وفى ارتياد المفازة عنها تنتشق كل كوكب ٭ وما منهم إلا من آب بعد الاين ٭ بخفى حنين ٭ إلى أن قضى القدر المتيح والجد المريح ٭ بأن يكون إقبال المراد ٭ وابقال المراد ٭ فى هذا العهد الحديث ٭ غب ذلك السعى الحثيث ٭ لأحلام السفنج ٭ رجرجة الفرنج ٭ فاستحدثوا تلك الطامة التى هى إحدى الكبر ٭ وذات الودقين التى لا يعفو لها أثر ٭ لواحة البشر ٭ التى لا تبقى ولا تذر ٭ الصواعق الصناعية ٭ الصادرة عن الأسلحة النارية ٭ فأداروا بها دائرة البوار ٭ على اليلب المدار ٭ وأباحوا حما الدلاص المأذية ٭ والموضونة الحطمية ٭ وقلصوا ظلال القنوات ٭ وبتروا البيض الباترات ٭ فزف حديث البسالة للمنزل المهجور ٭ ولعبت به .

سلاح لم يكن إلا لغدر ... به قتل الأشداء الجبان

ولما طبقوا من أمنيتهم المفصل ٭ وأصموا من رميتهم المقتل ٭ شب عمرو جندهم عن تطوق أوزار الحروب السالفة ٭ وشمخ طور طورهم إلى الأشراف على أوزار مستأنفة ٭ فعطفوا أعنة أفكارهم إلى مقدمة جدودهم وساقتها ٭ وصرفوا وجوه أنظارهم إلى قلبها وبحبوحتها ٭ وعادلوا بين كفتى التمييز بين ميامنها ومياسرها ٭ وشنوا غارات التنقير بين جحافلها ومناسرها ٭ فوجدوا الهيئة التى أفرغ القدماء الكتائب فى قالبها ٭ ونظموا الجنود فى سلك مراتبها ٭ ليس بينها وبين سلاحهم النارى موافقة شن وطبقه ٭ ومواخاة حريق وحرقه ٭ فرغبوا عنها إلى التعابى التى راضوا بالعلوم الرياضية صعابها ٭ وفتحوا بأقاليد التجربة أبوابها ٭ ولم يزالوا كل أونة يزيدون نعمة فى طنبورها ٭ وبلبلا فى صنبورها ٭ يوزعون لها كافة أوزاعهم ٭ ويجتابون بها أودية إفزاعهم ٭

وصدقت فيهم كلمة الله العليا ؞ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ؞ فقل لأقوام عن سنن عوائد الله يعمهون ؞ وفى تيه أطراح الأسباب يهيمون ؞ قد برح الخفاء ولكن لا تفهمون ؞ أم هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؞ أولئك قوم أتوا البيوت من أبوابها وأدمنوا القرع ؞ ولن يجيب سبحانه سائلا بلسان القابلية بمنع ؞ وإنما الحرمان أن تتنكب السبل عن ضلة أو يأس ؞ وقد قال سبحانه وتلك أيام نداولها بين الناس ؞

الرحلة :

رعى الله أياما لنـــا ولياليا ... سعينا بها للمجد والدهر مسعد
تطارحنى الآمال وهى مطيعة ... وتغفى جفون النائبات وأسهد
ليالى لم أذمم بها شقة النوى ... ولولا إغترابى كنت أثنى وأحمـد
قضيت بأرض الروم منها مآربا ... وعدت لأرض كان لى فيها مولد
وما عن قلا وليت عنها ركائبى ... ولـكنها الأوطان للحر أعود
طويت لهــا البيداء بين مهامه ... ويممت لج البحر والبحر مزبد
نزلت بأقليبية عنــه بعدما ... لقيت به ما لم أزل منه أرعـد
وأدهم زنجى فريت أديمــه ... بأدهم يعبوب يغـــير وينجد
كأن سهيلا بين عينيه غرة ... ونجم الثريا فوق خديه موقد

استقبال صبى سنة ١٢٧٣ :

الشكر لله لا أحصى عليه ثنا ... على مواحد من آلائه وثنا
يازائرى فى صباح الأربعاء لقد ... اجنيتنى من ربيع الأنس خير جنا
أمنية لم تزل نفسى تشوق لها ... دهراً وتتهم الأيام والزمنا
هل يعلم اليوم حسادى فأرحمهم ... إنى بلغت من الأيام كل منـا

يانفس بشراك وافاك الحسين فلا ... ترين للدهر إلا المنظر الحسنا
قد طالما أرقت جفنيك غيبته ... فاليوم فاغتمضى فى قربه وسنا
واليوم فانتصفى من كل ذى حسد ... أمسى سرورك فى أحشائه حزنا
قد أنستنا وأنستنا بأوبته ... أيامنا ما أساءت فى البعاد بنا
أهلا بأكرم من قرت برؤيته ... عينى وشنف ذكر لاسمه أذنا
أهلا بشمس ذكاء مشرق بهرت ... شهبا النهى فى سناء باذخ وسنا
أهلا به وبروض من بلاغته ... يجنى الورى قندا منها يهز قنا
أهلا بمجمع أخلاق مطهرة ... أبدى بها الله فينا فضله علنا
أهلا بمن كلما مرت شمائله ... يوما بذكرى حار الفكر وافتتنا
أهلا بمن ملكت رقى مكارمه ... قدما واعظم بها فى ملكنا ثمنا
أهلا بمن أشعرت قلبى زيارته ... برد النعيم وهاجت لى به شجنا
أهلا بمن كدت من وجد ومن طرب ... إلى لقاء تجافى روحى البدنا
أهلا بأكرم خلق الله منزلة ... عندى وأقربهم من مهجتى سكنا
أهلا بمن قد أراش الله جل به ... جناح عزمى وآوانى به ركنا
أهلا بناشر ذكرى والمشيد به ... إذا أخو الضغن واراه بما اضطغنا
أهلا بملجم أعدائى ومسكتهم ... فى نشر فضلى على عى بهم لسنا
ياسيدا لايرى إلا العلا وطنا ... هنيت فى وصلك الأحباب والوطنا
كل بلقياك مسرور ومبتهج ... لكن أوفرهم حظا بذاك أنا
لو أنصفونى وما الأنصاف شيمتهم ... إلا قليلا لوافونى برسم هنا
ألست أوشجهم قربى وأولهم ... ودا وأقومهم فى بركم سننا
دم أيها الزائرى فضلا وتكرمة ... شمسا يعم سناها من نأى ودنا

وصف شعره

وما كل ذى نظم يلقب شاعرا ... ولم يك ليث العنكبوت الذى قبا
أرى الشعر علما واسعا وسجية ... إذا اصطحبا لم يعدم القائل الاربا
إذا رمته انثالت على جواهر ... يضيق نطاق النطق عن ضمها وعبا
تكاد معانيه تسابق لفظه ... على أنه سلسال سيب قد انصبا

فإن تكن الأصداف حجب جـواهر فألفاظه ليست لماضمنت حجبا
كأنهما روحان راما توحدا فعانق كل منهما إلفه صبا
تسامى له فكرى بسقطى محلـق وغاص له نطقى أعلى الدرر الثعبا
فاقضى الليالى الدهم غير مغور وأثنى على التعريس أيامى الشهبا
لعمرى لقد أصبحت منه مجليا بشا وإذا أجرى له سابق أكبا
حمى ليس يعشو إلا عشيان لنوره وليس يحوم إلا عميان له لحبا
جلوت به عذراء فكر يتيمة أبى الدهر يوما أن يضم لها تربا
طوت نسج لخلى طىء وتلقفت سحيرا تنبا ابن الحسين به عجبا

اوربا

لذاك ترى ملك الفرنج مؤثلا بعلم على الأيام يمتد يمه
ومملكة الإسلام يقلص ظلها وينقص من أطرافها ما تضمه
على أنها أجدى وأبسط رقعة وأوسط أقليما من الطبع عظمه
وأعرق فى منمى الحضارة موقعا وأطول باعا يفلق الهام دمه
وقد ماتناهت فى الفنون توغلا وجمع طم الصنع فيها ورمه
ودوخ مغزاها الأقاليم سبعة وتاخمها من سد ياجوج ردمه
فلم يجد المستعبدون لعزها سوى العلم نهجا للرئاسة أمه
فكان لهم منه النفوذ إلى المنى ولا سيما ثغر خبا منه حجمه
فمن لم يجس خبرا أروبا وأهلها ولم يتغلغل فى المصانع فهمه
فذلك فى كن البلاهة داجن وفى مضجع العادات يلهيه حلمه
هم غرسوا روح التمدن فرعه الر ياضى والعلم الطبيعى جذمه
أيجمل يا أهل الحفيظة أنهم يبزوننا فخرا انا كان نخمه
لقد قتلوا دنيا الحياتين خبرة فمن لم يساهمهم فقد طاش سهمه

خير الدين

الشورى

إن الممالك التى لا يكون لإدارتها قوانين ضابطة محفوظة برعاية أهل الحل والعقد لخيرها وشرها منحصر فى ذات الملك ، وبحسب اقتداره واستقامته يكون مبلغ نجاحها ، ويشهد لذلك حالة الممالك الأوربأوية فى القرون الماضية قبل تأسيس القوانين فقد كان لهم فى ذلك الوقت من الوزراء من هم شهرة إلى الآن بتمام المعرفة والمروءة ومع ذلك لم يتيسر لهم حسم مواد الخلل المنبعث من صورتى استبداد الملوك المشار اليهما .

لا يقال أن مشاركة أهل الحل والعقد للأمراء فى كليات السياسة تضييق لسعة نظر الإمام وتصرفه العـــام لأنا نقول هذا التوهم يندفع بمطالعة « الأحكام السلطانية » للماوردى فانه قال فيه عند بيان وزارة التفويض ، هى أن يستوزر الإمام من يفوض إليه تدبير الأمور برأيه وإمضاءها على اجتهاده وليس بممتنع جواز هذه الوزارة فان الله تعالى يقول عن نبيه موسى عليه السلام « واجعل لى وزيراً من أهلى هارون أخى أشدد به أزرى وأشركه فى أمرى ، فإذا جاز ذلك فى النبوة كان فى الأمانة أجوز .

قلت فإذا جاز تشريك الإمام لوزير التفويض على الوجه المذكور ولم يعد مثل ذلك تنقيصا من تصرفه العام كان تشريكه لجماعة هم أهل الحل والعقد فى كليات السياسة أجوز لأن اجتماع الآراء إلى مواقع الصواب أقرب ولهذا لما جعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه الخلافة شورى بين ستة قال : أن أنقسموا اثنين وأربعة فكونوا مع الأربعة (ميلا منه إلى الأكثر لأن رأيهم إلى الصواب أقرب قاله السيد السند) وأن تساووا فكونوا فى الحزب

الذى فيه عبد الرحمن بن عوف على أن المولى سعد الدين فى شرح العقائد لم يمنع المشاركة فى تصرفات الإمامة وقصر منع التعدد على منشأ الفساد حيث قال فى أثناء مبحث الإمامة غير الجائز هو نصب إمامين مستقلين تجب طاعة كل منهما على الانفراد لما يلزم عليه من امتثال أحكام متضادة . وأما فى الشورى فالكل بمنزلة إمام واحد لأن تعدد الأشخاص لا ينافى وحدة الإمامة التى مدارها على وحدة الأمر والنهى وقد سلم كلام السعد محشوه كالفاضلين عصام الدين وعبد الحكيم وقرره الخيالى بقوله : وقد يجاب أيضاً وبالجملة فكلهم معترف بصحة كلام السعد فى نفسه وظاهر حينئذ احروية جواز الشورى فى كليات السياسة بالمعنى الذى أشرنا إليه إذ هى دون الشورى فى سائر التصرفات. ثم أن الشورى على الوجه المذكور ليس فيها تضييق لدائرة خطة الإمام وعموم تصرفها باعتبار أن نظر أهل الحل والعقد بمنزلة نظر الإمام ومراعاة كونه مظهراً له لاستبداده بتمشيته وإدارته مع ما يستبد به من التصرفات التى لا تقتضى المشاركة كاجراء الخلطة السياسية والمتجرية مع الأجانب ونصب أرباب الخطط وتأخيرهم وتنفيذ سائر الأحكام ونحو ذلك من التصرفات التى هى محل وحدة الأمر »

(من كتاب أقوم المسالك)

محمد السنوسى

من أبهج ساحات الآستانة « آت ميدان » وهى فى الأصل معدة لسباق الخيل طولها تسعمائة قدم وعرضها ربعمائة وخمسون قدما ، وكانت فيها مسلة حجرية أصلها من مدينة « تيفس » المصرية وعمود قسطنطين صاحب التمثال النحاسى ، وعمود الحية الذى هو من نحاس على شكل حبل ملفوف وعلى رأسه ثلاث حيات يقال أنه فى الأصل أقيم فى عهد اليونان رصدا لتنفير الأفاعى ولهم عنه خرافات مروية عن الكهنة .

وأما الباب العالى فهو عبارة عن قوس مرتفع هو مدخل دار الملك وقد أدركت هنالك أمام مقر الوزارة الحربية وهى السر عسكرية مجالا لكراريس المتنزهين والمتنزهات يتجول فيها الشبان والعذارى والمخدرات والغوانى على اختلاف نظر وإرسال خاطر يبعث الأنس ويطرب النفس ، وربما تحصلت فيه مواعيد الوصال بمبادئه الخفية السارية سريان النسيم من نفس كل كريم مع قيام حراسة الضباط بحضور رئيس الضبطية لمنع التجاهر بما لا يليق ، وأعظم أيام التنزه فيه يوم الأربعاء من كل أسبوع ، وقد هالنى وجود ذلك المتنزه فى بلاد اقتضت شريعة أهلها حجاب النسوة ولكن بعد إقامتى هنالك رأيت أن داخلية إدارة جميع البيوت منوطة بالنساء ومن حقوقهن شراء لوازم البيوت بأنفسهن فضلا عن شراء لبساسهن ولبساء أبنائهن وتلك سنة الروم القديمة وبذلك كان اختلاطهن بالأسواق ومحلات التجارة أمرا معروفا أماما يحتجبن به فهو نقاب شفاف لا يحجب ما وراءه وكثير منهن يستعملن التدخين فى الطريق وهن من المخدرات الرفيعات وربما استترن بشمسيات من الحرير صغرى يجعلنها على رؤوسهن ويحتجبن بها إذا أردن ، وجميع الكراريس مفتوحات المنافذ وكثيرا ما تصدر الأوامر للنساء باستعمال الخمار الصفيق فلم تبلغ الحكومة من ذلك مقصدها ، فكأن طريقة نساء

الروم بقى عليها نساء الترك ، ومن المتنزهات المشتهرة بحسن المياه وعذوبتها الشملجة وهى موضع رياض غير أن طرق الوصول إليها وعرة صعبة طبيعية ترتقى فى جبل عالى على غبار فى الصيف ووحل فى الشتاء وقد توجهت إليها فى يوم نزهة فى صحبة العلامة الشيخ محمد بيرم وبنيه ودخلنا هنالك إلى مرسح فيه تشخيص رواية باللسان الأرمنى وكان أحسن البساتين فيما رأينا هنالك بستان محمود بن عياد التونسى وبداخله وادى صناعى يلتوى على عدة برك ، أعده صاحبه للسبح به مع الغوانى من تابعاته ومملوكاته ، وقد كان أبو يوسف رضى الله عنه لاحظ فى سبح المملوكات مع مالك اليمين مكشوفات ما فى حرمة نظرهن لبعضهن إذ نظر عوراتهن محرم عليهن وإن لم يكن محرما على مالكهن فالواجب اعتبار المالك اعتبار ذلك . وشهرة مياه الثلجة بين ظرفاء الآستانة فى صفائها وعذوبتها وبرودتها بحيث أنهم يعدونها من مفاخر بلادهم الطبيعية » .

(الرحلة الحجازية)

جريدة الحاضرة

(حيا الله قراء الحاضرة)

ما سام فى روض الصحائف ناظره   غير الألى حضروا منازه ناظره
فتمدنوا ورأوا بعين تبصر   معنى الحضارة فى رياض الحاضرة

حى على خير العمل. لخدمة الأمة والوطن . وبلغ النفس إلى غاية الأمل من بذلها فى السعى الحسن . فأحب العمل إلى الله أدومه . وشكر المنعم من أسباب المزيد .

نحمد الله على جميل النعم ونشكر عميم فضله. ونسأله التوفيق إلى خير مام. والتوفيق من طوله. لا اله إلا هو المنعم الذى توالت أنعمه . بحسن المدد الذى ينقطع ولا يبيد .

ونصلى ونسلم على أكرم من جاء بحكمة الارشاد . فهدى الناس بالشرع العميم . وأوضح طرق السعادة للعباد . ودعاهم إلى الصراط المستقيم . ذلك الرسول الذى هو أفصح هذا الكون وأعلمه . سيدنا محمد خاتم المرسلين من الرب الحميد .

وعلى آله وأصحابه الغر الكرام . الذين دوخوا غالب المعمور . وقاموا بنصر الحق ونشر الأحكام . بما لم تزل حكمته تتجدد بتجدد العصور . وعلى من تبعهم فأصابت فى غرضه أسهمه . ونجح بما أختاره من السبيل المفيد . يلى هاته الفاتحة رعاك الله أيها المسرح طرف الطرف فى مرابع اللطافة والظرف . أن اخوانا من أبناء البلاد تنادوا إلى سبيل الارشاد تحملهم الغيرة على اقتحام الأخطار . وسلوك الأخيار . فجمعتهم وحدة حب خير البلاد ولا يتجرد عن حبه إلا من لا خير فيه .

وتصافحوا على مايفيد العباد . بما يقوم به غرضهم ويستوفيه . ذلك أن

البلاد التونسية . مازالت بحمد الله مظهرا لجميـــل الآثار ، على اختلاف الأطوار . وتقلبت فى فنون من الحضارة والتمدن فى هذا العصر الجديد . ونشرت فيها المعارف والتنظيمات على الوجه المفيد . بيد أن كثيراً من جميل آثارها ومفيد أخبارها . وبواعث أستبصارها . لم يكن منشورا . إلا بما يتناقله الرواة على اختلاف اللغات فنراه على غير الحقيقة مذكورا . وهذا داعى تقدم هاته العصابة . إلى مايظنون وبه إلا مابه . من فتح هاته الصحيفة التى يؤملون منها القيام بتلك الوظيفة . إلى غير ذلك من إرشاد أبناء البلاد . إلى مافيه السداد . على وجه يدعو إليه داعى هذا العصر فى كل مصير أما مايتعلق بطريق تنظيم الصحيفة واجرائها مجرى النفع العام . فكل حكمه إلى ماتظهره الايام . ولله فى عباده علم غيب يصيرون إليه وعلى كل حال نرجوا أن تأتى فى هاته الجريدة . على ما يهم أبناء الوطن من المقالات المفيدة . وما يؤول بفضل الله إلى نجاحهم من النصح والإرشاد كما أننا نذكر فيها أهم مايصل الينا من الحوادث الداخلية سواء كانت بحاضرة تونس أو بغيرها من بلدان المملكة

وننقل أهم الأخبار السياسية خصوصا ما كان منها متعلقا ببلاد المسلمين وننتقى من تلك الأخبار ما كان واضح الصحة خاليا عن الأغراض .

نعتمد فى نقلنا على أشهر الجرائد السياسية مثل « الديبا » و « الطـان » و « التيمس » و « والستندار » والرفورما » وغيرها ومع ذلك أنا رأينا فى بعض الأبواب بعداً عن الصواب أشرنا إليـــه ونبهنا القارىء إلى عدم الاعتماد عليه .

وننشر فى هاته الجريدة جميع ما يرد الينا من الرسائل بشرط أن تكون مفيدة للعموم ولانترك حق الجريدة من الأوامر الرسمية والقوانين الدولية .

نسلك فى سيرنا طريقا معتدلة ولن نحيد أبداً عن الحق إكراما لخاطر زيد أو خشية من سطوة عمرو .

وبالجملة فلانا لوا جهدا فى جعـــل هاته الصحيفة نافعة لأبناء الوطن حائزة على رضى العموم .

العدد الأول السنة الأولى (٢٤ ذى القعدة ١٣٠٥ و ٣ آغشت ١٨٨٨)

الحـــــرية

طالما قرعت آذاننا نواقيس هاته اللفظة فى مواقع متضادة فأوقعتنا فى حيرة من معناها . ذلك أنا نرى الأمم المتمدنة والشعوب المتقدمة فى السيادة والمعارف والقوات العملية والصناعية التى هى منابع القوات المادية إذا سألناهم عن أعظم أسباب ما وصلوا به إلى هاته الدرجة بعد غباوة العصور السالفة والعبودية التى كانوا فيها بين يدى نبلائهم فضلا عن ملوكهم تجدهم يشكرون الحرية وفى صفحات التاريخ ما يشهد لهم بأن منبع تقدمهم وتمدنهم إنما هو الحرية التى خرجوا بها من سلطة النبلاء إلى الرعى فى مراعى الحضارة والتقدم بتعلم العلوم واجتناء ثمراتها المادية والمعنوية وأثر ذلك من عهد ملك فرنسا لويز السادس عشر فى خروج الأمة إلى ذلك المرعى الخصيب فى ١٤ يولية سنة ١٧٨٩ من المآثر التى بقى لها عيد سنوى بين الأمم الحرية وبها أصبحت اليوم مملكة فرنسا حاضرة الحضارة والتمدن ومنبت المعارف والتقدم.

ومثل ذلك حرية الولايات المتحدة أمريكا التى أسستها فى يوليو ١٧٧٦ خروجها من سلطة أنكلتيره واتخذت ذلك اليوم عيداً تحت إسم عيد الحرية. وما زالت الأمم تطالب حريتها من نبلائهم وملوكهم فيخرجون من الاسترقاق الذى تكلس على أجيال منهم كل على حسب ما ساعده به الحال .

ولما ظهر ذلك فى نظام العمران البشرى صار حكماء الملوك ينتزعون من أنفسهم قوة السلطة ويعطون لرعاياهم حريتهم التى خلقهم الله عليها وأخرجهم الله من بطون أمهاتهم أحراراً فاستعبدهم الملوك بظلم القوة التى كانوا يستعملونها فى غير ما ائتمنوا به عليها ولذلك اضطرهم تقدم العصور إلى إرجاع الأمانات إلى أهلها فأعطوا لكل واحد حقه وصانوا بذلك حقوقهم فعظمت سيادتهم بالكمالات الإنسانية لا بالأدوات الوحشية .

العدد ٢ ــ السنة الأولى (٢ ذى الحجة ١٣٠٥ و ٩ آغشت ١٨٨٨).

كمال الوفاق بحسن الارتفاق

إن حاجة المخلوق إلى سواه أمر ضروري ولا غنى عن سواه مفتقراً إليه كل من عداه إلا الله جل جلاله أما الحوادث فما من حادث منها إلا وهو محتاج إلى غيره فالجواهر تحتاج إلى الفراغ الذى تحل فيه والأعراض تفتقر إلى جواهر تقوم بها ثم أن الجواهر تختلف احتياجاتها باختلاف أجناسها فليست حاجة المعادن كحاجة النبات ولا حاجة النبات كحاجة الحيوان ولا حاجة عموم الحيوانات كحاجة الإنسان ولعلماء التحليلات من أهل الكيمياء مزيد علم بدقائق تلك الحاجات يدل على كمال حكمة مبدع الكائنات

وفى كل شىء له آية . تدل على أنه الواحد ننظر هنا فى حاجة الإنسان (والإنسان مدنى بالطبع) حيث أنه يحتاج إلى ضروريات معاشه بالأكل والشرب والاستقلال والتدفى وليس هذا الاحتياج مختصاً به بل يشاركه فيه سائر الحيوانات غير أنها تتطلب ضروريات ما تحتاج إليه بالانفراد من غير تعاون بخلاف الإنسان فإنه اختص بمزية التعاون فى الارتفاق بالأمور الضرورية وقد انضم لارتفاق الإنسان بها ثلاثة أشياء امتازت بها صورته النوعية العالية على غيرها من أنواع الحيوانات .

والمميز الأول الانبعاث إلى الشىء عن رأى كلى بحيث أن الإنسان ربما ينبعث إلى نفع معقول ليس له داعية من طبيعته فيقصد أن يحصل نظاما صالحا فى المدينة أو يكمل خلقه أو يهذب نفسه أو يتفصى من عذاب الآخرة لو يمكن جاهه فى صدور الناس وهذه الأمور لا يصل إليها الحيوانات إذ البهيمة إنما تنبعث إلى غرض محسوس أو متوهم من داعية ناشئة من طبيعتها كالجوع والعطش ونحوهما .

المميز الثانى أن يضم إلى الارتفاق الظرافة إذ البهيمة إنما تطلب ما تسد به

خلتها وتدفع بها حاجتها والانسان ربما يطلب ذلك على وجه تقر به عينه وتلتذ به نفسه ترى ذلك منه فى مأكله وملبسه ومسكنه .

المميز الثالث استنباط أوجه الارتفاقات الصالحة وعمل المدركين لها بما تتسع به دائرتها يشهد ذلك حدوث المرافق الكثيرة فى البلدان وتجددها بتجدد العصور حتى حصلت من ذلك هيأة صالحة ولما كان الناس فى ذلك على أطوار وأحوال اختلفت باختلاف طبائعهم وعوائدهم ومقدرات أفرادهم كان للارفاق حدان فالارفاق الأول هو الذى لا يمكن أن ينفك عنه أهل الاجتماعات القاصرة كالبدو سكان رؤوس الجبال مما يحصل به ضرورى الأكل واللبس والإيواء .

والارفاق الثانى ما عليه أهل الحضر والقرى العامرة التى ازدحمت فيها الحاجات وتقدمت فيها الأعمال وكثرت فيها التجارة فوصلوا إلى الحضارة والتمدن وكثرت بينهم الرفاهية فنشأ عنها من الترف ما بلغت إليه الملوك وهذا التمدن نشأ عنه ارتفاقان آخران .

فالارتفاق الثالث : هو الوازع بين المتمدنين حيث أن ضرورة الاجتماع والتسابق فى الترف دعت إلى التعامل وتزاحم الأغراض وذلك موجب لخلل الانتظام فاستوجب حفظه أرفاق الهيأة بإقامة الحاكم ليذود بعض الناس عن الحقوق .

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا

والارفاق الرابع : ناشيء على الثالث ضرورة أن الحاكم مهما كانت منزلته من العلم والعدل إلا وللناس فى معارضته اختيار سيما مع ما يداخلهم من الشح والحرص والحقد فضلا عن التهتك والانهماك وذلك يقضى بهم إلى عدم الانقياد له فضلا عما يقع فى النفوس من بغضه ورميه .

إن نصف الناس أعداء لمن ولى الأحكام هذا إن عدل

وهو يستوجب إرفاقه بدولة وحامية وسلطان يقهر الجبابرة والعتاة

والبغاة بما لديه من القوة الكافية لحفظ الأمة بإجراء أحكام الحكام .

ونحن إذا أردنا أن نبسط القول على هاته الارتفاقات يمكن لنا أن نقول إن الارتفاق الأول الضروري لنوع الإنسان من أعظم أصوله اللغة للمعبرة عما فى الضمير فهى أول أصول الارتفاق، فلو لم يكن الواحد عارفا بمقاصد صاحبه اضطرب الاجتماع واختل النظام ويتسع نطاق اللغة ما اتسعت الحاجات وباختلاط الأمم المختلفى اللغات يلزم لحفظ أصل الارفاق الأول تيسير أسباب حفظ اللغات وتعلمها تسهيلا له وذكر التلمسانى فى العمدة أن زيد بن ثابت الأنصارى النجارى رضى الله عنه كان ترجمان النبى صلى الله عليه وسلم بالفارسية والروسية والقبطية والحبشية تعلم بالمدينة من أهل هذه الألسن ومن الارفاق الأول الزراعة والغرس وحفر الآبار والطبخ والائتدام واصطناع الأوانى والقرب وتسخير البهائم للانتفاع بظهورها ولحومها وجلودها وصوفها وألبانها ومنه اللباس الذى يتخذ من الجلود أو الصوف أو أوراق الأشجار وهذه الارفاقات الأولية لا بد لها من صناعات أولية يحصل منها هذا الارتفاق من النجارة والحدادة والنسج إلى غير ذلك معا هو ضرورى للارتفاق الأول .

وأما الارفاق الثانى : فهو يحصل بتهذيب الأخلاق بتدبير المنزل على وجه يحفظ حقوق التزوج والأولاد والملكية والصحبة مع آداب فن المعاش ولطافة المأكل والملبس والمسكن وحفظ حقوق المعاشرة وهذه كلها إرفاقات تحتاج إلى بثها ونشرها بين أهل المدينة ليعملوا بها حقوق التمدن .

أما الارفاق الثالث : فهو حكمة ضبط المعاملات والمعلونات والاكتسابات وهذا يحصل بوضع حدود للحقوق والاشتراكات وإلزام العمل بها حتى يمكن بذلك حفظ الألفة والمحبة بين الأفراد على وجه تنتظم به المدينة وتحفظ به الحقوق المدنية ولا شك أن ذلك كله يحصل بحفظ السياسة المدنية .

وأما الارتفاق الرابع : فهو يحصل بحفظ واجبات سير الملوك وانتظام الدولة وأمانة رجالها وكفاية حاميتها وقوتها مما جميعه مدون فى أصول السياسات الدولية وبتمييز هاته الأنواع من الارفاقات يتبين أن تألف الأمم وتعاونهم على ما يحصل به انتظام الهيأة الاجتماعية يتوقف على حفظها وبحسن الارتفاق يحصل كمال الوفاق .

العدد ٣ ـ السنة الأولى (يوم الخميس ٩ ذى الحجة ١٣٠٥ و ١٦ آغشت ١٨٨٨)

جريدة الحاضرة

رفع التباس

أخبرنا فى العدد قبل هذا بعود جريدة الزهرة الغراء إلى عالم المطبوعات بعد تعطيلها حيناً من الدهر قياماً بواجب الرصافة الصحافية ولما تصفحنا العدد الأول منها وجدناه محشواً بالتعريض بجريدة الحاضرة مع لهجة تشف عن حزازات وأحقاد من أجل ذلك التعطيل بما يوهم أن الحاضرة ربما كانت من أكبر أسبابه مع أنها اقتصرت على أدراج مضمون القرار الصادر فيه بعد أن أبدت تعجبها من ذكر قصون المسجون الذى دفن حياً بعد أن مات من أثر الضرب المبرح وأدرج فى أكفانه وأعيد لسجن جقار حيث سمع أنينه راع من الرعاة أخرجه من ملحده فاستبعدنا هذه القصة كما هو المعقول إذ يبعد كل البعد أن لا يموت الملحود مفقوداً بعد انقضاء أربعة وعشرين ساعة على لحده — وشفعت الحاضرة ذلك الأعلام الذى تلقته من دواوين الحكومة بالأسف على هذا التعطيل ورأته شديداً فقالت ما نصه بالحرف الواحد:

تعطيل جريدة الزهرة

قضت حكومتنا المحمية على رصيفنا محرر جريدة الزهرة الغراء بتعطيل جريدته تعطيلا مستمراً وأصدرت قرارها رسمياً بذلك نشرته جريدة الرائد التونسى يوم السبت الفلراط وما كان ذلك إلا لما نشرته من الأخبار الزائفة بإزاء نظام السجون حيث لم يثبت لدى الحكومة ما نسبته جريدة الزهراء لحراس جبل جقار من أعمال التوحش والتعدى على مساجين المكان كما أشرنا لذلك فى عددنا الفارط ونحن نرى أن هذا العقاب شديد بالنسبة للهفوة وإن شئت الخطيئة التى ارتكبها رصيفنا المومى إليه ولعل الباعث على ذلك هو تنبيه أصحاب الجرائد الأخرى لما يجب عليهم من الاعتدال واتباع طريق

الحق فيما ينشرونه ويذيعونه بين العامة حتى لا يضللوا أفهام الناس بالباطل وأيضاً لمراعاة جانب الحكومة التى منت عليهم بإسقاط الضمان المالى فلا يطعنون فى جانبها بالباطل ويلصقوا بها وصمة الظلم حال كونها تعامل الناس بالحسنى والمعروف وتبذل ما فى وسعها من الاستطاعة لما فيه خير البلاد ومن ذلك صنيعها لجبل جقار الذى كان القصد من أحداثه أحياء مواته وإقامة العمارات والمغارس والمزارع بأراضيه الفسيحة وهى أعمال تعود بالرفاهية حتى على المساجين أنفسهم حيث كانوا مجبورين هناك على تعلم الصنائع اليدوية والفلاحية خصوصاً مع التمتع بأرباح مالية منحتها عدالة الحكومة إياهم فكان طعن الزهرة بإدارة أحراش جبل جقار هدما لأصل المشروع نفسه حيث كان مؤداه جعل النتيجة منه سلبية عوض أن تكون إيجابية كما هو الواقع ونحن نأسف لفقدان جريدة الزهرة ولكن ليكن أمرها عبرة لإخواننا الصحافيين يدعوهم للاقتداء بصنيعنا من اتباع خطة الاعتدال فى كل مايكتبون وينشرون لا على معنى إخفاء الحقائق أو الخوف من زيد أو عمرو ولكن لكون خير الأمور أوسطها .

ومنه أن الحاضرة لم تتشف فى رصيفتها الزهرة التى استاءت من نوع التعطيل بالمستمر فناقشت فى العبارة حيث قالت هذه أول مرة عطلت فيها الزهرة بحكم إدارى لمدة غير معينة (لا تعطيلا مستمراً كما زعم من يهمهم ذلك) ومن تمعن فى مدلولات، هذه الألفاظ علم أن الخلاف بين التعبيرين لفظى.

أما كون الزهرة تعطلت فى هذه الديار بحكم إدارى فليس من الغرابة فى شيء فقد تعطل من قبلها من هو أعرق منها فى الصحافة ولكن العجب من حمل عقيرتها وتجاهرها بالبغضاء على الحاضرة ورميها رصفاءها بالشماتة كأنها كانت ضيقت عليهم رحب القضاء وتعريضها بمن شرح عبارتها لمجلس الوزراء. ودسها الدسايس التى لا تروج لجريدتنا هذه بالاعتراض على أرباب الحل والعقد لتعطيلهم الزهرة بسبب جبل جقار وتغاضيهم عن الحاضرة لنقلها وقايع بلاد الكونغو وما كشفه أنصار الإنسانية من أنواع التعذيب الشنيع والتمثيل الفظيع ببعض أهالى تلك الديار السودانية .

جريدة الزهرة

نهضـــة أدبية

رعى الله السادة أبناء الوطن قد رأينا من نهضتهم الأدبية ما ينشرح له الصدر إذ ما بزغت الزهرة حتى اقتنوها باليـــدين ولم تـكن غير ساعة إلا ونفدت وعز وجدها مع كثرة ما طبع منها وأقبل على إدارتها وفود من المشاركين لها والمادحين الذين تـكرموا بزيارة مديرها وتفضلوا بالاعراب عن احساساتهم الشريفـة نحوه وأعقب ذلك ورود التحريرات الرائقة مما جادت به قرائح ذوى الأفـكار النيرة والأقلام الساحرة منها قصيدة فائقة من صوغ أفكار الأديب اللوذعي والأريب الألمعي السيد صالح سويسى الشاعر القيروانى ونصها :

أعز نفس لها الأبصار قد شخصت	من فى الحياة لنفع الجنس قد خدمت
وأفضل الناس فى الدنيا وأمجدهم	من يحيي أمتـه بالرشد إن عدمت
إنى عجبت وأيم الله من رجل	يحيا وأمتـــه بالجهل قد قتلت
فإن رأيت من الأقوام منقصـة	أو أمة فى حضيض الذل قد سقطت
فاعلم بأنهم عن دينهم غفـــلوا	وألسن الوعظ عن إرشادهم خرست
أنترك النصح فى الدنيا لأمتنـا	وكل نفس إلى الإرشاد قد خلقت
فـكم رأينا رجالا للورى نصحوا	ومن مزاياهم المسكونة ابتهجت
فالنصح أحسن شيء أنت باذله	فاستعمل النصح ان الصحف قد نشرت
وهذب القوم صاح إنهم تلفوا	إن الجرائد للتهـذيب قد جعلت
أوراق نفع تجوب الأرض قاطبة	جوالة لسبيل الخير قد سلـكت
لا سيما من غدت للوطن خادمة	جريدة الصدق من عناقد احتجبت
لا غرو ان خفيت عنـا بطلعتها	إن المقـادير تخفى كلما حكمت

وحيث كان لها فى الوطن محمدة ... وحسن ذكر به بين الملا عرفت
فقد تجلت كمثل الخود بارزة ... من خدر عفتها كالشمس مذبزغت
فنعم الفكر بالارشاد يا أملى ... فهذه (الزهرة) الغراء قد ظهرت
صحيفة حرة تبغى العلاء إلى ... أهل البلاد ومن بالخيرة اشتهرت
فعضدوها أهيل القطر أجمعكم ... فانها بلسان الحق قد نطقت
وغير خاف على أنظار حضرتكم ... بما لها من رشاد قبل ما خفيت
فالله يجعل للخيرات وجهتها ... ويلهم الناس للإرشاد ما بقيت
وان ينل أمة الإسلام قاطبة ... من كل خير به الأنفاس قد ختمت

(صالح سويسى)

مجلة السعادة العظمى

نتشكر لحضرة الفاضل البارع الأكتب السيد علي بوشوشة مدير جريدة الحاضرة الغراء بما أبداه من الابتهاج والتنويه بشأن هاته المجلة قبل صدورها وبعده ونعما تلك الملاحظة التي محض بها نصحنا وهي اعتمادنا دائما على الأقوال الراجحة في كل المسائل الدينية .

ولقد انطبق خالص هاته النصيحة ورب الكعبة على ما انطوى عليه الفؤاد واستقر عليه صحيح الاعتقاد .

أثر ما تجلت هذه العجالة للعيان تلقينا من نحو جماعة من الفضلاء الكرام عدة مراسلات طافحة بما يرشح لنا وقوعها موقع القبول والاستحسان فأردنا نشرها على حسب ورودها وفاء بعهد الأدب .

ومنها ما حرره العلامة المحقق صفوة الخيرة الشيخ السيد محمد الطاهر بن عاشور أحد أعيان المدرسين بالجامع الأعظم .

إلى العلامة التحرير صديقي السيد منشي مجلة « السعادة العظمى » أيده الله تعلى سلام وتحية وإجلال كما يليق بذي قلم سعى بصريره في تقويم الأمة وتأييد شرعة الحق واطلع لأهل لغتنا العربية شمساً طالما حجبها دونهم سحاب مركوم . وأعقب نهارها ليل هطل سماءه أفول البدر وأدبار النجوم . أما بعد ما سكنت هواجسي ولا اختلف إدراكي بأن كنه حياة الأمم ونفثة روح استفاقتها من سنة الجهالة وفساد الأخلاق ليس غير بث الفضيلة وإيقاف العيون إلى الواجبات والحاجات الأولية بعد حيرتها في ظلمات الشبهات التي غشيت أبصارها وخيلت لها جميع ما يحيط بمركزها مهاوي تتوقع السقوط إلى قعرها فلا ريبة أنها إن أشرقت عليها أنوار التيقن أضاءت لها الأرجاء فتقدمت نحو غايتها بخطا واسعة فما وصولها إليها بعد بعزيز .

أما إن ذهبت أفكر كيف يكون ايصال هذا المعنى إلى أمة كاملة وأى لسان يسمعها إن ناداها وهى تملأ من الكون فضاء رحبا ، وتختلف فى الشرب الخلاف الذى صير جمعها صعبا ، فإنى لا أجد خليقا بذلك غير اسانين لسان التعليم (وانه للسان حكيم) لكنه يشتمل على عقدة ربما لا تجعله نافعا فى ذكرى الذاهلين ، وعظة إلى المسرفين ، ولسان النشرات العلمية التهذيبية تموج صدى صوته تجاويف حروف الطبع فيخترق آذاناً طالما تصامت عن عظة الواعظين ، ويبلغ إلى قلوب غرق بها منام الحالمين ، فلا تسل بعد عنها وقد أشرقت عليها أنوار المعارف كيف تنهض إلى سماء حقائق الأشياء فتصافح أفلاكها فإن عجزت عن إدارتها لا تعدم تقد حركاتها .

ثم ما زلت راجيا أن أرى منا ناهضاً يحيى لهاته الأمة فخاراً ، ويقول لأهلها أمكثوا إنى آنست ناراً ، فهذا رجائى قد أسفر عن مجلتكم العظمى وعسى أن يقارنها من تعضيد الموازرين ماتحقق به الآمال ، وسيكون إن شاء الله من اسمها للأمة أصدق فال لكنك ستجد فى صنيعك هذا ألسناً شاجرة وصدوراً ثائرة . وعيوناً متغامزة كما وجد الناهضون من قبلك فإن استطعت أن لا تزيدك أراجيفهم إلا معرفة بكبر نفسك وتصميما على غاية فكرك ولهواً عن قولهم فإنهم حاسدون ، ويأساً من نصرتهم فأولئك هم الخاذلون . ولتكن استعانتك وتوكلك على من كفل الهداية إلى الصراط المستقيم فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم وإليك تحية صديق مخلص ونصير موازر .

ومنها ما سبك نظامه الفاضل العالم الماجد الشيخ السيد محمد الحشايشى الشريف متفقد الخزائن الكتب بالجامع الأعظم ونصه :

تشرفت باستطلاع فكركم الأسمى	وما ذاك إلا الدر ترسمه رسما
تطوقت الأعناق من سمط نظمه	فأكرم به ذخراً وأعظم به علما
وقد شنف الأسماع منا وقد غدى	يزيل عن الألباب من نوره الوسما
إليك أبا عبد الإله محمـــدا	شهادة عبد قاصر صاغها نظما

مجلتكم روض من العلم يانع ... سترقى بفضل الله أغصانه النجما
وماذا أقول فى مجلة فاضـــل ... حوت صنوف العلم مانور الفهما
وقد خلصت من كل بدعة زايغ ... لحقا بأن تدعى سعادتنا العظمى
ومن لم يشارك فى السعادة قاصر ... على نيلها فاسعد ودم جهبذا قرما

ومنها ما كتبه البارع الأديب الماجد الشيخ السيد العربى الكبادى أحد أعيان المتطوعين بالجامع الأعظم ونصه بعد الديباجة .

وما كان فضلك ليمنعنى أن أشكره ولا لينسينى الشيطان أن أذكره لذلك تحركت منى للأدب صبوة نسجت عليها العناكب وهبت عليها الصبا والجنايب فقلت :

سعادتكم فينا لقد طلعت شمسا ... فكل لها أضحى مشوقا كما أمسى
وبالله ما خطت يراعتك التى ... برقة ما تبديه تستملك النفسا
مجلة علم لم تجل فى ضلالة ... ولكن جراحات الضلال بها توسى
تقول لقاريها مقالة مرشد ... سنقرئك الحق المبين فلا تنسى
فدمتم ودامت للاثام سعادة ... وأيد العدا لا تستطيع لها مسا

محمد بن الامين الخلصى

حديث مع الرأية الفرنسية

حدثيني أيتها الرأية عن تاريخك العجيب وكيف بلغت بك الحظوظ وساعدك البخت حتى بلغت هاته المنزلة السامية،وعهدى بك وقد انزويت فى ديار قومك بعد أن طاف بك نابليون بونبارت داهية الحروب والسياسة وهو يحملك،فلم يستطع أن يثبتك فى شبر من الأرض ولم يقدر على تشبيتك فى الديار المصرية أكثر من سنوات قليلة قضيتها وأنت شديدة الارتعاش غير آمنة ولا مطمئنة،ورغما عن تدبيرات نابليون الأكبر فى استمالة الشعب الإسلامى بتلفيقه من ألوانك الثلاثة خلعا خلعها على الكبراء والأعيان ليأنسوا بك ويتخذوك شعاراً،فما ازدادوا إلا نفرة وجفاء .

وأراك اليوم خافقة على هاته الديار وقد أشرفت على البحر المتوسط من هاته الناحية واخترقت القارة الأفريقية طامحة إلى تكوين مملكة واسعة تمتد فى شمالها،وأرى فى مغامز عيونك نظرة الشوق إلى استيعاب هذا الخط المستقيم حتى لا تترك للعابر فى هذا الساحل مسير قدم لا يرى فيه إلا ألوانك الثلاثة تحرسه وتحييه.فأتوسل إليك بشرفك أيتها الرأية إلا ما شرحت لى سر هذا الاقتدار وأسباب هاته الصولة وبأى وسيلة قدرت على إخضاع هاته الملايين العديدة المشهورين بالأنفة والعزة والذين كانوا لا يدينون بالطاعة إلا لراية الهلال،تلك الراية التى طالما نصروها واستماتوا فى سبيل شرفها وأراقوا دماءهم الغالية فداء لحياتها،وأجدك قد حللت محل هاته الرأية المبجلة عند هؤلاء الأقوام بدون شديد عناء وكبير كلفة،كأنهم لما أبصروك نزعوا ما فى قلوبهم من غل واطمأنوا برؤيتك غير ناقمين ولا خائفين .

فتبسمت الراية المثلثة وقد آنست من لهجتى سذاجة خالية من التعصب

والغيظ، وتوسمت فى وجهى حب الاكتشاف عن أسرار ارتفاعها وعلو مكانها ورسوخ قدمها فتنازلت لتملى على مر أحاديثها ما يشفى غلة بحثى وقالت. أنى لم أصل إلى ما وصلت إليه اليوم من السمو إلا بسعى أبنائى واجتهادهم فى جلب المصالح وخدمة الإنسانية، خدمة جعلتهم مرموقين بعين الاعتبار من سائر المستظلين بظلى والداخلين تحت حمايتى لأنهم إذا دخلوا قرية أصلحوها وجعلوا أهلها أعزة وأرشدوهم إلى المنافع وسلكوا بهم سبل السعادة والرفاهية، وأمدوهم بما فى وسعهم من علوم ومعارف، ومع ذلك يثبِّتوهم على أصولهم وعوائدهم ويحترمون شعائرهم ولا يمسون جوهر جنسيتهم بسوء. ولذلك ترانى محبوبة عند سكان الأقطار الكثيرة الذين يرون من حسن حظهم دخولهم فى كفالتى التى ذاقوا حلاوة ما يجنون منها من ثمرات نافعة فهكذا كنت أحل فى أى مكان بدون أن أجد مقاومة أو أصداف معاندة لأنى ملأت العالم بصدى مقاصدى الحسنة التى يحبها كل من سمعها ويودها كل محب لنفسه وجنسه، وأرانى قد اقتنعتك بهذا البيان وكفيتك حيرة الاستغراب من رأيتك إياى وأنا واقفة فى موقفى هذا على رؤوس هاته الملايين الكثيرة، ولكننى حدثتك بهذا الحديث وأنا مضطربة الفكر شديدة الحسرة لأنى أراك ناحل الجسم من أثر الجوع مشوه الخلقة من أثر المشقة خلق الثياب من أثر الفقر فارغ الفؤاد من أثر الجهل، وكذا أحسبك لا تجهل ما أقصه عليك وأنت فى هاته الحالة التعيسة، وقد قضيت تحت ظلى خمسة وعشرين عاماً خلتك قد بلغت فى أثنائها مبلغ أبنائى الحقيقيين الذين ما طاوعتهم على التبرع بظلى هذا على أرضكم هذه إلا بعد أن أخذت عليهم موثقاً غليظاً أن يسلكوا بكم سبل الارتقاء ويفتحوا فى وجوهكم أبواب الثروة ويهيؤكم لمستقبل سعيد، لأنى لا أرضى أن أخفق على ديار سكانها أشقياء وأولياؤها تعساء، وأنى لأفضل البقاء على طيتى الاسطوانية منكمشة فى هاته الأثواب الملونة، ولا أنشر على رؤوس قوم يهددهم الجهل ويؤلمهم الفقر، ولا يليق بشرفى أن أحمى قوما تولاهم الذل وبلغت بهم المسكنة إلى درجة أطباق الظلمة على أبصارهم فلا

يهتدون إلى النجاح سبيلا ولو لم تكن مقاصدى حسنة لما رأيتنى أرفرف على ديار كانت مستنيرة بضوء الهلال وخير لى إذا كانت مقاصدى عكس ما شرحت لك أن أتركهم وهلالكم ولا يعنينى تكامل بدره أم بقى على الضعف والتقهقر .

فقالت لله ما أطيب حديثك أيتها الراية الحرة وما أبرد هذا الحديث الاحساس على كبدى فهل سمعه منك أبناؤك وهل علموا بتفكراتك هاته الشريفة يوم أقبلوا علينا فقبلناهم فرحين مستبشرين بضيافتهم .

قالت نعم وأنا الشهيدة عليهم يوم رفعونى على أسوار بلادكم وأنتم تنظرون إلى نظر المستبشر الذى لا يتحفز المقاومة ولا يرمى ببصره إلى الانتقام والتغيظ ولذلك كنت هادية الخاطر منشرحة الصدر لعلمى بأن أبنائى سيفون وعدهم ولا يبخلون عليكم بالارشاد الصحيح والمسالك النافعة وأزيدك أنى ازددت وثوقا وارتياحا لما سمعتهم يؤكدون عهودهم وقد قام فيهم وزير الخارجية لذلك العهد وهو المسيو سان هيليار قائلا ما مؤداه : «ستشهد أعمالنا فى تونس بأننا لا نقول غير الحق وانا لا نفكر فى ضم تونس إلى أملاكنا ولم نمتلكها وحيث كانت الأحوال على ما يرام فستكون وجهتنا مصلحة البلاد ومصلحة التمدن والانسانية معاً» ، وكثيراً ما سمعتم يصرحون بمثل هذه التصريحات فازداد إعجاباً وتيها وتهب على نسمات السرور فأتمايل ذات اليمين وذات الشمال لأنى لا أحب أن يدخل تحت ظلى من فى قلبه مثقال حبة من الجهل أو أسمع من فمه كلمة سخط من الفقر ولو كنت تعلمت وتمتعت بما يتمتع به أبنائى لأغنيتنى عن هذا الحديث الطويل ولقد ساءتنى رؤيتك وأنت فى حالة بؤس وشقاء تسترحم حتى القلوب الغضة والطباع الغليظة .

فقلت اعذرينى أيتها الراية العزيزة واسمحى لى أن أفارقك فإنى لا أريد أن أكدرك بعد ما علمته من سلامة ضميرك وحسن مقاصدك نحونا وأجدك تألمت كثيراً من اكتشافك عن حالتى التعيسة التى استنبطت منها قياساً صحيحا على حال الأمة التونسية قاطبة المغمورة بحمايتك أيتها الراية المحترمة فأذنى لى

بالانصراف من بين يديك عساك تستريحى من منظرى الذى آلمك كثيراً ومنعك أن تزهو مع الريح الذى أراه يساعدك على الرقص والخفقان .

قلت لها ذلك وهممت بالقيام وقد علتنى سحنة اليأس وفارت فى وجهى غلوة دموية أثارتها تخيلاتى المحزنة وشعورى بأنى أعيش حقيقة فى الوقت الذى يظنونى أتقلب فى نعم السعادة والرفاهية .

فتأثرت الرأية من منظرى ودفقت من عينيها دمعتان كبيرتان دفعتهما تأثيرات الشفقة والحنو على شعورها الرقيق وسكبت أنا من عبرات الحسرة دموعا حارة فنظرت إلى وقدأخذت تكفكف دموعى وتروح على وجهى بذيلها الأحمر لترد حرارة تذكيها تأثيرات متوالية وبسطت لى من طرف ذيلها الأبيض ما سترت به كتفى المكشوفةلحر الشمس وقالت :

حيث كنتم فى هذا الدور من الانحطاط فمالى أسمع الموسيقة تصدح فى شوارعكم وتستمد من أموالكم الضيقة كأنكم استكملتم لوازمكم من الجمعيات العلمية والتجارية والخيرية فقلت لهاوقدغشينى منالخجل ماغشينى أيتها الرأية العزيزة إن فىقومى طائفة يعتقدونالترقى بالطبول والمزامير فقالت عجل الله بشفائهم من مرض هذا الظن وأرشدهم لما فيه نجاحهم .

فأحنيت أمامها إظهاراً لتشكراتى واكتفيت بفراستها عن أن أصرح لها تصريحات أراها من الفضول بعد ما أنست من لهجتها إخلاصاً حقيقياً ومن حركتها سعياً أكيداً لتحقيق أمانى الشعب التونسى فأشرت لها بتحية الأوبة فقاطعتنىقائلة إنلسان الجرائدهوأعظم عامل يؤثر علىأبنائىفانشروا علىصفحات الجرائد ماشئتم منمطالب عادلة ترمىإلى إصلاح حالكموتقويم شئونكم ولتكونوا ناطقين بكل حرية فإن أبنائى لاينقمون عليكم هاته الخطة فهم منأعز نصرائها وهذه اللون الأحمر الذىتراه شعارى هو صبغة من دماء أبنائى يوم ثار ثائرهم ينادى بالحرية فلم يهد حتى نالها .

فقلت عفواً أيتها الرأية الحرة فلوشرحتلك حديث الصحب والجرائد

وأبنت لك قيمتها فى أعين أبنائك لازددت أسفاً ذلك لأنا نتكلم بلغتنا العربية وهى لغة لا يفهمونها ولا يعترفون بها إلا قليلا ولذلك كانت مطالبنا عديمة الأهمية كأننا نصرخ فى الفضاء ولقد انتدبنا من بين أبنائك من أنبناه عنا ليتكلم بلساننا وتنطق بلغته فزادنا نكبة على نكباتنا ولا أحب أن أفضحه أمامك أيتها الأم الشفوقة .

فقالت الرأية وقد ظهرت عليها أمارات الاهتمام انى قد استوعبت جميع مقاصدك رغما عن عجزك ولكننى فارقنى يومك هذا وارجع إلى بعد حين فإنى مرسلة اليوم بنصيحة فناظرة ماذا يفعلون وقد اخترتك سفيرا بينى وبينهم وسأجدك إن شاء الله الرسول الأمين (أمين)

جريدة الصواب — عدد ٧٢ (٢٢ رجب سنة ١٣٢٣ ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٠٥

محمد بن الخوجة

وفى سحر يوم الأحد ٢٦ ربيع الثانى الموافق ١٠ فى يولية الذى هو يوم السفر الميمون قدم القطار الملوكى وأخذ موقفه بمحطة خير الدين منتظرا وفود الحضرة العلية فأقبلت أبقاها أمة تجر ذيول العز وترفل فى حلل السعادة محفوفة بسمو ولى عهدها الفخيم وكافة آل بيتها الكرام وجناب المولى الوزير الأكبر وجناب صاحب الطابع وجناب شيخ المدينة وجناب عامل الأحواز وبقية الذوات فما امتطت متن القطار حتى اخترق بخاره عباب الفضاء وجد فى السير نحو الحاضرة فوصلها فى الساعة الرابعة ونصف تماما وإذ ذاك انتظم من رجال الحاشية وعساكر العسة المصونة موكب بهيج سار نحو سراية المملكة حيث كان فى استقبال مولانا العلى كافة الضباط والمأمورين والعمال والموظفين من سائر الطبقات بملابس التشريفات الكبرى لحظوا بلثم الراحة الكريمة قياما بواجب الموادعة والطاعة والاخلاص لسيدنا الكريم وفى تلك الأثناء أقبل على الحضرة العلية جناب معتمد السفارة العامة مصحوبا برجال حاشيته بلبوسهم الرسمية وبعد أن قدم جناب المعتمد مراسم احترامه ووداده للحضرة الشامخة انتظم الموكب من السرايا إلى مرسى تونس فركب مولانا العلى عربة الأعياد الكبرى وأجلس على يساره جناب المعتمد الفرنساوى وركب أمراء البيت الملوكى ورجال المعية وبقية الذوات فى عشرة من العربيات وسار الموكب فى أبهة بهجته وجلاله مخترقا صفوف العساكر الفرنسوية والتونسية وأفواج الخلائق وقد غص بهم رحب الفضاء مارا على بطحاء القصباء فشارع باب المنارة فشارع باب الجديد فنهج الجزيرة فنهج الصادقية فبطحاء السفارة فميدان البحيرة فشارع البورت وكانت هاته الشوارع قد أخذت منذ البارحة حظها من مظاهر الزينة الفائقة ومجالى الاحتفال الشائقة مزدانة بعدد لا يحصى

من مجموعات الأعلام التونسية والفرنسوية علاء لشأن هذا الحادث الميمون وقياما بواجب الأكرام لأمير البلاد الذى أسبغ نعمه الضافية على العباد كما أقيمت سرادقات أنيقة وزينة باهرة بأسكلة المرسى الموصلة للباخرة الحربية المعدة للركاب الملوكى موشحة الجوانب بالأقمشة الرفيعة مكللة الأطراف بالستور المزركشة الموشاة بالطغراء الملكية مفرشة بأنفس البسط والزرابى الشرقية بما كان مجموعه آية فى حسن التنسيق والترصيع .

لما كانت الساعة السادسة تماما حل الركاب العالى لدى السرادق الأكبر المواجه للباخرة الحربية (دونوا) المخصصة لركوب سموه من تونس لحلق الوادى فدخله آمنا بين ضجات الهتفات والهيام ونغمات النشيد الوطنى وقعقعة السلاح وأصوات المدافع مخترقا صفوف الذوات والأعيان من سائر الطبقات العسكرية والمدنيـة وأرباب المظاهر والحيثيات المتسابقين لابداء شعائر احترامهم وولائهم ومراسم وداعهم للذات الملكية .

ثم تقدم الجناب الملوكى نحو الطاير الميمون وقبل أن يركبه صافح مصافحة الكرام كلا من الذوات الفرنسويين الحاضرين ثم قبل يده الكريمة على معنى تحية الوداع سمو ال البيت الحسينى السنى وسائر الذوات الحاضرين من التونسيين وفى تلك الأثناء كانت أفواج الوافدين على جوانب الرصيف لاهجة بالدعاء للمقام المملوكى وألسنتهم تنادى من أعماق أحشائهم بعبارة (الله ينصر سيدنا) وجوارحهم تختلج فرحا وسرورا لفرط ماداخلهم من الهيام والوجد والاخلاص المبرهن على تعلقهم بأذيال العرش الملوكى الحسينى خلد الله بقاءه .

ولما كان الجناب العالى بمدرج الباخرة هتف كمندانها وربانها بضجات الهتاف والترحاب مكررين لفظة « هورا » الدالة فى عرفهم على الدعاء بالنصر والبقاء فامتطى مولانا الجليل متن تلك الباخرة مصحوبا بجناب المعتمد الفرنساوى وسمو نجليه الأسعدين وجناب الوزير الأكبر وبقية رجال الحاشية المعينين للسفر مع سموه الملوكى وهم الذين ذكرنا أسماءهم آنفا ولما

صعدت الحضرة العلية وحلت بالتختوان المزركش المعد لجلوسها رفع العلم الملوكى الحسينى على أعلى صوارى الباخرة وكانت كلها مزدانة بالرأيات من جميع الملل والنحل وإذ ذاك تجلى حضرة مولانا على الحاضرين مرارا بمزيد عنايته مشيرا إليهم بمظاهر التحية والتعطفات السنية وكان الناس كأنما على رؤوسهم الطير والمنظر من أبهج ماتراه العيون ولما تحرك الفابور وأقلع من مرساه قاصدا مياه حلق الوادى عاد أولئك الجموع وكلهم ألسنة ناطقة بالدعاء لسموه ببلوغ المرام وبقاء ملكه على ممر الأعوام ولما مرت الباخرة دونوا من بوغاز حلق الوادى وأمام رأس جبل المنار اجتمع على جوانب ساحليها كثير من أهاليهما على اختلاف الملل والنحل وابتهلوا بصوت واحد من أعماق صدورهم بخالص الدعاء بما دل على تعلقهم بأذيال الملك الأرفع والكهف الأمنع أمير البلاد ومن أخلص فى حبه الحاضر والباد.

الرزنامة التونسية سنة ١٣٢٣

محمد النخلى

الشعر العصرى

وردت لنا القصيدة الآتية جادت بها قريحة الفاضل الفقيه الأديب المدرس الشيخ السيد محمد النخلى القيروانى أحد أعيان المدرسين بالجامع الأعظم فى التذكير بمحامد المدنية الإسلامية وما كان للإسلام من الأيادى البيضاء والقدح المعلى فى إشراق أنوار العرفان ونشر لواء المعارف العمومية يستنهض بها الهمة والحمية لسلوك هذه الطريقة المرضية وحيث كتبنا على أنفسنا أدراج هذه التنشيطات الأدبية فقد نشرناها تباعا لضيق المقام ونصها بلفظها الرايق ومعناه الفايق .

هو المجد فى الإسلام أثله العلم ... على مقتضى دين به انقشع الوهم

تعال نباكر روض آثاره التى ... على صحف التاريخ يبدو لها رسم

وقم نقتطف زهرا جنيا منشقا ... لنا شق ذى لب يروق له شم

لعل أناسا يجنحون بحزمهم ... لاحياء ميت قبل أن ينخر العظم

ففى كتب التاريخ إيقاظ نائم ... قضى العمر فى نوم يروقه حلم

تكلس فوق الدين كلس ابتداعنا ... فلم تنخرق منه الأشعة كى نسموا

فأصبح أقوام يقولون ما اشتهوا ... وغاب حماة الدين فانتشر الوهم

لعمر الهدى أن الهدى هو ديننا ... وما بعده إلا الظلال له ركم

فسل دولتى رومان والفرس ماعرا ... بلادهما والحق سيف به القصم

يسوقونهم للحكم بالشرعة التى ... شذا عطرها يحى الموات له نم

وإلا فتذميم بذمـــة عادل ... يخاف عذاب الله أن ينقض الحكم

على ذا مضى الإسلام يصعد راقيا ... إلى أن غدا من تحت أخمصه النجم

فمد جناحيه بشرق ومغرب ... وجاز اكتشاف القوم ماحجز اليم

دوت من صدى آثارهم كل بقعة ... وأرغم جبار وحق له الرغم

كذا كان قومى إذ سواهم سواذج ... ولا علم إلا الحس لم يتله فهم

إلى أن أتاح الله أسباب خلطة ... بها علموا أن الكمال هو العلم
هم استبضعوا من أرضنا العلم متجرا ... يبثونه حيث الجهالة والوهم
وحيث استرق القوم أرؤس شعبهم ... وحيث استبد الحكم واحلولك الظلم
فصارت شموس العلم تطرح نورها ... بأرض سوانا فاستضأ الغور والأكم
وأشرق نور الاختراع على الورى ... وعطل فى الأعمال ماشبه القدم
ووافتهم من عنصر النار خدمة ... لها من طباق الأرض يستخرج الفحم
وشفعها سر الطبيعة كهربا ... ارتنا محال الاعتياد له تم
وما زالت الأعلام تبغى تصاعدا ... إلى نقطة دقت وسيلتها العلم
ويخطر بالأفكار أحداث مبدع ... يغطى على ماجد أن ضوعف الحزم
ألم تدر أن العقل لم ينتهى إلى ... قصاراه واستعداده ماله حسم
أيجمل أنا نشرك القوم فى النهى ... وفينا أناخ الجهل وانتشر النظم
أضعنا أصول الدين وهو نخارنا ... وأهمل علم فى تناوله الفخم
ولم نحتفظ إلا على كل بدعة ... تيقنها وهم وظنتها رجم
تركنا غذاء أودواء لدائنا ... يجهزه شرع تضىء به الدهم
ولم نرتدع عن فعل ما استخلفت به ... جراثيم أسقام يموت بها الجسم
فهذى بحمد الله بعض معارف ... يقدمها اخواننا نفعها جم
فعضوا عليها بالنواجذ صعدا ... وبالدين للاصلاح والرشد فأتموا
ولم أر عيبا مثل نقص بقادر ... على نيل ما فيه لعليائه ختم

(جريدة « الحاضرة » ١٨ محرم — ٣٠ أبريل سنة ١٣١٨ و ١٩٠١

نضارة التمدن الاسلامى

بلغ هذا الخبر عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأشار عليه بعض الصحابة بالنهوض بنفسه لفارس أن يكون هو قايد الجيش العام فقال : « أفعل ذلك إلا أن يجىء رأى هو خير من هذا » ثم عقد مجلس شورى وعرض عليهم الرأى الذى رآه بعض فأجمعوا على أنه يبعث رجلا من كبار الصحابة ويبقى أمير المؤمنين من ورائه يمده بالامداد فصعد المنبر وبث هذا الرأى وقال :

« أيها الناس أنى كنت عازما على الخروج معكم وأن ذوى اليد والرأى منكم صرفونى عن هذا الرأى » ثم استشارهم فيمن ينيط به هذه القيادة فأشاروا بسعد ابن أبى وقاص وكان غائبا فاستحضره وقلده رئاسة الجيش وأوصاه بقوله « ياسعد أبن أم سعد لايغرنك من الله أن يقال خال رسول الله وصاحب رسول الله فإن الله لايمحو السىء بالسىء ولكنه يمحو السىء بالحسن وليس بين الله وبين أحد نسب إلا بطاعته. الناس فى دين الله سواء وهم عباده يتفاضلون عنده بالعافية ويدركون ماعنده بالطاعة فانظر الأمر الذى رأيت فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم يلزمه فالزمه » .

تأمل الحكومة الشورية كيف تكون السلطة فيها بيد الأمة وتكون وظيفة الأمير تنفيذ آرائهم وتحقيق رغائبهم . استشار عمر بن الخطاب مجلسه (وهو مجلس الأمة) فى النهوض بنفسه فصرفوه عن هذا الرأى فانصرف ثم استشارهم فى تعيين قايد الجيش فأشاروا بسعد فنفذ رأيهم وبهذا وغيره وهو كثير تعلم أن حكومة الخلفاء الراشدين كانت حكومة شورية بحتة لا مجال فيها للاستبداد وتنفيذ شهوات الأفراد ثم تأمل فى خطابه للقايد سعد كيف تجده يأمره بالاعتماد على العمل فقط وأن نسبه خاليا عن العمل لايغنى عنه من الله شيئا وهو ماكان يمليه الدين ورأى عليه خاتم النبيئين وأن ليس للانسان إلا ماسعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى وضرب الله مثلا للذين كفروا مرأة نوح وامرأة لوط كأنتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا .

[ؤ(مجلة خير الدين عشر رجب ١٣٢٤)

محمد الطاهر ابن عاشور

من أكبر الأسباب فى تقدم الأمة بعلومها وقبولها لرتبة التنور وأهليتها للاختراع فى معلوماتها أن تشب على احترام الآراء على الوجه الذى وصفنا من قبل وعسى أن نصف من بعد وقد كان للمسلمين من ذلك الحظ الذى لم يكن لغيرهم يومئذ من التسامح والتساهل مع الأفكار شهد بذلك التاريخ وأهله إلا المتعصبين منهم مع ما كان قائما بين أصناف أهل الآراء من التناظر والجدل ولكنك لا تجد ذلك محفوفا بتعصب ولا اضطهاد كنت ترى الأشعرى بين يدى المعتزلى لا يستنكف عن تلقى فوائده والاعتراف له بحق التعليم وترى السنى يتعلم عن القدرى وعن الفيلسوف الشاك قد كان عمرو بن عبيد الزاهد الشهير من خاصة تلاميذ الحسن البصرى (رحمهما الله) وهو الذى كان مكلفا بكتابة مايمليه الحسن من التفسير الذى يرد به على القدرية والمعتزلة وما كان يمنعه ذلك من المجاهرة بأتباعه مذهب المعتزلة ومن التحاقة بدروس واصل بن عطاء الغزال الذى قال له الحسن لما كثرت مناقشته «اعتزل مجلسنا» فكان عمرو ابن عبيد يختلف إلى الدرسين جميعا وما كان ذلك يمنع الحسن من تكليفه باملاء تفسيره . حتى استخدم اختلاف الآراء آلة للتشيع السياسى حين آذنت الدولة العربية والجامعة الإسلامية بالانحلال والافتراق الذين تركا من الآثار مانحن نتخبط فى مصائبه ولأوائه حتى اليوم . وكذلك الحجر على الرأى يكون منذرا بسوء مصير الأمة ودليلا على أنها قد أوجست فى نفسها خيفة من خلاف المخالفين . وجدل المجادلين . وذلك يكون قرين أحد أمرين . أما ضعف فى الأفكار وقصور عن إقامة الحق وأما قيد لاستعباد الذى إذا خالط نفوس أمة كان سقوطها أسرع من هوى الحجر

الصلد حكى الجاحظ أن النظام دخل على شيخه أبى الهذيل العلاف فقال ياأبا الهذيل . لم فررتم أن يكون الله تعلى جوهراً خشية أن يكون جسما فهل فررتم أن لايكون جوهرا مخافة أن يكون عرضا والجوهر أضعف من العرض فبصق أبو الهذيل فى وجهه فقال النظام قبحك الله من شيخ فما أضعف حجتك وكان الخليفة المأمون يقول لأهل ناديه إذا جاروه على كلام « هلا سألتمونى لماذا فان العلم على المناظرة أثبت منه على المهابة». دامت على ذلك الأمة الإسلامية متمتعة باحترام الأفكار جرىء كل واحد على أن يبوح برأيه وجرىء كل مستمع على تقويمه بالحق وأن وقع فى خلال ذلك حادثة خلق القرآن وحادثة صغيرة وقعت بالقدس بين الباطنية وأهل السنة إلا أنهما لأسباب عالية وغلط فاحش لايسع ذكره اليوم . لما استخدمت الآراء للسياسة وشاعت المداهنة بين الناس وضعفت الكبراء عن الحجة يومئذ ساد اضطهاد الأفكار والضغط عليها كى لاتسود على مخالفيتها القاصرين الظاهرين فى مظاهر العلماء المحققين . نعنى بالسياسة مايقرن سياسة الدولة فى تصرفاتها وأغراضها بسياسة الأشخاص المسيطرين فى هواهم وربما كان القسم الثانى أشد على الأفكار لكثرة دواعيه ووفرة منتحليه وأنواع وجهتهم فى هذا الغرض . منهم من يفعل ذلك إبقاء على منصبه واستحفاظا على وجاهته لأنه يخال أن كل مخالفة له فى الرأى تنذر بثل عرشه وزلزال أركانه والمريض كثير الأوهام . ومنهم الذين يسخط من مخالفة المعتاد ويرى العادة دينا أو شبه دين يجب أن لايتلاعب به الشخص . ومنهم الذى يتوهم أن الدين يخالف احترام الآراء وهذا إن شئت أن تجعله فرعا من سابقه وجدته لك أطوع من نعلك . ومنهم الحاسد العاجز الذى يحب أن يظهر فى مظاهر الكمال بكلمات يلفقها ويحس فى ذكر ذلك لذة مادام منفردا بها فان شاع ذلك بين الناس تميز من الغيظ . كنت أعرف رجلا ينادى بين الناس باسم النقد للحالة والطعن فى الأوضاع المعتادة وربما ترقى إلى بعض الشتيمة زمان كان يقول ذلك وحده يحب الشهرة وما يلقاها . ويترصد طريقها ومايقع بمرآها . كان يومئذ مستأمراً بورقات

ينقل منها مايلغط به فلما امتدت الأيدى وانبرت العيون إليها واستوى مع غيره فى معرفتها انصاع يقبح ذلك الحال . ويرى خلفه ودعاءهم فى ضلال . مما يخص بالرعاية والاحترام أفكار المتقدمين الذين وصلوا بنا إلى حيث ابتدأنا من العلم والمدنية عوضا أن نكون فى متحركهم الأول نبتدى سيرا بطيئا . كما قال أن الإنسان ابن يومه لا ابن أمسه فهو أيضا ليس بابن لغده فمقدار فضيلة الرجل ومكان شهرته لاينظر فيه إلى غير يومه الذى كان فيه فلا يغلط لنا كثير من الناس ينتقصون الأقدمين بمستدركات المتأخرين فانما تعرف مقادير الرجال بما أوجدوه لا بما تركوه . ولكن طرق الشهرة لاتختلف وهى قوة الفكر ومرتبة العلم والعمل على تنوير آراء المتعلمين والقارئين فى عقل صحيح ونية قويمة ونصح جهير . قد استهوى هذا الغلط الشيخ أبا على ابن سينا (رحمه الله) حين بالغ فى ثنائه على أرسطو حتى قال « أما أفلاطون الإلهى فإن كانت غايته من الحكمة ماوصلنا من علومه فإن بضاعته إذن لمزجاة » وكأنه نسى أنه لولا أفلاطون بكلماته القليلة ماخول لأرسطو أن يبنى عليها كثيرا لكان أرسطو هو أفلاطون وبضاعته الوافرة كانت مزجاة

هذا أيها الناشئون على النقد الباحثون عن الحكمة نبراس مبين أقمناه بين يديكم ليضىء لكم مستقبلا نيرا وعسى إن اهتديتم بضيائه واحتفظتم عليه من عواصف الأهواء والشبهات أن تحمدوا غبه وتسلكوا به طريق العقلاء فتصبحوا سمراءهم والله يضىء آراءكم بالحكمة .

السعادة العظمى عدد ١٨ المجلد الأول (١٦ رمضان المعظم سنة ١٣٢٢)

يوم ٥ من الشهر الجارى قام بمسامرة فى موضوع « أصول التقدم والمدنية فى الإسلام ، صديقنا العلامة الشهير والدراكة الخبير فريد عصره المفضال سيدى الطاهر بن عاشور المدرس من الطبقة الأولى بالجامع الأعظم وبالمدرسة الصادقية ولما فى تلك المسامرة من الفوايد التى لا تحصى أحببنا إدراجها على صفحات هذه الجريدة تعميما للفائدة وخدمة للأمة وهـذا نصها بلفظها الرايق ومعناها الفايق :

بسم الله الرحمن الرحيم

وإياه نستعين . والصلاة والسلام على رسوله الصادق الأمين .

أيها السمراء الكرام إن الغرض من مسامرتنا هاته الليلة إجابة مقترح صديقنا السيد رئيس هاته الجمعية من البحث عن أصول التقدم والمدنيـة فى الإسلام وما ينتزع المسلم منها دليلا ليهتـدى به إلى مناحى الخير والسـعادة وهو كما تعلمون مرام متعاص عن الارتياض للمتهجم عليه من حيث أن الباحث عن علاقة دين بالمدنيـة لا محيص له عن النظر فى أطوار الأمة المنتحلة إياه وتاريخ نهوضها وسقوطها وميزان الحال التى تـكون فيها زمان ظهور ذلك الدين . وهذا الطريق مهما كان وعراً فإنه فى تاريخ الإسلام أوعر وأجهـد للباحث إذ قد سبق للمؤرخين من أهمال العناية باستنتاج الغايات من أسبابها وإهمال التعليل لا سيما فى نشأة الدين ما ينوء بهمة المريد للفلسفة العمرانيـة خصوصاً فى مثل هـذا الموضوع العملى . اللهم إلا متى كان ذا قريحة وقادة ترمى بسهمها الأفلج شارد الحقيقة فتصيب شاكلتهـا وتضىء بنورها الأبلج مهامه الأوهام فتنيرها ولا أكتمكم أنى لست عند هاته الأوصاف وإن حسنت نظرتكم فى حين الاقتراح بيد أنى لا أعدم عزيمة ومصابرة يلين أمامها بعض

ما قد كان شديداً فلذا رأيت أن أجعل عمدتنا فى هذا الموضوع روح الإسلام وحقيقته من الكتاب والسنة مع الاستعانة فى ذلك بآراء المحققين من أهل عصرنا وقواعد الأيمة من سلفنا . وأستمنح منكم أن تصفحوا عما عساكم أن تروه من تقصير .

أرى أول شىء يفتح لنا باب الحديث هو النظر فيما هو المقصد الذى يسعى إليه الإسلام لأن الباحث عن حقيقة شىء مضطر للبحث عن مقاصده وآثاره ليرى هل كانت الآثار جارية على خطة المقصد ولأنه لا يمكننا استقصاء البحث فى جميع ما نشأ عن الإسلام من فروع المدنية وتشخيص مبلغ المسلمين فيها الذى أهلهم إليه دينهم بل نكل ذلك إلى تاريخ الحضارة الاسلامية لنراهم كيف كانوا لا يخطون إلى شىء إلا بعد الإذن فيه من دينهم وكيف خطوا خطى واسعة من التقدم والمدنية قد أصبح الكثير من الناس يعد معشارها اليوم زندقة ومروقا من الدين فعقدة بحثنا الليلة فى أسوس الإرتقاء البشرى أين أقامها الدين الاسلامى وثمراتنا من هذا شيئان أولها فلسفة عمرانية لهذا الدين المبين وثانيهما تشخيص حقائقه لمن قد يذهل عنها .

جريدة حبيب الأمة (السنة الأولى — عدد ١٢ ربيع الثانى سنة ١١٢٤)

صالح سويسى

يا أهل تونس

يا أهل تونس قومى مالكم غربا ... عن موطن العلم أو تعليمكم أدبا
يا أهل تونس قومى استيقظوا فلكم ... مجد على هامة العلياء قد نصبا
يا أهل تونس قومى استدركوا رمقا ... من عزكم قد أراه اليوم منقلبا
هيا ادفعوا عنكم دهماء مظلمة ... سحائب أرعدت ما أرسلت صببا
هيا اقلعوا عن معاص طالما فشيت ... تسود الصحف والأوراق والكتبا
هيا انصتوا لى فانى ابن موطنكم ... لا أشتكى أبدا فى نصحكم تعبا
هيا املأوا من علوم العصر حافظة ... فبالعلوم ينال المرء ما طلبا
أسلافكم قد قضوا فى عزهم ولهم ... ذكر له فى بطون الكتب حسن نبا
إنى أراكم حيارى لا دليل لكم ... ألا ارفعوا عن محيا مجدكم حجبا
انى افتكرت لداع فى تأخركم ... فلم أجد غير نبذا العلم لى سببا
قد ساد غيركم بالعلم واجتهدوا ... وحصلوا من فنون العصر ما نضبا
يا قومى انتبهوا من نوم غفلتكم ... وحصلوا ما ما يزيل عنكم الكربا
باب العلوم غدا فى القطر مفتتحا ... راح المعارف تحيى كل من شربا
جمعية «الخلد» تحبو من معارفها ... «ونية» الصدق فيها أنتجت نجبا
جمعية العلم حلت بين أظهركم ... بودها أن تراكم خير من حدبا
أموا مواردها انى النصوح لكم ... والنصح فى ديننا من خير ما وهبا
الله يعلم انى كلما ذكرت ... نفسى تأخركم دمعى له انسكبا
أبناء قطرى بودى أن أرى لكم ... شهامة قد تحاكى السبعة الشهبا
انى امرؤ قد تفانى فى محبتكم ... فقابلوا صدق نصحى بالذى وجبا

(زفرات الضمير)

(عيد النحر وخطاب الضمير)

مالى أراك قد استبشرت بالعيد ... وأنت بين الورى فى سوء تنكيد
مهلا رويدك أن الخلف أوقعنا ... فى عظم معضلة حفت بتهديد
هل أنت تفرح بالأعياد تقطعها ... وحالك اليوم لم يقرن بتسديد
أضحت مصالحنا مثل «الضحايا» لها ... فى كل مجزرة ذبح بتشديد
فى كل يوم نرى للنائبات يدا ... أظفارها نشبت فى جسم مفرود
لا بالحوادث صوت الوعظ يوقظنا ... من نومة لم تزل آلامها تودى
يا أيها الغافل الزاهى بموسمه ... زهو الطيور إذا غنت على العود
قد رفرفت فوق غصن الروض صادحة ... ردحا ففاجاها الصياد فى البيد
فلم تكن لحظة إلا وقد وقعت ... فى الأرض مخضوبة الأطواق والجيد
قم ردد اللحظ بين الجنس معتبرا ... لا تلف غير امرء بالذل مصفود
آه وليس بمجدينا التأوه مذ ... حل التألم فى أحشاء مجهود
فالحر يغتبط الأموات إن قبروا ... لأنه ليس فى الدنيا بمعدود
يا هل ترى سنرى عزا نصول به ... قبل انقضا أجل فى الدهر محدود
هناك نحى بأفراح مواسمنا ... وبافتخار نهنى القوم بالعيد

(زفرات الضمير)

نجم هالى

أحلام لو صحت

أودع هـــذه الدنيا وداعا   يمازجـه السرور على الفراق
وأكره أن أعود إليها يوما   لأنى قد سـئمت من النفاق
فهذى الأرض قد ملئت شرورا   وغير شكلها عـدم الوفاق
أما للنجم من ذنب متين   يصادمها فتعـدم بالمحاق
لنطرح هاته الأحمال عنا   وننجى النفس من ألم الخناق

*

أرى ملك الكواكب إذ تجلى   بمنظره من السبع الطباق
فابصر قومنا فى سوء حال   تجنـد لهم سيوف الافتراق
فقلت له بمن أعطاك سرا   تكل به البدور عن اللحاق
أرحنا من حياة الذل يوما   فنحن إلى المنيـة فى اشتياق
فلو تبـدو بصولتها إلينا   نقابلها ببشر واعتنـاق

رواية

الهيفا وسراج الليل

قد ألف صديقنا الفاضل السيد صالح سويسى الشريف القيروانى رواية تحت العنوان أعلاه أدبية انتقادية اجتماعية وقد عهد إلينا بنشرها تبعاً على على صفحات المجلة ومن حيث أن الرواية المذكورة أول رواية ألفت بالمملكة التونسية فإن صديقنا المومى إليه يلتمس من حملة الأقلام وزعماء الأدب أن ينظروا إليها بعين الرضا التى هى عن كل عيب كليلة وإليك نصها :

نادت بصوت لطيف (يا سراج الليل) فقال لبيك يا أماه قالت تعال اجلس أمامى فأتى نحوها بأدب واحتشام وجلس طبق أمرها على المنصة التى أمامها فافتكرت هنيئة وقالت يا بنى أتدرى لماذا خلقت فقال خلقت لعبادة الخالق وشكره فقالت وما معنى العبادة والشكر فقال نعبده بالصلوات والأذكار ونشكره بقولى لك الشكر يا الله فقالت وما يتبع هذا فقال لا أدرى فقالت قد خفيت عليك يا بنى روح العبادة وهى العظة والاعتبار وتصور عظمة الواحد القهار أما سمعت حكمة واسطة عقد المصلحين « أعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » وكذلك الأذكار إذا كانت خالية من الخشية مشوبة بالغفلة فهى كما قال إمام الصوفية الشيخ محي الدين :

بذكر الله تنطمس القلوب وتنهال المصائب والخطوب

ومراده الذكر مع الغفلة وعدم الخشية وأما الشكر فهو حقيقة تصريف

الجوارح فيما خلقت لأجله وبالجملة فإنك يا سراج الليل خلقت لتعمل فتحى لا لتهمل فتموت فقال : فيا أماه إن هاته الأفكار السامية يحتاج الشخص فيها إلى أستاذ يغوص به فى بحارها ويكشف له عن غوامض أسرارها فقالت الهيفا لهذا دعوتك فى هاته الساعة ومرادى أن أرسلك إلى مصر لتلتقط من بحار أساتذتها الجواهر العلمية كما كان أبوك يغوص لالتقاط الجواهر الحقيقية وجواهر العلوم أغلى وغواص بحارها أشرف وأعلى وقد عزمت باعانته تعلى على إرسالك فى الأسبوع القابل إلى مصر صحبة الشيخ محمد رشيد الذى قصد بلادنا فى هذا المصيف لأن هذا الأستاذ رجل له غيرة على أبناء دينه وقد أخبرنى أن بمصر جمعيتين اسلاميتين إحداهما تسمى الجمعية الخيرية والأخرى شمس الإسلام وأريد أن أوكل الأمر إليه فى اختيار إحداهما إليك لتتربى يا سراج فقال سمعاوطاعة لك يا أماه لأنى أعتقد أنك ما رضيت باقتحام مشقة فراقى إلا لأمر خطير يستدعى فلاحى ونجاحى فى الحياة الفانية وعظيم الثواب واكتساب السعادة فى الحياة الباقية ثم قاما من تلك الروضة التى ابتهجت بحديثهما أكثر من ابتهاجها بأزهارها وقصدا كلاهما غرفة النوم فأثر كلام الهيفا فى ابنها سراج الليل بحيث إنه صار فى تلك الليلة وهو مضطجع على فراش النوم يردد هذه الكلمات متى تسافر يا سراج الليل . يارب ما أطول الأسبوع على . وهل والدتى تريد إرسالى لمصر بقصد التعلم . وهل الأستاذ محمد رشيد الذى قالت عليه لا زال بوطننا . الله يسخر فى السفر . ثم انقلب على جنبه الأيمن وطبق عينيه ونام .

مجلة خير الدين عدد ٦ رجب سنة ١٣٢٤

جريح الحرب

صاغ بلبل شعراء القيروان الصداح صديقنا الشيخ صالح سويسى تغريداً حماسياً يستندى به أكف الكرماء لإعانة الهلال الأحمر ولذلك بادرنا لنشره تحريكا للهمم وإيقاظاً للشعور قال وهو يصف الجندى فى موقف القتال .

شهم حوى فى سبيل الله رضوانا ... قد خاض من بأسه فى الحرب ميدانا

بالحزم مرتفع بالعزم مندفع ... يحمى بصارمه ديناً وأوطانا

أبدى العجائب فى الحرب التى شهرت ... على بنى وطنه ظلماً وعدوانا

طارت له من رصاص الباغى أربعة ... فصادفت منه أعضاء وجثمانا

فسال منه دم بالطهر ممتزج ... قد فاق من جنسه فى العز ألوانا

فخاطب الجند فى الهيجاء مبتسما ... لا تجزعوا وثقوا قد كان ما كان

هذا الوسام الذى تصبو القلوب له ... دع عنك أوسمة صيغت وتيجانا

هيا احملونى نحو (الهلال) فما ... أبغى عن الحرب احجاماً وسلوانا

ولا أبالى إذا ما صرت منجرحا ... فإن لى من رضا الرحمن غفرانا

ولست أسأل عن أهلى وعن ولدى ... إذا وجدت بأهل الدين إحسانا

هذا الدواء أتى من معشر شهروا ... بين الكرام وأقوى الناس إيمانا

أهلا بكم يا كرام المسلمين ويا ... من قد أشادوا إلى الإسلام أركانا

لا تبخلوا فى اكتتاب (الهلال) بدا ... فسوف يصلى بخيل القوم نيرانا

إن اليتامى وجرحى الحرب كلهم ... يدعو لنا ذلكم سراً وإعلانا

إن كنتم تطلبون الحج فاغتنموا ... حجاً يثقل فى الأعمال ميزانا

هيا ابذلوا فى علاجى المال واغتنموا ... كيما أعود إلى الهيجاء جذلانا

وجريدة «التونسى» عدد ٦٨ السنة ٣ — ١٥ ربيع الأول سنة ١٣٢٩

محمد الخضر حسين

الديانة والحرية المطلقة

لو سئل الذين أوتو الحكمة وفصل الخطاب أن يشرعوا للناس طرايق تكون لهم أجمل مكان يستشرفون منه على حقيقة العدالة والأخلاق الكاملة وحدودا تلم لهم بحفظ الحقوق الانسانية . تتناولهم اصلاحاتها ما تداولت الأيام وتضم عليهم أزرارها أينما سكنوا لضلت عليهم أنباؤها وعثرت عقولهم فى ذيل الحصر وإن اجتمعوا على صعيد واحد وكان بعضهم لبعض ظهيرا .

إن البشر مهما اتسعت مداركهم وسمت أفكارهم لا يمكنهم الاحاطة بمطالب الحياة الاجتماعية والتوصل إلى كل مايحتاجه الإنسان فى وجوده المدنى لأن العقل الذى امتازوا به عن ساير الحيوانات وصاروا به معدن العلم ومركز الحكمة غايته معرفة كليات الأشياء دون الاطلاع على جميع جزئياتها فلا يكاد يدرك كل مصلحة ويتصور كل مفسدة مفسدة نحو أن العلم حسن والاعتقاد الحق حسن واستعمال العدالة وملازمة العفة لكنه قد يخفى عليه أن اعتقاد كذا حق وفعل كذا من العدالة وترك كذا من العفة كمثل الفقيه يعلم أحكام الحوادث الكونية وليس له قوة فائقة فى إعطاء الوقائع حكمها الواجب لها أو مثل الطبيب يعلم الأدوية وخواصها وليست له مهارة فى علاج كل مرض بما يلائمه وهو المسمى بالتطبيق ومن أجل ذلك لم يكتف به الاله جل وعز فى إقامة الحجة على الناس بل عذر أهل الفترات فى عدم اهتدائهم فقال تعلى « رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » وقال « ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى » وقال « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » .

فلا جرم أن السياسة العادلة لاتأخذ منتهى غايتها إلا باستناد أحكامها إلى من أحاط بكل شيء علما ولو أطلعت على التواريخ العتيقة والحديثة ودرستها درسا مدققا لملئت يقينا وازددت إيمانا مع إيمانك بذلك الحق الذى هو أوضح من محيا النهار ولا يرتاب فيه إلا ذو بصيرة غشيها غبار الغباوة فلم تنعكس أشعة الحقائق فى مرآتها .

ذلك التشريع الذى يحمل على المناهج السوية ويتكفل بتحديد الحقوق الافرادية والاجتماعية لايتوغل فى مناحيه العميقة ويوضح مادق من مشاكله الغامضة إلا الدين الذى هو وضع إلهى يسوق الناس باختيارهم إلى الانتظام فى أعمالهم الدنيوية والتأهل للزلفى من الله فى الحياة الأبدية وإن له عندالرجل العظيم لصولة مرهوبة وسلطنة مقدسة يخر لها صعقا ولا تبغى نفسه الكريمة عن السكون تحتهاحولا لكنه عند هزيل العقل مريض الوسادة عسير الأتباع .

نريد بالرجل العظيم من كمل أطلاعه على أحكامه الفرعية وأبعد فيها نظره إلى أن رأى كيف انترعت من مداركها الأصولية فتوفرت فى نفسه الثقة بأن الدين حكم عدل لايحسن فى الخليقة غير آثار تدبيره .

وما هو عريض الوسادة .

عريض الوسادة كل من تميز إلى الفئة التى انتفضت فى مستنقع الجهالة أمدا مديدا ثم قاموا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ليتجردوا من أثواب الديانة المحكمة ويستعيضوه بلباس الحرية المطلقة (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) أن أطلاق التصرف للإنسان يعمل ماشاء وتخلية سبيله يعتقد ماسنح له وعدم ارتباطه فى ذلك بالأوضاع الدينية لمفسدة كبرى تعم الأفراد فى أشخاصها والأمم فى مذاهبهم وأحيانا فى وجهلتهم كل يعمل على نفاد داعيته لا رادع من الدين يرد شكيتهم ولا سبيل لسلطة غالبة على كبح جماحهم يتبين لك أن الحرية المطلقة والهمجية المقلقة إخوان لاينفك أحدهما عن الآخر ثم حول نظرك إلى زمن الرسالة وعصر الخلفاء الراشدين فلا تجد سببا امتد بالإسلام فى

أطراف الأرض فاستوثق لهم ملك متماسك العرى غير أجرائهم لتلك المبادى التى أركزها الوحى فى عقولهم . قال قائل من الذين يريدون أن ينفذوا من أقطار الشريعة المباركة (ما لبعض شعائرهم لا يعقل له معنى) .

قلنا (عدس) لم يجعل الله لأحداث السفاهة على ذوق أسرار شريعته سبيلا . أن تكاليف الشرع على نوعين عبادات وعادات أما قسم العادات وهو ماتقوم به قوانين العمران فى هذه الحياة الدنيا فقد توسع الشارع فى بيان علله وحكمه الخاصة صراحة أو رمزا كقوله تعلى ولكم فى القصاص حياة ياولى الألباب . وقوله أنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة الآية وفى الحديث لا يقضى القاضى وهو غضبان وقال القاتل لا يرث إلى غير ذلك وأما ماكان من قبيل العبادات كالصلاة والصوم والحج فالأصل فيه بالنسبة إلى المكلف التعبد وحكمته العامة الانقياد لأوامر الله تعلى وأفراده بالخضوع والتعظيم وقد يبين له الشارع علة خاصة لكن التقرب إلى الله تعلى بما لم يطلعنا على حكمته أدل على كمال العبودية له والاخلاص فى التوجه إليه لأن الأتيان بالقربات التى أدركنا حكمتها المناسبة لا يخلو عن شايبة القصد إلى المصالح المترتبة عليها وهو وأن لم يكن محبطا لعملها يهضم شيئا قليلا من خلوصها فان قال غير متشرع لماذا كانت صلاة الظهر أربع ركعات وصلاة المغرب ثلاثا فألقم فاه بحجر هذه النكتة الحكيمة وإن قاله متشرع قلنا له الله ورسوله أعلم .

مجلة السعادة العظمى عدد ١٧ رمضان ١٣٢١

(مجلة السعادة العظمى) غرة جمادى الثانى سنة ١٣٢٢

الشعر العصرى

أيعاتب الزمن الذى لايسعد — وبنوه فى مهد البطالة هجد
مهلا فما هو بالملوم ومن رمى — سهم الملامـــة نحوه فمفسد
لو أفرغوا فى وسعه ما جل فى — عمل لاغدق فيه عيش أرغد
أرأيت كيف شدت بلابل سعده — وزهت ببهجته غصون ميد
إذا نفق الأسلاف فى سبل الهدى — جهد استطاعتهم ونعم المقصد
حتى استدار بهيأة منضودة — وطلاعه أفعال بر تحمـــد
كنا بنى الإسلام أصدق لهجة — وأصح عهـدا بالوفاء يؤكد
عقد التواخى فى الديانة بيننا — نسبا قرابته أشد وأفيد
ماسام ذو رأى سديد مطلبا — إلا غدا بيد المعونة يعضد
ولنــا نفوس لم تنط آمالهــا — إلا بمــا هو فى المعالى أمجد
تنضى عزايم كالسيوف صرامة — لكن لوفر طعانها لاتغمد
كنا بدور هداية ما من سنى — إلا ومن أنوارها يستوقد
وإذا تـكامل واستوى بدر بدا — فى أفق طلعته السنية فرقد
كنا بحور معارف ما من حلى — إلا ومن أغوارها يتصيد
ماصرصرت أقلامنا فى مهرق — إلا رأيت الدر فيه ينضد
من كل معنى يبهر الألباب أو — نسج يقوم له البليغ ويقعد
ويقوم فينا للخطابة مصقع — فترى بنات الفـكر كيف تولد
كنا جلاء للصدور من القذى — ولو أوْنا بيد السعادة يعقد
ماصافحت راحاتنا ذو حاذوى — إلا وأينع منه غصن أغيد
ومن احتمى بطرافنا السامى الذرى — آوى إلى الحرم الذى لا يضهد

لا يمترى أهل التمدن أنهم ... لو لم يسيروا أثرنا لم يصعدوا
فسلوا متى شيتم سراتهم فما ... من أمة إلا لنا فيها يد
لافخر فى الدنيا بغير مجادة ... تعنو لها الأمم العظام وتسجد
لكننا لم نرع فيها حرمة ... بذمامها منا الرقاب تقلد
أخذت مطيات الهوى تحدو بنا ... فى كل لاغية كساعة نولد
حتى انزوى من ظلها الممدود ما ... فيه مقام يستطاب ومقعد
أبناء هذا العصر هل من نهضة ... تشفى غليلا حره يتصعد
هذى الصنائع ذللت أدواتها ... وسبيلها للعالمين ممهد
وكذاك بذر العلم أخرج شطاه ... ودنى جناه فما لنا لانحصد
بمجارى القوم الذين استضعفوا ... من قبل شوطا فى التقدم يبعد
أفلا نسير مسير ذى رشد إلى ... أثار ما قد أسسوه وشيدوا
فلطالما حوت الغنائم جولة ... من رائد النظر الذى لايخمد
أن المعارف والصنائع عدة ... باب الترقى من سواها موصد

آثار الاستبداد

إذا أنشبت الدولة برعاياها مخالب الاستبداد نزلت من شامخ عزها لامحالة وأشرفت على حضيض التلاشي والفناء إذ لاغنى للحكومة عن رجال تستضيء بآرائهم فى مشكلاتها وآخرين تشق بكفاءتهم وعدالتهم إذا فوضت إلى عهدتهم بعض مهامها والأرض التى اندرست فيها أطلال الحرية إنما تأوى الضعفاء والسفلة ولا تنبت العظماء من الرجال إلا فى القليل قال صاحب لامية العرب :

ولكن نفسا حرة لاتقيم بى　　على الضيم إلا ريثما أتحول

فلا جرم أن تتألف أعضاء الحكومة وأعوانها من أناس يخاد عونها ولا يبذلون لها النصيحة فى أعمالهم وآخرين مقرنين فى اصفاد الجهالة يديرون أمورها على حد ماتدركه أبصارهم وهذا هو السبب الوحيد لسقوط الأمة فلا تلبث أن تلتهمها دولة أخرى وتجعلها فى قبضة قهرها وذلك جزاء الظالمين ثم أن الاستبداد مما يطبع نفوس الرعية على الرهبة والجبن ويميت مافى قوتها من الباس والبسالة .

فمن فى كفه منهم قناة　　كمن فى كفه منهم خضاب

فإذا اتخذت الدولة منهم حامية أو ألفت منهم كتيبة عجزوا عن سد ثغورها وشلت أيديهم من قبل أن يشدوا بعضدها .

وأن أردت مثلا يثبت فؤادك ويؤيد شهادة العيان فاعتبر بما قصه الله تعلى عن قوم موسى عليه السلام لما أمرهم بالدخول للأرض المقدسة وملكها كيف قعد بهم الخوف عن الطاعة والامتثال وقالوا أن فيها قوما جبارين وأنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها . فمتى جئت تسأل عن الأمر الذى طبع فى قلوبهم الجبن وتطوح بهم فى العصيان والمنازعة إلى قولهم (أذهب أنت وربك فقاتلا

أنا هاهنا قاعدون) وجدته خلق الانقياد المتمكن فى نفوسهم من يوم كانت الأقباط ماسكة بنواصيهم وتذيقهم من سوء الاستعباد عذابا إليهما .

والأمة مفتقرة إلى الكاتب والشاعر والخطيب والاستبداد يعقد ألسنتهم على مافى طيها من الفصاحة وينفث فيها لكنة وعيا فتلتحق لغتهم بأصوات الحيوانات ولا يكادون يفقهون قولا .

وإذا أضاءت على الأمة شموس الحرية وضربت بأشعتها فى واد اتسعت آمالهم وكبرت هممهم وتربت فى نفوسهم ملكة الاقتدار على الأعمال الجليلة ومن لوازمها اتساع دائرة المعارف بينهم فتتفتق القرائح فهما وترتوى العقول علما وتأخذ الأنظار فسحة ترمى فيها إلى غايات بعيدة فتصير دوائر الحكومة مشحونة برجال يعرفون وجوه مصالحها الحقيقية ولا يتحرفون عن طرق سياستها العادلة

والحرية تؤسس فى النفوس مبادىء العزة والشهامة فإذا نظمت الحكومة منهم جندا استماتوا تحت رايتها مدافعة ولا يرون القتل سبة إذا ماراّه الناكسوا رؤوسهم تحت راية الاستبداد .

ثم أن الحرية تعلم اللسان بيانا وتمد اليراعة بالبراعة فتزدحم الناس على طريق الأدب الرفيع وتتنور المجامع بفنون الفصاحة وآيات البلاغة هذا خطيب يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة وذلك شاعر يستعين بأفكاره الخيالية فى نصرة الحقيقة ويحرك العواطف ويستنهض الهمم لنشر الفضيلة وآخر كاتب وعلى صناعة الكتابة مدار سياسة الدولة .

ولم تكن ينابيع الشعر فى عهد الخلفاء الراشدين فاغرة أفواهها بفن المديح والاطراء وإنما ترشح به رشحا وتمسح به مسحا لا يضهد من فضيلة الحرية فتيلا وما أنفلت وكاؤها وتدفقت بالمدائح المتغالية إلا فى الأعصر العريقة فى الاستبداد .

ولما وقر فى صدر عمر بن عبد العزيز من تنظيم أمر الخلافة على هيأته

الأولى لم يواجه الشعراء بجفاوة وترحاب وقال مالى وماللشعراء وقال مرة إنى عن الشعر لفى شغل . انتجعه جرير بأبيات فأذن له بانشادها وقال له اتق الله ياجرير ولا تقل إلا حقا وعندما استوفاها واصله بشيء من حر ماله فخرج جرير وهو يقول خرجت من عند أمير يعطى الفقراء ويمنع الشعراء وإنى عنه لراض ثم أنشد يقول :

رأيت رقى الشيطان لاتستفزه   وقد كان شيطانى من الجن راقيا

ومن مآثر الاستعباد ماتنجشا به اللها وتسيل به الأقلام من صديد الكلمات التى يفتضح لك من طلاوتها صدرت من دواخل قلب استشعر ذلة وتدثر صغارا نحو (مقبل اعتابكم) (المتشرف بخدمتكم) (عبد نعمتكم) ولا أخال أحدا يصغى إلى قول أحد كبار الشعراء.

وما أنا إلا عبد نعمتك التى   نسبت إليها دون أهلى ومعشرى

الا ويمثل فى مرآة فكرة شخصا ضئيلا يحمل فى صدره قلبا يوشك أن ينوء بما فيه من الطمع والمسكنة .

ومن سوء عاقبة الخضوع فى المقال أن يوسم الرجل بلقب وضيع ينحته له الناس من بعض أقوال له أفرغ فيها كتبة من التذلل وبذل الهمة كما سموا رجلا باسم (عائد الكلب) لقوله .

إنى مرضت فلم يعدنى واحد   منكم ويمرض كلبكم فأعود

ولا نجهل أن بعض من سلك هذا المسلك من التعلق والمديح اتخذه سلما ليظفر بحق ثابت ولكنه لاينافى فى الغرض الذى نرمى إليه من أن الحقوق فى دولة الحرية توخذ بصفة الاستحقاق وفى دولة الاستبداد لاتطالب إلا بصفة الاستعطاف ذلك الوزر الذى يحبط بفضل العزة التى نبهنا الله عليها وأرشد من يريدها إلى أنها تطلب بالطاعة من الكلم الطيب والعمل الصالح فقال تعالى من كان يريد العزة فلله العزة جميعا إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه .

تحية الوطن

مالي لا ألمح من ذي الجمال سـوى الخيـال
هلا يعاطيني كؤس الوصال بـلا مـلال
فالحب ألقى مهجتي في نضال ماضي النصـال
ماذا ترى والهجر فيما يقال داء عضـال

✡ ✡ ✡

ياموطني لم أنسى عهد الشباب عـذب الرضاب
وريثما شمر يبغي الذهاب صاح الغـراب
بنا وخضنا في غمار الصعاب بـلا حساب
بيني وبين المجد عهد يهـاب فـلا عتـاب

✡ ✡ ✡

فصمت بي يا بين عقد الرفاق بعـد انتساق
وقمت تنعي حين شد الوثاق يوم التـلاق
والوصل عندي في ليالي المحاق مثـل الفراق
إن فاتني مرآهم بالحداق فالـود باق

✡ ✡ ✡

حيا ربا تونس ذات الزهور عهـد السرور
وافتر في غرة تلك القصور أنس البـدور
ما الانس في أقداح راح تدور مابين حـور
إن التي تلفحنا في الصدور نـار الغيـور

ياشاطىء «المرسى» دم فى سعود رغم الحسود
وكن كما كنت لعهد الجدود غيل الأسود
يمرح فيك العز بين الجنود ضافى البرود
فأنت لا تزهو بتلحين خود ونقر عود

* * *

يا معهداً يشمل فيه الكرام بلا مدام
وابتسمت أزهاره فى نظام بلا كمام
نهضت تحدو بالنفوس العظام إلى الأمام
أقلامك الحرة ترعى الذمام ولا تنام

* * *

يا نسمة تخطر بين الاقاح قبل الصباح
والطل أصفى من دموع الملاح فوق الوشاح
هبى وجرى فى النواد الفساح ذيل المراح
وهاتها نفحة أنس فواح تشفى الجراح

بمصر ١٣٤٢

جريدة التونسي

الكلية العربية

التأمت فى هذا الأسبوع لجنة إصلاح التعليم بالجامع الأعظم وأناطت بأحد أعضائها وهو السيد الطاهر بن عاشور تحرير تقرير شاف عن حالة الجامع الراهنة ليعرض على اللجنة .

وهذا الأستاذ الفاضل هو شاب نبيه معروف بحرية مباديه وممثل للفكرة العصرية فى تلك الكلية العتيقة ولنا فيه يقين تام بأنه سيتمكن من القيام بعمل انتقادى محض ويظهر نقائص وهفوات تعليم كانوا يرونه إلى عهد قريب كاملا بسائر جزئياته كمالا تاما .

لكن ماعسى أن ينتج عن مناقشات هذه اللجنة ؟

نحن نظن أنه لا ينتج عنها إلا تحويل بعض المنح ترى أنها مضطرة لإعطائها مصانعة للشبان المتنورين من الأساتذة والطلبة نظرا لما كانوا يبدونه من الأميال الإصلاحى وهو مالا نشك فيه أبدا لأننا نعرف جداً حالة البيئة والوسط الذى نحن فيه وكذلك سياسة دار الباى !

أم هل يمكن تنظيم التعليم بالجامع الأعظم على نمط عصرى ؟

لا سبيل لاعتقاد ذلك لأن جامع الزيتونه هو كما يدل عليه اسمه محل عبادة وخشوع وتقى والعلوم التى تدرس فيه الآن هى علوم دينية محضة ولو لم تكن كذلك لما أجيزت دراستها فى بيت الله والأساتذة والمدرسون يعتبرون أنفسهم قائمين بواجب مقدس احتسابا لله والاعانة الطفيفة التى تنقدهم أياها إدارة الأوقاف من بيت المال تعد بمثابة مساعدة بسيطة وبناء عليه يمكن أن يقال أن الكلية الزيتونية هى مدرسة خصوصية يتخرج فيها أفراد من الناس يوقفون أنفسهم على الوظائف الخاصة التى يتوقف عليها القيام بالشعائر الدينية .

ولما كانت هذه المدرسة معهدا حرا ذا إيراد مخصوص فانه يجب تركها وشأنها تحت نظر الرؤساء الدينيين الذين تعهدوا على أنفسهم أن يقوموا بادارة كافة شؤنها .

أما التعليم العصرى العلمانى وكذا لوازمه ووسائله فانه لا سبيل لأن يجد له فى هذه المدرسة مجالا يركض فيه ولذلك يجب إعطاءه خارج جدرانها المقدسة

أفراح الطلبة الزيتونيين

وبعد أن فرغ لخطباء الزيتونيون من تلاوة خطبهم أعطيت نوبة الخطابة لزعماء الشبيبة التونسية فقام وطنينا الكبير السيد عبد الجليل الزاوش وألقى خطبة جليلة نشرناها فى غير هذا المكان ثم تلاه السيد عبد الرزاق الغطاس وبعد أن أتم خطابه تلاه السيد الصادق الزمرلى ثم قام الشيخ السيد عبد العزيز الثعالبي ولما أستوى على منبر الخطابة صفق له الحاضرون تصفيقاً حاداً فارتجل خطابا حماسيا تنبعث منه روح الإسلام استهله بقوله : سادتى

هذه أول مرة أقف على مرسح الخطابة فى مجتمع تونسى أمثل فيه أكبر جريدة وطنية إسلامية تونسية وهى جريدة التونسى التى أوقفت نفسها للدفاع عن كافة مصالح وحقوق الوطنيين فأشكر لكم أيها الزيتونيون على أبديتموه نحوها من الرعاية والإعتبار وأحقق لكم بأنها ستكون لكم أعظم نصير على الدوام والاستمرار .

ثم انتقل الخطيب بعد ذلك إلى نفى القول بوجود الخلف بين خريجى المدارس والزيتونيين فقال ليس بينهما قطيعة ولا جفاء ومايتراءى من الفتور لم يكن إلا دليلا على أن الأمة لم تزل قاصرة ولم تبلغ سن رشدها .

ثم أنعطف بعد ذلك إلى نقط التعليم فى الجامع المعمور وتقاصر الهمم عن طلب العلوم والتوسع فى التعليم فذكر أن الباعث على ذلك هو جهل الحكومات الماضية واستبداد العلماء والأمراء بالأمر ونزوعهم إلى إهمال شأن التعليم لأن العلم مقوض لأركان الاستبداد وهم دعاته وأنصاره

لم يكن هم أعداء العلم تقويض تعليم العلوم العقلية التى هى قبسة من نور الله وآثار صنعه وحكمته فى الوجود بل أنهم زهدوا فى كل شيء يسمى علما حتى العلوم الدينية فانك لا تجد اليوم أثراً فى الجامع الأعظم لدروس التفسير

والحديث والمصطلح والكلام والتصوف والأصول مع أنه لا يوجد من يجهل توقف معرفة الدين على هذه العلوم .

ثم استطرد بعد ذلك القول إلى الكلام على فهم آيات الذكر الحكيم وعلى الخصوص قسم الآلاء الذى ذكرت فيه طبائع وأسرار ونواميس الوجود فأورد بحثا مهما فى هذا الموضوع نعى فيه على منكرى فوائد تحصيل الفنون الجديدة واستشهد على ذلك بكثير من الآيات المحكمة التى لم تظهر معانيها لقدماء المفسرين بالنظر لخفاء بعض دقائق الكائنات فى ذلك العهد فتأولوها تئاويل ينبو عنها القرآن الكريم ولكن لما ارتقت العلوم فى هذا العهد ظهرت أسرار تلك الآيات بعد أن كانت محجوبة عن أذهان كافة العلماء والباحثين

ثم تخلص من ذلك إلى القول بوجوب تعليم جميع العلوم الدينية والعقلية والآلية لطلاب العلوم الدينية كى يتمكنوا بذلك من التفهم والإمعان فى معانى آى الكتاب المجيد حتى يعود إلى الإسلام عصر شبابه الأول أيام العباسيين والأندلسيين وتنطلق عقولهم من أسر العبودية والأوهام ولا تقر بعد ذلك بالعبودية لأحد غير الله خالق الكون العظيم « لا إله إلا هو العزيز الحكيم »

ثم أشار بعد ذلك إلى مناشىء الإستبداد ومنزعه وآثاره فى النفوس وقال عنه أنه لا يجتمع مع الإيمان بالله فى قلب أمرىء إلا إذا كان ضعيف اليقين.

ثم قال إذا أراد المسلمون أن يعيدوا ماضى مجدهم ويتراجعوا إلى آداب دينم المبين يجب عليهم أن يجمعوا فى طلبهم بين علوم الدين والدنيا معاً ويسلكوا فى ذلك نسبة أسلافهم الأولين طبق ما يسعى اليه الطلبة الزيتونيون ثم ختم خطابه بتنشيط الطلبة وحثهم على الجد فى المطالبة بالإصلاح وأكد لهم بأن « التونسى » لا ينفك عن مساعدتهم فى هذا المضمار .

ثم التفت بعد ذلك إلى فريق من فضلاء الشبيبة التونسية الذين كانوا جلوسا حول منبر الخطابة وأشار بيده قائلا « هذه طائفة من حزب التونسى جاءت لتؤكد لكم إخلاصها وموازرتها ومكاتفتها لكم فى السعى لخير هذا القطر المأنوس .

عبد العزيز الثعالبى

واجباتنا

الرقى نوعان مادى وأدبى وكون الثانى أساس الأول مما يدعونى لاختصاصه الآن بالنظر — أرتاى بعض المؤرخين أن أركان النهضة العلمية الأخيرة فى مصر والشام خمسة : ١ - المدارس ٢ - والمطابع . ٣ - والكتب ٤ - والجرائد . ٥ - والجميعات فلننظر فى حالنا مع كل واحد منها على حدة .

***

١ — المطابع - لا شك أن من أهم وسائل نشر المعارف والآداب الطباعة حتى عد العلماء اختراع المطبعة من أوائل القرن الخامس عشر فاتحة عصر جديد للعلم والمدنية — فهل تلك الوسيلة متوفرة لدينا ؟ كلا . فإنه ليس لنا إلا ثلاث مطابع عربية . الرسمية ولا تشتغل بأكثر من مطبوعات الحكومة غالباً — التونسية ومعظم خدمتها فى المطبوعات الإدارية — فلم يبق إلا المطبعة الأهلية وهى لا تفى بحاجة قرية ناهضة فكيف بحاجة شعب يناهز المليونين — ومن العار المخجل أن توجد بصفاقس مطبعة فرنسوية ولا يكون للأهالى مطبعة عربية حتى يضطر صحافيهم لطبع صحيفته الصفاقسية بالعاصمة وكذا وقع لصحيفة القيروان .

ومن هنا كنا ولا نزال عالة على الشرق فى كتبنا الدراسية وغيرها بل أن بعض مواطنينا طبع هنالك ما تعلقت همته بنشره - ومرت بنا فترة أثناء الحرب الأخيرة أنقطعت فيها واردات الشرق فكنا نتذمر من فقد الناقد وغلاء

لموجود ـ ولما قطعت الصحافة العربية عقبة الحجر فى مارس السالف وجدت أمامها عقبة الطبع فلم تبرز جرائد قرر تأسيسها وتأخرت أخرى عن ميعاد البروز ـ ولولا المطبعة الأهلية ما أشرقت علينا شمس الصواب ولا الوزير ولا المنبر وكنا نندب حظنا من المطابع بدل أن نندبه من الحرية الصحافية.

نعم قد تأسست اليوم بهمة بعض الوطنيين الحازمين مطبعة كبرى تحت إسم النهضة ومرادها أن تصدر صحيفة يومية عربية عظمى وتتوسع فى الطبع باللغتين العربية والفرنسية — وستكون فائدتها الوطنية بقدر أقبالنا على اشتراء أسهمها .

إن هذه الوسيلة العلمية لا يكلفنا إنشاؤها بذلا خيريا كما قد يكلفنا غيرها من بقية الوسائل فمن العجب أن لا نقبل على إنشاء الشركات فيها إنشاءنا لها فى غيرها فنستفيد ماليا وعلميا حيث نباشر بها طبع ما نحتاجه من الكتب القومية والأجنبية .

* * *

قد آن لنا أن نفقه مركزنا من المجتمع البشرى العظيم ونخلع عنا رداء الخمول والتواكل ونستبدل الأنفاق على الخرق والقبور واللهو والفجور بالتبرع على تنشيط العلم والرحمة بالإنسانية ـ وإليكم هذين المثالين العظيمين من أعمال الأمم المتمدنة .

١ — توفى الدكتور نوبل بيسكويت عن ثروة طائلة أوصى بها لمن يأتى بأنفع عمل للجنس البشرى ووزعها كما ترى . أهم أكتشاف أو أختراع فى ميدان العلوم الطبيعية . أهم أكتشاف أو تحسين فى علم الكيمياء . أهم أكتشاف فى الطب . أعظم مؤلف أدبى تصورى .

٢ — وأنشأ يوسف فردى الموسيقى الإيطالى الشهير (١٩٠١) مستشفى بفيلانوفا وأوصى له بعشرين ألف فرنك سنويا وبمثلها لملجأ الأطفال و٣٠ ألفا

للملجأ أصحاب العاهات وأنشأ ملجأ قرب ميلان للمسيقيين المعوزين الذين يتجاوز سنهم ٦٥ سنه وهو يسع ستين رجلا وأربعين إمرأة .

أما مؤلفاتنا فقليلة حقيرة كأننا لم نتأهل للتأليف فى شيء - يموت العالم منا فيكتب فى ترجمته إنه ترك كذا وكذا من المؤلفات ثم لا نرى لها أثراً بعد ذلك إلا تبجح ذويه بها وكان الزمان الذى لا يحي معه إلا الصحيح قضى عليها بالموت الأبدى وأراحنا من سخافاتها ومن المحقق أن أكثرها تعاليق وحواش بعضها غير تام والناس ينسبون عدم تمثيلها للطبع ونشرها بين الناس إلى خوف أصحابها من أنتقادها وهذا من الخور الذى أنزههم عنه فإن الانتقاد ينتاب سائر التآليف بل المهم منها وهو السبيل الحق لتحريرها وإظهار مزيتها حتى أن علماء الغرب يعدون من علامات سقوط التآليف عدم اهتمام الكتاب بنقده .

إن الشرقيين مشوا شوطاً بعيداً فى الأخذ بأسباب الرقى والمدنية يجعلهم أهلا لأن نقتفى أثرهم ونتتبع خطاهم — وعلماء العربية منهم إذا راموا التآليف تخيروا لهم موضوعا على حسب أستعدادهم العلمى والفطرى وخاضوا ماتلمسه أيديهم من المؤلفات فيه ثم جاءوا لنا بما شاء الذوق والتحرير والحسن فى الأدب أو اللغة أو الأخلاق أو التاريخ أو الحساب أو غيرها (وذلك ما جعل الأوروبيين يهتمون بنقل كثير منها إلى لغاتهم) وإن حشوا كانت حواشيهم غالباً فصلا فى المقام المحتاج إليها - ورجال اللغات الأجنبية منهم يقومون بترجمة الكتب إلى لغتهم فى الفنون والآداب على أختلافها كما كان يفعل أمثالهم على عهد الرشيد والمأمون عندما أراد المسلمون نقل المدنية اليونانية والفارسية وغـــيرهما إلى لغتهم - فما بال المتضلعين منا باللغتين لا يقومون بتلك الخدمة الجليلة لمنفعه أبنائهم واخوانهم ولو فى مقدار وجيز فى تأدية واجبه المقدس على أننا إذا أحسنا أختيار الكتب التى نترجمها لا يقتصر أنتشارها على المملكة التونسية .

٤ ــ الجرائد ــ مكثنا نحو ثمان سنوات لا نذكرها اليوم إلا بالسوء واللعنة وبالعالم نيف وأربعون ألف صحيفة لنا منها واحدة ـ ولما تحصلنا على حق ظهور صحافتنا على مرسح الوجود رأينا أننا تحصلنا على شيء عظيم طالما تألمنا لفراقه وتطلعنا لاشراقه يجب علينا أن نستخدمه باقبالنا وأموالنا ونحتفظ على حياته بكل قوانا لأن الصحف أفضل الوسائل المساعدة على حفظ اللغة ونشرها وخير ذريعة لتوثيق عرى الألفة بين الناطقين بالضاد والمترجم الصادق عن أحساس الأمة ورغائبها وقد رأينا بحمد الله شيئا مهما من ذلك الإقبال إلا أننا رأينا ضعفاء الإحساس يأتيهم مثل الصواب والوزير والمنبر فيردونها على إدارة البريد ذاكرين إذا أنتقدتهم أعذاراً واهية وأوهاما سخيفة ولو تدبروا قليلا لعلموا أنهم يخدمون بمعلوم أشتراكهم الزهيد لغتهم ووطنهم وقوميتهم وأبناءهم وأن تلك الصحيفة لم تمحض بأيديهم الكريمة إلا بعد تكبد وطنيهم المخلص لمر الأتعاب وثقيل النفقات ولا يقنوا أن لا سبيل لذلك الرد الشنيع . وهناك من يؤلم عملهم أكثر من هؤلاء وهم أناس يقبلون الجرائد على عزم أن لا يخلصوا فى معلوم الاشتراك أبدا .

فهل مع هذا يمكننا أن نطالب صحافينا بتوسيع نطاق صحفهم بطرق المواضيع الهامة التى تحوجهم إلى الوقت والتنقيب أو ترجمة الفصول العظيمة أو نشر أكثر ما يمكن من الأخبار العمومية أو تصييرها يومية أو نصف أسبوعية من كل ما يستدعى نفقات طائلة .

ومع ذلك كله لا نعد أنفسنا قد أستكملنا تلك الوسيلة العظيمة حتى نستوفى لها هذين الشرطين : حريتها أمام الإدارة العامة إلا فيما يؤاخذها عليه قانونها العادل ووجود عدد منها بقدر حاجة البلاد يصدر يوميا على نمط الأهرام ووادى النيل والأخبار بمصر .

* * *

النتيجة : إننا لم نخط إلا خطى ضيقة نحو تحقيق تلك الأركان الخمسة

للنهضة وإن الشيء الذى ننشد به ويتوقف عليه كامل مستقبلنا هو « فهم كل واحد منا واجباته بصفته فرداً من الأمة، بحيث يتحتم عليه أن لتلك الوجبات قسطا من أستعداده وماله ووقته أى كل قواه، ونهوضه لأداء تلك الوجبات بمنتهى الإخلاص » .

وذلك شيء لا نتحصل عليه إلا بهاتين الوسيلتين العظيمتين: التربية الصحيحة والتعليم العام . فلننشر إذا دعوة التربية والتعليم ولنجر وراء وسائلهما الخمسة بملء خطانا . وكل سعادة تأتى نتيجة طبيعية لهما ولا شك إننا لا نقدر أن نخدم تلك الوسائل خدمة منتجة إلا إذا أحرزنا حرية الصحافة والإجتماع والتعليم والخطابة وهى لا يضمنها إلا الدستور الذى يحرسه نواب الأمة المنتخبون منها .

تلك مواضيع طويلة أجملناها إجمالا وعسى أن نتمكن من أفراد كل واحد منها بمقال خاص ويسرنا جداً أن نرى الصحافيين والكتاب يخصونها بالبحث والإرشاد فانها منا بمنزلة الماء من الحياة والله الهادى إلى سبيل الرشاد .

مجلة « الفجر » المجلد الأول الجزء الرابع

سانحة

أنصرف الرأى العام التونسى فى هذه السنة أكثر من بقية السنين إلى تتبع المناقشات التى تدور فى قسمى الجمعية الشورية بعناية وأهتمام ليقف من وراء ذلك على المقاصد والغايات التى ترمى إليها الحكومة فى سياستها الحالية الجديدة وما يبديه النواب الشوريون من الفريقين من الملاحظات والآراء فى الموازنة بين الإيرادات والمصروفات .

وقد حدا به إلى هذا الاهتمام شعوره بضرورة المراقبة على تصرفات الحكومة التى تستمد مواردها مما يتجمد من عرق الشعب الوطنى وهو أضعف عنصر فى هذه البلاد وإن كان أكثرها عددا لان الجاليات الأروبية لها من الضمانات والكفالات القوية مالم تخوله السياسة الوطنيين .

فالأروبيون الذين يفدون على هذه البلاد قد خولتهم المعاهدات أن يتمتعوا بكافة امتيازات الإعفاء التى يتمتع بها المحتلون ولهؤلاء من الضمانات ما يجعلهم فى مأمن من الإرهاق بالاتاوات .

لهم حرية القول والانتقاد لهم حرية الكتابة والنشر لهم حرية الاجتماع وتشكيل الأحزاب لهم حرية الانتخاب فهم لا يبعثون إلى الجمعيات الانتخابية إلا الذى يوثق بمعارفه وحسن دفاعه .

أما التونسيون فليس لهم شىء من ذلك الحكومة هى التى تختار من تنيبه عنهم وهذا النائب لا يكون فى الغالب إلا ممثلا للحكومة لا للشعب وهل نحتاج

فى ذلك لإقامة دليل ؟ وهذه مداولات قسمى الجمعية الشورية هى اعظم دليل محسوس على وجود ذلك الفرق الجسيم .

فان النائب الفرنساوى لا يأتى عليه ميعاد انعقاد الجمعية الشورية حتى يتشبع بأراء الفريق النائب عنه ويتزود بكل مايعتازه من المطالب والإقتراحات ومتى حضر الإجتماع فإنه يكون فيه كصدى يردد أصوات منتخبيه .

أما المندوب التونسى فهو بعكس ذلك بل ربما كان لا يشعر بمسئولية لأحد عليه سوى مسئولية الحكومة التى أعتمدته وإذا وجد من يشذ عن القياس فذلك من الصدف التى لا تتفق فى كل حين .

والخلاصة أن للأنتخاب أعتبارات خصوصيـــة أقلها أرضاء أميال المنتخبين والمبعوث التونسى إذا لم يكن منتخبا لا يمكنه أبداً أن يسعى فى إرضاء مواطنيه .

رب قائل يقول أى فائدة لنا فى الانتخابات مادام رأى الجمعية استشارى لا دخل له فى التشريع والحكومة حرة فى قبوله أو رفضه .

نعم أن الأمر كذلك ولكن لا يمكن للحكومة أن ترفض كل رأى تبديه الهيآت الشورية وخصوصا إذا كان مبنيا على أصول منطقية فانها تضطر لا محالة إلى قبوله وإلا حقت عليه كلمة الأمة هذا من جهة وأما من جهة أخرى فإن الانتخاب لا يترشح له إلا الأكفاء القادرون على إجادة العمل ويدركون مصالح البلاد وحياتها وهؤلاء لا يثبطهم البطر ولا يسكنهم العجز من عرض آلام ومطالب الأمة كما هو حال أغلب اعضاء هيئة شورانا الآن .

فإذا كانت الحكومة تود حقيقة ان تسعى لإزالة القلق الذى بدأ فى البلاد وقطع حركة الهجرة فما عليها إلا أن توسع فى حرية التونسيين السياسية وتمنحهم حقوق الانتخاب وتدربهم على أساليب الحكم الذاتى حتى يقتسموا معها مسئولية إدارة البلاد .

ولا يعترض علينا فى ذلك بكون الشعب لم يتهيأ الحصول على هذه الحقوق

السياسية لأن حق الانتخاب لا ينبنى إلا على أسس تحقيق الحالة المدنية وهى لم يتسن إلى الآن تعميمها فى كافة أنحاء القطر لأنه أعتراض غير صحيح وذلك لأن المحركين ومشايخ الأرباط والنواحى لهم دراية تامة بمعرفة الأفراد المقيمين فى الجهات التى لنظرهم وهذه الدراية يمكن أن تقوم إلى حين مقام الحالة المدنية بحيث يتيسر للحكومة أن تعتمد على إرشاداتهم فى مسائل الانتخاب كما تعتمد عليهم فى الاستعراف عن الناس لأن المثال فى الاثنتين واحد وهو التعريف بالشخصية ! .

أما الصورة التى يقع بها الانتخاب فرأينا أن الجهات التى تقررت فيها الحالة المدنية كبعض المدن الكبرى يعطى لها حق انتخاب الدرجة الأولى والجهات التى لم تعمم فيها الحالة المذكورة تعطى حق انتخاب الدرجة الثانية ولا يشترط فى المنتخب أدنى شرط غير السن وحسن السوابق ومبادى العلم حتى يمكننا بذلك أن نحرر على هيئة شورية منتخبة من أحرار الأمة وأعيان عقلائها وهذا أكبر عمل تخلد أجمل مفخرة للحماية فى تاريخ هذه البلاد .

محمد مناشو

الحرب الطرابلسية والعالم الإسلامى

لقد برح الخفاء وظهر الصبح لذى عينين وتجلت مقاصد أوربا العدوانية بأتم الظهور فلم يبق للعثمانيين بعد اليوم عذر إذا أحسنوا الظن فى موقف مستقبل أو استنجدوا بها لكشف مظلمة أو سألوها رعاية عهود . فانها قد ملت المراوغة وانتحال الأسباب لاقتطاع أملاك الدولة العلية وأحرجها تحرزها من أسباب التداخل التى ألفوها فطال عليهم أمد تقسيمها الذى هو مقصدهم الوحيد . فأرادت إيطاليا ان تسن لاوربا قاعدة جديدة تسعى بمقتضاها لمقصدها إذا سدت أبواب الاحتلال . ومن العجب أنها مع بساطتها لم تهتد إليها إلا إيطاليا فهى مختصرة فى جملة وجيزة لا تكلف عناء وهى : (قم لأجلس) :

بتلك القاعدة مدت إيطاليا يد الاثم لولاية طرابلس الغرب وسلت سيف البغى والعدوان على رؤوس العثمانيين . ويكفى أن تسير أوربا على مقتضى هذه القاعدة شوطا ليس بالطويل فتصل إلى ما تقصده من محو آية راية الهلال . ولكن شلت إيمان أولائك الطامعين فسيقفون دون ما يبغون وقفة من أحاط به اللهيب .

ولقد أبان وقوفهم تجاه هذه المسألة موقف الرضى والتسليم بجانب إيطاليا خاذلين للدولة العثمانية وان لهم إرادة راسخة فى إتمام ماشرعت بإنجازه تلك الدولة الباغية وعسى أن يكون ذلك درساً كافياً للعثمانيين حتى يتحققوا ما تحققه سائر المسلمين من أوربا التى لاتعرف ذمة ولا ترعى عهوداً ولا تنتصر لمظلوم . فقد اغترت الدولة العثمانية كثيرا بما تزوقه أوربا من جميل القول

وما تنتحله لنفسها من حب السلم والعدالة وكراهة سفك الدماء والتجرى على المستضعفين . وتلك أقضية عرف الكثير كذبها وإن تأخر عن معرفتها العثمانيون على أنهم أولى الناس بالسبق لإدراكها لأن مواقف الغدر بهم قد أعيت العادين .

فإن أوربا التى تسعى سعياً إجماعياً لاضمحلال المملكة العثمانية مدفوعة بعامل الجشع الذى لايشبع صاحبه مع عامل العداوة المتأصلة التى يحملها على الأخذ بالثأر ممن أخافها قروناً طويلة وأنزل كثيراً من ملوكها إلى صف الرعية لا يوقفها عن غيها سوى قوة تندك من هولها الجبال فتقصر أيدى الطامعين . فهم قد تقرر لديهم إطاعة للشعور الدينى أن البلاد التى تقلص منها نور الهلال لا يمكن بوجه أن يعود اليها كما أن طبيعة الممالك العثمانية قدصورها لهم الطمع والجشع أنهاراً تتدفق بالنظار وذلك أوقفهم عن إنجاز مشروعهم حتى يتفقوا على الاقتسام . وعندهم أن ما بقى بيد تركيا لم يكن شأنه إلا كوديعة استؤمنت عليها ريثما تتم الخطة التى سيرسمونها لذلك ولا بد يوماً أن ترد الودائع . وعلى هذه القاعدة فاتحت ايطاليا الدولة العلية بشأن طرابلس الغرب بعد أن ألحقت النمسة البوسنه والهرسك وبعد تسوية الخلاف الفرنساوى الألمانى غير أن سلوك ايطاليا كان مجرداً عن شبه الحق كما كان مجرداً عن كل صفات الإنسانية وخالياً من الأعذار المختلفة خلوه من الآداب . فكان بلاغا للدولة العثمانية يسومها خطة خسف وينذرها بالبلاء العاجل كما كان ماساً لكافة المسلمين وحبة أسكنتها السياسة الخرقاء فى سويداء قلوبهم إذ كشف الستار عما يضمنه المستقبل لهم من الشرور . فغير عجيب إذا عم الأسف طبقاتهم وكانوا على لواء الخلافة الاسلامية مشفقين .

رأى المسلمون كثيراً من ممالكهم قد سقطت بيد الأجانب فكانوا يألمون لكل سقوط ولكن يهون عليهم تلك الآلام ما ارتكبه ذلك الساقط من الهفوات ويعلمون مع ذلك انه لولا التحرش باولئك الضعفاء والحملة الدينية

لما أتى على تلك الممالك ماأتى . فانهم يرون كثيرا من الشعوب غير الاسلامية قد تركتها أوربا وشأنها بل ومن أوربا نفسها فلا يبعد فى المدنيـة الأسبان عن الريفيين ولا الصقليون عن الطرابلسيين ولـكن تلك الأعـذار التى تخلقها السياسة تغر السواد ولا تجعلهم على دخائل المقاصد مطلعين .

كما أن التعدى تخف وطأته إذا اخطأ الرأس فإذا أصيبوا فى رأس جسمهم فلا عجب أن نرى منهم حماساً وهياجاً ما كانوا منبع شره وإنما أوقده من قدح زناد الشر وتجلل بالعدوان . المسلمون فى كافة أقطار الأرض يعلمون أن سلطان العثمانيين خليفتهم الروحى الذى تقام بإسمه الأعياد والجمع ويعلمون أنه يتقلد مهمة حفظ الحرمين الشريفين الذين يود المسلمون أن يدافعوا عنهما عوض الرصاص بحبـات القلوب والعيون . فهم مع حفظ علائقهم السياسية مع الأمم التى تحكمهم يرون أن التعدى التى ارتـكبته ايطاليا مع دولة الخلافة هو موجه الى كافة المسلمين وان سكوت أوربا تلقاء هذا الظلم الذى لو ارتـكبت تركيا جزءا منـه نحو أمة مسيحية لرأينا الأساطيل تملأ البحار وأصمنـا صراخ الجرائد التى تنادى بالحقوق والمدنيـة والإنسانية وحماية المسيحيين لما يحصيه عليها رعاياها المسلمون سيئة يشهد بها التاريخ لدى المستقبل من الأجيال . . .

ومن التعصب ضـد المسلمين أن يعد استياؤهم من صنع ايطاليا تعصبا دينيا يلامون عليه فان أعمال ايطاليا أوجبت إستنكار كافة المنصفين (وقليل ماهم) حتى من رعاياها الذين تبرأوا منها وساءهم ما أتته من التوحش الذى لايحتمله إنسان .

ومما يشهد بالمقاصـــد السيئة تسمية منشور تركيا إلى الدول استغاثة واستنجاد ليظهروها أمام العالم بمظهر المستضعف الذى لا يدرأ عن نفسه كيداً فى حال كونها لم تقصد إلا الإعتذار لظالمته وعسى أن تجلب بالحسنى مالا يكون الا بسفك الدماء وقد ضع غيرها من الدول قريبا مثل ما صنعت

فلم يسم صنيعه استنجادا إلا من خصمها . وعلى فرض صحته أستغاثه فهل كان رفض الدول له لأن تركيا ظالمة لعدم تسليمها طرابلس عن طوع واختيار أم عجزت عن إيطاليا رهبة أم إن تركيا أخطأت فى الاستنجاد بالمسيحيين على المسيحيين .

إن تركيا لم تطلب من أوربا مدداً ولا تطلبه وإنما تفعل ذلك لقطع حجة الخصم وانها لتعبث فى ذلك إذا كان الخصم يطلب حياتها وحجته اعتداده بقوته . فلتسحق تركيا تلك القوة التى أشهرت فى وجهها وتكون بيدها الحجة البالغة ويكون لها الفلج المبين . وإنه لسهل عليها الوصول إلى مبتغاها إذا أظهرت فى سياستها حزماً وصرامة وصبرت جنودها بطرابلس قليلا وولاها الوطنيون ودبرت فى انجادها كما أنجدتها لحد اليوم وذلك ما تسر به كافة الشعوب الإسلامية وتنحدر به ايطاليا إلى أرضها الجهنمية حاملة عاراً وذلا مبيناً . على أنه بقطع النظر عما بطرابلس من القوات وعن عدم تكافؤها فاستبسال الغزاة العثمانيين إلى الموت يضيف إلى المجد الذى أحرزوه فى بليفنا قريبا ويكونون وإن لم يبلغوا لما قصدوا (لا قدر الله) فقد باءوا بالعـــذر والشرف كما هى عادة العثمانيين . فما حفظ لهم التاريخ تسليما إلا إذا لم تبق فيهم أدنى باقية للدفاع . وعظيم أن يكون الدستور فاتحة لعصر ذل جديد .

جريدة « مرشد الأمة » عدد ٤٩ — ٢٨ شوال سنة ٣٢٩

فكاهة فى مجلس القضاء

علم فلان وكان شاباً من شبان الخلاعة واللهو وقاضياً من قضاة المحاكم أن المنزل الذى يجاور منزله مشتمل على فتاة حسناء من ذوات الثراء والنعمة والرفاهية والرغد فرنا اليها النظرة الاولى فتعلقها فكررها أخرى فبلغت منه فتراسلا ثم تزاوروا ثم افترقا وقد ختمت روايتهما بما تختم به كل رواية غرامية يمثلها أبناء آدم وحواء على مسرح هذا الوجود . عادت الفتاة إلى أهلها تحمل بين أجنحتها هما يضطرم فى فؤادها وجنينا يضطرم فى أحشائها . ولقد يكون لها إلى كتمان الأول سبيل أما الثانى فسر مذاع . وحديث مشاع : إذا اتسعت له الصدور لا تتسع له البطون . وإن ضن به اليوم لا يضن به الغد . ذلك ما أسهر ليلها وأقض مضجعها وملك عليها وجدانها وشعورها فلم تر لها بدآ من الفرار بنفسها والنجاة بحياتها . فعمدت إلى ليلة من الليالى الداجية فلبستها وتلفعت بردائها ثم رمت بنفسها فى بحرها الاسود فما زالت أمواجها تتلقفها وتترامى بها حتى قذفت بها على شاطىء الصخر فاذا هى فى غرفة فى إحدى المنازل البالية فى الأحياء الخاملة وإذا هى وحيدة فى غرفتها لا مؤنس لها إلا ذلك الهم المضطرم وذلك الجنين المضطرب . كان لها أم تحنو عليها وتتفقد شأنها وتجزع لجزعها وتبكى لبكائها ففارقتها . وكان لها أب لا همَّ له فى حياتها إلا ان يراها سعيدة آمالها مغتبطة برغباتها فهاجرت منزله ، وكان لها خدم يقمن ويسهرن بجانبها فأصبحت لا تسامر غير الوحدة ولا تساهر غير الوحشة . وكان لها شرف يؤنسها ويملأ قلبها غبطة وسروراً ورأسها عظمة ونخارا ففقدته وكان لها أمل فى زواج سعيد بزوج محبوب فرزتها الأيام فى أملها .

وما هى إلا أيام قلائل حتى جاءها المخاض فولدت وليدتها من حيث لا ترى بين يديها أحداً يأخذ بيدها يساعدها على خطبها غير عجوز من جاراتها ألمت بشأنها فوفدت إليها وأعانتها على أمرها بضع ساعات ثم فارقتها تكابد على فراش مرضها ما تكابد وتعانى من صروف دهرها ما تعانى .

ولقد ضاق صدرها ذرعا بهذا الضيف الجديد وهو أحب المخلوقات إليها وأكثرهم قرباً إلى نفسها فجلست ذات يوم وقد حملت طفلتها النائمة على حجرها وأسندت رأسها إلى كتفها تقول فى نفسها . ليت أمى لم تلدنى وليتنى لم أكن شيئا .

دارت الأيام دورتها وباعت الفتاة جميع ما تملك يدها وما يحمل بدنها وما تشمل غرفتها من حلى وثياب وأثاث ولم يبق إلا قمصانها الخلقان وملاءتها وبرقعها ولم يبق لطفلتها إلا ثياب باليات تنم عن جسمها نميمة الوجه من السريرة فكانت تقضى ليلتها شر قضاء حتى إذا طار غراب الليل عن مجثمه أسدلت برقعها على وجهها وائتزرت بمئزرها وأنشأت تطوف شوارع المدينة وتقطع طرقها لا تبتغى مقصداً ولا تريد غاية سوى الفرار بنفسها من همها ، وهمها لا يزال يسائرها ويترسم مواقع أقدامها واتفق أن عجوزا من عجائز المواخير رأتها فألمت ببعض شأنها فاقتفت أثرها فهجمت عليها ثم سألتها ما خطبها فأنست وهكذا يأنس المصدور بنفثاته والبائس بشكايته .. فكشفت لها عن نفسها وألقت إليها بخبيئة صدرها ولم تترك خبرا من أخبار نعيمها ولا حادثا من حوادث بؤسها لم تحدثها به فصرفت الفاجرة محنتها ورأت بعينها ذلك الماء من الحسن الذى يجول فى وجهها جولان الخمر وراء زجاجته وعلمت أنها إن أحرزتها فى منزلها فقـــد أحرزت لنفسها عز الدهر وسعادة المتعة .

فلم تزل ترسل إليها عقاربها وتثبت فى نفسها عزائمها ورقاها حتى غلبتها على أمرها وقادتها إلى منزلها فما هى إلا عشية أو ضحاها حتى بلغت الغاية التى لا مفر لها من بلوغها . عاشت تلك البائسة فى منزلها الجديد عيشا أشقى

الأول فى منزلها القديم لأنها ما كانت تستطيع أن تزدود لقمتها التى هى كل ماحصلت عليه فى دورها الثانى إلا إذا بذلت راحتها وشردت نومها وأحرقت دماغها بالسهر وأحشاءها بالشراب وصبرت على كل من إليها حظها من أشرار الرجال وذئابهم على اختلاف صورهم وتنوع أخلاقهم ولكنها لم تر لها بدا من ذلك فاستسلمت استسلام اليائس الذى لم يترك له دهره إلى الرجاء سبيلا . ولو أن الدهر وقف معها عند هذا الحد لا لفت الشقاء ومرنت عليه كما يألفه ويمرن عليه كل من أصيب بمثل ما أصيب به ولكنه أبى إلا أن يسقيها الكأس الأخير من كؤوس شقائه فساق إليها رجلا كان ينقم عليها شأنا من شؤون شهواته ولذاته فزعم أنها سرقت كيس نقوده فى إحدى لياليه عندها ورفع أمرها إلى القضاء واستعان عليها ببعض خصومها كشهود عليها .

جاء يوم المحاكمة فسيقت المرأة إلى المحكمة وفى يدها فتاتها وقد بلغت السابعة من عمرها فأخذ القاضى ينظر فى القضايا ويحكم فيها بما يشاء ويشاء له قانونه أو ذمته حتى أتى دور الفتاة فأدناها منه فما وقع بصرها عليه حتى شوهت عن نفسها وألم بها من الاضطراب والحيرة ما كاد يذهب برشدها .

ذلك أنها عرفته وعرفت أنه ذلك الفتى سبب شقائها وعلة بلائها فنظرت إليه نظرة شزراء ثم صرخت صرخة دوى بها المكان دويا وقالت : رويدك مولانا القاضى . ليس لك أن تكون حكما فى قضيتى لأن كلانا سارق وكلانا خائن والخائن لا يقضى على الخائن واللص لا يصلح أن يكون قاضيا بين اللصوص وعجب القاضى لهذا المنظر الغريب وغضب لهذه الجرأة وهم أن يدعو الشرطى لإخراجها فجرت قناعها عن وجهها فنظر إليها نظرة ألم فيها بكل شىء فشعر بالرعدة تتمشى فى أعصابه وسكن فى كرسيه سكون المحتضر على سرير الموت وعادت الفتاة إلى إتمام حديثها فقالت : أنا سارقة مال وأنت سارق العرض والعرض أثمن من المال فأنت أكبر منى جناية وأعظم منى جرما . أن الرجل الذى سرقت ماله يستطيع أن يعزى نفسه عنه باسترداده أو الاعتياض عنه .

أما الفتاة التى سرقت عرضها يامولانا القاضى فلا عزاء لها إن العرض الذاهب لايعود. لولاك لماسرقت ماله ولاوصلت إلى ما إليه وصلت. فاترك كرسيك لغيرك وقف بجانبي ليحا كمنا القضاء على جريمة واحدة وأنت مدبرها وأنا المسخرة فيها. أى شريعة تعلم أننا شركاء فى الجريمة ثم تأتى بنا إلى هذا المكان فتوقف أحدنا فى أشرف المواقف وتوقف الآخر فى أدناها. شريعة ظالمة لاعلاقة بينها وبين العدل. رأيتك حين دخلت إلى هذا المكان وسمعت الحاجب يصرخ لمقدمك ويستنهض الصفوف للقيام لك ورأيت نفسى حين دخلت والعيون تزدريني والقلوب تحتقرنى فقلت ياللعجب كم تكذب العناوين وكم تخدع وكم يعيش هذا العالم فى ضلالة عمياء وجهالة جهلاء بخ بخ لاولئك القوم الذين منحوك هذه الشهادة شهادة العلم والفضل والأخلاق والآداب. ومرحى مرحى لاولئك الذين أقعدوك هذا المقعد ووضعوا بين يديك هذا القانون وأوقفوا أمامك هذا الشرطى يأتمر بأمرك وينفذ حكمك ويجرى على هواك.

إن تحت هذه الثياب التى تلبسونها معشر القضاة نفوسا ليست بأضعف من نفوسنا شرا ولا بأقل منها سقوطا وربما لايكون بيننا وبين الكثير منكم فرق إلا بالعناوين والألقاب والشمائل والأزياء. أتيت بى إلى هنا لتحكم على بالسجن كأنه لم يكفك ماأسلفت إلى من الشقاء حتى أردت أن تجىء بلاحق لذلك السابق.

ألم أحسن إليك بساعة من ساعات السرور فترعاها. ألم تكن إنسانا فترثى لشقائى وبلائى. إن لم تكن عندى وسيلة أتقرب بها إليك فوسيلتى إليك إبنتك فهى الصلة الباقية بينى وبينك. فرفع القاضى رأسه إلى ابنته الصغيرة نظرة شفقة ورحمة وقد قرر فى نفسه أن لابد له من أن ينصف لتلك البائسة وينتصف لها من نفسه غير أنه أراد أن يخلص من هذا الموقف خلوصا مستترا فأعلن أن المرأة مجنونة وأن لابد من إحالتها على الطبيب فصدق الناس قوله. ثم قام من مجلسه بنفس غير نفسه وقلب غير قلبه وما هى إلا أيام

قلائل حتى هجر القاضى منصبه بحجة المرض وما زال يسعى سعيه حتى ضم إليه ابنته واستخلص حبيبته الأولى من قرارتها وهاجر بها إلى بلد لا يعرفهما فيها أحد فتزوج بها وأنس بعشرتها واحترف فى دار هجرته بحرفة لولا أن أدل عليه إذا ذكرتها لذكرتها . ولا زال حتى اليوم يكفر عن سيئاته إلى زوجته بكل مايستطيع من صنوف العطف وألوان الإحسان حتى نسيا مافات ولم يبق أمامهما إلا ماهو آت .

جريدة مرشد الأمة عدد ٢٥ سنة ١٣٢٨

تحية الوطن

سلام أيها الوطن المفدى ... بأنفسنا وأنفس ما لدينا
ألا ياأيها الوطن المعلى ... تحييك الشبيبة مخلصينا
سنرعى حقك اللذ كان فرضا ... وضيعه كبار الأولينا
فأرضك أمنا منها نشأنا ... وفى خيراتها متنعمينا
بها أجساد آباء كرام ... وفيها مستقر الآخرينا
فمرنا بالذى ترجوه منا ... تجدنا للأوامر مسرعينا
على أنا وإن كنا صغارا ... ألا تكفيك قوة أصغرينا
فأنا قد وقفنا باتحاد ... وصافحت اليمين لنا اليمينا
طريق الصدق فى قول وعزم ... سلكنا نهجه مستبصرينا
ونستمع الرشاد ونقتفيه ... ونعرض عند لغو الجاهلينا
ونرعى العهد لانرضى بغدر ... «ونكرم جارنا مادام فينا»
نهين المال فى طلب المعالى ... وننفق رحمة باليائسين
نقاسم بعضنا عسرا ويسرا ... ونغضى عن ذنوب الأقربينا
ونأنف أن نعيش بعيش ذل ... وأن نحيا حياة السافلين
على قدم الكرام نعيش دوما ... وموت العز أفضل مالدينا
نجدد عزنا ونشيد مجدا ... على انقاض مجد السابقينا
ومن أولى بهذا الأمر منا ... ألسنا من بقايا الفاتحينا

نشيد مولدى

طاب الزمان وبلغ المأمولا فتناهلوا كأس الهنا معسولا
هذا الربيع وهذه أنواره لاما يريك نضارة فذبولا
طلع الهلال مبشرا بربيعنا فاستقبلوه وهللوا تهليلا
لما بدت أعلامه خفاقة ونسيمه وافى بجر ذيولا
خفقت قلوب العاشقين لرو حها وشفت من الكبد العليل غليلا
واهتزت الأكوان من طرب بها واعتزت العرب الكرام قبيلا
والأرض أشرق وجهها بمحمد لما أتى فى الأمين رسولا
وافى الجزيرة والمطامع حلقت من فوقها تبغى بها التنكيلا
ورجالها فى ضلة وتناحر لادين ينفى عنهم التضليلا
مستضعفون وشملهم متفرق دانوا لابرهة وخافوا الفيلا
فأنالهم بعد التفرق ألفة وهدى بهم نهج السداد سبيلا
ورقوا إلى العلياء تحت لوائه وتعلموا التنزيل والتأويلا
والله أنجز وعده فى نصرهم وأقامهم شهدا لديه عدولا
وأمدهم بعزائم وبصائر كانت على الدين القويم دليلا
طوبى لهم من نور أحمد ما اجتلوا بشرى لمن أضحى لديه نزيلا
بسعادة مدت عليه ظلالها وقطوفها قد ذللت تذليلا
فبيوم مولده السعيد تباشروا وله ألزموا الأعزاز والتبجيلا
فهو الذى نزلت بمدح صفاته آيات حق فصلت تفصيلا
ولروحه فأهدوا السلام وآله وعليه صلوا بكرة وأصيلا

سالم بن حميدة

حرب طرابلس

وليل حالك الجلباب أرخى سدولا داجيات من ظلام
خرجت به وقد قصفت رعود مزمجرة تبشر بالحمام
يكاد البرق يخطف نور عيني وتنذرني الصواعق بالزؤام
تطاولني العواصف في رمال تفيض بأخمصي على الدوام
فأكبوا كبوة من بعد أخرى وأسرع للنهوض على الركام
تفاجئني الحسوم بكل فج فأجفل سابحاً لجج الهيام
هيام بالقفار ولا مجير يذود سبيل أفق أو محام
وبينا كنت أرقب نور صبح إذا بـ (نفوس) قابلني امام
إذا الطود العظيم يثير حرباً ويلقى بالسحاب على الرغام
وما قاربت فرع الطود حتى سمعت بعرشه همس الكلام
سمعت بصدره زفرات أسد تصب على السهول لظى الضرام
سمعت به دوياً مستديما يردده الصدى بين الأنام
سمعت بجوه الأسنى رنيناً حكى للأذن صلصلة الحسام
رميت بناظري إلى ذراه أسير إلى الحقيقة والسلام
فألقيت السماء بها صفوف تذود عن الهلال أو الذمام
وقد حفت طرابلس بطور به رمز الملائكة الكرام
فتابعت الخطى أبغي صعوداً إلى الملا العلى إلى المقام
وصلت إلى الذرى فلقيت تركا وعربا رابضين إلى الأمام
نظرت وجوههم فنظرت نارا مسعرة بفرط الاحتدام
خبرت عيونهم فبصرت فيها وجوماً قد تنظم في اضطرام
وقفت مروعا فبصرت حولى مبرقعة مهفهفة القوام

رأيت بها كلوماً داميات تعانى كربها والدمع هام
دنوت بحرقة ورغبت منها افادة ألف غم مستدام
فألقيت الفتية بنت عرب أتت لتذود عن شرف السلام
وفارقت المقام وقبرطه لنصرة شوكة السلم المضام
تنادى المسلمين بكل أرض هلموا مذعنين إلى الأمام
هلموا يا بنى الاسلام جمعا لنصرة خادم البيت الحرام
هلموا — برقة — حفت بغم يرى من دونه هول الزحام
عساهم يدرأون على حياض رماها الدهر بالحرب العقام
وقد أخذت من المختار عهدا يحاكم من تقاسى بالحمام
فثرت مساهماً عما دهانا فأومأت اللواحظ للأمام
فولت ظهرها تبغى مفرا تسام العار عاماً بعد عام
أضاعت رشدها وأتت لمس تحاول وثبه للإنتقام
تهاجم عزة الإسلام ترجو مشاغبة الهلال عن التمام
تجور مصونة بحمى أربا كناشرة التمدن والنظام
ولو نالت من التمدين حظا لما كانت بنورها كالسوام
وغضت طرفها عمن سقاها كؤوساً نافعات من عقام
وظنت من كساها من عراء وأطعمها الشهى من الطعام
وأرسل عن (مسينة) من نداء ببحر يطفوء البركان طام
كمن طحنوا بنى الطليان طحناً به مزجوا اللحوم مع العظام
وقد أغضت عن (النمسا) عيوناً بجبن خشية الهون اللزام
وأقفلت القلوب على شنار من الحبشان يوم الإزدحام
وجاءت دولة الأتراك مثل الـ ـذى فعلت بناشرة العظام

* * *

فهـــل من مسلمين يعز عنهم ضياع مفاخر السلف العظام
فيلقون النفوس إلى جهاد يصان بفضلها دين التهامى
ويفنون البنين وكل مال ليحيوا مجـــد آباء عظام
فخير للفتى موت بعـز من الموت المجدد والسقام
فما عاش الذليل بفضل ذل ولا مات العزيز من الصدام
ولا نفع الجبان شديد حرص ولا مات الشجاع من الحسام
ولكن إنما الآجال تنأى وتأتى حسب تقـــدير السلام

نشـيد مدرسى

يا تونسى يا ابن الالى قد أنهضوا كل المــلا
انهض لتــحظى بالهنا مسترجعــاً ما قد نسى

...

يا تونسى يا ابن الأدب يا ابن المعالى والحسب
انهض وقل تحى العرب ذوى الفخار الاقعس

...

يا أغلبى يا ابن الرشـيد رب العلا الحر المجيــد
كن خالداً كابن الولـيد ليث الجهاد الأشوس

...

كن كابن رشد أو تزيد أو سائــا أبا اليزيد
أو كاتباً كابن الولـيد أو الرئيس الكيس

...

رب الخليـله هــذين كيما ترى أم الوطـن
وأمح الحسائك والإحن وأقم العـدالة لا تسى

...

انصف خصيما محتقر لا تخش ظلم المقتــدر
بل كن بعيد الغور حر نجما بدا فى الخنـدس

...

كن عادلا حر الضمير لا تخش أن تمسى الفقير
فالمرتشى لص حقـير والعـدل أمن الأنفس

...

كن باسـطاً للبـؤسا كن ناقـداً للرؤسـا
ولتعف عمن قد أسا تـكف انتقام المبلس

الصادق الفقى

صوت طرابلس الغرب

يا هاجراً ترك البنين صغارا — أترى الطيور تفارق الأوكارا
يا غافلا ينسى طرابلس التى — تركت جميع المسلمين حيارى
يا قالياً يدع البلاد أسيرة — تسترحم البلدان والأمصارا
يا نائماً إن البلاد عليلة — طرحت على حد السيوف مرارا
قم فاستمع صوت البلاد مردداً — تدعو الرجال إلى الجهاد جهارا
هلا سمعت دعاء قوم أشربوا — حب الدفاع عن البلاد فخارا
هلا سمعت صراخ قوم فضلوا — عز الممات على الحياة أسارى
هلا سمعت عويل ثكلى ذللت — تذرى من الدمع السخين غزارا
هلا سمعت أنين قوم مزقت — أشلاؤهم واستشهدوا أحرارا
هلا سمعت نفير قوم ودعوا الـ — ـنفس الأخير وصافحوا الأقدارا
قد جاهدوا فى الله حق جهاده — فازوا لديه فأصبحوا أبرارا
فانهض بصدق طوية مستبسلا — واسمح لنفسك للقتال بدارا
يا أيها الأبطال جودوا وانصروا الـ — ـقوم الكرام وغادروا الأقطارا
يكفيكم صوت المدافع دافعاً — والخيل تصهل تعلن الإنذارا
بيعوا النفوس وقاتلوا أعداءكم — لا تتركوا من جنسهم ديارا
جيش من الطليان داس حقوقكم — حصروا البلاد ودمروا الأسوارا
جيش القساوة والتسلط والردى — نكثوا العهود فمزقوا الأسفارا
جاءوا (لتمدين البلاد) فصيروا — تلك الرياض بلاقعاً وقفارا
جاءوا لتهذيب البلاد فأوقدوا — نار الحروب وخربوا الأدوارا
حرقوا المزارع والمراتع والربى — وأتوا من أنواع البلا أطوارا
نشروا جراثيم الفساد وغيروا — خصب المروج ليزرعوا الأقذارا

سليمان الجادوى

مابعد العيان بيان

يستند الخصم (الذى لم يكلفه أحد) أن من موجبات النجاح الاعتدال فى المطالب ويقول عن حزب الأمة الحر أنه سيقابل بالحرمان لشططه فى مطالبه وأنه سيقبر المسألة التونسية بتطرف بعض زعمائه وجهلهم بالواجب فى الطلب

وهو ادعاء باطل منه محمول عليه بتعشقه للمركز الذى أضاعه بتلونه والذى سار عليه منذ عرف فى المعترك السياسى فظن أنه بذلك يرجع ما أضاعه أو يحفظ اليسير منه على الأقل ونحن هذا الباب المتداعى فعومن والحمد لله بنقيض مرغوبه (والله لايصلح عمل المفسدين) .

أوهم العموم بنشرياته أن الدستور الذى هو الأصل فى برنامج الأمة شىء قبل أوانه وسابق عن أبانه وبذلك كان تطرفا والتطرف من موجبات الحرمان . يقول ذلك وهو يعتقد أنه طلب لا أعدل منه وإن فى من اشتكى إليهم من هو معترف بأحقيتنا فيه وأن سعادة الأمم تتوقف على إيجاده فيهم بصور واضحة . وما هو إلا كفالات تحفظ حقوق الضعيف ونظام يمنع القوى من التصرف فيه حسب أهوائه ومشتهياته . فيعرف الأول بحقوقه ويدرك الثانى حده فى الحكم فيه . وأنه أنفس ما يصبو إليه الحر من بنى الإنسان .

يغالطنا بأن الدستور الذى لا يفسر بغير مجلس نيابى يمثل المتساكنين على السواء ونظام يوقف المتصرفين فيهم عند حد معلوم وواجب محترم محتوم . فسماه تكرما أنه تطرف فى الطلب . وأن الأولى بالأمة : تعليم واقتصاد وإصلاح وحرث وتجارة واستخدام واستفادة من ضرع

وزرع ثم اندماج ودخول فى العادات والأخلاق مع أن الدستور هو وصف والأوصاف تقال على أفرادها بالتشكيك فإن مافى فرنسا غير مافى أمريكا ودستور انكلترا لا يشبه مافى إيطاليا وهكذا ما عند الدول الصغرى فلا يصدق بالمعنى الواحد من سائر جزئياته . كما أن الدستور يوجد أيضا بالمستملكات والمستعمرات وبلاد الحمايات وقد أعطى بلا طلب ولا إلحاح ففى الكاب دستور فى الكندا برلمان وفى البوير نظيره وفى استراليا ماهو بين ذلك النظام : وإن جميع تلك النظامات يقال عنها أنها دستور و يطلق عليها أنها ذلك العنوان الأنيق ولا اتحاد فى جميعها بل مراعى فى وضعها حالة الأمة والرقى فى البلاد . على أن تونس قد أعطيت دستورا من قبل فتعطل وأن تعطيله غير حجة على عدم وجوده كما أشارت إليه الفتوى الشرعية التى تهكم بها ذلك المذبذب فى بعض نشرياته وطعن فى عظيم من عظماء فرنسا حيث قال أنها تكلفت على الأمة ببعض أوراق من نوع ألف . . . ولم يدر أنها طعنة فى نحره وإن تلك الفتوى أثبتت وأن لا منافاة بين الدستور الداخلى وبين حقوق الحماية وحكم الحماة بالمعاهدات .

على أن هذا الخصم اللدود لا أخاله يستطيع أن يجاهر بقوله أن الذى أعطى بلا طلب ومنح ذلك النظام فى هاتيك الأقاليم هو غير الأمة التى أنتم لها تشتكون ومنها تطلبون . لأنه قول مردود لا يجاهر به ألا (تريدون) ومن كان على شاكلته من انكلترا وأوفر أنصاف من ذلك العدو الأثيم الذى حدع الشرق بتسامحه الداخلى وتركه للشعوب تتصرف فى نفسها بنظام نيابى بل وتوسع بأن جعل لأملاكه ومستعمراته نوابا فى جمعية الأمم التى بعضها دون تونسنا الجميلة وهى منه من النظر السياسى المتسع الذى يرجح به نفوذه فى ذلك المجتمع الدولى العام .

ونحن إذا طلبنا نظاما يصد علينا هجمات المتعشقين لسياسة الإكراه يقول عنا إننا مشطون فى الطلب ارضاء لبعض الإداريين الذين

لا ينظرون لصالح دولتهم بنظر السداد . مع أنه المتطفل والنازح والبعيد .

كما أن أرباب النفوذ الأعلى بفرنسا لا يرون مانعا فى مساعدة الشعوب المحتمين بهم والذين انتدبوا لهم بإيجاد الحكم الذاتى فيهم لظهور الإخلاص فى الأولين عند الشدائد ويرون أن لا أجمل من سلوك سياسة الاستيلاء على العواطف التى يدوم معها النفوذ براحة وبلا مرابطة الجنود . سيما بعد أن أصبحت فرنسا دولة إسلامية عظمى فهى أجدر بذلك الميز الذى يكسبها سمعة علية فى مصاف دول التمدين والإرتقاء بل وتحققوا أن سلوك سياسة الإكراه لاتوصل إلى الغاية ولا يمكن بها الاستيلاء على القلوب وقد انكشف لهم أن طلب ساسة الاستعمار هو التسطط الضار والمشين للسمعة المرغوبة فى جلائها حسنا من تدنيسها بالسير فى المحكوم فيه على ناموس الإكراه والغبن الذى هو شنشنة ذلك الحزب وبغيته لبعده عن الحكمة ومعاكسته السداد . فالدستور الذى تطلبه الأمة التونسية وشن عليها الغارة ولم يحتفل بمقاله لا تريدون ولا بلتى فضلا على الأمة (ولطفه فى زعمه) فما هو إلا قيد لمدير الفلاحة يحمله على اعتبار الأمة فى برنامجه حتى لا يغنى بأراضيه القليل من النازحين بعطائه ويفقر الوافر الكثير من الوطنيين بحرمانه فيصبح عالة على السؤال كما هو فى أطرافه ووسطه اليوم . وحاجز لمدير المعارف حتى يحاسب عن أعماله ويخشى أن يسأل عن ضياع المدرسة الصادقية فى تيار إدارته ولا يقدران يعطل رخصة فتح مدرسة أهلية كما عطلها فى باجة وما حجته إلا الإطلاق فى النفوذ . . كما أنه موجب يمكن نواب الشعب من سؤال إدارة الأشغال عن إهمالها لكثير من القرى الأهلية بلا طريق عام بينما نشاهد طرق الأشغال العامة اخترقت أراضى الفلاحين الأروباوين والبريد فى أثرهم حتى قيل أن أحدهم طلب تزفيت الطريق الموصل إليه تفصيا من القتام التى تثيره عربته فأجيب لذلك وغيرهم فى الأوحال يتعثرون . ونظام مقدس يرهبه مدير المال الذى إذا سئل عن ضياع سبعين

مليونا أو نقص أو أخلال أو احتكار لايقدر أن يجيب بإحالة النقص على أبواب الصرف فى التموين . . . إلى غير ذلك مما يجعل الداخلية فى مأمن من الاطلاق وللأمة قسط من النقود . أفهذا يعد تطرفا يا أيها المعتدل حتى تقدم برنامجك الذى جاء برهانا على إنك حرج الدارية أو ضيقها . شأن من يدعى ماليس فيه فينكشف فى الموقف ويفتضح فى المجال ولو أفرغ الجهد وأكثر من القيل والقال .

قدم برنامجا ذا نقط عشر قد ظن أنه بجهاده فى التلفيق يفلت من المأزق فأسرع ماسقط فى القيدين الرابع والعاشر اللذين هما فى صراحة لايشوبها ابهام فى ضياع الوحدة والأخلاق والنظام الداخلى للبلاد .

هذا وأن الذى يضحك الثكلى اعتذاره من ظهور ذلك الاختلال فى برنامجه وسقوطه فيه السقوط السخيف أنه منقول عن الفرنسية وقد أخل المترجم بالمفهوم . وهو عذر أقبح من ذنب وأن جنايته فيه أكبر من اعتبار اللغة العربية عنده والنظر إليها باحتقار . لأن الشأن فى الذى يقف موقفه ويعلن عن نفسه أنه سيسير بالأمة والبلاد إلى مستوى الإصلاح . . . أن لايحتاج فى آرائه إلى ترجمان يكلفه الاعتذار .

قال فى بعض نشرياته الأعجمية أن الوفد الأول الدستورى كتم أعماله والثانى غير مشرف الطلبات إيهاما للعموم بأن ذلك رجوع إليه وأنه الثاقب العصيب . . . قال ذلك بملء فيه والواقع خلافه وإن حشر الأمة إلى خطيب الوفد الثانى برحبة جامع الهوى فى يوم مشهود وإعطائها البيانات الكافية عن الأعمال بصوت جهورى ومنطق رهيب لحجة دامغة وقد نشرته الصحف فى الوقت نفسه وعلمه الخاص والعام وكان الجميع من أعمال الوفدين فى أمتنان .

أغفل أنه طلب السفر مع الوفد الثانى فأبدى رأيا لا يفهم منه غير محاولة احباط المساعى وبعد جدال طويل أحيل الرأى على الاقتراع فكان

منفردا فى رأيه فقيل له حسبك اعتبار الأغلبية فأصر على العناد قائلا أنه لايذهب ضد وجدانه وعكس ضميره . فكان ذلك اليوم هو أول يوم ظهر فيه بوجه مبتاع .

ثم بعد التئام الوفد الذى ظن أنه يقعده عن السفر رأيه . طلب أن يذهب مستشارا معه حيث أنه ذاهب صحبة زميل إلى الاشتراكية بباريس ويبرن ويمدهم هناك برأيه وفى ضمن ذلك روعى مالايحسن التصريح به وبالتالى جاء مخبرا على الوفد أنه داجن فى الطلب .

رب سائل يسأل ماهذا السكوت من أعضاء الحزب الحر وأنصار المسألة التونسية وما بالهم لم يعلنوا بعدهم عنه من أول الأمر سيا بعد امتناعه من من امضاء العرائض وتستره (بأجنبيته) وعدم قبوله لرئاسة الوفد الثانى .
فالجواب هو الفرار من وقوع هاته الرجه التى تقرأ فى وجهه من عهد قديم . وناهيك بمن يستحسن الغرض ويتعشق سياسة المقيم الراحل الذى قال عنه (بلتى) أنه يقبله قبل الشروق . . .

مرشد الأمة عدد ٧٨ ٢٠ المحرم ١٣٣٩

جريدة البرهان

الله لطيف بعباده

يحق لنا أن نضرع إلى الله سبحانه ونستمد من الطافه الخفية ما يكون لنا حرزاً يقينا وبلات هاته البلايا المتراكمة والمحن المتصادمة .

قضيناها سنيناً كسنى يوسف أبتلينا أثناءها بنقص من الأموال والأنفس والثمرات وتوالت علينا الرزايا آيات مفصلات .

حوادث تتعدد وكوارث تتجدد والتونسى اتجاهها ثابت الجاش قوى العزيمة شديد الجلد يتلقاها بجميل الصبر ومتانة الرصانة ويدارى زعازعها بالحكمة البالغة والإدراك الثاقب .

تلك هى المواهب القدسية التى تميز بها سكان هذا القطر المأنوس فكانوا مثلا للسكينة والإعتدال .

لم نكد نبارح تلك الأهوال المتولدة عن الحرب ولازال شخصها المرعب يتمثل أمام أبصارنا بمنظره الرهيب حتى حل بنا ما حل من الأزمة الإقتصادية التى أتت على الحثالة الباقية بأيدينا فأقفلت البنوك خزائنها وتعطلت التجارة وتعذرت المعاملات وتعددت الفلسات ومن ربح شيئاً زمن الحرب تقاياه وأردفه بضياع رأس المال ولم يبق من تلك الأرباح إلا الضرائب الموظفة عليها يرزح تحتها من ساقه سوء الحظ إلى تعاطى التجارة أو الانتساب إليها فكان أشبه شىء بمن اقترف جريمة وحاق به سوء عمله فأصبح يتململ من أليم العتاب وشدة العذاب .

تعلق الرجاء وانعقد الأمل على الصابة المقبلة وقد بشرتنا السماء أيام الشتاء بغيثها المتواصل وتساقط الثلج والبرد فتفاءلنا بذلك خيراً وانتظرنا حلول المصيف وأبان الحصاد ليتحصل من مزروعاتنا ما يكون لنا ذخراً وعدة وفرجا بعد الشدة ولكن وا أسفاه فقد أمسك الغيث عند اشتداد الحاجة إليه فلا وابل ولا طل ولا رذاذ يطفي حر اللهيب الذي أصفر منه مخضر النبات ولا يلبث أن يصبح هشيما تذروه الرياح .

تتلبد السحب وتتكاثف الأنواء حتى إذا أظلم الجو وانبعث فى النفوس روح الأمل وتقلبت الأوجه نحو السماء تترقب قطرها وتنتظر من تلك السحب أن تفيض مدامعها شفقة وحنانا فإذا بها جهام متصلف وبرق خلب سرعان ما تتبدد تحت تأثير الأشعة المحرقة بين الغبار الثائر وصفيق الرياح .

وماذا يؤول الحـــال إذا يبست المزروعات وخسرنا ثروة هي الرجاء الأخير لتخفيف الوطأة وسد العوز ونحن الآن أحوج ما يكون إليها فقد اشتدت الفاقة وعضنا الدهر بنابه ومتوسط الحال منا يتعذر عليه القيام بضروريات الحياة اللهم أفرغ علينا صبراً نقاوم به صروف الدهر وهجمات الزمان .

عد عن ذا وأنظر إلى ما يجرى الآن بخصوص المسألة التونسية والأحوال السياسية تجد الناس حيارى وتحسبهم سكارى وما هم بسكارى تسمع كل يوم من الأخبار المتعاكسة والروايات المتشاكسة ما يجعلك تحت سلطة الشكوك لا تكاد تصدق ولو بالعيان وتقدح حتى فى الخاصة ورواية الثقاة والأعيان

أشيع خبر عزم سمو الأمير على التنازل عن العرش الملوكى عقب مضايقة أعتبرها غير ملايمة لمركزه السامى فهب الشعب لإبداء عواطف ولائه وشدة تعلقه بأميره المحبوب يرغبون من تعطفاته الأبوية أن يرجع عن ذلك العزم الذى ارتاعت له القلوب وتكدرت الخواطر وقد أيد سموه أيده الله من بذل التضحية الأبوية وإرشاد الشعب لصالحه من ملازمة السكون

والاخلاد إلى الراحة والهدوء وعود كل واحد إلى شغله الخاص .

ومن الغد كذبت تلك الإشاعة رسمياً إنه أعزه الله لم يعزم عن التنازل وإنه واثق بفرنسا لإجراء ماتحصل به السعادة لرعاياه طبق المعاهدات الرابطة للعائلة الكريمة بهاته الدولة الفخيمة .

ثم ماذا وهل نحن إذا صدقنا بما جاء بتلك اللائحة هل يمكن أن نعتقد أن تلك الإشاعة محض اختلاق وإنه لم يحدث أدنى حادث من هذا القبيل مما لا يروج حتى على الأطفال والمتهوسين .

هنالك أختلفت الأقوال وتعددت الآراء وكثر القيل والقال وراجت سوق الأكاذيب واغتنم المغرضون ذلك فرصة لترويج شهواتهم وتأييد مباديهم العقيمة فدسوا الدسائس وطيروا على طريق البرق مخترعات ملايمة لسياستهم العدوانية فوفد علينا بريد الأسبوع مفعما بحديث خرافة أم عمر بما خلاصته أتهام الشبيبة المتنورة بأنها هى التى أنشأت هذا الحادث وتسببت فى حصوله بالإلحاح على سمو الأمير بالتنازل عن العرش لمعاكسة نفوذ الحماية

ولقد طالما فندنا هذه المزاعم وأبطلناها بالحجج القاطعة فالشبيبة لاتود معاكسة نفوذ الحماية ولا تبتغى بها بديلا وغاية ماترجوه من عدالة فرنسا الحصول على حقوق شرعية لا تنافى المعاهدات المرعية التى أرتكزت عليها الحماية وارتبطت بها الدولة التونسية تلك هى رغايب الشبيبة بل رغايب الشعب بأجمعه بعد أن أثبت إخلاصه وبرهن عن مجاملته لفرنسا واستقامة سياسته فكيف ينسب اليوم إلى العداء والجفاء .

وأما حادث القصر فلم تكن للشبيبة فيه دخيلة أو دسيسة بل ربما كان قاصراً على أسباب تتعلق ببعض أعالى الموظفين ولا دخل لأحد من الفرنسويين فيها بالمرة .

ومازعموه من أن سموه اشترط شروطاً وضرب لقبولها آجالا فاننا لا نصدق بهاته الإشاعة ولا نعتبرها إلا من باب التهويل ودس الدسايس

ولا يبعد أن يكون تفاهم فى شأن الاصلاحات المرغوبة من الشعب مع جناب العميد على بساط الوداد المتبادل من الطرفين وهل فى ذلك حرج أو أستغراب اللهم إلا لمن ران التعصب على قلبه وأعماه الغرض .

أما نحن فلا نرى فى هذا الحادث إلا مايزيد وضوحاً لاخلاصنا وحسن نوايانا وسلامة طويتنا مع الدولة الحامية وشدة وثوقنا ووثوق أميرنا بها ورسوخ أعتقادنا فى أن كرامتها تأبى أن تبخل علينا بما يحقق سعادتنا من الاصلاحات التى لا تمس بشرف فرنسا ولا بمصالح جاليتها ولا تنافى المعاهدات القديمة فمن رام بعد ذلك أتهامنا بما نتبرأ منه براءة الذئب من دم ابن يعقوب فإنما يسعى فى فصم عرى هذا الولاء وإيغار الصدور وبث الأحقاد وافساد القلوب والله لا يصلح عمل المفسدين .

عدد ٣٠ السنة الأولى ٢١ شعبان سنة ١٣٤٠

محمد ابن الحسين

حوادث الشهرين

لم تكد تنتهى مفاوضات لندره فى شأن الأحوال الشرقية حتى قامت القوات اليونانية الضاربة ببورصة وولاية أزمير بحملة عامة على الجيوش الملية العثمانية مظهرة بتلك العملية عزم حكومة أثينا على حل مشكلتى تركيا الشرقية وأزمير بقوة السلاح وقد تمكنت عساكر بابولاس فى بادىء الأمر من التوغل فى الأراضى التركية ومن دحر الفرق العثمانية التى اعترضتها حتى خيل لبعضهم أن المليين أصبحوا فى مركز حرج وأنهم سيضطرون للجنوح إلى التفاهم مع اليونان رأسا فى مسألة الصلح ولكن الأقدار أبت إلا تكذيب أحلام أولئك الذين كانوا يعلقون أملا على حركات اليونانيين فجاءت الأخبار مبشرة بانتصار الأتراك عليهم حول اسكى شهير انتصارا باهرا وبردهم على أعقابهم مسرعين بعد أن ألحقوا بهم خسائر جمة بين قتلى وجرحى وأسرى وغنموا منهم جانبا عظيما من الذخائر والأسلحة على اختلاف أنواعها فكان لهذا الفوز الكبير وقع جسيم على الرأى العام اليونانى فأخذت قيم الأوراق المالية تنحط بسرعة مهولة وتعالت أصوات المعترضين على سياسة الحكومة الحالية فعجلت وزارة قوناريس بتلافى الخطر الذى أصبح يهددها فعزلت قائد عموم الجيوش اليونانية وأصدرت قرارا فى تجنيد عدة أقسام من عساكر الرديف بنية حشدها إلى ساحة القتال وأذاعت على طريق الصحافة أن تفوق الأتراك عددا على القوات اليونانية وصعوبة طبيعة الجهات التى دار فيها القتال هما السببان اللذان أكرها جيوش قسطنطين على التقهقر

إلى مراكزها الأولى وأنهم سيستأنفون الحملة من جديد متى تمت تعبئة الفرق التى أخذ فى تدبيرها أركان الحرب بنشاط وهمة ألخ ما راج من هذه الأخبار إلا أن القائد العام العثمانى لم يترك لأعدائه الوقت اللازم على زعمهم لاستكمال عدتهم وعددهم فأمر عساكره بالسير إلى الأمام فلم تمض إلا أيام قلائل حتى أحدقت ببلاد بوصة من ثلاث جهات ودحرت اليونانيين من أشاك ثم ألهشير من جهة ولاية أزمير بعد مقاتلة عنيفة إنهزم فيها الجيش اليونانى شر هزيمة وترك فى أيدى الأتراك عددا كبيرا من الأسرى والمدافع وقد جاءت الأنباء الأخيرة مؤيدة بأن الواجهة اليونانية خرقت وأن الفرق اليونانية أصبحت مجبورة بحكم الضرورة على إخلاء مراكزها الحالية خوفا من قطع خط الرجعة عليها .

هذه خلاصة الحوادث الحربية التى حصلت خلال الشهر الماضى ببلاد الأناضول وهى كما يرى القارىء موجبة لسرور الأتراك خصوصا والأمم الإسلامية عموما وانقباض أعدائهم الذين أعمى كبراءهم الطمع والشره الذميم عن إدراك مصالح قومهم الحقيقية ففضلوا خدمة سياسة الغير على سياسة بلادهم انقيادا إلى عواطف حركها فيهم ذكر ماض خلا وتاريخ انقرض وما دروا أن انكلترا وهى — التى لجأنا إليها — ليس فى إمكانها الاستمرار على تأييدهم بالأصفر الرنان متى تحققت (ونظن أنها بدأت تتحقق) عجزهم عن إتمام المأمورية العسيرة التى ألقتها على عواتقهم خصوصا وأن المسلك الذى انتحلته لنفسها أثر الحرب الأروبية الأخيرة لم يأت بالنتيجة التى كانت تتوقعها وهى إخماد نار الهيجان الذى ظهر بالهند بين المسلمين قبيل عقد اتفاقية سيفر واجماعهم على المطالبة باحترام حقوق الخلافة وصيانة الأراضى المقدسة من كل سلطة أجنبية وذلك بالقضاء على البقية الباقية من تركيا بتقسيمها بين الدول وحصر الشعب العثمانى بمرتفعات الأناضول والاستيلاء على الآستانة العلية التى يعدها المسلمون كعبة آمالهم الدينية غير أن الحوادث التى تكررت منذ سنة سواء بالهند أو بالديار التركية ستلزم انجلترا بتغيير تلك الخطة العقيمة

حيث اتضح للعيان أن تأثير اتفاقية سيفر لم يزد مسلمى الهند وغيرهم إلا اتحادا وتصلبا وارتباطا بالأحزاب المضادة للسلطة البريطانية وهذا مايدعو حكومة سان جام للتفكير فى عواقب سياستها الحالية إذ لا يعقل أنها تجازف بمصلحة المملكة لتأييد فكرة سياسية ضالة أثبتت الحوادث التى توالت بالشرق استحالة تنفيذها — نقول ذلك لعلمنا بحذق ونباهة رجال سياسة بريطانيا الذين اعتادوا تحكيم العقل والتجربة فى الأمور السياسية بدل العواطف والإحساسات ودليلنا على ذلك جنوح انجلترا إلى التفاهم مع الشعب المصرى على قاعدة الغاء الحماية والتحفظات التى أبداها قادته فى مشروع اللورد ملنر ولا شك أن المسألة المصرية دخلت اليوم بفضل قرار حكومة لندره دورها النهائى وأن الأمة النبيلة التى أدهشت العالم باتحاد كلمتها وثبات موقفها وقوة حجة نوابها أوشكت أن تنال ثمرة جهادها الصادق فى الحرية والاستقلال .

من أهم المسائل التى شغلت عقول أصحاب الحل والعقد بحكومات المتحزبين مسألة التعويضات التى التزمت بها ألمانيا فى اتفاقية فرساى ولم تقم بغالبها لحد هذا اليوم وهذا ما أدى بجلس وزارة فرنسا إلى النظر فى أساليب الإكراه التى يجب اتخاذها تجاه امتناع حكومة ألمانيا من الوفاء بما تعهدت به وقد انعقد منذ بضعة أيام بجلس عال بلندره متركب من رؤساء حكومات المتحزبين للبحث فى هذه العقد العويصة إلا إنه لم يستقر رأى نهائى إلى الآن فى شأنها حيث فرنسا ترى أنه لم يبق سبيل لإمهالها ألمانيا على أداء ما ترتب بذمتها وإن أوفق مسلك لجبر هذه الأخيرة على الخلاص هو احتلال عدة نقط معتبرة من ترابها أهمها مقاطعة الروهر ذات المناجم الفحمية الغنية والمصانع العديدة بينما انكلترا لم تزل مترددة بين طرق الغضب والمسالمة مراعاة لما لأرباب الأموال وأصحاب المعامل بمملكتها من المصالح الوطنية بألمانيا على أن جمهورية الممالك المتحدة وإن لم ترض بالتوسط الفعلى بين جرمانيا والحلفاء إلا أنها تستنكر إحتلال مقاطعة الروهر وإيقاف الحركة العملية

بتلك الديار والمظنون حسبما نقلته إلينا شركات الأخبار أخيرا أنهم سيتفقون على وجه متوسط بين الفكرتين الفرنسوية والانكليزية يقتضى إمهال ألمانيا لمدة وجيزة ريثما تقدم اقتراحات مقبولة بدون أن تعطل الاجراءات العسكرية التى سيقوم بها الجيش الفرنسوى . هذا ما اتصل بنا من الأخبار إلى اليوم وسيكشف لنا المستقبل كيف تسوى هذه المشكلة الخطيرة وإن غدا لناظره قريب .

مجلة الفجر (السنة الأولى جزء ٩و١٠)

محي الدين القليبي

الأمير يضحى تاجه فى سبيل الدستور

متى أحست الامة بخطر يداهمها وكشفت لها الحوادث عن عدو يكيد لها المكائد وينصب لها الفخاخ ليوقعها فى شر يستفيد منه أو يكون على الأقل منتجا لها ضررا يسره بقدر ما يريد . فانها بدون شك تسارع إلى أخذ الحيطة لهذا الخطر الداهم والعدو الخبيث . ولقدمنيت أمتنا المسكينة بهذين الأمرين فارتأى حماتها ومفكروها اتخاذ ضمانات تقيهم الوقوع فى ذينك الخطرين . خطر القضاء على الحياة الاستقلالية بواسطة تيار الاستعمار الجارف وهو ما نعبر عنه بالخطر الداهم . وخطر الذين يستفيدون من بذر الشقاق وإحداث المشاكل العويصة والمخطرة التى يرومون من ورائها تقسيم الهيئات المتضامنة والأجزا. المتماسكة التى تكون جسما واحداً تسيره روح التكاتف والاتحاد كى يتخذوا أحد القسمين ويستعملوا بعض الشقين سلاحا لمناوأة الآخر ومحاربته التى بدون شك تؤول إلى قتلهما معاً وهذه النتيجة التى ينشدونها ويبذلون فى التحصيل عليها كل مرتخص وغال .

- ومن هذا القبيل مانراه اليوم ببلادنا من العمل الذى تجريه الإدارة التى قيل عنها أنها مكلفة بدرس حالة البلاد وتنفيذ رغبات الشعب التونسى وهى فى الحقيقة جاءت لدرس الوسائل الفعالة للقضاء عليها فبينما نراها تنتقل فى عملها من التسويف إلى الإنجاز المموه الذى لايروج إلا على بسطاء العقول وسذج المدارك إذا هى فى الوقت نفسه تجس مواضع يخيل لها أنها مواضع الضعف من الأمة وتلتمس وراء دسائسها وألاعيبها المتنوعة أن تحصل على

مرغوبها وكل ما تريد . ولكن روح الشعب السامية وتربيته العالية وإحساسه الشريف كان ولا يزال العامل الوحيد الذى يقضى على كل آمالها وأمانيها إذ أن الشعب كان يظهر إزاء هذه العوامل بمظهر الجوهر الفرد الذى ليس فى الإمكان تقسيمه بحال وكثيراً ما أعرب عن عدم انخداعه لها وانه لا تؤثر عليه هذه العوامل بالمرة ولكن بدل أن يكفها عدم نجاحها وتكون خيبتها المتوالية رادعة لها عن هذا السلوك المشين فانها أرادت أن تكون خطتها الأخيرة اللعب بالنار فى وسط الهشيم وسولت لها نفسها أن تمثل دورا فيه من الخطر ما فيه وفعلا أخذت تنفذ هذه الإرادة الخبيثة والمؤامرة الخطيرة والسيئة العظمى بواسطة أناس كانوا ولا يزالون قذى فى عين الشعب وعبئا على كاهل الأمة ثقيلا دأبهم العمل على حسابها لفائدة الغير فهم مصدر النوائب وطريق المصائب وسبب المتاعب وتعدد النكبات المؤلمة التى تنزل بساحة هذا الشعب صباحا مساء .

مثل هذا الدور ونفذت تلك الارادة فما كانت النتيجة ؟

ملك يتنازل عن عرشه ويلتى بتاج آبائه الكرام البررة حماة الإسلام بالخضراء تونس ذات التاريخ المجيد فى سبيل نيل الضمانات التى أصبح على علم تام ويقين كامل من أن مركزه ومركز شعبه لا يكونان ثابتين إلا بوجودها وجوداً حقيقياً لا تمازجه نبذة من الغش والخداع .

وشعب يهتز لهذا النبأ الذى لم يحك التاريخ مثله ويحتج على ذلك بواسطة حزبه ويعرب عن استيائه بمظاهراته العظيمة التى تكتنفها السكينة ويحيط بها الهدوء من كل مكان ثم يفزع إلى أميره مستكبرا بطولته مثبتاً له دوام الإخلاص والولاء شاكراً عزيمته الملكية وإدراكه السامى .

وحقيقة لقد رأى الأمير من شعبه ولاقى من أمته مايلقاه كل ملك مثله يضحى شخصيته لفائدة الشعب ولصالح الأمة فان الحماس الذى كان يمثله الشعب بالغ حده فلقد كان ذلك المظهر المؤثر من أجلى مظاهر التضامن الحقيقى بين الشعب والعرش وكادت أن تلمس فيه الوحدة المقدسة باليد وهذا مما يحقق خيبة المساعى المبذولة للتفرقة بل الأمة وبين أمارتها المحترمة ويترك دعاة الشقاق يعضون الأنامل من الغيظ .

جريدة (الأمة) عدد ٢٧ السنة الثانية — الاحد ١٢ شعبان سنة ١٣٤٠

محمد الشاذلي خزنه دار

إيطاليا

إيطاليا قيل قالت ... إفريقيا من حقوقي
لكن قد اقتسموها ... وأشرقوني بريقي
فالبعض عند الأعادي ... والبعض عند الصديق
حتى تبقت بلاد ... مطروحة في طريقي
فما أنا غير شمس ... قد آذنت بالشروق
فإن يقولوا اغتباطا ... ماليتي في ضيق
فلي بواخر بحر ... أسطولها في بروق
(كانيف) قائد جيشي ... أكرم به من فريق
مستبسل ذو دهاء ... ما مثله في فروق
فما له اليوم أضحى ... كالبالع المخنوق
في رقعة واشتهار ... تراه كالمشنوق
سلطانه منه أضحى ... كالذاهل المصعوق
مذ خيب الظن فيه ... تعسا له من رفيق
إذ كان فيها غريقا ... مستمسكا بغريق
تنتابه صعقات ... بزفرة وشهيق
وجيشه في انخذال ... وفي دمار حقيقي
فما استطاعوا نزالا ... مع كثرة المنجنيق
فيهم يقال اقتباسا ... ذوقوا عذاب الحريق

(كور الماكرونا)

قالوا إلى الترك نمشي ... فنهلك من حصونه
قل حبذا الكور منهم ... إذ كان بالماكرونه

الاعتصاب

أينفى الاعتصاب بنو سبع   وإن هطلت لهم عيني بدمع
أيرضى الحر فيكم باضطهاد   وبالتفريق منكم بعد جمع
كفانا ما لقينا من هوان   وخذلان ومن شكوى لوجع
مضى زمن التخاذل واتحدنا   لدرىء المفسدات وجلب نفع
مضى زمن التكاسل وانتبهنا   لنبذل فى المصالح كل وسع
وذقنا فى الأخاء لذيذ سكر   فنحن به نشاوى دون كرع
فإياكم وفل العزم حتى   يردد ذكرنا فى كل صقع
ونقطع للترام طلاق بت   تذاكر لم تسم بطلاق رجعى
ونقرع سمعهم بصدى مقالى   أينفى الاعتصاب بنى سبع

ضحايا الاعتصاب

أبكى لفرقتهم وهم أحياء   سبعا بكتهم تونس الخضراء
ما كان فى كفى الحسام وإنما   من تحت فكى حية رقطاء
أرسلتها حصبا على مغتالهم   فتريه ماذا يفعل الشعراء
سأهز من قومى الذين بلوتهم   ما ترتضيه الهمة القعساء
عربية فى الاحساس نخواتها   لله تلك النخوة العرباء
لا تخلدوا فشلا لفل عزيمة   ولو ادلهمت سحبها الظلماء
دعهم يريقوا يزهقوا يستنزفوا   ينفوا يبيدوا يفعلوا ما شاءوا
واسترسلوا فى الأمر دون تراجع   فالحبل منه انشقت الصماء

الدردنيل

أقلع بقشك أيها الأسطول ... ان التى هاجمت اسلامبول
أتهاجم الآساد فى آجامها ... وعرينها بليوثه مأهول
أبحرت نحو الدردنيل لفتحه ... فرأيت ان الدردنيل مهول
لا تحسب القارات جولة سائح ... فاطرح حسابك ان ترميل
يتفاخرون جهالة بعديدهم ... فليكثروا « إن الكرام قليل »
فتحيروا ومن المحال إيابهم ... وتوقفوا ومن المحال دخول
تلقاءهم ما لم يكن بحسابهم ... وأمامهم مستقبل مجهول
شاهدتموها والسماء تلبدت ... ورأيتموا كيف الجبال تزول
هذا وأن الله يعلم وحده ... أيان مرساها وكيف تؤول
كل يؤمل من رآها خطوة ... والغيب عنده ذلك المأمول
فمتى تحط عن الورى أوزارها ... ما العيش إلا الحلم والتأويل
نقضى الحياة على تنازعنا البقا ... والكل عنه فى غد مسئول
ما الحق يعرف يوم هادون امترا ... ويطابق المنقول والمعقول
ويصاخ بالاذعان للأمر الذى ... قد قاله للأنبيا التنزيل
فدع ابن دنيا الآن فى غفلاته ... حتى يفيق لأنه مشمول

الحج

الله أكبر أيها الـ ـاسلام والديان يشهد
شقين فرقنا الزمان وهكذا العقد المبدد
هـــذا يجند للجهاد وذاك فى الغرما يجند
هذى إرادته ليشقى بعضنا والبعض يسعد
ســــلم أمورك للاله فانهـا لله تصعد
ولد الزمان عجيبة سيخصصون لهـا مجلد
من زوجه الحرب التى قد أقسمت إن ليس تخمد
من حج بيت الله فى هذى السنين يعد ملحد
حيث الخروج عن الخليفة لايقول به الموحد
ما للشريف ومالنـــا فاركع لربك فيه واسجد
قد كانت الأصنام فى عرصاته مذ حج أحمد
الدين عاد كما بدا فابشر وصل على محمد

الصلح

نبأ الصلح طن فينا صداه ليت شعرى ما كان تحت غطاه
أضرموها لنصرة الحق حربا فأضلوا السبيل فى ملتقاه
سالت الأرض والسماء دماء أى شعب لم تجر فيها دماه
ألبسوا الحق طليسان بن حرب أى عين لم تبك حين تراه
لو سألناه قال إنى برىء من زمان شلت وتبت يداه

ليسوا الجناة

وقفوا هناك وحسبهم بمواقف الشرف الأثيل
ليسوا الجناة وإنما شأن القوى مع الضئيل
قالوا العدالة بيننا هل للعدالة من سبيل
وورآ القضاء يد بما مال القضاء لما تميل
تجرى به الأحكام فى الـ بحر العريض المستطيل
لا فاعلاتن طبق وزنه للحقوق ولا فعول
لعبت به الأحرار أدوارا بمرسحها الحفيل
عقدت على دعوى انعقا د الاجتماعات الفصول
كشفت قضيتنا هناك على محياها الجميل
قالوا اخطبوا فبدا من الخطباء ما يشفى الغليل
من برهنوا عن حقهم وهو المؤيد بالدليل
شم الأنوف أعزة من كل مقدام نبيل
يدرى العزيز حقيقة إن لا حياة إلى الذليل
نل حقك المهضوم وحدك حيث خصمك لا ينيل
وادأب عليه محققا أن لا وجود لمستحيل
حرك شعورك مطلقا وأنا الضمين إلى الوصول
وجعل خصوصك فى العمو م ليستتب لك الحصول
وكن المقارن قوله فيما يقوله بالمقول
وانقل خطاك بمقتضى ماقررته ذوو العقول
وانظر بميزان الحرارة فى الصعود وفى النزول
سر كالزمان بحكمة سير الليالى بالفصول
الدهر علمك المسير وأنت ضمنه فى رحيل
استنهضتك من السبات المحض هاتيك الطبول
فنفضت عنك غبارها وأزحت جلباب الذهول
فرأيت حقك بيننا فيهم وانت به كفيل
فعليك أخذه ما استطعت وما عليك من العذول
وارفع بصوتك معلنا أن لا رجوع ولا عدول

التمثيل

هى الحقائق هبها اليوم تمثيلا ... لله مجملة كانت وتفصيلا

ذكرى تثير من الرائى عواطفه ... بين اليواقظ لا حلما وتأويلا

عما تفيده للابصار موعظة ... تريك للدهر تحويلا وتبديلا

تلك الصحائف للآباء ناصعة ... بيض ترتلها الأيام ترتيلا

انهض بهمتك القعسا كما نهضوا ... واستحصل المجد للآباء تحصيلا

* * *

هذا لعمرى صلاح الدين خالدة ... آثاره الغر مذ أولته تبجيلا

وكم تخلد فى تاريخنا الذهبي ... مما يكلل تاج العرب تكليلا

* * *

نحن الذين على منوالهم نسجوا ... ما أهلتنا ظروف الحال تأهيلا

فلتحى يا تونس الخضرا بهمة من ... يستسهل الصعب فى أرضاك تسهيلا

أنشودة المساء

أمسى المساء كأمسنا	وبدا به وقت الرواح
والشمس مالت للغروب	ولونها الذهبي لاح
مصفرة الوجنات قد	لبست من الغسق الوشاح
والليل أقبل للسبات	وفيه ذو العمل استراح
فيه مراجعة الدروس	لكي ننام على ارتياح
فيه سرور الوالدين	وفي سرورهما الرباح
ماذا يسرهما سوى التهذيب	في الأبنآ الملاح
فتزودوا بدعائهم	عند المساء وفي الصباح
وامسوا بخير وأصبحوا	مع والديكم في انشراح

مصطفى آغة

الحارس المسخر

روت لى فتاة حديثا جرى بإحدى مدارس بعض القرى
فقالت رأيت صبيحة يوم فتاتين أجمل ماقد يرى
« للى » ذات حسن إيطالية يجول بخدها ما أسكرا
وليلى لها اللطف أهلية عرا القلب من لحظها ماعرا
فقالت لليلى « للى » مذرأتها تحاول صد جيوش الكرى
أصابك فى ليلك أرق أم الليل قضيته فى سرى
فبان لها الغم فى وجه ليلى فصاحت بربك ماذا طرا
فقالت أبى بات يشكو صداعا وليت عليه الشقا اقتصرا
ولكن يحارب سقما وفقراً عليه أخيراً قد انتصرا
قضى فى الحراسة ليلا طويلا وآب بعلته سحرا
وبات بعسر التنفس حتى لعمرك خلته محتضرا
فقالت « للى » هذه مهنة أراها على أهلها خطرا
ولا سيما الضعفاء وداء الـ صدور بقريتنا انتشرا
أشيرى عليه إذا ما تعافى بترك الطواف لمن قدرا
فقالت لها الوطنية ليلى وعقد مدامعها انتثرا
أبى ليس حارس ليل ولكن عليه كغيره قد أجبرا
فقد عينوا حارسين من القا طنين مجانا بكل القرى

فقالت لها الأجنبية عفواً إذا قلت ما قلت محض افترا
فلو كان ما قلت صدقا لامسى أبى اليوم فى الحرس معتبرا
ونحن بفضل العدالة نقضى بأمن ليالى الصفا سمراً
فبان على وجه ليلى استياء وفاضت مدامعها عبرا
وقالت لعمرى لك العذر انى أرانى اقتضبت لك الخبرا
فما فرض الحرس إلا على الاه لين وفيهم قد انحصرا
فقالت «للى» وهى تخفض لحظا وفى وجنتيها جرى ما جرى
أيعقل رباه أن حماة أتتهم لتسعدهم فى الورى
يكون سلوكهم اليوم هذا وهم فى رق على ما أرى
أولئك من حرم الرق فيهم فلا الحر يشرى ولا يشترى

أبو الحسن ابن شعبان

الحرب الكبرى

سعروها حربا تبيد الشعوبا　　فذكت نارها وأبدت شبوبا
وغدت بالنفوس تفتك حتى　　أظهر الكون من لظاها قطوبا
فرأينا بالأرض منها لهيبا　　صاعدا للعلا غدا فلهيبا
ورأينا قنابلا تملأ الأرض　　فشقت مرائرا وقلوبا
ورأينا الجنود صفت صفوفها　　وغدا (المتريوز) فيهم خطيبا
ورأينا مراكب الجو لاحت　　تشبه الشهب مطلعا ومغيبا
رب مخارة على اليم سارت　　تمخر اليم جيئة وذهوبا
درعوها من الحديد بدرع　　لبست منه ثوب عز قشيبا
فوقاها من الخصم هجوما　　ووقاها من العدا تصويبا
ثان يوما فيه على البحر تبدو　　بقواها نراه يوما عصيبا

استقبال سنة ١٣٣٦ هـ من سنى الحرب

هل لاح بدرك بالمسرة مشرقا … أم أنت مثل أخيك تنذر بالشقا
ماذا كتمت من الحوادث ما الذى … سيكون انى أراك سرا مغلقا
يدرى الفتى ما مر من إيلامه … وسواه فى الأذهان لن يتحققا
والدهر فيه عجائب مكنونة … كم جر من جيش الحوادث فيلقا
إنى أرى الأيام تعبث بالفتى … وتنيله مالا يكون الأوفقا
لو يعلم الانسان ما سيصيبه … بغد لما لاقى (غدا) متشوقا
سدل الحجاب على العيون فما درى الا … إنسان فى محياه أين المستقى
كذب المنجم فى دعاويه وهل … لمنجم فى مبهم أن يصدقا
من لى بتمزيق الستار لمبصر … لكنه هيهات أن يتمزقا
سارت بنا الأيام سيرتها ولم … ندر أنقصد مغربا أم مشرقا
عام مضى فأتى سواه وهكذا … يجرى الزمان بنا كراكب أبلقا
خفف خطاك أيا زمان وسر على … مهل وكن بالممتطى مترفقا
يا أيها العام الجديد أأنت بالـ … إسعاد جئت تعيد عهدا أسبقا
عهد به مد السلام رواقه … وأدار كأسا بالمسرة مفدقا
أقبلت والآمال فيك كبيرة … ولقد سألت الله أن تتحققا
جذلت بمقدمك البلاد وأهلها … والغصن بعد ذبوله قد أورقا
وتقدمتك طلائع الغيث العميم … وقد كست ظهر البسيطة رونقا
فعساك أن تمحو الذى قد كان … من كدر وتمسى بالمسرة مشرقا

أديبنا

في حفلة افتتاح المجمع الأدبي بمعهد ابن خلدون سنة ١٣٥١

خذوا بيد الآداب أخذ مناصر ... فإن لها ما بيننا حظ عاثر
خذوا بيد الآداب وارووا أوامها ... فقد ذبلت فينا ذبول الأزاهر
خذوا بيد الآداب واحيوا مواتها ... وكونوا لها فى القوم أحزم ناشر
فقد كسدت فى أرضنا اليوم سوقها ... وأهمل منها كل زاه وزاهر
وقد جمدت منا القرائح وانطفت ... منائركم كانت تنير لسائر
وظل أديب القوم فى كسر بيته ... يناجي ببلواه بطون الدفاتر
رأى أن ما أفنى الحياة لنيله ... يعد بهذا القطر صفقة خاسر
فاخلد للعيش الذى لا يوده ... ومن دون ذاك العيش شق المرائر
تخلى اضطرارا عن إفادة قومه ... وبات محاطا بالحظوظ العواثر

***

أيا قوم مالى لا أرى غير شاعر ... يعج بشكواه إلى غير عاذر
فهل أصبحت آدابنا بعد مجدها ... وعزتها القعسا قذى فى النواظر
ألم يك هذا القطر منبت سادة ... مضوا بعد ما أبقوا جليل المآثر
ألم يك منا من أفاض بشعره ... شعوراً تبدى بين باد وحاضر
ألم يك منا صاحب العمدة الذى ... أمد بنى الدنيا بخير الذخائر
فمالى أرى الآداب صوح نبتها ... ولم تبق إلا دمعة فى المحاجر
ومالى أرى ذاك التراث مضيعا ... وقد وقف الاعقاب وقفة حائر
أيحيا الأديب اليوم فى تونس ولا ... يمكن حتى من لذيذ التحاور
يعيش وحيداً لا يرى من محادث ... يجاذبه قولا ولا من مناظر

تناثر عقد لم نوفق لجمعه ... وعاش بنو الآداب عيش تناكر
وفينا بفضل الله أمثال شيخنا الـ ... ـكبادى الذى قد كان خير محاضر
تخال إذا ما جئت تسمع قوله ... كأنك مأخوذ بمفعول ساحر
وكم شعراء بيننا قد رمى بهم ... خلو نوادى الشعر خلف الستائر
وكم شعراء بيننا لو تلاقحت ... قرائحهم لم يعكفوا فى الأواخر

* * *

أيا أدباء العصر قد جد جدكم ... فهبوا إلى إيقاظ كل معاصر
ووالوا اجتماعات يعود انتظامها ... على قطرنا الزاهى بجم المفاخر
فقد فتح النادى وكان لكم به ... مجال إلى الملتقى وحسن التعاشر
وهذا افتتاح نرتجى من ورائه ... لنشأتنا الغرا افتتاح البصائر
رعى الله هذى الخلدونية انها ... سعت لاجتماع الشمل سعى مؤازر
دعتكم إلى الآداب كى ترفعوا الها ... مناراً وتبدوها بخير المظاهر
كأنى أرى روح ابن خلدون بيننا ... ترحب بالزوار ترحيب شاكر
تسائلنا ترك الخمول وترتجى ... جهوداً بها تهتز يوم التفاخر
فلبوا جميعاً وانشروا من قريظكم ... دفائن قد فاقت عقود الجواهر
فأنتم إلى الفصحى حماة بواسل ... يذاد بكم عن حوضها كل ضائر

محمد السعيد الخلصى

ياوردة ...

ياوردة فى الروض ضاع شذاها ونمت بماء الحسن حيث سقاها
وتعهدتها فى الصباح يد الندى فبدت تدل بحسنها وسناها
ودنا النسيم لضمها فتمايلت واحمر من فرط الحيا خداها
صونى بهاك فإنه يغرى الورى وإذا احتشوك تداولوك سفاها
ومدى الزهور إذا ابتذلن معجل ومتى ذبلن غدا الثرى مثواها

* * *

أخشى عليك من الهجير فإنه يهفو بروحك أو يطيل عناها
فيعيش بعدك عاشقوك قلوبهم تشقى . . وقلبى فى الأسى أشقاها

يازهرة

يازهرة غضت وضاع أريجها فقطفتها قرب المياه صباحا
والليل أذرف دمعه مترقرقا فى كمها فبدى به وضاحا
ما للنسيم يئن حزنا بعد ما ألقى عليك من الحنان جناحا
يهواك لكن ساءه يازهرة ألا يقبل ثغرك الفواحا
لما درى أن الفراق بلا لقى جعل الهبوب على الفراق نواحا
ياليت كفى ماجنتك قساوة آه لقد هيجت لى الأتراحا
ذكرتنى تلك التى عنى نات ومضت وبقت مدمعى سفاحا

حسين الجزيري

صوت من السجن

أي القلوب يرى ما قد عرى كبدي ... ولا يذوب لما يلقى من الكمد
لم يبق للدهر سهم في كنانته ... سهامه كلها آلت إلى جسدي
آمنت بالله كم يلقى الرجال عنى ... وكم يقاسون من ضر ومن نكد
وكم تقطع أسباب بهم ولكم ... يعدو عليهم من الأرزا بلا عدد
هو التجلد لولا الصبر لانبعثت ... نار بأفئدة من باطن الجسد
تبت يدا زمن لازال يرهقنا ... بما يسير لعهد الشيب بالولد
وامقت الضيم من كل النوائب ما ... ينوب من يبتغى الاصلاح للبلد
يسعى لترقية الأوطان مجتهدا ... فيغتدى قائلا هذا جنته يدى
فالويل يطلبه والسجن يخطبه ... يغدو رهيناً عديم الخل والسند
حدث عن السجن بالاغراق لاحرج ... هيهات أنسى له هو لا إلى الأبد
إني ابتليت به ردحا بلا سبب ... غير احتراق فؤادي في هوى بلدى
طال العناء به والأهل في كدر ... والدهر يسطو عليهم سطوة الأسد
وكم يزيد التهاب الصدر من أسف ... لذكر والدة تبكى على ولد
فلو قضيت لكان الحزن فارقها ... وفوضت أمرها للواحد الصمد
لكنها اليوم تبكى وهى قائلة ... ياليته لم يكن قط ولم ألد
بنى من لى بأن تمضى كتائبنا ... ويرمق الطرف منى فلذة الكبد
بنى عز اصطبار عن لقاك فهل ... تبقى كما أنت موقوفا بلا أمد
بنى مادام عز الدهر منعقدا ... على الفراق فما دمعى بمنجمد
لكن سلوى بعدل سوف يسطع إذ ... أنت البرىء ولم تجن على أحد
ألزم بنى ثباتا فيك أعهده ... فسوف بالقرب تدنو عيشة الرغد

الهادى المدنى

مالى تطوح بى شعرى فصيرنى ... أرى القوافى كالعسالة الذبل
ما الشعر إلا ضياء القدس قد سطعت ... أنواره تنجلى من فكرة الرجل
ما الشعر إلا حياة المرء قد برزت ... تختال فى حلل الألفاظ والجمل
ما الشعر إلا معانى الصدق قد سقيت ... بها طل من شعور المرء منهمل
الشعر فى الكون سر غامض وهبت ... كنوزه لعظيم القدر مكتمل
كم بت كم بت من ليل أقارعه ... فلم أعد بسوى الخسران والفشل
حتى تمكنت منه فى العرين فما ... أدعوه فى حادث ألا تمثل لى
كم ذا نشرت به من همة ركدت ... وكم قرعت به من خامل وكل
وكم حرقت به أكباد طائفة ... رقيقة الطبع قد ذابت من الغزل
وكم سبيت به فتانة برزت ... تسبى الورى برشيق القد معتدل
وكم تغنى به الباكى على شرف ... وكم تغنى به الباكى على طلل
وكم تسلى به ذو الهم من نصب ... وكم شفيت به المنهوك من علل
وكم دعوت به قومى لمفخرة ... فشمروا لذرى العليا بلا مهل
وكم دعوت به من بات ذا وجل ... فهب يسرع للجلى بلا وجل
فان سمحت به يوما لذى أدب ... تراه أسير فى قومى من المثل
فالشعر أصبح لى تاجاً أكلله ... والشعر أصبح لى من أفخر الحلل

« تحيي العروبة والإسلام قاطبة »

نص القصيدة الرائعة التى ألقاها الشاعر الكبير الأستاذ الهادى المدنى الحاكم بالعدلية التونسية فى الجلسة الختامية لمؤتمر الثقافة الاسلامية

(النهضة)

بارك بشعرك بارك كل من حضرا ... وحى من عقــدوا للعلم مؤتمرا
بارك مناجيد فى اقحاحهم قبس ... سناه فى القسمات الغر قد ظهرا
بارك غطاريف فى آنافهم شمم ... أن ينسبوا اذكروا عدنان أو مضرا
من كل أروع ما فى قوله فنــد ... وكل ذى حسب عدبه افتــخرا
ومعشر ما اصطفى آباؤهم سندا ... إلا المروءة والصمصامة الذكرا
قوم هم الأنف والإسلام يكنفهم ... قد طاولوا النيرين الشمس والقمرا
ما فى حلومهم زين ولا ارتضعوا ... إلا أفاويق منهـا الطهر قد قطرا
شم وكم فيهم من ذادة ركبوا ... مستبسلين لإدراك العلى خطرا
جلسوا الحزون وقدوا القيد واعتصموا ... بالعزم والصبر والدنيا لمن صبرا
كانوا كصقر قريش شاد مملكة ... بعزمة كالجراز العضب قد بترا
الملك لله كم من حــكمة لمعت ... من أرض اندلس قد أعيت الفكرا
وكم وكم فى ذرى الزهرا و ناصرها ... شام الحجا أدباً جم السـنى نضرا
ومنــذر ابن سـعيد فى محافلها ... يخط حكمته للـــدهر والعبرا
الملك لله كم من فيض قرطبة ... على ذرى الغرب لألاء النهى انتشرا
وكم ألوك لسان الدين سطره ... من ضنضىء الأدب العالى قد انحدرا
الملك لله كم من شـاعر ذلق ... قد سطر الخلد آيات له غررا
أضحى التنائى بديلا عنهم وجرى ... فى الحفل ما قد جرى من بعد ما ازدهرا
عقد النهى فى ذرى الفردوس منتشر ... فهل سنجمع عقدا للنهى انتثرا
وكم على ضفة البسفور من أدب ... جم وفن به قبض الحجا زخرا

بآل عثمان أدواح النهى ازدهرت وأينعت وهم فى الحرب أسد شرى
بآل عثمان والإسلام يحرسهم أضاء بالغرب نور للنهى بهرا
سائل أدرنة أو فاسأل معاهدها تجد من الأدب السامى بها أثرا
عدل وعلم وإيمان وفرط حجا بها على الدهر عثمان قد انتصرا
وهل كمثل سليمان لمدكر فاذكر سليمان أما كنت مدكرا

* * *

ايه تطوحت الذكرى بذى شجن فهب يذكر مجدا زاخرا غبرا
له إذا ذكر الاسلام منصلت يفرى الحوالك ان ليل الهوى اعتكرا
وفى اللهاة سنى أقباسه سطعت كالصبح تظهر للأجيال ما استترا
وللحقيقة أصداء مدوية كالليث إن ثار أو كالليث إن زأرا
ما فى حضارتنا الغناء من شبه فاملا بها السمع أو فاملا بها البصرا
وفى صقلية من أمرها خبر وعل دير كسينو يعرف الخبرا
ما فى ثقافتنا والله منشئها إلا كمال هدى طالت به عمرا
ما فى ثقافتنا والله منشئها إلا من الخلد ثر انهل العصرا
فيها الحياة وصرح الحق يعصمها إذا الحجا والحجا من حولها اشتجرا
آفاقها اتسعت فى كل ضاحية لكل فن وأبدت آيها الكبرا
فى بطن مكة والأكوان نائمة اطل أيمن نجم أنقذ البشرا
فما الحقيقة إلا من حراء سرت وما سنى العلم إلا من حراء سرى
حوض الثقافة فى أم القرى نهلت منه الليالى وعنه الدهر قد صدرا

* * *

وبعد سقيا لمن رام الشخوص لنا فما سعدنا وأهلا بالذى حضرا
أهلا بمن عبروا بحرا ومن سلكوا بيدا حزونا وأموا جمعنا زمرا
أهلا بقافلة الألباب ذائدة عن الثقافة ذودا بالحجا ائتزرا
صالت صيالا بمصقول له الق من النهى فيه ميدان النهى ظفرا

وما الثقافة إلا ذوب معتصر من النقاش به سر الحجا ظهرا
والرأى كالقول فى الإسلام محترم فاجهر برأيك واحفل بالذى جهرا

* * *

الله أكبر ما فى الحى من أرج وما الذى ملأ الآذان والنظرا
النيل ام بردى فاضت سيولها أم الفرات برقراق النمير جرى
أم ذاك فى الهند إقبال وصاحبه فى الفن قد نشرا والشعر ما نشرا
أم نسمة من ذرى لبنان عاطرة قد ضمختنا باعباق الهوى سحرا
أم هبة من أفاويح الرياض جرى بها شذى الشيح فى اكامه عطرا
أم سجعة من هزار فى طرابلس شدا فاذكرنا فى خلده عصرا
أم خاطر من منى فيح مقدسة من الجزائر أو مراكش خطرا
أم نفثه من قصيد قمت أنشده فهز من كل قلب نابض وترا
فى شعرى اللغة الفصحى زكت عبقا فيه الطموح ووشى للنهى ندرا
تزهو العروبة إذ أتلو فواصله أو كلما قلت معنى فيه مبتكرا
وللعروبة أهداف ستبلغها مهما دجا حالك فى الأفق واعتكرا
إيه بنى العم والإسلام يجمعنا قضيتم من لبانات النهى وطرا
رابطتم وأقمتم معقلا عجبا شمنا به العقل مزهوا قد انتصرا
خضراؤكم يا بناة المجد تقرئكم تحية من فؤاد بالهوى أخطرا
وتلكم الراية الحمرا تودعكم إنا كتمنا عصى الدمع فانحدرا
تحيى العروبة والإسلام قاطبة وليحى من عقدوا للعلم مؤتمرا

زين العابدين السنوسى

ترجمة محمد بو شربية

نشأته :

ولد مترجمنا فى بيت كد وعمل بمدينة القيروان سنة ١٣٢١ ه .فأتم تعلمه الإبتدائى فى مدرستها القرآنية ثم دخل الكلية الزيتونية سنة ١٣٥٠ فتحصل على أجازتها سنة ١٣٤٥ .

وقد نشرت له أهم الصحف الوطنية قصائد بديعة أواخر مدة دراسته كما أنه كان محرراً بجريدة (القيروان) .

أدبـــه :

عرفنا الشيخ أبا شربية منذ عامين فعرفنا نفسا كبيرة ودودة تواقة متحفزة لكل جليل لو أعانها الدهر عليه .

وقرأنا أدبه فاذا بنا نستعرض الروح النقدية الهدامة فى عاصفة هوجاء تكاد تقصف كل شيء .

برم بالحياة والناس وطرائق الوجود. حتى يكاد ينقلب تبرمه ذلك إلى (سوداء) مدلهمة لن يبين فيها ضياء أمل ولا نور رجاء . ناهيك بمن يتبرم بأهله وأصهاره .

ألا أن دينى وأعتقادى وشرعتى　　جفائى لاصهارى الأولى زوجوامنا

وإن كان هذا القول مما يعيبه　　على أناس لا أقيم لهم وزنا

ويتبرم ببيته :

وكيف حياة من أمسى نزيلا　　ببيت مظـــلم الأرجا حقير

يرى فيه طوالع نحس عيش   فينذره بشــر مستطير

وبمسقط رأسه ومنبت أهله وناسه:

وددت لو أن الله أهلك قومنا   وصير أصقاع الفساد خواليا

وأرسل قوما يحكمون بأمره   عسى يبعث الإسلام فى الأرض ثانيا

بل هو لا يعدم وسيلة تبرر له التبرم بالنعيم والملاذ والمحببات الثلاث: المال والجاه ووسائل الحياة. فيسخط ويزمجر حتى يتمناها لاعادية دونه وقومه

أكل وشرب ونوم واجماع غدت   هذى البلايا تمل دومها فينا

والمال والجاه والأنساب مفخرنا   ياليت هذى الرزايا فى أعادينا

وهكذا تراه فى أدبه دائب الحماس السودوى حتى لتكاد تحسبه آيسا من كل إصلاح ويكاد يمثل فى عصفه ذاك دور المنتقم من هذا الجيل الضال عوض المرشد الملاطف .

وما أحسبه يائسا ولكنه التعطش المسترسل وشدة الإحساس بإضرار الحالة الراهنة تدفعه لذلك الموقف الجاف العائد .

يقولون لى قد هجوت بلادا   لها المجد فيما مضى والفخار

وكنت عليها مع النائبات   وأنت أبنها من عريق النجار

ولم ترع حقــا لتقديسها   وتعظيم مستوطنيها الخيار ؟

أقول وهذا الكلام مُلاك   وطال استماعى لهذا الحوار

نعم إننى قد هجرت بلادي   وعفت مقامي بتلك الديار

لجهل بنيها وخبث ذويها   ووضع العظام ورفع الحقار

ولو كنت أرضى رقيا ضئيلا   ومجدا يئــول إلى الاندثار

لكنت بنهضتها معجباً   ووشيت ثوبى بوشى معار

أريد لها المجد غضا غريرا   دعائمه راسخات القــرار

كمجد ابن باديس أو مجد أغلب   أما التمجد فهو الشنــار

تلك هي روحه النقدية الهدامة التى تستولى على جميع لهجاته حتى أن حديثه العادى يأخذ أسلوب المناقشة وطريقتها أما جزالة نسجه الشعرى فمن البديع الفائق .

محمد الفاضل ابن عاشور

تأسيس القيروان

فيما بلغنا من أخبار تأسيس القيروان مايشهد بأن الظروف التى كانت تحيط بذلك التأسيس كانت قاضية للقيروان بأن تكون عاصمة الثقافة العربية بالمغرب .

وفى التشابه الذى نرى بين تأسيس القيروان وتأسيس مدينة الفسطاط بمصر مايوضح لنا نوعا ما المركز الذى كانت العرب تؤمله لهاتين المدينتين .

فكلتاهما لم تلبث أن نشأت معسكر جيش حتى انقلبت إلى مركز ثقافى ذى شأن كبير فى تاريخ الفكر البشرى .

وفى كلتيهما تعمد الفاتحون إنشاء المدينة الإسلامية على غير أطلال مدينة سابقة شأنهم فى فارس والشام بل أخرجوا من العدم تينك المدينتين العظيمتين اللتين كان مبدؤهما خيام الجيش الفاتح .

فما الذى كان يدفع لهذا ؟

الذى كان يدفع له فيما يظهر أن الثقافة العربية التى دخل الفاتحون يحملون مقابسها بالشمال وسيوفهم باليمين وجدت نفسها فى هذه الأرض الأفريقية غريبة مزاحمة بعناصر مخطرة على حياتها .

فالدين المسيحى من قرطاجنة يفيض على العالم والإسلام قد قطع عليه طريقه وسد فى وجهه مسالك الانتشار .

والحضارة التى جمعت بين عناصرها المختلفة روح البحر المتوسط وطافت العالم شرقا وغربا فى طى الاستعمار الإغريقى اللاتينى كانت تجد فى السواحل التونسية طرق انتشارها التى سقطت فى يدى فاتحين قامت لهم سفائن البر مقام سفائن البحر .

ووراء تلك السواحل فى دواخل المغرب كان البربر يعتصمون بطبيعتها المخالفة لطبائع أرض الغزاة الاولين فيعكفون على حياتهم البربرية وعقائدهم الوثنية ورأوا فى الغزاة العرب استعدادا لتحمل طبيعة أرضهم وأقداما على بث الدين الذى جاءوا يحملونه بينهم .

فعلى توفر هذه المزاحمات كانت الحضارة العربية على جدة عهدها بهذه الأرض تموت مختنقة فى مهدها إذا هى لم توجد لنفسها معقلا وحمى منيعا وتحككت بالعناصر العدوة فلاسبيل تجده لحفظ حياتها وضمان القدرة على المقاومة إلا بثلاثة أمور .

الأول الاحتفاظ على المزاج العربى بإبقاء حياته على معتادها والنزول به منزلا يقرب من طبيعة الأرض العربية .

ثانيا — الاحتفاظ على الوحدة العربية والخلق العربى بالبعد بالفاتحين عن غيرهم وحفظهم من الاختلاط .

ثالثا — البعد بالروح العربية عن المدن العتيقة التى تجعل من ذكريات الحياة التى مرت به قرونا مايوحى نفسية خاصة بتلك البلاد قد تصبح مصارعا للروح العربية فى نفس الفاتح .

تلك ثلاثة الأسباب التى دفعت لتأسيس القيروان على نحو ماينقل لنا التاريخ

فقد حكى البلاذرى فى فتوح البلدان عن المكان الذى أنشئت فيه القيروان قائلا : « وكان موضع غيضة ذات طرفاء وشجر لايرام من السباع والحيات والعقارب » .

فهنالك وفى ذلك الطقس الصحراوى الجاف المناسب لطقسهم المعتاد أقام العرب مدينتهم لا يعمرها إلا العرب ولا تتأثر إلا بالعربية .

فكان ضروريا أن تكون حمى العربية تنتشر منه وتأوى إليه محترزة به كلما دعاها لذلك داع ودامت على هذه العملية عملية المد والجزر طيلة القرون وكانت كما رام منها العرب الفاتحون أم هذا المغرب العربى كلا كما كانت الفسطاط لها أما وجدة للمغرب العربى .

جريدة النهرة

إن الدهر علمنا ومن لم يؤدبه الدهر لا يتأدب أبدا بأننا ما أردنا تحوير عمل من الأعمال إلا وداخله من التغيير ما يقضي على كيانه ويكون سببا في خسران عظيم وتقهقر مريع والشواهد على ذلك لا تحصى ولا ينكرها إلا مكابر أو عنيد . وما وجود الخلافات بين بعض أفراد من التونسيين واحترام المنازعات بينهم حتى تؤدي للخروج عن المقاصد الأصلية إلى الشخصيات بل إلى أسباب واستنقاص الذوات إلا أعظم دليل على ماقلناه .

انا نطلب جميعا الإصلاح ونتشوف إليه كما يقوله كاتب النهضة لكننا لا نطلب إلا اصلاحا وفقا لقوميتنا وديننا وذلك ما أجمع عليه التونسيون وأما تصييره كلية عصرية وإدخال اللغات الأجنبية فيه والأجانب فليس من الاصلاح الذي نرغب فيه لما رأيناه في المدارس الأخرى من نتائج فلذات أكبادنا التي أنستهم الدين وتركتهم في واد الضلالة يعمهون .

أنا نريد أن نكون مسلمين محافظين على ديننا وعوايدنا ولغتنا قبل كل شيء عاملين بقواعد الشريعة الإسلامية نحب لإخواننا مانحب لأنفسنا ونحن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا وكالجسد الواحد نتألم جميعا بتألم بعضنا .

ذلك ما نريده وذلك ما نطلب المحافظة عليه بجامع الزيتونة ولا نريد به بديلا لانا نعلم ويعلم كل العقلاء إننا إذا عدلنا عن هذا السبيل نتدهور إلى الحضيض ويقضي علينا القضاء الأخير الذي هو متمنى الأغيار وغير المخلصين

إن سرورنا كان عظيما جدا بذلك العنوان الضخم لكن كان استياؤنا بقدر فرحنا بل أعظم عندما فهمنا أن المقالة إنما كتب لبعض الأغراض الشخصية

نحن لا نستعظم الناس بعناوينهم وإنما نعتبرهم بأعمالهم لكن إذا رأينا

تصيير الخير شرا والشر خيرا وقلب الحقائق فإنه لايسعنا السكوت كما هو مقتضى واجب الأمانة والدين .

يلوح من كلام الكاتب أنه يرغب فى المبادرة بالإصلاح لكن قوله أن هناك أناسا عرضة لإتمام الرغبات وعقبة فى سبيلها وطلب فصلهم بدون ذكر صفاتهم ولا مميزاتهم مما يدعو لأن نقول أن ذلك المقال ابترخال عن الفائدة أو أن هناك مقصدا للكاتب فى ذلك الإبهام لغرض فى النفس نعم أنه ذكر صفة الرجعية التى هى اليوم سلاح يهاجم به بلا حدة الدين ومن تمسك به فى هذه البلاد .

إن كان قصد الكاتب من معنى الرجعية التى يستند إليها فى طلب فصل أولئك الذوات محافظتهم على اللغة والدين بكل قواهم وعدم إدخال الأجانب وما لافائدة فيه إلى جامع الزيتونة فإن جميع التونسيين رجعيون بهذا المعنى لايمكنهم التساهل بحال ولو كره المعاندون .

انا نعلم أن هناك بعض أفراد تقدسهم النهضة فى اللجنة وهم الذين يعملون لقتل اللغة العربية والدين وأفساد نظام الجامع بدعوى الإصلاح لأجل أن يحصلوا على شهرة كاذبة ومركز موهوم .

إن الخير كله أن ننظر فى الإصلاح نظرة صحيحة متحاشين عن الأغراض حتى نجعله موافقا لنفسيتنا وقوميتنا ونبتعد عن كل ماتتوهم فيه اتياننا بعكس المقصود حتى تكون عبر الدهر وكوارث الزمن قد أدبتنا وعلمتنا الواجب وأرشدتنا إلى الطريق السوى الذى نسير عليه .

إن الواجب علينا إذا أردنا أن نحكم حكما عادلا بالنسبة للأفراد المكلفين بالإصلاح أن نعرف قيمتهم لنعلم الأحق بالأبعاد هل الذين ندعى أنهم رجعيون أو الذين اشتهروا بالطيش والتنطع فى الدين وهم لأهل الالحاد معاضدون وعلى أعمالهم راضون .

من يدع الإخلاص وحده

فهو غير مخلص

« تلك صحيفة لاتتجاوز أبدا حرارتها الاعتيادية عشر درجات وأنه لتحدث كل يوم فى العالم حوادث تضطرب لها رصانة أحكم الحكماء فالأمم الإسلامية والشعوب المستعمرة تقاسى أشد الويلات وإذا ادعى المرء أنه مسلم صميم وإذا كان ممن ينكر الاستعمار فإنه لا يجد من العبارات ما يفى بالإفصاح عن نكبات تلك الأمم وآلام هاتيك الشعوب . ولماذا نذهب بعيدا فهذه البلاد نفسها قد تأتى عليها أحيان من الدهر يكون فيها حظ أبنائها باعثا لإخراج صرخات من الفؤاد لاتستطيع كتمانها ثقافة متدلية . فهناك من الأميين ومن لفيف الشعب من يتأثر ويتحرك بل ويثأر فى بعض الأحيان . إلا رصيفتنا فهى فى مستقرها محافظة على درجاتها العشر من الحرارة وعلى برودة الدم المناسب لسنها الذى هو أربع وأربعون سنة » .

هذا نموذج مما تكتبه فى حق هذه الجريدة رصيفتنا العزيزة « صوت التونسى » وهذه هى تحفة القادم التى شرعت منذ عهد غير بعيد فى اتحاف صحيفتنا بها بعد أن أخذت على عاتقها مهمة التطاول على الشخصيات التونسية وتوهين أسس السيادة القومية .

وإذا كان نسيان الماضى هو من أخلاق الشعوب المتدلية وإذا كان ضعف الذاكرة فى الأمم هو أعظم عنوان على أن هذه الأمم لاتستحق الحياة ولا ينبغى أن تنشد أى عظمة أو سؤدد جاز لنا أن نحكم على مدير « صوت التونسى » وعلى الفئة القليلة التى لاتزال متشيعة له أنهم لايستحقون الحياة لضعف ذاكرتهم ونمو ملكة النسيان فى عقولهم وإن شاؤوا وضع هذا الإغفال على عاتق غليان صدورهم بالحقد وامتلائها بعاطفة إنكار الجميل والرغبة فى التفرد بكل عمل والظهور بمظهر المنقذين لهذه الأمة من شقوتها والضرب على أيدى العاملين من قبلهم الذين مهدوا لجهودهم السبل فالخيبة

أدهى وأمر والسيئة أفدح وأعظم فإن من يدع الإخلاص وحده دون غيره ويعلن فى كل مناسبة عن ضميره أنه طاهر نقى وعن إحساسه أنه شريف عفيف وإن غيره « ضمير مأجورا ومأجور بدون ضمير » فهو المجرد حقا عن الإخلاص وهو الفاقد لكل الشعور .

ولقد ذكرتنا هذه الحملة المنكرة التى أشهرها مدير « صوت التونسى » على أقدم جريدة عربية فى هذه الديار بدون ذنب منها سوى أنها أعربت عما تعتقده ويعتقده معها كافة العقلاء المنصفين حقا من وجوب الاقتصار على انتقاد رأى فضيلة شيخ الإسلام فى الإصلاح لا التعرض لشخصيته المحترمة أو لشخصية المولى الوزير الأكبر بالتحقير والازدراء والاستعانة على ذلك بالأباطيل وسرد الخرافات التى تجلب النوم لسامعها فإن شخصى هذين العظيمين كشخصيات غيرهما لا شأن لها فى تقدير قيمة أفكارهما صحة وسقما . يقول أن هذه الحملة المنكرة وهذا الاندفاع الغريب فى السباب الذى شاء أدب السيد الشاذلى خير الله وهو بمثابة الابن أو الحفيد لنا أن يقذف به إلينا مع أننا استعملنا غاية الاحتياط فى تحرير كلمة النصح التى كتبناها فى هذا الموضوع فلم نذكر اسم جريدته صراحة بل قلنا بعض زميلاتنا مشيرين بذلك للنهضة ولصوت التونسى أما النهضة فقد ردت علينا فى أدب ومجادلة بالتى هى أحسن ، وأما « صوت التونسى » فقد شمر عن ساعد الجد وركب خيله الحربية وأتى بمساعده من مخبئات دفينة ومن أحقاد كمينة ضد الصحافة العربية وضد الثقافة الإسلامية التى يتجاهر مديره باحتقارها والعمل على محقها لأن رجالها فى نظره مخادعون منافقون ولأنها لم تعد تصلح لهذا العصر ومن الغريب أنه من بعض محسنى الظن من الوطنيين التونسيين ومن خيرة المحافظين على تراث الآباء والأجداد من أعانه على تحقيق نزعته هذه ومد له من المال حطبا لتزداد به النار وقودا ويتسع به نطاق التخريب والتدمير .

تغيير صبغة جامع الزيتونة

كشفنا ما أضمرته ثم أظهرته الفئة الضئيلة نحو جامع الزيتونة ومحاولة تجنيسيه بسلبه من الصفة الدينية وإلحاقه بعموم المدارس الدولية ويستندون إلى جدليات يخادعون بها الله والذين آمنوا ومايخادعون إلا أنفسهم وما يشعرون .

وقد أردنا الآن محاسبتهم حسابا يسيرا أما العسير فسينالونه يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا . كما أردنا مناقشتهم فى عدة مفتريات سودوا بها صحيفتهم يوم السبت الفارط وتزييفها بما يثبت أنهم رواد فساد والحاد متنكبون عن سبيل الرشاد

لو لم تستمط النهضة الهاوية السحيقة وتكالبت على المطالبة بالتوغل فى غير العلوم الدينية من غير تهجم ولا ولوغ فى الأغراض الشريفة لعذرناها وقلنا أنها مقتدية بغير المتدينين من بنى إسرائيل الذى لا يعبدون إلا الدرهم والدينار وحيث حادت عن الجادة المثلى لزم إرجاعها إلى الصراط السوى حتى يتبين لها الرشد من الغى .

وبعد هذا فإن خوضها فى تعليم غير العلوم الدينية عبث محض إذ هو أمر مفروغ منه قررت فيه اللجنة قرارها بما لم يبق معه رأى لمحازف .

وقد كان من واجبها أن تكون أدرى الناس به ضرورة أنها تمت بصلة متينة جدا للفئة القليلة التى تستق منها الأراء وتنبذ فى مقابلة تأييدها الحقيقة إلى الوراء .

وقد رأينا أن من واجبنا الألماع إليه عسى أن تخمد نار الفتنة التى أضرمتها

جمعت آراء لجنة الإصلاح بين المحافظة على كيان الجامع وتدريس العلوم الحيوية فأبقت الجامع للعلوم الدينية ووسائلها التى أعتيد تدريسها فيه . وقررت تخصيص محل آخر منفصل عنه تابع له تدرس العلوم الأخرى وقد

رفع الخوض فى تعيين مكانه وأشير بالقشلة الكائنة بالعطارين كما أشير باحداث محل قرب باب العلوج . وعلى كل حال فتقرير تخصيص المحل أمر مفصول فيه ولم يبق إلا النظر فى تعيين مكانه وسيقع البت فيه فيما بعد .

تقول النهضة الساقطة فى كلام المغالطة من الغريب أن يصر فضيلة شيخ الإسلام على أن علوم الرياضة إنما تدرس مبادئها فقط ويغيب عنه أن الجامع هو المعهد الوحيد التى يتخرج منه الفرضيون ولا يدرى كيف يتخرج عالم جدير بهذا الاسم فى علم الفرائض لم يتلق إلا مبادئ علم الحساب وهو انتقاد فاسد يدل على جهل عميق فإن علم الحساب وسيلة لعلم الفرائض التى هو من علوم الدين ورأى المشيخة الإسلامية صريح فى دراسة علوم الدين وآلاتها الموصلة إليها بالجامع الأعظم وإذا علمنا أن الوسيلة تأخذ حكم المقصد كان التوغل فى علم الحساب مطلوبا كما هو مطلوب فى أصله فهو داخل فى وسائل العلوم الدينية لا فى مبادىء الرياضيات ولهذا تعرض إليه فى أوليات تآليفهم بالقصد وبالذات كثير من مؤلفى علم الفرائض واعتبروه كأنه منه وجاءت تآليفهم مشتملة على ثلاثة جمل الفقه والحساب ثم العمل وبهذا الإيضاح زال الاعتراض لمن لم تتمكن فى قلوبهم أمراض .

جريدة النهضة

مسألة التعليم بالجامع الأعظم

طلعت علينا رصيفتنا «الزهرة» الغراء صباح يوم المولد النبوى الشريف بمقال تحت العنوان أعلاه. نكاد نجزم لقرائنا بأنا لم نر مقالا مثله فيما تضمنه من مغالطة وسفسطة وتلاعب بالألفاظ الرنانة مثل «الدين القويم» واللغة القومية والإيمان ونحوها من الكلمات. ولو وقف عند هذا الحد لهان أمره نوعا ما. ولكنه تجاوز ذلك إلى المجازفة فى الحكم على الضمائر وتكفير هذا وتضليل ذاك.

وكانا بحضرة الكاتب المقنع قد شعر بعد الفراغ من كتابة مقاله هذا بما أرتكب فيه من أمور تنتقص من سمعته ككاتب وكمفكر وتسقط من اعتباره بين قرائه فاضطر تحت هذا التأثير الى الإختفاء. والتجأ إلى كلمة «مسلم» يستثير بها عطف القراء.

ولعمرى أنا لا نجد تأويلا لهذا الاختفاء غير هذا. لأن من يطالع المقال بدون أن ينظر إلى ما وراء الألفاظ من الغايات والأغراض يجد أن جريمة هؤلاء الذين يحمل عليهم الكاتب هذه الحملة المصطنعة ليست من الجرائم الهين أمرها بل هى الخيانة العظمى فى أتم مظاهرها — من الكفر والإلحاد إلى حماية الملحدين والمضلين ومحاربة القومية التونسية ومحاولة القضاء عليها.

وإن من يحجم عن الوقوف فى وجه مثل هذا المجرم الخائن — الذى تخيله كاتب المقال ويحتجب وراء لفظ مبهم أجوف لا يتعدى أمره أحد

احتمالين : إما أن يكون جبانا رعديدا لا يستطيع أن يجهر برأيه فى وضح النهار وأما أن يكون من المنافقين الذين يزينون لكل من الخصمين رأيه ويطعنون لديه فى رأى سواه . ويعملون على أتساع شقة الخلاف بين الفريقين وسلاحهم الغيبة والدس فى الظلام .

وكلا هذين شر لا يرضى كاتب يحترم نفسه أن يعرض لمثله قلمه . ونحن بدورنا لا نرضى بأحد هذين الإحتمالين توقف فيه كاتب المقال بل نذهب مع حسن الظن الجدير « بالمسلم » ونرى أن حضرته إنما وضع القناع على وجهه لأنه يجد فى قرارة نفسه أن ضميره يأبى عليه أن يضع إسمه الصريح تحت مثل هذا المقال . ولا نشك أن ذلك الشيخ الوقور صاحب « الزهرة » الغراء قد شعر بما فى المقال من الأمور التى أوجزناها فتردد طويلا فى نشره وأخيراً أضطر بعد الإلحاح أن ينشره تحت المنبر العام إشعاراً بالتبرى مما جاء فيه.

وهنا نرى حتما علينا أن نلخص للقارىء الكريم مقال « النهضة » الذى أثار وسخط حضرة الكاتب وسخط الذين وقفوا وراءه واتخذوه قطا يتناولون بيده ما عز عليهم تناوله بأيديهم .

تضمن مقالنا السابق الإعراب عن التذمر الشديد الذى ساور عموم الأوساط التونسية من تثاقل سير لجنة الإصلاح التى ولدت منذ أمد مديد ولم تنته إلى نتيجة حتى الآن وان الحكومة المغربية انتظرت نتيجة هذا الإصلاح فى تونس لتسن نظاما لجامع القرويين على مقتضاه . ولكنها انتظرت طويلا بدون فائدة . فعمدت إلى تشكيل لجنة من بين خيرة علماء القرويين تولت سن قانون شامل وقدمته إلى حكومة الحماية وسرعان ما صدر هذا القانون وأجرى العمل به فى مفتتح السنة الجارية .

ثم نوهنا بأن هناك فريقا من أعضاء اللجنة يقفون موقف المصادرة لكل إصلاح تطلبه الأمة سواء تعلق أمره بالجامع أو بالمحكمة الشرعية . ويحاول سلوك سياسة المماطلة وتخدير الأعصاب أن يخفت صوت المطالبة بالإصلاح ويشهر فى وجه خصومه سلاح التضليل والتفكير ليثير عليهم الإحساس الدينى فى أنفس الأمة .

وأخيراً حذرنا الحكومة من عودة الإضطراب إلى أواسط الطلبة وأبنا لها أن الناس أصبحوا يتحققون غايات بعض أعضاء لجنة الإصلاح . وأن الطلبة أظهروا عزمهم وآمالهم فليس من الممكن اخفات أصواتهم ومعاملتهم معاملة ضعفاء المتقاضين من أرامل ويتامى وعجزه . وهم الذين يقابلون ما يلحق بهم من أذى بالبكاء والشكوى إلى الديان يوم الدين .

ثم ختمنا المقال بطلب إبعاد هؤلاء الذين يعرقلون سير الإصلاح عن اللجنة وألفتنا أنظار سمو الأمير الجليل أن يعمد إلى تفادى الخطر الذى تجثم وراءه هذه الألاعب والدسائس بسامى حكمته وصائب رأيه .

هذا هو مقال « النهضة » فأى شيء فيه « يوجب الأستياء » أو يدل على « أنه كتب لبعض الأغراض الشخصية » وأى شيء فيه يحمل « المسلم » على أن يناشد كاتبه « أن يتقى الله فى الإسلام والمسلمين »

ان من يقرأ مقال « العلم » لا يكاد يمضى فيه طويلا حتى يتبين له من بين السطور أن حضرة « المسلم » عدو لكل إصلاح : لأنه يزعم أن الإصلاح الذى ندعو إليه « سيكون سبباً لهدم كيان المسلمين وواسطة لبث الكفر ودعايته والقضاء على الدين قضاء مبرما . . . . لأن الدهر علمنا — ومن لم يؤدبه الدهر لا يتأدب أبداً — بأننا ما أردنا تحوير عمل من الأعمال إلا وداخله من التغيير ما يقضى على كيانه ويكون سبباً فى خسران عظيم وتقهقر مريع . وإن الخير كله أن نبتعد عن كل ما نتوهم فيه (كذا) إتياننا بعكس المقصود حتى تكون عبر الدهر وكوارث الزمن قد أدبتنا » .

ونحن إزاء هذا لا يسعنا إلا أن نسأل حضرة « المسلم » ما هو مسمى الإصلاح فى نظره ؟ وما هو رأيه ورأى الفريق الذى تطوع بالدفاع عنه فى النظام الذى يرون سنه للجامع الأعظم . فإنا لم نر لحد الآن واحداً من الذين حاولوا أن يشنوا غارة شعواء على رجال الإصلاح يقدم للناس طريقة عملية أو مشروع نظام للإصلاح .

فى القصر الملكى العامر :

ولايات سامية

فى الديوان المعمور ومشيخة الجامع الأعظم

توديع وترحيب :

لقد ودعت بالأمس الكلية الزيتونية العامرة فى شخص صاحب الفضيلة والكرامة والجادة الشيخ سيدى صالح المالقى أحد كبار رجال العلم والفضل والحزم والنبل والإستقامة والنزاهة والأخلاق الشريفة القويمة والسجايا الجميلة الكريمة والزيتونية لا تنس أبداً أن شيخها السابق قد بذل فى بحر العشر سنوات الأخيرة التى قضاها على رأس إدارتها فى سبيل سعادتها كامل جهده واستفرغ من أجل إقرار الأمن والراحة بها كافة طاقته وهى ستذكر على ممر الأيام أن فضيلة الشيخ صالح المالقى يعد من هؤلاء الرجال القلائل الذين يتصفون بالشجاعة الكاملة والثبات السامى يوم تضطرب الأحوال وتهب العاصفة . فكم عرفت الزيتونية من عواصف فى عصره ولكن لم ينل قلبه خلالها فزع ولا جزع ولم يطرق فؤاده أبدا وجل ولا هلع وإنما كان صائب العزم وافر الحزم وإن الزيتونية لمدينة له بنتائج هاته الخصال النبيلة والشيم الجميلة .

* * *

واليوم تقوى دعائم الكلية الزيتونية العامرة وأركانها وتشتد عراها

وتتأكد قواها ويتدعم بنيانها . فقد رجع الأمر إلى أهله وعاد إلى مورده وأصله . وأخذ القوس باريها وسكن الدار بانيها . وفاز بالدر غائصه وحاز الصيد قانصه .

إن الزيتونية لترحب اليوم من جديد وتتبرك وتتيمن بالمولى الإمام العلم الهمام صاحب الفضيلة والعلم وأخ الحلم والفهم شيخ الشيوخ سيدى محمد الطاهر بن عاشور . وانه ليحل اليوم فى قلوب أبنائها ألطف محل وينزل من نفوسهم أكرم منزل فقد انتظروه طويلا ورجوه وترقبوه وأملوه لأنهم لا يعرفون فيه فحسب العلامة الكبير والبحاثة النحرير الخطير بل يعرفون فيه أيضاً رجلا حصيف الرأى نافذ البصيرة شهم الصريمة . شديد الشكيمة بعيد الغور . رجلا عجمته الخطوب وحنكته التجارب . رجلا لا يذكر من سهو ولا ينبه من غفلة. رجلا يحب الصالح من الجديد ويمقت البالى العتيق من النظم والتقاليد . رجلا يؤملون منه أن يبنى الكلية الزيتونية العزيزة منارا بحول الله لا ينهدم ويشرح لها طريقا لا ينكتم، وأن يرفع بعون الله للمعرفة بالديار التونسية راية لا تنكس ويجعل لنا بين ظهرانينا غاية لا تنطمس

حقق الله آمال الزيتونية ووفق الجميع لحسن الصنيع وهو ولى الهداية والتوفيق.

الخلاف بين الزيتونيين

وبين الدستور الجديد فى نظر الاشتراكيين

تعرض «الحكيم كوهين حضريه» فى العدد الأخير من جريدة «الأخوة» لسان حال الشعبة الاشتراكية التونسية للخلافات التى شجرت أخيراً بين الطلبة الزيتونيين وبين بعض عناصر من الشبان تابعين للدستور الجديد. وكان أسوأ مظهر لذلك الشجار بين الأخوين ما حصل يوم الثلاثاء الفارط أمام القصر الملكى بقرطاج واستنكره كل مدرك لحقائق الأشياء وكل من فى قلبه حبة من خردل من الشعور الوطنى.

وقد رد «الحكيم حضريه» هذه الخلافات التى برزت أخيراً بمظهر عنيف لا لتغيير موقف الدستور الجديد من حركة الاصلاح الزيتونية تبعاً لتغير حالة من المعارضة إلى الحكم. ولا لصلابة الزيتونيين وعدم استطاعتهم المصانعة والمجاراة فى غير موضعها وعدم احتمالهم النفاق الذى لا يمكن أن يساكن نفوساً طاهرة لا تزال على فطرتها السليمة. بل للشقاق القديم الذى انفجر منذ قرابة الربع قرن بين شقى الدستور قديمه وجديده فقال «إن الدستور القديم يعتمد فى حركته على أبناء البيوتات العريقة وعلى طبقات البلدية والمحافظين محافظة تقليدية ويسانده الجامع الأعظم. بخلاف الدستور الجديد الذى هو متركب من شبيبة مثقفة وذات حيوية ونشاط وهى منحدرة فى الغالب من أرومات نصف بلدية أو شعبية وتلقت معلوماتها فى المعهد الصادقى أو فى الليسى كارنوا أو فى المعهدين معاً وأتمت دراستها فى فرانسا وفق شروط مادية عسيرة فى الغالب واضطرت طالبا لتنمية مواردها للاختلاط بالطبقات المتواضعة من الشعب الفرنسى. ولما رجعت هذه الشبيبة لتونس بعد أن اختلطت حيناً من الدهر بالحركات الاشتراكية أو الشيوعية لم تلبث أن

اصطدمت بصخرة التفوق الفرنسى وتبين لها فى آن واحد سوء تفهم أغلبية الجالية الفرنسية بتونس وعجز معظم مواطنيهم عن التخلص من شقشقة لسانية عليها مسحة من المطالب الشعبية لكنها تخفى فى الواقع ونفس الأمر رغبة عميقة وإن تكن خفية فى توطيد دعائم امتيازات الأعيان والطبقات الاجتماعية ذات الوجاهة والاعتبار .

فما كان من زعماء حركة الانشقاق الدستورى إلا أن كونوا حزبا شعبياً وجاسوا خلال الشعب بنفس وسائل الدعاية التى يستعملها فى أوربا أحزاب أقصى الشمال إلا أنهم اضطروا فى بادىء الأمر امتثالا لقواعد « التكتيك » السياسى للنفخ فى ضرام الشعور بالكبرياء الكامن فى نفوس كل الذين يعتقدون أنهم يحملون فى نفوسهم العقيدة الصحيحة وبموجب ذلك كان انتشار مبادئهم فى الطبقات الشعبية عظيما جداً .

لكن الشىء الذى لم يكن فى الواقع يغيب عن بصر كائن من كان هو أن أولئك الشبان قد أشربوا ثقافة الغرب بالرغم من بعض تصريحاتهم العلنية وأنهم تلقوا فى مدارس الغرب عدة أشياء تسمح لهم بدون شك بشن غاراتهم غير مستعدين للتنازل عنها فى مقابل أى خيال من خيالات الشرق . ويظهر لنا أن قادة الدستور الجديد قد انطبعت فى نفوسهم صورة للحياة فى فرانسا قد تتفق مع الإسلام لكنها لا تتفق أصلا مع النظريات الجامدة لبعض غلاة المتمسكين بالإسلام .

ولما أقبل الدستور الجديد بشجاعة نادرة على المشاركة فى الحكم أصبح من الميسور على الدستور القديم رميه بالاستسلام والخذلان « وهذا ما فعل »

غير أن حملة الدستور القديم كان من شأنها أن تؤول لخيبة تامة أو لم تجد فى الجامع الأعظم تربة صالحة بنوع خاص لشد أزرها وليس معنى ذلك أن الجامع الأعظم هو منتم بأجمعه للدستور القديم . بل إن نزعته هى نزعة عربية وكفى ، فهو واقع برمته خارج تلك الفكرة الغربية التى سرت عدواها

لزميلي وصديقي الحكيم بن ميلاد ، وللشاعر المجيد باللسان الفرنسي الأستاذ صالح فرحات كما سرت للأساتذة بورقيبة وابن يوسف زنوبرة .

ولهذا أصبحت الشبيبة الزيتونية تشعر أنها مهددة فى مستقبلها بما يبدو على الدستور الجديد من الاهتمام غير المقنع بالسير بالبلاد فى طريق عصرية وهذا الاهتمام قد ظهرت أثاره الأولى فى ربط علاقات التفاهم مع دولة غربية لا يمكن أن تكون بصورة واقعية غير فرانسا .

هذا هو أهم ما جاء فى مقال الحكيم كوهين حضريه من بيان أسباب الخلاف الذى شجر فى العهد الأخير بين الزيتونيين وبين بعض عناصر تابعة للدستور الجديد أردنا أن ننقلها لقراء العربية على علاتها . فهل هذه هى الأسباب الحقيقية للخلاف . وإن كان منها ما هو صحيح فهل هى كل أسباب الخلاف ؟ وهل لا توجد أسباب أخرى لم يتعرض لها الباحث فى حال أن الزيتونيين يجعلون لها المقام الأول فى إيغار صدورهم وإثارة حفائظهم ذلك ما ربما تعرضنا له فى عدد آت إن سمحت لنا الفرص وتركت لنا شواغل الساعة متسعاً من الوقت .

سانحــــة :

يحلونه عاما ويحرمونه عاما

نشاهد فى هذه الأيام تطوراً حميداً فى عقلية وفى اتجاه الصحف الناطقة بلسان الدستور الجديد . وهذا التطور يتمثل اليوم فى حرصها على عمران الكلية الزيتونية وفى تحرقها على كل وقت يضيع على طلبتها من دون أن يجنوا فيه فائدة تقربهم من ضالتهم المنشودة التى هى التزود بالمعرفة الصحيحة والثقافة الكاملة، ويتمثل أيضاً فى إنكارها لتعطيل الدروس بالجامعة، لتقلب حلقاتها إلى اجتماعات عامة يتناول فيها الخطباء مواضيع خارجة عن الدروس ويقومون ببعض الدعايات ، حسبما ألمت من ذلك صحيفة الوزارة والحزب أشد التألم فى هذا الصباح قائلة : « إن شأن مديرى الجامعات فى كل بلاد العالم أن يحافظوا على نظام جامعاتهم وحمايتها من الاصطباغ بلون من ألوان التيارات السياسية أو المذهبية الرائجة فى البلاد لا أن يسكتوا عن ذلك سكوت الرضى والتشجيع أو سكوت العجز والاستخذاء .

وللمرة الأولى نتفق أتفاقا كليا على طول الخط مع الزميلة الصباحية ، نتفق معها فى النتيجة التى وصلت إليها لكننا لا نتفق وإياها فى المقدمات الأولية وفى الدواعى الأصلية التى تولدت عنها هذه النتيجة التى تظهر مزيد التبرم بها والتألم منها .

ذلك أن تعطيل الدروس وانقلاب حلقاتها إلى اجتماعات عامة تبث فيها الدعايات الحزبية ويتناول فيها الخطباء مواضيع خارجة عن الدروس ليس

هو من مبتكرات هذه الأيام . إن صح أن هذه الأيام قد ظهرت فيها الحال بمثل هذا المظهر ، بل هو يرجع للعهد الذى كان فيه زعماء الدستور الجديد يصولون ويجولون فى الجامع الأعظم ويتزعمون حركات طلبته ويوجهونها للناحية التى يبتغونها . وقد سعينا جهدنا عندما شب قرن الفتنة وأخذت معاول الهدم تعمل عملها فى ذلك البيت العتيق فى أن ننصح لأبنائنا الطلبة بالإعراض عن الإصغاء لكل من يزين لهم الكف عن الدرس والاعتصام بالاضراب اللانهائى فى سبيل تحقيق رغائب إصلاحية مهما كانت شرعية ووجيهة فان البطالة لا يمكن أن تكون سبيلا لتحقيقها .وقلنا لهم يومئذ ان كل يوم يمر على الطلبة بدون درس إنما هو يوم ضائع من عمرهم لايعوض. وإن أولياءهم قد أرسلوهم للقراءة لا للاستماع للدعوات السياسية ولا ليكونوا معاول هدم وتقويض فى أيدى بعض الأحزاب للهيئة الوزارية الفلانية أو الهيئة الوزارية الفلانية .

لقد نصحنا للطلبة يومئذ بما أملاه علينا ضميرنا وكان نصحنا فى ذلك العهد المكهرب والبالغ فيه الحماس منتهاه ينم عن شجاعة أقدمنا عليها مع علمنا بعواقبها الوخيمة علينا من جهة رواج الجريدة . ولو كانت لنا فكرة تجارية لجارينا التيار فى ذلك العهد وفى كل عهد ولزينا لمواطنينا كل موقف يقفونه ولو بدون تدبر فى عواقبه .

وياليت الذين يتألمون اليوم من دخول الدعايات السياسية للمعاهد العلمية أيدونا فى العهد الذى كنا نبدى تألما وحدنا وياليتهم لم يشنوا علينا غارة شعواء فى المجالس الخاصة وعند اجتماعاتهم المتوالية بالطلبة إذن لما كانوا يجدون اليوم مجالا للتذمر والشكوى . أما وقد نشطوا كل خروج عن المألوف فى الوقت الذى كانت لهم فى ذلك فائدة فلا ينبغى أن يلوموا إلا أنفسهم لا الطلبة إذا كان القياد قد أفلت من أيديهم وإذا كانت حركة المطالبة الزيتونية قد أخذت طريقاً غير الذى شاءوا أن يرسموه لها عندما كانت

نفوس الطلبة تدين بالطاعة العمياء اليهم وتنفذ بمزيد الارتياح الخطط التى يملونها عليهم .

إنه لا يجوز عقلا أن يحرض حزب من الأحزاب الكف عن الدرس فى ربيع عام ١٩٥٠ ثم يبدى تألمه فى عام ١٩٥١ من قيام حالة شبيهة بالتى حرض عليها ودعا اليها فيما سبق ، على أن هناك فروقا كبيرة بين الحالة فى هذه الأوان وبين الحالة التى كانت موجودة فى السنة الفارطة ولم تلاق من الصحافة الحزبية ومن المنظمات المنضوية تحت لواء الحزب العتيد إلا كل مناصرة وتأييد .

فإذا كان هناك مسؤول يجب تتبعه فى هذا السبيل قبل سواه فهو هذا الهوى الحزبى الذى يشطب شيئا ويحض عليه عندما يكون فى المعارضة ثم يمقته ويشن عليه الغارة عندما يصل لمقاعد الحكم . وهو هذا الهوى الحزبى الذى يرفع شيخ الجامعة الزيتونية للثريا فى عامى ١٩٥٠ و ١٩٤٦ عندما كان زعماء الأمة الأبرار يرون من أكبر دواعى الشرف والفخر لهم أن يلبوا دعوته عند حفلات أختتام الدروس ويجلسون أمامه القرفصاء ثم يحاول أن ينزله من قمة مجده الأثيل حين ييئس من خضوعه خضوعا أعمى لتدبيراته .

تونس مركز للثقافة

عند بروز هذا العدد يكون مؤتمر الثقافة الاسلامية المنعقد بالحضرة التونسية قد أتم أعماله الموفقة على أحسن حال وأكمل منوال . وأمكن بواسطته لضيوف المملكة التونسية من مختلف الأقطار الشقيقة أن يتعارفوا على أديم أرضنا ويتعرفوا إلى نخبة صالحة من أهل العلم والتفكير من مواطنينا ويتبادلوا الآراء فى كل مايعلى شأن الثقافة ويزيدها رسوخا وتمكينا .

وإذا استثنينا بعض المفاجئات التى لم يكن لمنظمى المؤتمر سلطان عليها ولم يتسن لهم الاحتياط إليها من قبل التخفيف من حدة وقعها ، أو لتعديل اللهجة التى صيغت فيها وبرزت عليها فإنه يجوز لنا أن نقول إن نظام المؤتمر قد كان مثالا يحتذى به فى الترتيب وحسن التنسيق ودقة التبويب وتخير المواضيع وتنويعها معادل على خبرة واسعة لدى المنظمين جعلتهم يفوزون بأوفر قسط من النجاح فيما توجهوا إليه وسعوا فيه

وإذا كان لنا اقتراح نبديه فى هذا الصدد فإنما هو الاعتناء بطبع كتاب عن المؤتمر تضمن فيه أهم الدراسات والبحوث التى ألقيت فى غضونه حتى يعم بها النفع وتبقى مثالا من عمل هذا الجيل للأجيال القادمة كما أبقت لنا المؤتمرات العلمية التى انعقدت فى البلاد الأجنبية صورا من مشاركة ثلة من أدبائنا ومفكرينا السابقين فيها أمثال المنعمين البشير سفر و محمد الأسرم وعبد الجليل الزاوش ومحمد بن الخوجة ومن الاحياء مواطننا البارع المتضلع الأستاذ الصادق الزمرلى ومن موثبات الفخار لأمتنا أن استردت عاصمتنا مركزها الثقافى الذى كان لها فى غابر الأزمان وأصبحت تؤمها وفود العلماء من كل حدب وصوب ليشاركوا فى المؤتمرات التى تقيمها كما كان أدباؤنا ومفكرونا يشدون الرحال لبلاد الناس ليشاركوا من بعيد فى حركة الرقى الذهنى بحيث أن هذا المؤتمر الذى نفتخر به ونثنى على الساعين فيه والداعين إليه الثناء الجم قد حقق بالفعل من الناحية الثقافية على الأقل استقلال البلاد التونسية عن الأقطار الأجنبية وأقام الدليل على أن

الحركة الثقافية فى بلادنا قد وصلت لمرتبة الرشد ولم تعد محتاجة لأن يكون تابعة لغيرها، بل قد أصبحت قادرة على السير بمفردها متوكأة على مجهودها الخاص وعلى إنتاجها الخصيب فى معظم ميادين النشاط الفكرى .

ومما يزيد فى شرف هذه المنزلة ان كانت لغة المؤتمر من أوله إلى آخره هى لغة الضاد التى طالما حكم عليها الاغيار بالعدم ، ولطالما أدعوا أنها ليست صالحة لأن تكون لغة للعلم، وأنها غير جديرة إلا أن تكون لغة آثار وذكريات وشعر وخيالات وروحانيات. فإذا بها تنبعث للوجود فى ثوب قشيب من الحزم والعزم فتبهر الأبصار بحيويتها وتستهوى الافئدة بسعة مادتها ووفرة خصبها ورقة معانيها ودقة ألفاظها ومبانيها، ويجىء هذا المؤتمر العتيد المقام فى بلد كان يحسبه الجاهلون بحالة أنه فقد عروبته وهجر لغته ونادى عن ثقافته الإسلامية الصحيحة فيكذب تلكم المزاعم تكذيبا محسوساً ويقضى على ما علق ببعض الاذهان من أوهام ويعطى صورة رائعة مشرقة لحيوية اللغة العربية ولرسوخ قدم الثقافة الإسلامية فى هذه الربوع فيخدم قضية البلاد خدمة جزيلة تزيد فى نشر صيتها بين الأمم وتكلل هامتها بأكاليل العلم والفهم

فعسى أن يكون هذا المؤتمر فاتحة كما قلنا فى عدد سبق لمؤتمرات أخرى غيره تعقدها النخبة المثقفة التونسية فى شتى الفنون وفى مختلف الأغراض التى تمت للعلوم والآداب بصلة متينة حتى تتشرف حضرتنا التونسية بأن تكون فى يوم قريب مركزا لمؤتمر طبى عالمى تدرس فيه أحدث الاكتشافات العلمية ، أو لمؤتمر فى الحقوق الدولية أو لغير ذلك من الموضوعات التى ترقى بها الإنسانية وتكسب بفضلها اشواطا جديدة فى سيرها نحو الاستكمال .

ولا يسعنا قبل ختم هذه العجالة إلا أن نجدد ثناءنا لمنظمى المؤتمر الذين تزدان بهم تونسنا العزيزة ونخص بالشكر حضرات العلماء الأفاضل الذين تجشموا مشاق السفر وحلوا بأرضنا ضيوفا كراما ليساهموا فى هذا المهرجان العلمى الجليل ويشاركوا بحضورهم فى زيادة تألق نوره المستمد من الشجرة المباركة التى هى نور على نور .

أبو القاسم الشابى

فى ظل وادى الموت

نحن نمشى ، وحولنا هاته الأكوان تمشى .. ، لكن لأية غاية ! ؟
نحن نشدو مع العصافير للشمس . وهذا الربيع ينفخ نايه . . .
نحن نتلو رواية الكون للموت . ، ولكن ماذا ختام الرواية . ؟
هكذا قلت للرياح فقالت : سل ضمير الوجود . كيف البداية . ؟

. . .

وتغشى الضباب نفسى . ، فصاحت فى ملال مر : إلى أين أمشى ؟
قلت : « سيرى مع الحياة . » فقالت : « ما جنينا ترى من السير أمس ؟ »
فتهافت — كالهشيم — على الأرض وناديت : « أين ياقلب رفشى ؟ »
« هاته : علنى أخط ضريحى فى سكون الدجى . وأدفن نفسى . ؟ »

. . .

« هاته فالظلام حولى كثيف .. ، وضباب الأسى منيخ عليا »
« وكؤوس الغرام أترعها الفجر ولكن تحطمت فى يديا »
« والشباب الغرير ولى إلى الماضى . . وخلى النحيب فى شفتيا »
« هاته ، يا فؤاد ! إنا غريبان تصوغ الحياة فنا شجيا »

. . .

« قد رقصنا مع الحياة طويلا .. ، وشدونا مع الشباب سنينا »
« وعدونا مع الليالى حفاة فى شعاب الزمان حتى دمينا .. »
وأكلنا التراب حتى مللنا . . ، وشربنا الدموع حتى ارتوينا .. »
« وبذرنا اللذات ، والشوق ، والآلام والمبهجات ، أنى مشينا . . »

. . .

ثم ماذا . ؟ هذا أنا : صرت فى الدنيا بعيداً عن لهوها وغناها . .)
(فى ظلام الفناء ، أدفن أيامى . . ولا أستطيع حتى بكاها . .)
وزهور الحياة . . ، تهوى بصمت محزن ، مضجر ، ، على قدميا ..)
جف سحر الحياة . ، يا قلبى الباكى فهيا نجرب الموت . . ، هيا ، ..)

أغانى التائه

كان فى قلبى فجر ، ونجوم . . وبحار لا تغشيها الغيوم . .
وأناشيد ، وأطيار تحوم وربيع ، مشرق ، حلو جميل
كان فى قلبى صباح ، وأياة وابتسامات، . ولكن . . وآساه!
آه ! ما أهول أعصار الحياة ! . آه ! ما أشق قلوب الناس ! آه !

كان فى قلبى فجر ، ونجوم ! . .
فاذا الكل ظلام ، وسديم ! . .
كان فى قلبى فجر ، ونجوم ! . .

يا بنى أمى ترى أين الصباح . . ؟ قد تقضى العمر ، والفجر بعيد
وطغى الوادى بمشبوب النواح وانقضت أنشودة الفصل السعيد !
أين نايى . ؟ هل ترامبه الرياح . ؟ أين غابى . ؟ أين محراب السجود ؟
خبروا قلبى فما أقسى الجراح كيف طاشت نشوة العيش الحميد ؟

يا بنى أمى ! ترى أين الصباح . . ؟
أوراء البحر؟ أم خلف الوجود ؟
يا بنى أمى ! ترى أين الصباح . ؟

ليت شعرى ! هل ستسليني الغداة ؟ وتعزيني عن الأمس الفقيد ؟
وتريني : أن أفراح الحياة زمر تمضى ، وأفواج تعود
فإذا قلبى صباح وأياة . . وإذا أحلامى الأولى ورود ، .
وإذا الشحرور حلو النغمات . . وإذا الغاب ضياء ونشيد . .

ليت شعرى هل تعزيني الغداة ؟
أم ستنسانى ، وتبقيني وحيد ؟
ليت شعرى ؟ هل ستسليني الحياة ؟

(أبو القاسم الشابى)

محمد بو شربية

يوم العروبة

يوم العروبة هذا عيدك الثانى يفتر عن أمل بالشعر أغرانى
عفت القريض لا مداح مزخرفة ونيل زلفى وزاهى اللون رنان
وقد سموت به للروح أبعثها خفاقة طهرت من كل أدران

. . . .

هذا هو الشعر لا شعر السخافة فى ثوب المطامع فى خبث وأدهان
وقد هديت إلى خل أطارحه رأيى وألهمه شجرى وأحزانى

. . . .

تدعو لأبنائك العرب الكرام أولى المحامد الغر من أبناء عدنان

يا عيد هذا مجال القول متسع فأقبل - فديتك - منى حر أوزانى
واسمع أبثك ماقد قيل من شجنى فالصدق فى القول من دينى وإيمانى
قالوا بليت بأقوال ينمقها دهاة سكسونهم فى إيما آن
وأنهم أسرا منا محصنة لرد روس ولاتين وجرمان
حتى إذا ماقضوا منا مآربهم هدوا الحصون بتقويض لاركان
وأرجعونا إلى حال لهم عرفت فينا وليست سوى جور وعدوان

كذا يقولون فاسمع ما يقال وكن — منهم على حذر فالضد ضدان
ضد يحاول أن تبقى صداقتهم — وهي العداوة ـ فينا طول أزمان

. . . .

أين الوعود التي غر الحسين بها — وأين كان مصير الملك ذي الشان
وهل جنى فيصل من بعده أملا — سوى اغتيال وتسميم بلوزان
انني أعيذكمو أن يستعاد بكم — عصر التغفل محشوا بأضغان
وأن يكونوا كمشدوهين قد فتنوا — بزخرف من خداع القول فتان
ليسوا رجالا فيوفوا بالوعود كما — وفت بها العرب في سلم وأثخان

*
* *

آمنت أن بلاد العرب سوف ترى — حزم الرشيد وعزمات ابن مروان
ووحدة الضاد تلتف العروش بها — وصولة الدين في عز وسلطان
وألفة تتمشى في مناكبها — تقصي الخلاف بإيلاف لتيجان
هناك ينبعث الإسلام ثانية — في الأرض يهدي لإرشاد وإحسان
يحيي المساواة والعدالة في — صدق تنزه عن زور وبهتان

*
* *

ياعيد في عامك الماضي هنأت بك الحشـــد المجمع من صحب وإخوان
دعوا فلبيت والفضل العظيم لهم — في دعوتي إذ بها أطلقت وجداني
واليوم في عامك الثاني أعيد على — أسماعهم زهر آمالي وتحناني
ياعيد أبلغ عن الخضرا تحيتها — لقومك الصيد من شيب وشبان
أبلغ لجامعة العرب الالى رفعوا — سما كها بين أكبار واذعان

محمد الحليوى

ذكرى القيروان

صرع الدهر جدودى الأولين وعدا عن ملكهم عادى السنين
لهف نفسى كلما أذكرهم لهف نفسى عن جدودى الأولين
ذهبوا فالدار منهم بلقع وعراص الدار عنهم لاتبين
ذهبوا إلا رسوما درست ورسوما بقيت للدارسين
تلك أطلال عليها روعة وجلال من جلال الأقدمين
يقف الناس على أنقاضها وحواليها حيارى خاشعين
أنا إن أرسلت دمعى فوقها فلقد أرسله قلبى مئون

* * *

إيه ياأرض الغزاة الفاتحين وضريح الشهداء الخالدين
حدثينا عن قرون سلفت إننا تهتاجنا تلك القرون
حدثينا عن أمور حدثت أنت إذ تروينها لاتمترين

* * *

حدثى عن عقبة فى جنده يحمل النور لليل المدلجين
جاء للناس ببشرى وهدى يفتح الدنيا ويهدى الحائرين
فإذا التكبير موصول الصدى فى سهول ذاهبات وحزون
وإذا الإسلام خفاق اللوا وإذا النصر حليف المسلمين
حدثى عن عقبة فى جنده ينشىء القبلة والبيت الأمين

قال يا سكان هذا القفر من   افعوانات وأساد عوين
ارحلى عنا فإنا هاهنا   سوف نبنى معقل الدين الحصين (١)
ارحلى ! فالأرض رحب ذرعها   وفضاء الله أنى تذهبين

☆ ☆ ☆

وبناها قبلة ميمونة   شرف الله بها أهل اليقين
سمع التكبير فى جنباتها   ورأى النور يضىء المشرقين
قال ياأبناء دينى هاهنا   انصبوا البيت لرب العالمين (٢)
إن يك الموت الذى أودى بهم   اسكت الصوت الذى كان يبين
فصدى تكبيرهم فى أذنى   لم يزل والله موصول الرنين

☆ ☆ ☆

وبناها بلدة طيبة   اسها الإيمان والدين المتين
قال يارب بارك فيهم   ثم بارك فى بنيهم أجمعين
واجعل اللهم منهم أمة   تحفظ الإيمان والحق المبين
يسطع الإسلام فى آفاقها   ويعم النور منه الخافقين

☆ ☆ ☆

حدثى عن أسد فى جنده   يركب البحر إلى الفتح المبين
عجباً ! قاض وربان معا   يحمل الشرع ويقتاد السفين
إن فى برديه نبلا وتقى   وله من اسمه باس ولين
أسد فى نشر دين المصطفى   وفرات للعطاش الظامئين

☆ ☆ ☆

---

(١) إشارة إلى ما يقصه المؤرخون الأقدمون فى كيفية تأسيس القيروان .
(٢) إشاره إلى ما يذكره المؤرخون فى نصب قبله القيروان .

يابنى الأغلب ذكراى لكم — فهى ملء الصدر فى صدرى الحزين
قد ملكتم مائة كاملة — وملكتم معها عشر سنين
كتب التاريخ فى أسفاره — عن علاكم أسطرا لاينمحين
سستم الملك ووطدتم له — بشديد البأس والعزم المتين
ثم آخيتم بنيه كلهم — فأصيل القوم فيهم كالهجين
ونشرتم راية خفاقة — راية تحمى ذمار الخاشعين
وبنيتم أحسن الله لكم — للمعالى أى بنيان مكين
وفعلتم فى سبيل العلم ما — فعل المأمون فى حق القرون
أصبحت صبرة من شهرتكم — كعبة الآمال للركب الظعين
يرحل الطلاب من أوطانهم — وهى كل القصد فيها يرحلون

* * *

يابنى الأغلب كنتم غرة — يوم كان الدهر ذياك الجبين
كنتم والملك يحميه التقى — ودهاء الرأى والخلق المتين
حين صار الملك حاميه الهوى — وقبيح الفعل والرأى الأفين
وتلاهيتم بكاسات الطلا — ولمى الأغيد مكحول الجفون
أصبح الملك عظوظا ناحلا — أعملت فيه فؤوس الهادمين
لكأنى بكم فى لهوكم — وسط ذاك الحوض والليل دجون(١)
وشعاع البدر من عليائه — يجعل الحوض كدرع من لجين
يسكب الساقون فى أقداحهم — بنت كرم عصرت فى أندرين
وطنين العود جواب الصدى — وبكاء الناى موصول الأنين

* * *

(١) الحوض هو الفسقية التى لا تزال آثارها بالقيروان إلى اليوم.

إيه رقادة هل من نبأ ... عن شئون حدثت بعد الشئون

أن تكونى اليوم قفرا موحشا ... فلقد كنت مناخ المالكين

كنت والأفلاك فى تصريفها ... غرض الأفلاك فيها تصرفين

« كم تراءت صورة خلابة ... ومعان حولك لا ينقضين »

من ملوك دخلوك فاتحين ... وملوك فارقوك هاربين

وجنود فتحوا واستعمروا ... وجنود هدموك ناهبين

من عروش وجيوش وقنا ... ورماح وسلاح وسفين

وقدود وخدود ودمى ... وورود وعبيد وقطين

وشموس فى كؤوس تجتلى ... وصبوح وغبوق ومجون

وابن هانى دينه فى شعره ... سلعة معروضة للراغبين

والمعز الفاطمى يبتاعه ... ثم يذروه رماداً فى العيون

أيها القصر الذى يهتاجنى ... ذكره اليوم وقد مرت قرون

أين من أنشاك قصراً شاهقاً ... سامق البنيان ممنوع الحصون

ثم وشاك بروض زاهر ... ونخيل باسقات وعيون

كم رأيت الزهر فى أكمامه ... يفتح الثغر إلى الغيث الهتون

وسمعت البلبل الصداح فى ... عشه يشدو على تلك الغصون

وتضمخت بنور مشرق ... وروى تربك سلسال العيون

قيل عن أرضك قول مدهش ... فروينا عن ثقاة ناقلين :

« إن من حلك لا ينتابه ... طارق الهم ولا طاغى الشجون

كتب الملك على أبوابه ... إدخلوها بسلام آمنين »

* * *

هل أتاكم نبأ عن دولة ... طلعت شمسا على الدنيا سنين

دوحة أنبتها الله على ... ضفة الوادى ومغناه الأمين

أصلها فى النبل ذاك عرفه ... ولها فى المجد ذهاب الغصون

قد أظلت أمة المغرب فى ... ظلها الوارف لظلال ابنين
إن زيرى وبنيه بعـــده ... وابن باديس لفخر المالكين
قسما لن يأتى الدهر بهم ... كيف! والدهر بهم جد ضنين
صبرة كانت بهم زاهرة ... وبنوها أنجما للمهتـــدين
جعلوها جنـــة مخضلة ... فهى لا خوف ولا هم يحزنون
رفعوا للعلم فيها سامقا ... كل جبار يدانيـــه مهين
ورعوا فى كنفهم أهل الحجى ... وحموا فى ظلهم أهل الفنون
كانت الضاد بهم فى عزة ... وبنوا الضاد هم نعم البنون
كانت الآداب تجنى غضة ... فهى فى أسمارهم نعم الخدين
ذاك عصر الشعر فى اشراقه ... ذاك عصر الشعراء الملهمين
ذاك عصر الحصرى والأردى (١) ... والجذامى (٢) والكرام الكاتبين

* * *

يا حنينى نحو أشياء مضت ... ورجال ذهبوا فى الذاهبين
لا تلومونى على جبيهم ... إن أنا كنت بحبيهم أدين

* * *

أترى الدهر الذى روعنا ... ورمى صبرة بالسهم السنين
أتراه يرجع المجـــد لنا ... أتراه يبرىء الجرح الثخين
نحن لا نبكى على مجد مضى ... إنمـا يبكيه قوم يائسون
نحن لا نيأس من عودته ... إنما ييأس قوم قانطون
نحن لا نقعـد عن تحصيله ... إنما يقعـــد قوم عاجزون
إننـا أبنـاؤهم فى أرضهم ... إننـا أشبـال ذياك العرين
فلتـكن آمالنـا غاياتهـــا ... رغد العيش وعيش الخالدين

---

(١) الحصرى هو ابراهيم الحصرى صاحب زهر الآداب والأردى هو على بن رشيق صاحب العمدة .

(٢) الجذامى هو محمد بن شرف صاحب رسائل الانتقاد .

دخلت للجامع

دخلت للجامع الكبير — أستنطق الصمت والدهور
الواجف الكسير

إذا سكون ولا ممات — وموحشات ولا قبور
ولا أذان ولا صلاة — ولا دعاء ولا جئير
ولا مصلى الملوك يحوى — خليفة الله والوزير
والصخر يبكى فلا مجيب — والعمد كالمارد الأسير
وكل باب تمر منه — يقص من قصة الدهور
وكل ضوء على الثريا — يضيء فى خفة العصور
والصمت يحكى بكل شبر — عما جرى ثم من أمور
ما كنت أدرى أن المبانى — تعيش فى عصرها الكبير
وتغتدى وهى محض صخر — تحتقر الوارث الحقير

يا دهر أين المعز يسعى — فى هزة الملك والسرير
والجند صفا بكل درب — والطبل والبوق والنفير
حتى إذا جاء للمصلى — وساوت السوقة الأمير
رأيت ثم الجلال حقا — معفر الوجه فى الحصير
يرفعه الدين للمعالى — والعمل الصالح الكبير

يا دهر هل ترجع الليالى — ليالى المجد والحبور
هل ينبت الزرع والأقاحى — ويبسم الروض والثغور

استقبال شيخ الجامع

سنة ١٣٦٤هـ و ١٩٤٥م

شعرى دعوتك دعوه الإلحاح ... فهنا مجال القول والإفصاح
إنى دعوتك للقريض المنتقى ... فاسمح به من خاطر سماح
أنا لم أجشمك المدائح زلفة ... كلا ولم أك قط فى المداح
إنى نظمتك فى مفاخر أمتى ... والمجد مجد جدودى الأقحاح
وأشدت بالماضى القديم وعزه ... فبعثت أى حمية وطماح
ولكم نظمتك كالفرائد للعلى ... ولدعوة للخير والإصلاح
وهززت عطف النبل فاهتزت له ... أعطاف كل غرانق جحجاح
وقد اتخذتك ترجمان مشاعرى ... وجعلت وحيك بدسم الاجراح
وزجرت نفسى عن مطامع جمة ... وصرفتها عن باطل الامداح
وحلفت أنى لست أحبو مدحتى ... إلا لشهم فى الخطوب وقاح
أو للإمام إمام عصرى إنه ... طب النفوس ومنهل الأرواح

*

اليوم جامع عقبة قد أشرقت ... أرجاوه بالطاهر الوضاح
مضت القرون ولم يشاهد مثله ... فى علمه وتقاه والإسجاح
ذكر الأئمة فى جلالة قدرهم ... فارتاح للعهد القديم الضاحى
أيام كان الملك فى عرصاته ... ورجاله فى غدوة ورواح
لو كان يشكو معلم من دهره ... لشكا اليك ولج فى الإيضاح
أو كان ينطق صخره عن حاله ... لبكى وأفصح أيما إفصاح
من بعد أن كانت تعج رحابه ... بالعلم — أمسى لعبة الأرياح
لكأننى أصغى إلى أعلامه ... من عالم الأشباح والأرواح
تدعوك ياشيخ الشيوخ فأنت من ... يرجى إلى التعمير والإصلاح
ولسوف يحفظها الزمان مبرة ... تبقى مع الامساء والاصباح

الطاهر القصار

اقتبال وفـــد مؤتمر الطلبة

لـكم عندنا الإكرام والمنزل الرحب وحب متـين لا يماثله حب
فأهلا بقوم صارعوا الدهر حقبة ففازوا بأسر الدهر وانتهت الحرب
لأنتم خير النـاس أبناء يعرب لكم كان هذا الـكون شرقه والغرب
وأنتم للمجـد المؤثل منبت وأنتم من الدنيـا برمتها القلب
وأنتم لدين الله بعـد رسوله أجل عماد حق من رفعه النصب
فلا تهدموا عزاً بنته جدودكم ولا تهملوا شأناً لهم دونه الشهب
وسيروا بجنب الدين تحت ظلاله فدينـكم دانت له العجم والعرب
أتيتم إلى الخضرا فيا مرحباً بكم وحسبكم منها التضامن والقرب
وإنا لما جئتم له فى تشوق وإنا لنشر العلم أنفسنا تصبو
نعم فهو أكسير الحياة وسرها نعم وهو فيض الخير والمنهل العذب
ولا شأن للإنسان إن كان جاهلا كذا الجهل فى نهج الحياة هو الـكرب
فهبوا جميعا واعمـلوا فزمانـكم تحرك فيه الوحش والحجر الصلب
وعار على الإنسان ذى العقل أن يرى تعيسا على الغبرا يحاربه الرعب
فقيرا فـلا دنيا ولا دين عنده غريقا بوادى الجهل ليس له لب
أيا أمة الإسلام يا خير أمة كفى ما مضى فالدهر فى أمره صعب
تركتم ما فى الذكر يرعاه غـيركم فيسمو ونور الفوز فى آيه مخبو
فبالله أوبوا وارجعوا لرشادكم فأنتم جند الله فى الأرض والحزب
فدينـكم أبناء يعرب مبعث التـ ـمدن فى الأكوان ليس به ريب
خذوا كلمتى أضياف تونس واعملوا لإعلاء شأن الدين يرعاكم الرب
بقيتم بقاء الدهر فى حلل الهنا مفاخركم وضاءة ما لها حجب
عليـكم سلام الله فى كل ساعة وفى كل أرض ما رقى للعلا شعب

اقتبال وفد مؤتمر اللغة العربية بالخلدونية

لغة البيان ومنطق القرآن … تدعو لنجدتها بكل لسان

لغة الأباة الشم والعرب الألى … ملكوا المفاخر من بنى قحطان

لغة تسامت فوق هامات العلا … فى كل عصر بل فى كل مكان

لغة يهيم بحسنها من لم يهم … تسبي الورى بجمالها الفتان

لغة تسيل على المناطق رقة … تشفى وتنقع غلة الظمآن

لغة أقر بفضلها البلغاء والـ … ـفصحاء والعلماء أهل الشان

لم يبل منها الدهر شيئا إنما … باءت من الأبناء بالهجران

تركوا حماها وانثنوا عن حبها … وسلوا هواها بابنة الرومان

وتشتتوا من حولها أيدى سبا … وهى الوفية ربه الإحسان

كنز البلاغة فيضها بل بحرها الطـ … ـامى على الربوات والكثبان

هبة الزمان وفضله الأوفى الذى … حاز اعتبار العجم والعربان

وحى العليم بكل علم للورى … ولسان شرع الله للأنسان

ألفاظها درر على جيد الفصا … حة ما لها مثل يرى أو ثانى

تبدو إذا ما صغتها ونظمتها … فى القول مثل قلائد العقبان

وترى المعانى حولها منثورة … نثر الزهور على أديم جنان

رقت وراقت فاستوت فى دولة الا … بداع فوق العرش والايوان

ما ضرها قول المكابر إنها … لغة لصوغ الشعر والألحان

أين الثريا من أكف الناس أم … أين السها من أعين العميان

بئس التعصب كم يضل المرء فى … طرق الخداع وأنهج البهتان

عار وايم الحق عار ان نرى … لغة البيان عديمة الخلان

هبوا حماة العلم ما هذا السبات … فان هذا الدهر ذو عدوان

هبوا عباد الله ان زمانكم … متحفز للبغى والطغيان

هذا خيال الجهل يخطر بيننا … فى ثوبه المسود بالأدران

هذا الفناء جنوده قد عسكرت ... فينا ترصد غفلة الشجعان
هذا نذير الفقر بل شبح الشقا ... يختال بين منازل البلدان
هبوا بربكم فان العلم قـا ... عدة الرقى ومبعث العمران
بثلاثة نسمو ويعظم امرنا ... بلساننا والدين والعرفان
فعليكم حفظ الثلاثة واجب ... بالنشر والتعليم والأذعان
ردوا لمجدكم الأثيل نخاره ... وابنوا لذلك محكم البنيان
ولتبذلوا فى شأن بث العلم ما ... قد عز من مال ومن ابدان
فالله حرضنا على الانفاق فى ... سبل البرور بمعجز الفرقان
فبلن تنالوا البر حتى تنفقوا ... مما تحبون البيان الثانى
ليس التآمر بالمفيد وإنما ... قد سرنا بزيارة الجيران
وبما رأينا من مهارة قومنا ال ... متئامرين بذلك الميدان
ولئن حرمت القول فيه فها انا ... بين الكرام مردداً أوزانى
بين الهداة ضيوف تونس نخبة ال ... العلماء والفضلاء والأعيان
الظاهرين على الحقيقة مثلما ... قد قاله المختار من عدنان
أضياف تونس مرحبا بقدومكم ... أهلا بكم يابهجة الأكوان
فالدين يجمع بيننا ولنعم ذا ... ك الدين يجمع أمة القرآن
أخلاقنا ولساننا وعلومنا ... صلة برغم تباعد الأوطان
فاس وتونس والجزائر نعمت لل ... أخوات فى لغة وفى إيمان
ثن يقال المغرب الأقصى فكم ... عند الدعا كان الحبيب الدانى
ولكم حيينا من جلائل يمنه ... بالفضل والمعروف والإحسان
انظر لهذا الطود بين رفاقه ... فهو الدليل وساطع البرهان
حامى حمى العلم الشريف بدولة ال ... مولى الشريف محمد السلطان
مولاى أدهشت العقول بفكرك ال ... سامى وعقلك مظهر الرجحان
فلنعم ماوشى اليراع ونعم ما ... أمليت من شرح ومن تبيان

شرفت أرضا قد تعودت الوفا — لذوى الوفا فى السر والإعلان
ورفعت نادى أهلها العلمى بما — أسديت فوق مواقع الشهبان
أرضيت صاحبه ابن خلدون الذى — بجلاله قد كان خير مكان
حاضرت فيه إلى النهى فتكللت — غرر العلوم بأجمل التيجان
فلتبق يا عضد الوزارة ناهضا — بالعلم فهو سعادة الإنسان
رفع ابن خلدون منارة شأنه — ورفعت فى التاريخ صرح الشان

يا مصر

يا مصر ركنك في المعارف كعبة ... غراء تقصد للورى وترام

كم من عقول ازهرت بالأزهر ... الفياض كم قد أثمرت أفهام

بالأزهر الفرد الذي بعلائه ... تسمو العصور وتسعد الأقوام

تحمي زمام الدين فيه أئمة ... نبغاء علم كمل أعلام

سار الحديث بعلمهم بين الورى ... فاستبشرت بعلاهم الأيام

يا مصر فيك معاهد ومدارس ... (شم الحصون ومثلهن عظام)

معمورة بالناشئين وخير ما ... قد خطت الآلات والأقلام

تحوي خزائنها نفائس جمة ... من كل ما جادت به الأفهام

العز ذلك والسعادة تلكم ... وبفضل ذلك تكبر الاحلام

العلم ناموس السيادة في الدنا ... والعلم في هذي الحياة قوام

سر من الأسرار فيه حماية ... للعالمين ورحمة وسلام

وبه تكون عرى الوئام متينة ... بين العباد وتوصل الأرحام

لولاه ما عرفت لتونس حقها ... مصر ولا اعترفت بذاك الشام

كانوا إذا ذكرت لديهم تونس ... في محفل تركوا الحديث وناموا

ولذاك عار لو دروا فالعرب إخـ ... ـوان وهجر الأقربين حرام

واليوم قد علموا الحقيقة وانبروا ... للحق لا شيع ولا اضرام

هذي عرابين المودة قد أتت ... من أهل مصر يحوطها الاعظام

بعثت بها دار العلوم هدية ... كتبا تولت نشرها الأعلام

فيها من العلم الجميل نفائس ... وطرائف ما مثلهن يرام

يا أهل مصر وصلتموا رحم العرو ... بة بعد ما عبثت به الأيام

وأتيتموا الأمر الذي بجلاله ... يعتز حزب الله والإسلام

فإلى التعاون والوئام بني الكنا ... نة ان مفتاح الفلاح وئام

عار وأيم الحق أن نبقى على ... خلف فيسمو غيرنا ونضام

فلانتم القوم الكرام وفيكم ... الانفعان الحزم والاقدام

دمتم ودام العلم يرفع ملككم ... مافاض عن مسك القريض ختام

مجلة «العالم الأدبي» العدد ١٧ — السنة الثالثة

تحيـة الجامع الأعظم

لعام ١٩٤٣

بهر المشرقين طولا وعرضا معهد أنهض المعـارف نهضـا
فاذا الأزهر المنير مشـــيد يمـلأ الكائنات نثرا وقرضا
وإذا جوهر المعز يرد الطـ ـرف عما ابتناه فى مصر غضا
معهـد فجر الحصافة فى الأر ض وأجرى النبوغ فى الناس محضا
وأنال الشمال عزا تراءت دونه الانجم الثواقب مرضى
وجد النابهين فى العلم والآ داب نوراً على البسيطة وضا
نشروا العقل قرروا الفضل أولوا نعما نبهت من الأرض نبضا
فغدت للعقول ميدان سبق يركض الطامعين فى الفوز ركضا
فاذا مصر والعراق وأرض الشـ ـام تحنـو لتونس وترضى
ذلك الحق والمكابر فى الحـ ـق سياقى بحقه الزور دحضا
شهد العلم ان ام الخبـــايا منهل لم يصب من الورد قيضا
أيغيض النبوغ من جامع الزيـ ـتونة العامر المطهر أرضا ؟
والشباب النبيل متقد العز مة من وثبة القذائف أمضى
لم ترعه الحوائم السمر فى الجو تثير المعالم الشم نقضـــا
لم يخف سطوة المدافع تلهو بحظوظ العباد رفعا وخفضا
شارك الجند فى الكفاح فلما نصر الجند أحرز النصر أيضا
فاحتفى اليوم بالنجاح مشيدا باسم من فاق فى السباق وأرضى

مصطفى خريف

ذكريات وخواطر

ذكريات الصبا ، أعيدى على مسمع قلبى ذاك النشيد الشجيا
خاطبى قلبى الكليم وقولى : كنت يا قلب كالملاك خليا

✡ ✡ ✡

كنت كالماء صافياً ، وكزهر الروض غضاً ، وكالربيع لطيفا
كدر الماء بالبلا ، وذوى الزهر وصار الربيع فيك خريفا

✡ ✡ ✡

كنت لا تعرف الحياة ولا تدرك أهوال حربها الطاحنات
فانجلى ذلك الضباب وبانت من وراء الضباب حرب الحياة

✡ ✡ ✡

ها هو الصبح قد أتى وتولى وهو صبح الصبا البديع الجليل
وأتاك الضحى بهاجرة تبذل زهر الربا ، فكيف المقيل ؟

✡ ✡ ✡

كن صبورا قلبى فهذا قليل ، من خطوب الحياة ، هذا قليل
سوف تسقى – إن عشت – من علقم البؤس وما للنجاة منه سبيل

✡ ✡ ✡

إيه قلبى ! هل الحياة سوى المأساة تدمى القلوب و كبادا
لا أرى فى الحياة دوراً سعيداً ، أسعيد من يطلب الاسعاد ؟

إنما هذه السعادة ضرب من ضروب الخيـــال والأقوال
فاذا أحرز امرؤ ما تمنى ، جدد الدهر شـــقوة الآمال

* * *

لقنتك الحياة يا قلب درساً قاسياً كلـــه شجى وفظاظه
فاتعظ فالعظيم من يعن الدرس ويبدى بالحادثات اتعاظه
ها هو الأمس قد مضى ؟ والصبا قد زال . والعيشة العزيزة ولت
وأغانى الفجر الجميل تلاشت فى صراخ مسترسل واضمحلت ؟

الحديد

يا تاج عصر العلم سد يا حديد ... وأفخر على التبر الرصيع النضيد

✡ ✡ ✡

تيها وعجبا أنت قطب الرحا ... لوجد دين كنت منحى السجود
فاحكم بما أوتيت من قوة ... تغالب الأيام حتى تسود
وحاك صوت الرعد أما دوى ... ترتج منه اليد حتى تبيد
تكاد تهوى الأرض من باسه ... والجو يطوى والسماء تميد
والمع كبرق شق لألاؤه ... جنح الدجى سيفا يشق الكبود
أو مدفعاً يرمى الشواظ فيغ ... دو كل عمران شتيتا بديد
أو سابحات فى الجواء وفى ... اليم حبالى تغتدى وتعود
إن كان سلم أقلعت ورست ... تقرب الأقصى وتدنى البعيد
أو كانت الهيجا مسعرة ... ثارت لتحمى حوضها وتذود
يصلى العدى من جمر نقمتها ... فيهم جحيم النار ذات الوقود
ويل لأهل البغى يومئذ ... ما أن لهم عند اللقاء محيد
يا تاج عصر العلم سد يا حديد ... وافخر على التبر الرصيع النضيد

✡ ✡ ✡

فى سالف الأيام من قدم ... فى عهد إنشاء الحياة العهيد
لما استوى الفكر على سوقه ... مدبرا للعيش حرا رشيد
يحتال أن يلقى لبانته ... فى الصخر فى الأخشاب بين النجود
أذيعت البشرى وقيل لقد ... تمخضت بطن الثرى عن وليد
المعدن الجبار قد رفعت ... راياته تحدو الزمان الحديد

ماض مضاء العزم أيقظه روح عتى لايلين عتيد
طوباك يا أرض اسعدى ولدى لانت أم العالمين الولود
داوود غنى فى مزاميره مستبشرا ياحبذاك النشيد
يهــدى بإذن الله أمته للجد أن تحيا حياة الخلود
فانهالت الأجيـال تشبعه جهدا على الأيام ظل يزيد
حتى تسامت فى حضارته نحو العــلى تجتابها وترود
كادت تميت الموت عزمتها حين استقلت ماردا من حديد
من مارج من نار زند النهى تجريه نار السبك انى تريد
كأنه فى قلب معهــده سيل الدم القانى يجوز الوريد
غصاب هذى الأرض مقدره يسدى لجهد الناس جم الجهود
سبحانك اللهــم أودعته سر السما نفعا وبأسا شديد
أعظم بها من آية برزت فى كل شغل ضائر ومفيد
ياتاج عصر العلم سد ياحديد وافخر على التبر الرصيع النضيد

ولتحي افريقيا الكبرى

قفوا واخشعوا واستلهموا عظة الذكرى — وحيوا الآخا بين الجزائر والخضرا
قفوا ، انشدوا لحن الوفاء ورددوا — على مسمع الأيام أغنية البشرى
قفوا ، واضربوا وجه الزمان بصرخة — نقم بها الدنيا ونغزو بها الدهرا
أرى الأخت ترنو في حنان ورقة — فتغمرها حبا شقيقتها الأخرى
أرى اليوم ضما واعتناقا ورحمة — وعطفا وأنسا ما أحيلى وما أمرا
أرى شامخات الأطلس ارتبطت بنا — وأحكمت الميثاق ما بيننا جهرا
أرى «الابيض» الميمون يغمر برنا — فأكرم به برا وأعظم به بحرا
أرى شبح الروح الأمين مرفرفا — على جمعنا طلق الملامح مفترا
أرى الدين والتاريخ يجمع شملنا — أرى الطبع والفصحى أرى الشعر والنثرا
أرى الألم المضنى ، أرى هدف الرجآ — أرى الفجر يسرى نحونا حمد المسرى
أرى يومنا يوما أغر محجلا — فأمتنا فيه محجله غرا
أرى . ما أرى ؟ هذا محيا عرفته — به آية للفضل مكتوبة تقرا
أرى عندنا عبد الحميد ، فمرحبا — به ، وتحيات معطرة تترى
أراه بشوشا باسما متهللا — يبارك شبانا غطارفة زهرا
أهاب بهم يوما إلى المجد والعلا — وخط لهم من نور شعلته سطرا

* * *

لعمرى . لقد كان ابن باديس آية — مصدقة للبعث ، فياضة بشرا
وقد كان طودا للعروبة باذخا — بهمته تختال أعطافنا فخرا
وكان خضما بالعزائم زاخرا — وكنزا أفدنا من مداركه الدرا
وقد عب من زيتونة الله ، حقبة — ومن نورها جلى البصائر والفكرا
فلله ما أبقى ، ولله ما بنى ! — ولله غرس أثمر الخير والبرا

ولله قلب هام فى الحق صادقا ... وأنفق فى تأييد حجته العمرا
وخاض ميادين المعارك ظافرا ... وحمل من جراء دعوته أصرا
توجه للإصلاح والرشد جاهدا ... فألهم للتوفيق . واستصلح البذرا
ورواه إخلاصا ، فأخرج شطأه ... كنبت ربا واهتز وابتل واخضرا
فشاهت وجوه الكاشحين وقبحت ... ولاقوا لما يأتون من شرهم شرا
ألم ينههم عن خطة البغى واعظ ؟ ... ألم يعرفوا حقا ؟ ألم يعقلوا زجرا ؟
ألم يأتهم أنا كرام جدودنا ... نزاوية الأحساب مرفوعة قدرا ؟
شداد إذا رامت كفاحا قلوبنا ... غلاظ إذا أعراضنا وترت وترا

* * *

ألا فارفعوا نحو العلاء رؤوسكم ... وصونوا الحمى واستسهلوا المركب الوعرا
ونادوا جهارا فليعش كل عامل ... لوحدتنا ولتحى أفريقيا الكبرى!

هنيئـــاً(١)

هنيئاً ، فذى أفراحه وبشائره ... وفخرا فذى أعلامه ومنائره
وعجباً ، فهـــذا فوزه واقتداره ... وتيها فذى أنصاره وعشائره
وذلك روض العلم يفهق حوضه ... وتلك سواقيه ، وهذى جعافره
تدفق بالعرفان فاخضر عوده ... وقنعت الأكام فيه أزاهره
وهذا النتاج الخصب أخرج شطأه ... وذا زرعه النامى وهذى بواكره
وهذا الجنى الرطب طابت وبوركت ... موارده فى أرضنا ومصادره
وهذا نسيم ناعم الذيل منعش ... يرف ويقسو فى الخمائل عاطره
وهاتيك أغصان تولت ثمارها ... كسرب غوان قد تدلت غدائره
وذا العشب والنوار يغمر ربربا ... توافت له اطلاؤه وجآذره
وهذا صباح ضاحك الوجه مشرق ... أغر الضواحى ساطع النور باهره
تجلت به الزهر الملائك وانبرى ... يرتل آى الحمـد فى الدوح طائره
هنـا بيت أمجـاد وركن مفاخر ... هنيئاً لـكم أمجـاده ومفاخره
هنا العروة الوثقى تمتن حبلها ... وشدت قواه واستمرت مرايره
هنـا معهد الحبحاب أسس للهدى ... ونادت بصوت الحق فينا منابره
يغذى رجاء فى انبعاث وعزة ... فيلحق منه أول المجد آخره
ويفسح للجيل الجـــديد مجاله ... فتحيا به أفكاره ومشاعره

* * *

فدى لأبى الزيتونة القوم وابنها ... وشيخ علاها ناكر الفضل كافره
لقد كاد نور العلم فيها لينطفى ... فأوقده الشهم ابن عاشور طاهره
وأظهر كنزاً فى حقول رحابهـا ... يواقيته براقة وجواهره

(١) تليت فى حفلة ختام السنة الدراسية بجامع الزيتونة الأعظم ١٣٦٨ .

إمام على نهج الحقيقة سائر ... هداه إلى نهج الحقيقة فاطره
أخو عزمات لاتلين لغامر ... ورب مزايا ليس تفنى مآثره
ومن ينكر المعروف بعد انتشاره ... ويجحد إلا ضيق الفكر خائره
فلا يأمنوا صرف الزمان فإنه ... على الظالم الباغى تدور دوائره
ولا يستوى غمر خلى فؤاده ... وحبر جليل قائم الليل ساهره
فحيا العلا وجها منيرا مباركا ... قد استحكمت أنظاره وبصائره
ولا زال فياض المناقب زاخرا ... بجيش بتيار المحامد زاخره
ويضرم فى حساده كل جذوة ... وتصدمهم سطواته وبوادره
ويسمو برضوان المليك وشعبه ... وتقدمه راياته وعساكره

عشيرة الحق[1]

عزة الحق ، أن يقـال جهارا فارفع الصوت فى الضياء نهارا !
لا تلجلج فى الحق - ويحك ان حصحص واصدع به ، ولا تتوار !
ويقينى به تبـــدل شكا وشموخى به استحال صغارا
ولئن هنت عند نفسى ، فانى عند غيرى أذل دارا وجارا
وأقل الورى ، وأبخس حظا وأشـد الرجال خزيا وعارا

* * *

أيها الباذرون فى خـلد النشء بذور العـلى البدارا ، البدارا
طهروا الحقل بالتعهد كى تجـنوا كما تشتهون تلك الثمـارا
يا أساة النفوس ، قد أعضل الداء ولم نـكتشف له أسرارا
ضل يفشو دفينة ، وأشد الـسداء فتـكا ما أعجز الأبصارا
عرف المجرمون من أين يؤتى الشعب ، واستنبطوا لذاك ابتكارا
بعـد ما استعمروا البـلاد جميعا أنشأوا فى عقولنا استعمارا
يوسعون النفوس مسخا وتشويها ، فتنساب فى الضلال انحدارا
حار فى أمرها الطبيب ولم يعرف لإيراد سقمهما إصدارا
جعلوا عندها القواعد والأسباب ضدا ، فاخطأت اقدارا
فقدت ذاتهـا ، وعاشت كظل تحت أقدام غيرها حيث سارا
فى مهم الأمور ، فى تافه الأشياء تحـكى وتقتفى الآثارا
مالهـا مذهب يراد سوى الدعـوى ، ففى نشر مينها تتبارى
أسفا ليس ينقضى ودموعا يالقومى ، على الشباب غزارا

---

(١) تليت فى حفلة افتتاح موسم معهد البحوث الإسلامية بنادى الجمعية الخلدونية .

أيها الباذرون فى خلد النشء بذر العلى آبدار آبدارا
أجمعوا حول ذلك المنبر العالى شبابا منضدا مختارا
فيه من نخوة العروبة بأس وطموح ، وهمة لاتجارى
بأبى أفتديهم وبأمى وبأمجادهم اتيه افتخارا
قبسوا من سناء زيتونة الله شعاعا يهديهم ومنارا
هم لعمرى عشيرة الحق إن أعرض أهل الطاغوت عنه ازورارا
ههنا تحت راية العلم والفصحى ودين الهدى دليل الحيارى
وهو سر الحياة فالتمسوا بالعزم من كهربائه تيارا
أكبر النائبات يصغر فى الغرم إذا كانت النفوس كبارا . .

الى الشرق فانظر ! [١]

ردوا مشرع الحوض عذبا رويا   وجذوا من الروض رطبا جنيا
ردوا منهلا سائغاً ورده   سليما من النائبات نقيا
وحيوا العلا فيه واستلهموا   خبيراً بأهل المعالى دريا
هنا انبعث الأمل المرتجى   شديداً على النائبات قويا
رسا أصله فى قرار مكين   ومنكبه طال فوق الثريا
هنا رفع العلم راياته   ومد الرواق الظليل السنيا
وأجلى الغياهب عن أفقنا   وذاد عند الفكر جهلا وغيا
هنا صرخة الحق جبارة   قد انطلقت منه تدوى دويا
هنا حام روح ابن خلدون كى   يبارك هذا الشباب الزكيا

* * *

مه إنما الأمر جد ، فلا   تغروا بآل يلوح وضيا
أرى لامعا خلبا برقه   وإن زخرفوا فيه قولا طليا
أرى صايد الغرب يدنى لنا   من الطعم لوناً لذيذاً شهيا
يلاعب فينا حلوم الصغار   ويخدع منا الضعيف الغبيا
فيا ويحنا إن وثقنا به   وإما اتخذنا عدوا وليا
وإما وقفنا بأعتابه   نطالب بالحق فظاً غويا
نعيد الذى قال فى جهره   وننسى الذى فى الطوايا خبيا
ونلبس من رأيه ملبسا   فيبدو علينا غريبا زريا
فيا طالب الشمس من غربها   لعمرى ، لقد جئت شيئا فريا
إلى الشرق فانظر ، وخذ سمته   وناول بنى العم ودا سخيا

---

(١) تليت فى افتتاح معهد البحوث الإسلامية بالخلدونية .

إلى مهبط الرسل أجدادنا — الألى علموا الكون طفلا صبيا
وما الغرب فى كل ما يدرى — من المجد والفخر ، إلا دعيا
وما كان فى علمه مثلنا — وفى فنه ملهما عبقريا
ولكن أتيحت له فرصة — فاتى لها طامعا ونيا
فيأيهذا الشباب الطمو — ح سر وانطلق للمعالى مضيا
ثناء لكم ، واحتفاء بكم — يفوقان عطرا ومسكا شذيا

حنين النـاى

بقلم الأستاذ محمود أبو رقيبة

في حنين «الناي» المردد ، آ هاته تبكي بأدمع المزموم
اسمع الأنة الحزينـة تجتا ح ضلوعا لصدري المهموم
اسمع الزفرة الـكئيبة للأشـ ـواق تدوي بقلبي المكلوم
أسمع الحب . باكياً . ناعياً . جنا ت وصل . بعهدنا المقصوم
اسمع الـكون نائحا . وهو يلقي همه ـ في الظلام ـ فوق همومي

* * *

وأرى في السما . غيما كثيفا يتجلى على كثيف غيومي
وأرى للضباب ظلا . قد احلو لك . حتى غطى بقايا نجومي
وأرى في الندى دموعا . وفي المز ن دموعا . وفي كئوس نديمي
فتعج الذكرى بقلبي . ويبد و لعيوني طيف الوداد القديم
وأرى «الناي» وهو من قصبات عاصفا يبتغي حصاد هشيمي

* * *

أيها «الناي» هل يجيء زمان فيه أنسى . لدى النعيم جحيمي ؟
فألاقيك مسعدا . يسكب الأحـ ـلام تختال في ظلال الكروم
وأرى فيك صدحة من وراء الـ ـخلد . وافت على جناح النسيم
فأغذي بك الفؤاد . وانسى ما مضى من لواعجي وكلومي
وأرى فيك ـ والحبيب بقربي نشوة السحر . حول كاس النعيم

عبد الرزاق كرباكة

قيثارتى...

قيثارتى ردى صدى تلحينى — وابكى معى ذكرى هوى مطعون
جازفت فيه بعزة وحصانة — ورضيت منه بذلة وبهون
وقنعت من نعمى الشباب بأنسه — وصرفت عن صفو الحياة شؤونى
فجرعت منه الصاب لا عن عزة — تقسو . ولا عن هزة تعرونى
فى غشية أخذت على مصائبى — فى نشوة آست على شجونى
ألهبت نفسى للهوى اشعاعة — فى هيكل التعذيب حيث محونى
وحرقت من روحى البخور لقدسه — فى جمرة الوجد التى تكوينى
فأنا له هذا الهوى . ولا مره — رغم الجوى . فى غبطة الممنون
إن التى أوحت به فى سحرها — لصبابتى روحى ونور عيونى
إن هى فى جلى حياتى - دائماً - — إلا الدم الغالى الذى يحيينى

* * *

ريحانتى فيم جفاؤك ياترى — بعد الصفا بعد الوفا . تجفونى ؟
الخائنون أظنهم عبثوا بنا — يالعنـــة لخؤونة وخئون
أما وقد صدقت ماكذبوا ، فما — هى حيلتى بل ما الذى يغنينى ؟
قارفت فى حبيك كل محرج — وقحمت فى واديك كل مهين
وصنعت كل عجيبة . حتى إذا — أنهيتها ، جد العنا من دونى
لكن ثقى — ريحانتى — إنى إلى — هذا الهوى بحقيقتى ويقينى
وأنا أنا إما هوى قدسته — أحضى به . أو عفة تكفينى

أقسمت بعدك لن أحب وها أنا حتى النهاية حافظ ليميني
سأذود عن محى هـواك بكل ما وسعت حياة تعاسة وفتون
فإذا تناهت . فالحياة وطيبها تفديه من حب حفظت طعين
وهناك صاحبتي أقول ، لك الهنا بضحيتي . ولى الهنا بمنوني ،
فإذا التقينا بعدها عند السما حيث الملائك حيث حور العين
سأضمها قيثارتي متغنيا أشدو بذكر هواك في تلحيني

كان زمـــان

أين تلك الحيـاة ياعهد أنسى — أين ذاك النعيم ، يغدو ويمسى ؟
يوم كنـا على ولاء وحب — نتساقى الغرام كأسا بكأس !
ننهب الصفو . فى غرور ولهو — ونجارى الفؤاد . فى كل هجس
لم نشوش إيلافنا بنظام . . — لم نقيد سير الشباب بطقس . .
هكذا . حسبما المشيئة توحى — فعلى وحيها نسير ونرمى !
حادثى نشأة شبينا براء — من خداع الدنا ملائك قدس !
نظرة هى أشعلت فى فؤادينا — غراما . لجاءة دون مرس !
فإذا هى صبة ذات وجد ! — وإذا بى وحبها ملء نفسى !
لاتسل عن شجونها وهواها . . — لاتسل عن صبابتى وحسى . .
فنيت فى جمالها نزعاتى — وتفانى فى حبها كل حسى
فى « جنون » أحببتها ! وترانى — فى رضاها فعلا أجود برأسى !
وعليها عقدت إكليل روحى — ولديها نهلت لذة أنسى
هكذا والهوى . يسير حثيثا — فى اتقاد وفى اشتداد وبأس
ومـلاك الصفا يرف جميلا — عن غرام خلا عن كل رجس
يبعث الدهر ناقما مستغيظا — فى هوانا بروح نكر ووكس
فتثور الأشقاء . ثمت ينمو — بيننا الخلف . فى غلو ونحس
فإذا بالغرام يمسى جفاء . . — وإذا بى أجفو حبيبة أمس
رحم الله صبوة وهناء — وإلى الله بث حزنى ويأسى !

نشأة العلم

فى ذمام الله سيروا ظافرين نشأة العلم وخير المرسلين

وادخلوه أرض باريس وما هى إلا معرض للعالمين

حضرت فيها أعاجيب الدنا واستقرت عندها نجب القرون

لبست من عصرها ما أخرج العصر من آيات بدع وفنون

وسعت كل وضيع وسرى ومشى الباطل فيها واليقين

هى إن شئتم ضلال للنهى وهى إن شئتم هدى للمهتدين

كعبة العلم وطلاب العلا ومجال البغى والمستهترين

فهنا للعلم بيت حافل وهنا للهو ماخور مهين

تلك باريس على علاتها أيها النشؤ الألى تعتزمون

فاذكروا أما عبرتم نهجها واقتبلتم ذلك النور المبين

أذكروا الشعب الذى أوفدكم واذكروا الآمال فيكم والظنون

اذكروا الشعب الذى غادرتموا منهب الوحدات فى ذل وهون

واذكروا أهلا به فارقتموا يرقبون الفوز حينا بعد حين

واذكروا أرض جدود نزعت بيد العلم وأيدى العاملين

واذكروا آثار آباء مضوا أصبحت حلا لكل الحافرين

واذكروا عادات سوء حكمت بيننا الكبار والمستضعفين

واذكروا ما شئتم عن أمة سادها الجهل وأعمتها الأفون

أنتم آمالها ما أملت أنتم ملجأها العالى الحصين

هى ترجو اليوم فى بعثتكم ذلك الآسى من الداء الدفين

* * *

يا شباب اليوم هل أنتم غدا طالعوا التجديد بين المصلحين

فنرى المدره منكم ونرى فيكم الهنداس والآسى الزكين

ونرى الباحث والشاعر والا   ختصاصى والرياضى الفطين
ونرى الغاب وقـد أنبته   جنة أبناؤنا مستبسلين
ونرى الافن وعادات الردى   والهوى قد أصبحت فى الغابرين
ذلك الظن بكم شبابنا   أيكون الظن فيكم كاليقين
علم الله وأنتم نشؤنا فـ   إن كل الخير عند الناشئين

* * *

سدد الله خطاكم فاقصدوا   مهبط العلم ومغشى النابغين
واحزموا واسعوا وجدوا واعملوا   فى اتحاد ثم عودوا ظافرين

محمد المنصف المنستيرى

نريد برنامجا شاملا واضحاً

لحل مشكلة إقرار الأهالى بالأرض

كلما وضعت مسألة إقرار الأهالى بالأرض إلا ورأينا الأنظار تتجه حالا إلى الأحباس الخاصة بعد أن انتهت الأحباس العامة وأقيم عليها صرح الاستعمار الكبير منه والصغير، أما أملاك الدولة وأراضى العروش والأراضى الاشتراكية وأملاك الشركات الكبيرة أو الاستعمار الكبير كما يسمونه فلا يأتى التفكير فيها إلا بعد انتهاء من محاولة امتلاك الأوقاف الخاصة بمختلف الطرق .

تقدمت حركة اليوم فى إقرار الأهالى بالأرض حركات أخرى قبلها وربما كان ليس من اللائق أن نتساءل الآن عن النتائج التى حصلت من توزيع الأراضى على قدماء العساكر وعلى تلامذة المدرسة الفلاحية وهل نفذت الأوامر التى صدرت على عهد المقيم السابق م . بيروطون بالنسبة لمسألة الغابات وتسجيل الأملاك الغير المسجلة بصورة مستعجلة لإقرار الملكية .

إن مشكلة الأراضى لا تزال على حالها وهم يريدونها أن تبقى كذلك وكلما مر مشروع على كهنة السياسة البيروقراطية أصابه المسخ فى الصميم ولم يعد هناك رجاء فى فائدة تصدر منه فاللجنة التى تشكلت أخيراً لإقرار الاهالى بالأرض لم تشأ أن تصدر برنامجا لها مسطراً يتصور منه الإنسان عملها ومدى ما تسعى إليه فى هذا الميدان من إصلاح وانتاج ولعلها لا تريد أن تتقيد

ولا أن تؤخذ عليها حجة بل تريد أن تبقى لنفسها حرية المد والجزر فيما عهد إليها بتنفيذه . ألا ترى أننا بينما كنا ننتظر أن توزع قطعا من أملاك الدولة على الذين أفقدتهم الأزمات أراضيهم فتقرهم بها وتعينهم على إحيائها ثم تحدد الملكية الخاصة فى أراضى للعروش والأراضى الاشتراكية وتنشط أصحاب الممتلكات الحديثة على الأسلوب الخاص ليقوموا بإحياء الأرض وتعميرها بدلا من ذلك رأينا العمل فى وقف بنت الجديدى رأينا عينة أخرى فى جولة وقع القيام بها فى الوطن القبلى وقع فيها إرشاد فلاحى بلدة بنى خلاد لزراعة الخضر . وفى السواسى وقع التوسط لإحداث مغارسات فى الأملاك الخاصة بدلا من تنشيط نفس أصحابها على غراستها .

ألسنا يوما بجزوى ويوما بالعقيق ؟ وأين مسألة حفر الآبار وربط الأودية وغرس غير الزياتين من الأشجار المثمرة فى الأرض القليلة الإنتاج لنوع الحبوب .

هناك اليوم مسألة أراضى شركة « فرانس أفريكان » الكائنة بالنفيضة . فامتلاك هذه الشركة لتلك المساحات الشاسعة من الأرض قد كون ضحية مروعة للاستعمار وهو بقاء عرش أولاد سعيد ومن إليهم بدون أرض يستقرون بها ويستثمرونها . والحالة الأسيفة التى هم عليها الآن تستدعى المبادرة بالعناية بهم وأخذ الأرض من هذه الشركة وإقرارهم بها .

ولعل الشركة أحست بهذا فأعلنت أنها بصدد جعل ١٢٠٠٠ هكتارا من الأرض تحت طلب أهالى الجهة لانزالها لهم أو تسليمها بطريق المغارسة .

ولقد تدخل بعض نواب الحجرة الفلاحية تدخلا لفائدة الشركة لا لفائدة الأهالى وللشركة سلطة ونفوذ على كثيرين من الشخصيات فحاولوا إقرار ما عزمت عليه تلك الشركة من مباشرتها لعمل التوزيع رأسا مع الأهالى .

والرأى السديد أن الحكومة تأخذ من الشركة وتتولى هى إقرار السكان فى أراضيهم ويمكننا أن نلاحظ أن ذلك المقدار الذى جعلته تحت الطلب

لتلك الغاية هو مقدار زهيد بالنسبة لأكثر من ثلاثين ألفا من السكان الذين يتكون منهم عرش أولاد سعيد وأتباعهم الذين هم اليوم ضحية تضخم الاستعمار فى جهتهم بصورة أصبحوا معها لا يملكون شيئاً وعجزوا أخيرا حتى عن الإكتراء وتأجير المراعى لارتفاع الأثمان وقساوة الشروط التى تفرضها هذه الشركة على المتسوغين، والتى تقرأ فى مطبوعاتها المعدة لعقود التسويغ. فهل يمكننا أن نشاهد تنفيذ سياسة إقرار التونسيين بأرضهم بارزة فى هذا الميدان الفسيح بصورة ينمحى بها ذلك الأثر المؤلم فى ٣٠٠٠٠ من السكان أصبحوا أيضاً بسبب الفاقة عرضة لخطر الجوع والعراء . ومن أولى بالانتفاع بهذه السياسة منهم ؟

على أننا نخشى أن يكون هذا المشروع مثل غيره من المشاريع التى قيل عنها إنها أعدت لنفع الأهالى وغمرتنا — قبل أن نراها تبرز للوجود — دعاية واسعة عن الإحسان والكرم والعناية بأهل البلاد وانتشالهم مما كانوا فيه من بؤس . فإذا الواقع الملموس يكشف للعيان أن غنمه كان للفرنسيين وغرمه على الأهالى المساكين .

جريدة « الارادة » عدد ٧ السنة الخامسة ٣٠ المحرم ١٣٥٧

الطاهر صفر

أسلوب الطاعة العمياء

ومخالفته لفقه الدين الإسلامى

نشرت جريدة الإرادة بعدده ٢٥ شوال تحت عنوان : «أحزاب الكفاح» مقالا جاء فيه « إن الأحزاب السياسية التى تأخذ على عواتقها تغيير حياة الأمم والتحكم فى مصائرها يجب أن تكون بين أفرادها وحدة قلبية قوامها الثقة والحب الصادق إلى حد المفاداة والطاعة العمياء التى تستمع ولا تبصر »

ونحن وإن وافقنا على تبادل الثقة والحب الصادق بين الأفراد المنتمين لحزب واحد فإننا لا نوافق ولا يمكن لنا الموافقة على الطاعة العمياء بالصفة المبينة بجريدة الإرادة ــ خصوصاً وأن هاته الطاعة التى يذكرونها لا تقبل التبادل بين الأفراد مثل الثقة والحب ، لا يمكن أن تكون قاعدة الأحزاب السياسية المؤسسة على حرية الانتخاب السنوى ــ وخصوصاً الأحزاب التى تطلب من الحكومات المتغلبة حرية الكتابة والقول والتصريح بالرأى فكيف يتأتى لهاته المؤسسات وهى تطالب بالحرية أن تشترط على أعضائها الطاعة العمياء التى تستمع ولا تبصر ، والانقياد إلى ما تصدره القادة من أوامر من دون انتقادها وعرضها على محك الرأى. ولو كانت الأحزاب السياسية كذلك فما معنى المؤتمرات فيها والشعب والانتخابات السنوية ، وهل هاته الأنظمة ليست إلا مجعولة فى الحقيقة لتسمح لأعضائها بانتقاد عمل القادة وسحبهم الثقة الممنوحة إياهم فى حين أسامتهم أو تجديد تلك الثقة لهم عند ثبوت

صلاحهم، وهل النظام العسكرى الذى يريدون المقابلة بينه وبين الأحزاب السياسية يتضمن انتخابا ومؤتمرات مثل تلك الأحزاب ؟ كلا فالمقابلة إذن فى غير طريقها وغير منتجة . فالمؤسسات السياسية هى التى تربى الشعب فى النقد النزيه الخالص من أدران الأغراض الشخصية، وتمرنه على المناقشة الحرة التى تتحاكك بواسطتها الآراء والقرائح فينتج من تحاككها ظهور الحقيقة وسقوط الأباطيل . ولولا المناقشة الحرة لما اقتدرت الأمم على سن القوانين والبرامج الصالحة وإصلاح ذات البين وتوحيد الكلمة حول الغاية السامية التى يجب على كل وطنى مخلص لبلاده أن يسعى إليها .

لذلك نعجب و نعجب كثيراً لما نرى جريدة الإرادة تجعل الطاعة العمياء قاعدة الأعمال السياسية وتتمثل بالدين الإسلامى كأن الإسلام أتى بهاته القاعدة الشنعاء ، مع أن ديننا الحنيف قد أسس على دعائم المشاورة وحرية النقد فكل من يفسح الطرف فى تعاليمه يجدها مفعمة بالحث على الاستشارة ونقد الأعمال بحرية تامة . فآيات القرآن الكريم وحديث نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعمله وعمل الصحابة مثل سيدنا عمر رضى الله عنه كل ذلك يثبت فى وضوح تام أن ديننا الإسلامى بنيت دعائمه على قواعد الحرية وإبداء الرأى والمناقشة الصريحة لا على قاعدة الطاعة العمياء التى تستمع ولا تبصر وذلك هو ما يعتبر حقيقة فخر الاسلام وميزته التى يمتاز بها عن غيره من الأديان مثل النصرانية بنظامها الايكليروسى المرتكز على الاستبداد وما نشأ عن ذلك النظام من ظلم ومفاسد وطغيان واستعمال للسلطة الدينية لفائدة الأغراض الشخصية وذلك هو الأمر الذى قضى على النصرانية بأوربا قضاء مبرما أما الإسلام فهو برىء من جميع ذلك لأنه دين الحرية الشخصية والعمومية، دين النقد والمناقشة وتحاكك الآراء — اللهم إلا فيما هو منزل من السماء بطريق الوحى فذلك أمر إلهى تسلط على عقول البشر وكل ما سوى ذلك من أعمال بشرية فقابل للمناقشة والنقد وأجل مثال هو مثال نبينا سيد الأولين والآخرين إذ كان يستشير أصحابه فيقولون له هل هو رأى أو وحى

يارسول الله؟ فإذا قال إنه رأى لا وحى بسطوا له آراءهم فقبل منهم ما يراه صالحا، وكثيراً مايرجع لرأى أصحابه لمايعلمه من إخلاصهم. فهل هذا هو الطاعة العمياء التى تذكر جريدة الإرادة أن الإسلام يرتكز عليها ويجعلها قاعدة الأعمال.

فلننصح لمحرر الإرادة أن يترك للدين ميزاته السامية ولا يلصق به تهما شنعاء بقصد الاستشهاد به على أسلوبه السياسى الذى لا يتفق مع العقل ولا مع النقل، ولا يمكن أن يتفق إلا مع العاطفة الاستبدادية وفكرة التفوق والتسلط. وإن شاء بعد ذلك أن يتشبه بالاسماعيلية وزعيمها فله ذلك وله أن يقول ما شاء أنه يرغب من الناس طاعته إلى درجة أنهم يرمون بأنفسهم من شاهق إذا أمرهم بذلك فيموتون من دون معرفة الغاية. أما إنه نسب إلى الدين الحنيف أمثال هاته المخازى مع علمه فى يقين أن الإسلام يخالفه تماماً فيما يدعيه فليس أحد من المسلمين يوافقه على هذا الرأى السقيم بل من واجب كل أحد أن يعلن بأن الدين يناقض تمام المناقضة ما قرره محرر الإرادة فيما يتعلق بالطاعة العمياء.

جريدة « الزهرة » العدد ٨٠٢٢ (٢٩ شوال ١٣٥٢)

الزيتونة

خطاب الحضرة الشامخة العلية

وبعد فيا حضرات الشيوخ الجلة ، وحماة الملة ، ويا أيها الأبناء الأعزاء إنا ليسرنا غاية السرور أن نحل بينكم في هذا البيت العتيق ، هذا البيت المؤسس على التقوى ، الذى لم يزل منذ أقدم الأجيال مستمرا على تخريج فطاحل الرجال ، الحائز فضل الأسبقية على سائر المعاهد الأفريقية . يسرنا أن نشهد به حفلكم المبارك بانتهاء دور امتحانه وفوز الظافرين بقصب السبق فى ميدانه ، ونرى رأى العين نتائج مجهوداتكم السارة وما بذله جناب شيخ الجامع من حسن المساعى خصوصا فى هذه السنة التى لم تكن كسابقاتها فى الهدو وراحة البال، وإن الجهود العلمية فيها ينبغى أن تقدر قدرها لما غالبت من أهوال وهى دليل ناطق ، وبرهان صادق ، على ما يبذله شيوخ هذا المعهد وفروعه داخل العاصمة وخارجها من جهود قيمة لنفع أبنائهم الروحيين وإعدادهم لحلبات الامتحان أحسن إعداد . وليس ذلك بغريب منهم وهم يعلمون حق العلم أنهم قد اؤتمنوا على تغذية أرواحهم وإنارة أذهانهم وما سيكون لهم من أثر فى الحياة ، وإن إدراككم أيها الشيوخ الفضلاء لعظمة مهمتكم ودقيق مسئوليتها أمام الله والناس مما يكفل لكم التوفيق والسير فى خير طريق .

خطاب فضيلة الأستاذ الأكبر

إلى الله أرفع أطيب المحامد وأعلاها. على أن رفع قيمة العلم وأعلاها. وما منح أهله من النعم وأولاها . وإلى رسوله محمد أتوجه بأفضل الصلوات وأملاها المرسل بشريعة مر عليها الدهر فما أبلاها . وزادها مر الليالى جدة فأوضحها وأجلاها . وآله وصحبه وكل من اقتدى بتلك الفئة وتلاها . وانقذ الأمة من كل ماغرها ودلاها .

أما بعد فإن ماتقرر عند العقلاء من فضيلة العلم ونباهة محله . والشرف الباذخ لحملته وأهله . يغنى عن الإطناب فى إبلاغه فقد وعاه السامعون . وحسبنا آية وما يعقلها إلا العالمون .

وإن شرف الأشياء يقتضى صرف الاهتمام إليها وداوم العناية بحفظها ونمائها فلذلك كان من سعادة الأمم أن تنصرف عناية قادتها وكبرائها إلى البحث عن وسائل ترقية العلوم وتهذيب أسلوب التعليم وتوفير عدد المتعلمين والترغيب فى الإقبال على طلب العلم .

ولم تزل همم ذوى الكمال منصرفة إلى تيسير سبيله . وإذاقة الظامىء إليه صافى سلسبيله . بشتى وسائل التيسير من تقريب المسائل وتوفير الأوقات وإراحة البال من المشوشات ونقض السدود الحائلة دون السير فى ذلك السبيل وتربية الشراهة على التحصيل .

وبمقدار اعتناء الأمة بالتدبير والتفكير فى هذه الوسائل وتقريبها لأبنائها

يتوسم المتوسمون منها تأهلها للإرتقاء وتشام غيوث من برق عزمها إذا لاح متألقاً .

ولم يكن حظ الأمة التونسية فى هذا المضمار من بين الأمم منقوصا فقد سايرت فى ذلك تطور العصور تمديداً وإكمالا . ونشطت فى أحوال أورثت تكاسلا أو إقبالا .

فمعهدها هذا الجليل بأصله وفروعه ومدارسه المبثوثة فى الحاضرة والايالة قد كان ميدانا لهذا السباق . وقديما جرت فيه جياده جرى انتظام وانتساق . فطلعت فى أفقه شموس وأهلة . وفى شواهد التاريخ الإسلامى على ذلك كثير من الأدلة ، إذ لم يزل مأوى تارز إليه علوم الشريعة وعلوم اللغة العربية فكان وجهة الأولين لحفظ قوانين الشريعة أصولا وأحكاما . وأغذاء حياة العربية كتابة وكلاما . من أجل ذلك كان النصح لهذا المعهد حقا على كل مسلم لأنه يجمع مواضع النصيحة التى تضمنها قول النبى صلى الله عليه وسلم . « الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعلمائهم » .

وملاك النصح له هو النصح لمتعلميه لأن المتعلم هو القطب الذى تدور حوله حركة التعليم ، والنصح له هو جامع غايات النظم التعليمية وإن نصح المتعلمين فى تزويد افهامهم من العلم الصحيح وذلك المقدار العلمى الذى يجد العالم به سهولة العمل بمعلوماته كلما دعته حاجه إلى العمل بها فى تفكير نفسانى أو فى معاملة مع الناس أو فى تحرير أو خطابة أو شغل أو تدبير مهم أو فهم دقائق العلماء .

فالنصح للطلبة يحصل بالاستكثار من هذا النوع فى تعليمهم بحسب اختلاف مراتبه لكى يشبوا على ذلك ويتدرجوا فيه .

فعلينا أن يكون طلبة العلم فى المعهد الزيتونى علماء بالأصول الإسلامية والمعاملات الفقهية التشريعية والآداب الإسلامية والأخلاق القويمة وعلوم وآداب اللغة العربية وما يتحصل بذلك من تاريخ الأمة وتاريخ أحوال

وضعيتها بين الأمم المعاصرة لها فى سائر عصورها وتاريخ رجالها وسيرتهم .

ولم يخل هذا المعهد فى أى العصور من علوم تكمل مدارس خريجيه تكميلا يؤهلهم لمسايرة أحوال مجتمعهم. ونحن اليوم فى عصر صار فيه المجتمع الإنسانى بمنزلة ما كان يجتمع القطر الخاص وتغلغلت حاجات الأمم ومصالحها بعضها فى بعض فأصبح تقارب الثقافة بينهم ضربة لازب . وصار ما كان يعد تكملة موضوعاً فى عداد الواجب . فلذلك كله لم يغن التلميذ الزيتونى عن أن يضرب مع أمم عصره بسهم صائب. وذلك يلزمه لامحالة إلى أن يصعد فى جو الثقافة الزمنية إلى مرتقى لايقعد به عن مجاراة أرقى الأمم احاطة بدلائل الحياة السعيدة ولم يغن عن الأخذ بالنصيب الكامل مما يتناوله أمثاله من علوم التبصر فلا يعدم بصارة بأحوال العالم تبصر خريجى المعاهد الراقية وبرامج ذلك توضع على وفق المناسبة للمراتب التى يختار التلميذ الانتهاء إليها على وجه تحصل به التكملة ولا يضاع معه الأصل .

وقد وصلنا إلى غاية تحديد الدرجات للشهادات فعلينا أن نكللها بضبط البرامج الملائمة لها، وعلى هذا الاتجاه ستتوجه مناهج التعليم التى توضع للعام المقبل بمعونة الله تعالى ، وهذا لا محالة يستدعى ضبط المواد والأبواب والتآليف المقروءة والساعات المعينة لذلك وكفاءة من يوكل إليهم رعى ذلك من مدرسين وقيمين .

وهذا الضبط هو المعبر عنه بالأسلوب القويم ومرجعه إلى التفكير فى توفير المعلومات وقلة الأوقات وراحة الأذهان والدربة على العمل بالمعلومات. فإن فائدة العلم العمل ولعلنا أن نبلغ أملا من تقريب ثقافة نشأتنا وتعديل مستواها العقلى .

وقد كان الملوك الصالحون فى عصور الإسلام دائبين على بذل العناية والتأييد لجانب التعليم الإسلامى ، وكان من سعادة هذا القطر أن لم تزل عناية أمرائه تسابق همم العامة فى إخلاص النصيحة لهذا الجانب وبذل الجهد فى ترفيعه إلى أعلى المراتب .

فكان ملوك البيت الحسيني الرفيع العماد سائرين على منهج توفيق وتسديد فيما حاطوا به العلم وأهله من العناية . وشغلوا به ربوعه من التعهد والرعاية بما سجلته صحائف التاريخ للملوك المقدسين .

ثم بما يبدو اليوم من ضمائر الخير على يد وارث سرهم ومظهر فخرهم . ملكنا المعظم سيدنا محمد الأمين . فلم يزل منذ ابتداء ملكه السعيد يظهر للهيئة العلمية الزيتونية وده وانعطافه . ويذب عنها فى دفع كل ملمة ومخافة، وقد جرى هذا المعهد فى مدته شوطا بعيدا . ولم تزل الهمم العلية ترجو له من ذلك مزيداً .

فما تزال عموم الأوساط الإسلامية تبدى لنا من المعاضدة والتأييد . ما بعث الأمل إلى مدى بعيد . وبشر بالفوز فى عملنا بخير مزيد . وأوجب على أن أصرح فى هذا الجمع الجليل على لسان الزيتونيين بفائق الشكر وعظيم الامتنان لعموم الأمة التونسية وبخاصة لقادتها ومثقفيها وصحافتها وجمعياتها على ما وجهوه للهيئة العلمية فى شخصى من مظاهر الثقة والاعتبار فكان هذا الجو المستنير المختص بمعهدنا المقدس دافعاً على مواصلة الجهد فى البلاغة نحو الغايات السامية التى يرجوها له الجميع .

وهذا العام الدراسى الذى نطوى اليوم بساطه قد كان عام عزم وجهود وطموح وانكباب على البحث فى حل المشاكل والعقد التى تعترض العاملين فى سبيل الإصلاح الزيتونى . ومع ذلك فقد مر على التلامذة مروراً مراً إذ كان حلوله عقب عضوض باب الحرب فوردوا لطلب العلم وقد قلت الأزواد ورقت الثياب ولكنهم تجلدوا على ذلك وصابروا فكنت تراهم صفر الوجوه ولكنك تلقاهم إيقاظ القلوب حديدى البصائر مؤمنين بمصيرهم السعيد فى الحياتين فهم جديرون منا بالثناء والشكر وأحقاء لو خارت عزائمهم بالعذر آملين منهم أن يتلقوا العام القابل بمظاهر الفتوة فيحيي من عزائمهم ما يأخذ الكتاب بقوة .

وأنا لا أهمل تقدير سيرتهم نحونا حق قدرها من خطة التعقل والرصانة والطاعة للمقررات والتفهم للصالح العلمي مما دلني على أنهم قد استودعوني ثقتهم بأني أبذل الوسع فيما يؤول إلى إسعاد مستقبلهم جاعلا في مقدمة ذلك النظر في مدارس سكناهم وهي مشكلة عظيمة في حياة الطلبة من جهة قلتها وضعف مرافقها، وحسب السامع أن يعلم أن أكثر من نصف عدد التلاميذ يلاقون عناء قاسياً من ذلك، وأيضاً فإن نظام المدارس يرتبط بنظام التلاميذ في قرن إذ لا يستطاع ضبط أحوال التلاميذ وصونهم وتوفير راحة بالهم في مدة الطلب إلا بإبلاغ نظام المدارس الغاية التي تقتضيها أمثالها وذلك يتوقف على إصلاح الموجود وإيجاد المفقود .

وقد سددنا الجانب الأول بإيجاد دائرة خاصة تابعة للمشيخة تختص بالنظر في تنظيم شئون المدارس. وأما الجانب الثاني فأرى حقا على الأمة أن تجعل للاعتماد على نفسها الحظ الأوفر في إقامة مصالح نشأتها لذلك بادرنا بتوجيه الدعوة لنخبة من أفاضل الأمة فكونوا لهذا الغرض المهم جمعية تم تشكيلها القانوني تحت رئاسة فضيلة شيخ الإسلام الملكي الذي كان من قبل باذر نواتها. وستبتدىء هذه الجمعية انجاز برنامجها الرامي إلى إيجاد بناية خاصة ضخمة تأوي أكثرية من التلامذة في نظام محكم .

وقد سبق للتهمم بهذه الهمة سابقون سبق الجياد فعرض على أحد الأفاضل من أهل السخاء أنه أعد ألف ألف فرنك لبناء مدرسة على النظام الكامل . (وقد طلب منا كتم اسمه) كما فاتحني الفاضل الخير السيد علي الديماسي أنه قد اقتنى منزلا ضخما لجعله مدرسة تامة المرافق وهو بصدد تصميم مثال لإقامته . وفاتحني الفاضل الغيور السيد المختار الصالحي باستعداده لإنشاء مدرسة كاملة .

وبعد فإن إصلاح التعليم بالجامع يرتبط أشد الارتباط بالعناية بالفروع الزيتونية بالمدن الخمس من المملكة، وقد تبين لي من مشاهدة معظمها ومن المراجعة والدراسة للأوراق المتبادلة بيننا وبين من لهم النظر في سيرها ما فتح

عين الآمل بأن تصير فى مستقبل قريب منابع علم تمد البحر الأعظم – بحر جامع الزيتونة بما يزيد فضيه. ويرفع مقياسه وأخص بالثناء فرع صفاقس الذى أصبح برنامج المرتبة الأخيرة من التعليم فيه تاماً ، وأعد من تلامذته فى هذه السنة زهاء الخمسين لاقتحام امتحان شهادة الأهلية .

ووراء هذه العناية بالفروع تتوجه العناية إلى التعليم الابتدائى الذى يحضر فيه التلامذة لولوج الفروع الزيتونية فإن فى ذلك عقدة عسيرة وهى تفاوت أحوال التلامذة الذين يزجون أنفسهم فى الوسط التعليمى باعتبار مقادير ما هيأوه من التعليم الإبتدائى، إذ يوجد بينهم بون بعيد فى مراتب التأهل، فمنهم المحضرون فى المدارس القرآنية ومنهم الوافدون من المدارس الرسمية ومنهم من زاول التعليم فى الكتاتيب أو الزوايا ومنهم من لم يسبق له من التعليم إلا حظ زهيد ، ثم يحضر هؤلاء كلهم فى ضعيد إلى السنة الأولى من المرتبة الأخيرة الزيتونية فيصير ذلك التفاوت مثار مشقة للذين يجرون اختبارهم . ثم لمدرسيهم ولرفقائهم فى الدروس .

ثم للجان الاختبار للتنقل فى السنوات وقد دلتنا الشواهد أن المدارس القرآنية هى أفضل مهيء للتعليم الزيتونى وإمداده بالتلامذة الأكفاء وسنعد لهذه العقدة علاج حلها فى مفتتح السنة الدراسية بمعونة الله تعالى .

وأنا حين أعرض هذا البرنامج الذى أراه خير كفيل لتحقيق آمالنا فى الإصلاح يخامرنى اليقين بأنى واجد من أبنائى السادة شيوخ التدريس ما أعرف منهم من تسهيل سبل هذا المهم ما يبذلون فى إعانتنا من سامى الهمم من التفاف حول المشيخة ومعونة على مقرراتها ومصارحتهم بما يتوسمون منه صلاحا للعلم وذويه ولقيامهم بالمهام العلمية التى تسند اليهم بفرط رغبة وعمل بعزيمة وقد ظهرت آثار المرامى الصائبة والعزائم المتينة فى جميع أركان الجهاز التعليمى واضحة للمبصرين وستكون بالغة اسماع الواعين فأشكرهم على ما قاموا به من بث العلوم فكدوا أذهانهم وضايقوا أوقاتهم ليجتنوا لأبنائهم جنى شافياً .ويسيغوهم من مستنبطات أفهامهم نيراً صافياً .

وأخص بالشكر والثناء جناب السادة العلماء رؤساء لجان الامتحان والسادة المشايخ أعضاءها على ما أتوه من الحزم والأعمال فى مدة قد اندرج معظمها هذا العام فى زمن الراحة الصيفية .

فإليكم أيها الأساتذة الكرام أوجه دعوتى للازدياد من التكاتف للنهوض بما يحق لهذا المعهد المقدس الذى فيه ربت عقولنا وتقوت سواعد أعمالنا وانفتحت لنا منه حقائق الأشياء فلنزدد من الانتطاق لخدمته وصرف الهمة لإيصال أبنائكم الروحيين إلى المستوى الذى ترضونه لهم فتعملوا فى ذلك عمل من طب لمن حب .

فهرس

المحاضرات

ملحق

النصوص الأدبية